هزيمة يونيو
حقائق وأسرار

من النكسة حتى حرب الاستنزاف

بقلم
طه المجدوب

•

دار الهلال

إهـــداء

● إلى شهداء مصر

.. الذين جادوا بأرواحهم دفاعا عن وطنهم وقوميتهم ، طوال ربع قرن من الصراع الدامي .. والذين غسلوا بدمائهم في اكتوبر العظيم .. عار هزيمة كانوا ضحاياها فى يونية ١٩٦٧ .

● الى كل رجل من رجال قواتنا المسلحة .. ساهم بجهده وعرقه ودمه فى الذود عن تراب مصر .. وفى إسترداد كرامتها .

● إلى كل رجل وكل إمرأة من شعب مصر .. مدوا يداً مشجعة أو حانية لرجال القوات المسلحة وهم يعانون من سنوات المرارة والظلام التى عاشوها فى أعقاب يونية ١٩٦٧ .

● إلى كل هؤلاء الذين حافظوا على رءوسهم مرفوعة .. رغم كل التحديات .. صامدين أمام أقسى الظروف .. مواجهين الموت لكى يخلقوا الحياة .. مقتحمين الأهوال ، لكى يعيدوا رايات مصر مرفرفة فوق روابى سيناء .

● اليهم جميعا ..

وفاءً لكل ما قدموه ..

وتقديراً لكل ما أنجزوه ..

وتعظيما لكل ما بذلوه ..

تقـــديم

فى حياة الأمم أيام بارزة لا تقاس بالوحدات العادية للزمن .. ولكنها تقدر وتقيّم بما حققته من نتائج وما تركته من بصمات عميقة وما فرضته من تطورات واضحة فى حياة الشعوب .. إنها الأيام التى تخوض فيها الشعوب تجاربها الحاسمة فى لحظة تاريخية معينة .. وقد تنتهى التجربة بالاخفاق أو تنتهى بالنجاح .. وقد تتحقق فيها الهزيمة أو يتحقق فيها النصر .. وكلاهما ، الهزيمة والنصر تجربة ، تترك فى النفوس آثاراً عميقة وإن تباينت هذه الآثار ، وتطبع السلوك بأنماط جديدة من أنماط الحياة . إن آمال الشعوب تنمو إذا ما آمنت بأن غدها لابد أن يكون افضل من يومها .. فتزدهر أيامها وتحقق أحلامها بالعرق والكفاح دائما .. وبالدم أحيانا كثيرة ..

★ ★ ★

فخلال فترة تجاوزت قليلا عشرين عاما من عمر الثورة المصرية وتاريخها المعاصر بين عامى ١٩٥٢ ، ١٩٧٣ .. تعرضت مصر لثلاث تجارب عسكرية فريدة ومتنوعة الأبعاد والنتائج وذلك فى أعوام ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، ١٩٧٣ .. وقد أدخلت هذه التجارب الصعبة مصر فى دروب طويلة متشابكة ومعقدة سلكتها بفدائية عالية وعزيمة لا تكل فى سبيل الحرية والأمن والاستقرار ووحدة الامة العربية .

فى التجربة الأولى عام ١٩٥٦ ، عانت مصر أشد المعاناة من مؤامرة دولية كبرى شاركت فيها ثلاث دول ـ بينها دولتان من الدول الكبرى ـ شنت حربا عدائية ضد مصر لأنها إجترأت ومارست حقها الشرعى فى تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦ .

وأدت التجربة الثانية الى نكسة سياسية وهزيمة عسكرية مريرة بسبب آخر مشابه ، عندما هاجمت إسرائيل مصر هجوما مدبراً ومبيتا ، لأنها أرادت أن تمارس سيادتها على أرضها ومياهها الاقليمية ، فقامت باغلاق خليج العقبة أمام الملاحة الاسرائيلية فى مايو عام ١٩٦٧ .

ثم جاءت التجربة الثالثة وكانت مصر قد وعت الدرس تماماً ، ولذلك إنتصرت

مصر وست علواً كبيراً ، بعد أن حشدت طاقاتها الأصيلة فأزالت آثار هزيمتها وتجاوزتها ، وحققت أروع إنتصاراتها فى اكتوبر ١٩٧٣ . فى هذه الحرب المجيدة قضت مصر على أسطورة التفوق الاسرائيلى .. وهدمت نظرية الأمن التوسعية التى إعتنقتها إسرائيل ربع قرن من الزمان .. ونجحت فى بتر "ذراعها الطويلة" ونسف تحصيناتها المنيعة ، وإختراق "حدودها الآمنة" . تلك هى الحرب التى تجاوزت آثارها الحدود المباشرة لقضيتنا ، فغيرت من أوضاع المنطقة بل واسندت آثارها إلى الأوضاع العالمية ذاتها .

وليس ثمة شك فى أن حرب العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ ، قد تركت بصماتها الايجابية والسلبية على حياتنا وأسلوب تفكيرنا .. كما أدت نكسة يونية ١٩٦٧ إلى قلب ميزان حياتنا وتصحيح مسارها حين دفعتنا نتائجها دفعا نحو الطريق الصحيح .. فكان لنا نصر اكتوبر العظيم .. وإذا كانت نتائج حرب ١٩٥٦ قد عكست خللا خطيراً على أسلوب تناولنا لمشكلات حياتنا وشعبنا وعلى إستخدامنا للمعايير السليمة فى رسم سياستنا الخارجية وعلاقتنا القومية مع الدول العربية وعلاقتنا مع القوى العالمية .. فان هزيمة يونية ١٩٦٧ قد علمتنا الكثير ، فقد كان درسها شديد القسوة .. ومن خلال هذه القسوة تعلمنا كيف نفرز من علقم الهزيمة . حلاوة النصر . ان نكسة يونية هى صاحبة الفضل فى تحقيق نصر أكتوبر ، ولولاها ما حدث هذا النصر .. تلك حقيقة يجب علينا أن ندركها من البداية ، وسوف نتحرك معها ونعايشها خلال رحلتنا معاً بين الهزيمة والنصر .. نستعرض الأسباب .. ونتناول الظروف والملابسات .. ونحلل الأبعاد والنتائج .. مشيرين الى السلبيات التى أدت إلى الهزيمة .. والى الايجابيات التى قادت الى النصر .

★ ★ ★

لقد كان هناك دائما سؤال يلح على أبناء شعب مصر ويتردد على ألسنتهم لسنوات طوال ، خاصة بعد الانجازات الرائعة التى حققها جيش مصر فى اكتوبر ١٩٧٣ . وكان هذا السؤال هو :

● لماذا هُزمنا هذه الهزيمة المفجعة فى عام ١٩٦٧ .. بينما أمكننا أن ننجز هذا الانجاز الرائع فى اكتوبر ١٩٧٣ ؟

● كيف أمكن لقواتنا المسلحة ـ بعد أن شربت كأساً مريرة فى عام ١٩٦٧ ـ أن تبتلع مرارة هذه الكأس ، وتنفض عن نفسها غبار الهزيمة .. وأن تنهض بكل العزم والاصرار لترد عليها بنصر عظيم ، وإنجاز تحدث عنه العالم أجمع بعد ست سنوات .. جمعت بين قتال شرس وإعداد صارم .. بينما أعلنت إسرائيل بعد يونية وبكل الصلف والغرور أنها تتوقع ألا يقوم لجيش مصر قائمة ؟!

ولكن خاب ظن إسرائيل تماما وطاشت تقديراتها العشوائية . وقد ظنت وأعلنت أن شعب مصر وجيشها كليهما "جثة هامدة" .. وكان الخطأ الأساسي الذي وقعت فيه إسرائيل .. إنها أساءت التقدير .. فلم تدرك مدى أصالة هذا الشعب وعراقته .. ومدى تعلقه بأرضه وعشقه لترابها . ولم تقدر حقيقة ما يملكه هذا الشعب من قدرات كامنة وطاقات عظيمة اختزنها عبر آلاف السنين .. وهي طاقة لا حدود لها فى الله وفى النفس ..

ان هذه العوامل التى اسقطتها إسرائيل من حساباتها .. هى نفسها التى مكنت شعب مصر من أن يقف منتصب القامة مرفوع الهامة .. رغم الهزيمة .. ويقبل كل التحديات .. ويرفض كل الضغوط .

اما جيش مصر .. فقد تحمل عبء هزيمة ثقيلة ـ هو ضحيتها الأولى .. بصبر طويل وفى صمت كبير بذل الجهد والعرق والدم بسخاء متسلحا بالإيمان متجاوزاً الهزيمة .. إلى أن جاءت اللحظة الحاسمة .. لحظة الميلاد الجديد التى انتظرها وأعد لها طوال ست سنوات قاسية .. فخاض حربا شرسة .. يثأر للهزيمة ويزيل وصمة العار ويسترد الكرامة .. يقاتل عن إيمان بأن هذا قدره والتزامه . لأن بلده التى جمعت بين عراقة التاريخ وإصالة الحضارة وندرة المكان والموقع ، كُتب عليها أن تعيش فى صراع متصل لا ينقطع ضد الطامعين والمستعمرين والمغامرين .

★ ★ ★

لقد انقضت سنوات ما بعد النكسة ، ومصر لم تفكر أو تتحرك إلا فى إطار قومى أصيل ومن واقع تجربة صعبة ومريرة .. استعدت لخوضها وخططت لمواجهة نتائجها ، وتحملت مسئوليتها بشجاعة .. وهذا كله مكن جيش مصر من إنجاز مهمته التاريخية الجسيمة على خير وجه ، فى نطاق إمكانات محدودة .. ولكنها معززة بطاقات معنوية هائلة .

★ ★ ★

لقد تعرضت أحداث يونية ١٩٦٧ وما بعدها من تطورات لكثير من الجدل وقليل من الحوار والتحليل .. وتناولها كثير من الكتاب والمؤرخين كل من وجهة نظره .. كما خاض فيها عدد كبير ممن ساهموا فى هذه الأحداث من القادة العسكريين .. ولكن معظمهم إتخذ مما رواه مادة للدفاع عن النفس أو تمجيدا للذات .. مع إدعاء الصواب لنفسه ونسبة الخطأ إلى الآخرين ..

★ ★ ★

ولما كان لى شرف معايشة معظم هذه الأحداث ، والمساهمة المتواضعة فى بعض إنجازات الاعداد والتخطيط .. وجدت من واجبى التصدى لكل المتناقضات ،

وأن أضع الحقائق مجردة بعيدة عن الغرض ، أمام القارىء مزودة بالتحليل الأمين . ورأيت أن يأخذ هذا الجهد شكل "دراسة إستراتيجية" حول أسباب الهزيمة والنصر ، محاولا أن أجيب من خلالها ـ وبقدر استطاعتى ـ عن كل ما دار من تساؤلات موضوعية بعيداً عن المهاترات الشخصية والحسابات الذاتية .. والقصص العنتريه .. وبقدر ما يفرضه علىّ الضمير الوطنى .. وما تفرزه النوايا الخالصة لله والوطن والتاريخ .. مضيفا إليها خبرة ربع قرن من معايشة الصراع منذ بدأ بين العرب وإسرائيل فى عام ١٩٤٨ .. ومن ممارسة عملية من خلال الحروب الأربع التى خضناها مع إسرائيل .

★ ★ ★

وأخيرا فاننى من خلال هذا العرض الأمين ، أرجو أن أكون قد حققت قدراً من النجاح فى تغطية ما أردت أن ابرزه من ظروف وملابسات ودروس وتحليلات . وقد اشتملت هذه الدراسة الاستراتيجية على جزءين :

الأول : حول هزيمة يونية وفترة مابين الحربين .

الثانى : حول نصر أكتوبر .. أسبابه وأبعاده .

ويسعدنى أن أقدم بين دفتى هذا الكتاب الجزء الأول من هذه الدراسة .. عسى أن أكون قد أصبت قدراً من التوفيق فى تقديم هذه المساهمة لخير قواتنا المسلحة الباسلة ولخير هذا الوطن .

والله ولى التوفيق

طـه المجدوب

الفصل الأول

الجذور والمقدمات

بصدور قرار تقسيم فلسطين من الأمم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ ، يكون حلم تيودور هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية قد تحقق ، كما قدر بعد مرور خمسين سنة "بوجود دولة يهودية يضمنها القانون العام" . وبقى أن تصبح الدولة اليهودية حقيقة واقعة لتكتمل الغاية الصهيونية الأولى . وفى ١٤ مايو ١٩٤٨ ، مع نهاية الانتداب البريطانى على فلسطين ، أعلن قيام "دولة إسرائيل" . وقبل صدور هذا الاعلان كانت القوى الصهيونية قد بدأت أولى خطواتها العملية نحو إبتلاع فلسطين بكاملها بالاستيلاء على الأراضى التى يمكن أن تصل إليها يدها . ثم تابعت إسرائيل الخطى وسارت فى نفس الطريق بعد قيامها .. تغتصب الارض .. وتبنى المستعمرات .. وتستوعب المهاجرين الجدد .. وتنظم صفوف قواتها المسلحة لتحارب العرب وتجليهم عن أرضهم وتمنعهم من إستردادها .

الفكرة الصهيونية وحتمية الحرب :

لقد عاش هذا الجيل الذى أقام إسرائيل يكرس القيم العسكرية ، ويرسم للمجتمع الاسرائيلى صورة يكون فيها العربى دائما عدوا لدوداً له ، محاولا أن يربط نفسه بالماضى السحيق ، وأنه يمد يديه عبر ألفى سنة من الشتات لكى يخلق صلة مفتعلة بينه وبين العبرانيين "الذين قاتلوا فى بيتار ومسعدة والقدس" . وحمل دافيد بن جوريون "النبى المسلح" لواء الدعوة الصهيونية الى العنف والارهاب . ويعود له الفضل ـ أكثر من أى صهيونى آخر ـ فى إغتصاب فلسطين . فقد عرف بن جوريون كيف يخلق من قرار التقسيم الصادر من الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ ، ومن تواطؤ الاستعمار ضد العرب ، ومن ضعف العرب أنفسهم ، مزيجا غريبا من العوامل التى استغلها إلي أقصى حد ، وسخرها جميعا من أجل تحقيق هدف اغتصاب أرض فلسطين ، مستخدما شعارات زائفة كالاستقلال والتحرير والأمن .. فى شكل عمليات انقضاض على الارض العربية ثم "فرض الأمر الواقع" .

To: www.al-mostafa.com

كان قرار التقسيم هو نقطة الارتكاز للانطلاق الصهيونى نحو "التوسع" . فقد كان هناك دائما تمييز واضح فى الفكر الصهيونى ، بين مفهوم "دولة إسرائيل" ومفهوم "أرض إسرائيل" أو "إرتيز إزرائيل" . وقد أوضح بن جوريون هذا المفهوم حينما قال "لقد إنشئت الدولة على جزء من أرض إسرائيل .. إن المترددين فى إسترجاع حدودنا التاريخية المحدودة والموضوعة منذ بدء التاريخ ، لا يستطيعون أن ينكروا مدى شذوذ الخطوط الجديدة .. حيث لا تتطابق الدولة مع الأرض" . وهكذا كان تأسيس الدولة اليهودية هو بداية لمرحلة تحقيق "الصهيونية الشاملة" التى اعتمدت على عنصرين أساسيين هما "الهجرة" و "التوسع" وتكون القوة العسكرية هى أداة تحقيق هذا الهدف .

وقد انتهت حرب ١٩٤٨ بين إسرائيل والدول العربية بانتصار إسرائيل وانسحاب جيوش الدول العربية من فلسطين . وعقدت الهدنة بين إسرائيل وكل من مصر فى ٢٤ فبراير ١٩٤٩ ، ثم لبنان فى ٢٣ مارس والاردن فى ٣ إبريل وأخيراً سوريا فى ٢٠ يوليو ١٩٤٩ . وأعلن بن جوريون أنه تم النصر فى "حرب الاستقلال" . وفى يوليو ١٩٥٢ قامت ثورة مصر باتجاهاتها الاستقلالية والتحررية والتى بدأت تبرز فى العالم العربى .. وفى هذا العام كتب بن جوريون فى الكتاب السنوى لحكومة اسرائيل قائلا : "إن دولة إسرائيل قد قامت فى جزء من أرض اسرائيل وهو جزء صغير من أرضنا" . تم بدأ فى وضع أول برنامج لاعادة وتطوير القوات المسلحة الاسرائيلية لتحويلها إلى قوة هجومية ضاربة خلال ثلاث سنوات وبدأ تنفيذ هذا البرنامج فى عام ١٩٥٣ .

وجاء عام ١٩٥٤ حافلا بالتحديات لأمن إسرائيل . غير أن اعتزال بن جوريون للمسرح السياسى إعتباراً من نوفمبر ١٩٥٣ أدى إلى إختلال التناسق بين العمل العسكرى والعمل السياسى . لذلك فحينما تم توقيع إتفاقية الجلاء المصرية البريطانية فى اكتوبر ١٩٥٤ ، إعتبرت اسرائيل أن إنسحاب القوات البريطانية من منطقة قناة السويس دون الاشارة إلى إلتزام مصر بالسماح للسفن الاسرائيلية بالمرور ، ضياعا للأمل فى إحتمال فتح قناة السويس للملاحة الاسرائيلية . ولكن حين أعلن موشى شاريت رئيس وزراء إسرائيل "أن حكومته سوف تستمر فى سعيها ضد الحصار البحرى المصرى" ، كانت وسيلته هى إرسال السفينة الاسرائيلية "بات جاليم" لتحاول عبور القناة كاختبار لموقف مصر وإثبات لنواياها امام بريطانيا والرأى العام العالمى .. وإنتقد موشى ديان رئيس الاركان الاسرائيلى هذه المحاولة باعتباره من صقور اسرائيل الذين يؤمنون بمبدأ إستخدام القوة فى حل مشاكلها . وأعلن ديان انه "طالما أن اسرائيل ليست مستعدة للتصرف حسب الأصول الطبيعية ، فانه من الخير لها أن تستخدم القوة العسكرية للسيطرة على مضايق تيران فى خليج العقبة" . وكانت كلمات ديان هى أول إشارة معلنة من جانب اسرائيل إلى إستخدام القوة ضد مصر .. ويلاحظ أنها قد جاءت فى أعقاب إعلان إتفاقية الجلاء عام ١٩٥٤ .

وبعد أربعة أشهر فقط من توقيع إتفاقية الجلاء عاد بن جوريون الى وزارة الدفاع ـ ليبدأ مرحلة جديدة من السياسة الإسرائيلية العدوانية .. كان هدفها المباشر هو شن حملة مركزة من العنف والارهاب ضد الدول العربية ، والاستعداد لشن الحرب الشاملة ضد مصر .. يبدأ التمهيد لها بافتعال المنازعات على الحدود وتصعيد الموقف العسكرى تدريجيا لخلق المبرر المناسب لشن هذه الحرب ..

وكانت أول مظاهر هذه السياسة تنفيذ الاغارة الارهابية الاسرائيلية ضد غزة يوم ٢٨ فبراير ١٩٥٥ بعد إسبوع واحد من تولى بن جوريون مسئولية وزارة الدفاع . هكذا مضت إسرائيل تستعد للحرب وتصعد الموقف العسكرى تحقيقا لسياستها الحربية ، فقضت عامى ١٩٥٥ ، ١٩٥٦ "وهى تستعد إستعداداً جنونيا للصدام مع مصر" وفقا لوصف الكاتب الاسرائيلى عاموس بيرلمطر . وقد بلغ هذا الجنون ذروته فيما بين سبتمبر ٥٥ ، اكتوبر ١٩٥٦ . وذلك بعد أن وقعت مصر إتفاقية الاسلحة مع تشيكوسلوفاكيا والتى إعتبرتها اسرائيل سببا فى إختلال ميزان القوى فى صالح مصر والدول العربية وخطراً يهدد أمنها . وفى هذا الوقت كتب بن جوريون "رسالة إستغاثة" لجى موليه رئيس وزراء فرنسا يقول فيها : "إن مصر تنوىُ مهاجمة إسرائيل" .

ومن أجل الحصول على المزيد من الأسلحة لجأ بن جوريون إلى التضليل والكذب مشيراً إلى "عصابات القتلة .. التى تثير الذعر وتقتل النساء والأطفال" . وإمعانا فى الخداع والإستجداء ، إختتم بن جوريون رسالته بعبارة مسرحية قائلا : "إن إسرائيل الجمهورية الصغيرة الفتية والغارقة فى خطر فظيع ، تلجأ إلى اختها فرنسا ، الجمهورية الكبرى العريقة ، على أمل ألا تخيب رجاءها وألا ترفض طلبها" . ولم تخيب فرنسا رجاء إسرائيل ووافقت على تزويدها بمزيد من الدبابات والطائرات فى أعداد ضخمة بلغت ٢٠٠ دبابة حديثة AMX ، ٧٢ طائرة حديثة من طراز "مستير ٤ أ" وسميت هذه الصفقة نسبة إلى ضخامتها باسم "الفيضان" وإشتركت جميع هذه الاسلحة وغيرها فى حرب ١٩٥٦ .

★ ★ ★

وليس ثمة شك فى أن موقف الغرب من الثورة المصرية ، كان هو العامل الحاسم والمباشر فى خلق أفضل الظروف أمام إسرائيل لكى تشن حروبها العدوانية على مصر . جاء عدوان ١٩٥٦ ، نتيجة حتمية للسياسة البريطانية الفرنسية المعادية لمصر والمتواطئة مع اسرائيل فى أعقاب تأميم قناة السويس فى يوليو ١٩٥٦ .

ففى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ أتت اللحظة العظيمة والفرصة الهائلة التى إنتظرتها إسرائيل طويلا كما تمنتها كل من بريطانيا بعد جلائها عن مصر وفرنسا بعد

إشتعال الثورة الجزائرية .. فقد كان تأميم مصر لشركة قناة السويس هى العمل الذى اعتبرته هذه الدول خطأ لا يغتفر . فوجدته إسرائيل فرصة لتنفيذ مخططها التوسعى باستغلال السخط الغربى ضد مصر . وسأل قادة إسرائيل أنفسهم : أى من الدول الغربية ستتدخل عسكريا ضد مصر؟ وسرعان ما جاء الجواب .

فالولايات المتحدة فضلت الابتعاد عن المغامرة العسكرية واكتفت باسلوب المناورة السياسية تمشيا مع إستراتيجيتها فى ذلك الوقت ، على عكس بريطانيا وفرنسا اللتين قررتا من أول لحظة شن الحرب ضد مصر . هكذا إتفقت أهداف المغامرة الاسرائيلية المبيتة ضد مصر ، وتضامنت الصهيونية تضامنا كاملا مع الاستعمار البريطانى والفرنسى .. ولعل فى أقوال موشى ديان فى مذكراته عن حملة سيناء ، أصدق تعبير عن القيمة الحيوية للتواطؤ الثلاثى ضد مصر .. وأهميته بالنسبة لقدرة اسرائيل العسكرية فى ذلك الوقت . كتب ديان قائلا : "لولا العملية الانجلو/فرنسية . لكان هناك شك فى قيام إسرائيل بحملة سيناء ولو كانت فعلت ذلك لاختلف وجهها سواء من الناحية العسكرية أو من الناحية السياسية" . ويستطرد ديان وهو يصور دور الجيش الاسرائيلى فى هذه الحرب على أنه "كراكب الدراجة الذى يحاول أن يصعد الى أعلى التل فيمسك بعربة تصعد هذا التل .. كان علينا أن نتعلق بعربتهم وأن نستغلها قدر المستطاع ".

أما فى عام ١٩٦٧ ، فقد إختلف الموقف السياسى عن عدوان ١٩٥٦ ، حيث ساهمت سياسة الولايات المتحدة المعادية لمصر فى خلق الظروف التى أدت إلى وقوع حرب ١٩٦٧ . فقد حدث بعد حرب ١٩٥٦ وفى السنوات التالية تغيراً جذريا فى السياسة الأمريكية بالنسبة للشرق الأوسط وخاصة سياسة التسليح وفتح ترسانتها لاسرائيل .. وكان ذلك نتيجة للتغيرات الجوهرية التى حدثت فى الشرق الأوسط وفى الموقف الدولى عامة .. فضلا عن الجهود الضخمة التى بذلتها إسرائيل فى تحويل سياسة الولايات المتحدة الى هذا الاتجاه .. وهى جهود تكللت بالنجاح . وكان رحيل فرنسا عن شمال أفريقيا وبريطانيا عن باقى أراضى الشرق الأوسط قد ترك مجال العمل مفتوحاً أمام الولايات المتحدة الأمريكية فى المنطقة ، وكان مشروع "مبدأ أيزنهاور" أولى الخطوات الأمريكية" المنفردة فى هذا المجال .. "لسد فراغ القوة" والوقوف فى وجه "الخطر الشيوعى الذى يهدد المنطقة" .

إن هذه التطورات الدولية ، التى إستغلتها إسرائيل أفضل استغلال ، دفعت الولايات المتحدة إلى إعادة النظر دائما فى سياستها بالمنطقة ، وإعادة تقييمها ، مما أدى إلى إحداث تغيير أساسى فى مدى الاستجابة الأمريكية للضغوط الصهيونية ، فى ظل سياسة عربية رافضة لكل مشروعات الولايات المتحدة فى المنطقة ، الامر الذى جعل الولايات المتحدة توجه جهودها الى محاولة فرض السياسة التى رسمتها لمنطقة الشرق الأوسط والقائمة على ضرب الجبهة العربية

وقطع أوصال التضامن العربى . من ناحية أخرى فقد تحولت الولايات المتحدة من سياسة الحظر الكامل على الأسلحة للشرق الأوسط فى بداية الخمسينيات إلى إمداد إسرائيل بكل ما تحتاجه من دبابات وطائرات ومعدات حربية فى منتصف الستينيات .

★ ★ ★

وعموما ودون أن يشدنا خضم الأحداث إلى الخوض فى تفاصيل كثيرة لا أول لها ولا آخر بشأن ما حدث من تطورات سبقت عدوانى ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ .. ففى الحالتين ، قامت إسرائيل بالدور المرسوم لها .. إلا أن هذا الدور كان فى واقع الامر مستمداً أساساً من نظريتها الأمنية ومتفقا تماما مع أطماعها التوسعية .. ونابعا فى نفس الوقت من الفكرة الصهيونية وأطماعها القديمة فى الارض العربية . ولا شك فى أن الاستراتيجية الاسرائيلية قد لعبت دوراً أساسيا فى صياغة المؤامرات الغربية ضد مصر .. لذلك فمن الضرورى هنا أن نستطلع معاً تلك الجذور الصهيونية وأبعادها السياسية والعسكرية والاجتماعية ، فيما يتعلق بنظرتها للأرض العربية ، والانسان العربى والعلاقة الوثيقة بين الحروب العدوانية الاسرائيلية ضد الغرب .. والأهداف الاستراتيجية الغربية فى تعاملها مع مصر خلال حقبتى الخمسينيات والستينيات .

لقد انطوت الفكرة الصهيونية أصلا ، سواء فى طبيعتها السياسية أو الاجتماعية ، على تصور خاص للانسان العربى من حيث قدراته وحقوقه وصلاته بوطنه .. وهو تصور خاطىء من أساسه ولكنه أصبح فى نفس الوقت إحدى الركائز الهامة التى قامت عليها النظرية الاسرائيلية سواء فى جانبها الأمنى أو فى جانبها التوسعى . فقد حددت النظرية مفهوما ماديا للانسان العربى لا يمت بصلة إلى حقوقه كانسان ولا يعترف بانتمائه الوطنى للأرض التى عاش فيها هو وأباؤه وأجداده .

لقد قامت النظرية على إهدار حقوق الانسان العربى وعدم الاعتراف بها . فبنت الجانب الامنى للنظرية على تخويف الانسان العربى وبث الرعب والخوف فى قلبه وتسليط سيف الارهاب ضده باستخدام كافة الوسائل المعنوية والمادية لارهابه ، وباستخدام لفظ أكثر تهذيبا وهو "ردع" الانسان العربى لضمان "أمن" إسرائيل . أما الجانب التوسعى من النظرية فقد قام على فكرة الاستيلاء بالقوة المسلحة على الأرض العربية ، ثم تفريغها من سكانها وأصحابها الأصليين ، تمهيدا لشغلها بالافواج الجديدة من المهاجرين اليهود القادمين من أنحاء العالم .

ومن المعروف أنه عندما قامت الدولة اليهودية فى مايو ١٩٤٨ ، تعمدت قيادتها السياسية ممثلة فى دافيد بن جوريون رئيس وزرائها ، أن تغفل عمداً أى ذكر لشكلها الجغرافى ، وجاء دستورها خلواً من أى تحديد لحدود الدولة ، رغم علمها أن كل الأراضى حولها هى أرض عربية مأهولة بالسكان العرب وتابعة لدول عربية .

ولكن كل هذه الحقائق - من منطلق النظرة الصهيونية إلى العالم العربى - لم تقف حائلا أمام المطامع الصهيونية ولم تمنع بن جوريون من المناداة بأن "حدود إسرائيل تكون حيث يقف جنود إسرائيل" . وهى دعوة عدوانية صريحة لغزو أراضى الغير . ان هذا المبدأ الذى أرساه بن جوريون أصبح يمثل جوهر النظرية الاسرائيلية مجرداً وعاريا من الالفاظ المنمقة أو التعبيرات الخادعة التى برع فيها الاسرائيليون .

وفى ظل هذه الادعاءات الصهيونية أشعلت إسرائيل فى المنطقة عدة حروب عدوانية ، مهدت لشنها منذ قيامها ، ووضعت أهدافها التوسعية قبل ذلك بكثير .. وحددت أسلوبها القائم على دفع حدود الدولة تدريجيا أو على مراحل إلى "حيث يقف جنودها" فى مناطق جديدة من الأرض العربية وعلى حساب جموع جديدة من الشعب العربى .

ومن هنا يمكننا أن نؤكد أن النظرية العدوانية الاسرائيلية هى المفجر الحقيقى للصراع العربى - الاسرائيلى والباعث الأول لكل ما يثيره هذا الصراع .. والسبب الأساسى فى استمراره حتى يومنا هذا . ولكى تغطى إسرائيل أهداف نظريتها وسياستها المعادية للعرب ، وحتى تخفف من وقع الادانات الدولية لها ، لجأت دائما إلى إستخدام التبريرات اللفظية ، وإلى تسمية أعمالها العدوانية بمسميات ومصطلحات لا تعبر عن حقيقة نواياها ، فتطلق المبررات العصرية لمخططها التوسعى ، فتسمى الاستيلاء على الارض العربية "تأمينا لحدودها المهددة" وصولا إلى حدود أكثر أمنا وإكتسابا لمزيد من السلامة الجغرافية لأراضيها ضد الأخطار العربية التى تهدد إسرائيل بالزوال وشعبها بالابادة !! وبمثل هذا التضليل اللفظى قلبت إسرائيل الحقائق وحفظت - فى نفس الوقت - لنظريتها التوسعية قدرتها على الحركة الديناميكية اللازمة لإستكمال مخططها على حساب الارض العربية .

وليس ثمة شك فى أن هذه النظريات العدوانية الإسرائيلية ، لم تكن وليدة ظروف فرض الدولة وقيامها أو من العداء العربى الذى سببته هذه الظروف ، ولكنها وليدة فكر صهيونى قديم ، لم تتغير أبعاده رغم كل المتغيرات التى وقعت فى العالم وفى منطقة الشرق الأوسط ، خاصة بين حربين عالميتين غيرت الكثير من معالم المنطقة ووضعها السياسى .. ولذلك فاننا نجد أن إسرائيل إعتبرت قيام الدولة فى عام ١٩٤٨ مرحلة على طريق مرسوم نحو غاية كبرى .. وبدأت فور نشأتها التمهيد لتنفيذ المراحل التالية .. من خلال سياسة عدوانية توسعية ثابتة ، خاصة تجاه مصر .. باعتبارها اكبر وأقوى الدول العربية وأكثرها تأثيرا فى المنطقة .

ولعل من أهم مظاهر هذه السياسة فى هذه المرحلة ، التطورات التى بدأت تنفذها إسرائيل على الحدود مع مصر منذ عام ١٩٥٠ . فى ذلك الوقت لم تحظ هذه

التطورات بما تستحقه من إهتمام من جانب الحكومة المصرية رغم تأثيرها الاستراتيجى الكبير . ففى هذا العام ـ وهو العام التالى لتوقف القتال بين اسرائيل والدول العربية ـ بدأت إسرائيل محاولاتها لفرض سيطرتها على منطقة العوجة الدولية المنزوعة السلاح والواقعة على الحدود المصرية الاسرائيلية فى مواجهة طريق الاسماعيلية ـ ابو عجيلة فى سيناء

والحقيقة الهامة التى يبدو انها كانت غائبة عن ذهن الحكومة المصرية وقتئذ ، أن السيطرة على تقاطع الطريق الاستراتيجى الحيوى فى العوجة هو إستيلاء على مفتاح سيناء ونقطة الوثوب الاستراتيجية الضرورية لأى غزو مقبل لمصر عبر الحدود .. ورغم قيام إسرائيل فى عام ١٩٥٠ بطرد جماعات البدو التى تقطن هذه المنطقة والبالغ عددهم ٣٥٠٠ بدوى من قبيلة العزازمة ومهاجمتهم براً وجواً وحرق حيامهم .. فقد إكتفت حكومة مصر فى ذلك الوقت باجراءات الاحتجاج العادية وتقديم شكوى للجنة الهدنة . وهكذا إستمر الجيش الاسرائيلى فى تقوية قبضته تدريجياً على هذه المنطقة الحيوية من خلال مناورات دبلوماسية وعسكرية وإنشاء مستعمرات حصينة فى المنطقة خاصة خلال عامى ١٩٥٣ ، ١٩٥٤ (بعد قيام الثورة المصرية) إلى أن نجحت إسرائيل فى السيطرة على البوابة الرئيسية لسيناء .. والتى إستخدمتها بعد ذلك فى عدوانها على مصر عامى ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ .

★ ★ ★

ومن هنا فان العدوان الاسرائيلى المسلح على أرض فلسطين فى عام ١٩٤٨ ، كان هو الجولة التوسعية الأولى التى بدأت فى إبريل ١٩٤٨ ، قبل تدخل الجيوش العربية فى ١٥ مايو ١٩٤٨ ، وكان هدف الخطة الاستراتيجية هو الاستيلاء على كل أراضى فلسطين .. ولكن تدخل الجيوش العربية هو الذى أفسد المخطط الصهيونى .. ولذلك أعلن بن جوريون عند قيام الدولة : "أن قيام الدولة ليست نهاية كفاحنا ، بل أننا بدأنا الكفاح وعلينا أن نمضى قدماً نحو تحقيق قيام الدولة اليهودية فوق أرض اسرائيل التاريخية" .

وفى الواقع فقد تأثرت السياسة الحربية الاسرائيلية منذ قيام الدولة بعاملين أساسيين . أولهما : كان قصير المدى وهو فرض وجود الدولة وتحقيق أمنها ، وثانيهما طويل المدى وهو : تحقيق اطماع التوسع وفرض السلام الاسرائيلى . وكلا العاملين يستند كلية على استخدام القوة . يقينا بأن طريق القوة سوف يكفل فى النهاية إستسلام العرب . "فهم (أى العرب) لن يجدوا دافعا قويا لعقد سلام مع إسرائيل الضعيفة . ولكن عندما يقتنعون بأن اسرائيل أصبحت من القوة بحيث يمكنها هزيمتهم .. عندئذ سيرضخون لها" .

ومن خلال سيطرة بن جوريون على سياسة إسرائيل الخارجية كرئيس للوزراء ،

وسياستها الحربية كوزير للدفاع ، تمكن من أن يحقق توازنا وإرتباطا بين السياستين . فركز على السياسة الخارجية .. بحيث تخدم مخطط الأمن الاسرائيلى من حيث : ضمان ودعم الوجود الاسرائيلى ذاته بالارتباط باحدى الدول الكبيرة ، توفير مصادر دائمة للحصول على السلاح ، وكسر الحصار العربى حول اسرائيل . وتحقيقا لهذه الأهداف وضعت المؤسسة العسكرية الاسرائيلية عدة مبادىء اساسية :

إنشاء قوة عسكرية رادعة مستقلة ، البحث عن الحليف القوى المخلص الذى يمد إسرائيل بالسلاح دون حدود ، إنشاء رأس جسر يربط إسرائيل بالدول النامية فى أفريقيا وآسيا بعد أن يتم فتح خليج العقبة بالقوة للملاحة الاسرائيلية .

من ناحية أخرى حرصت المؤسسة العسكرية الاسرائيلية على أن تتصرف منفردة بعيداً عن جهاز الدولة مادام الأمر يتعلق بالسياسة التى وضعها بن جوريون سواء كان يتعلق بالاتصالات الخارجية المتصلة بصفقات السلاح .. وكان بيريز يتولى هذا الجانب ، أو القيام بأعمال خارجية تتعلق بأهداف سياسية ، وكان ديان يتولى هذا الجانب . وفى ضوء هذا التخطيط السياسى العسكرى كان هدف إيقاع هزيمة كبيرة بجيوش الدول العربية وخاصة جيش مصر والاستيلاء على مزيد من الارض العربية فى مصر والاردن وسوريا .. هو هدف موضوع ومرسوم ومخطط منذ سنوات طوال قبل عدوان ١٩٥٦ . وأن مبرراته قد تراكمت إنطلاقا من فكرة التوسع الصهيونى التى تناولناها ، حتى قيام الثورة المصرية عام ١٩٥٢ ثم تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦ ثم الاحداث التى ترتبت على ذلك فى السنوات التالية . وإذا كان الهدف الأسرائيلى قد اتفق فى بعض جوانبه مع أهداف الغرب خاصة بعد تأميم القناة .. يمكن القول ان النوايا الاسرائيلية والغربية لإحداث الهزيمة بمصر وإسقاط نظامها الثورى قد تبلورت معا عند تأميم قناة السويس فى يوليو ١٩٥٦ .

وفى هذا الاطار لم تتوان إسرائيل عن التواطؤ مع بريطانيا وفرنسا ، من أجل استكمال مخططها لتحقيق توسعات اقليمية جديدة فى الارض العربية ، ولفتح خليج العقبة أمام الملاحة الاسرائيلية .. والاتفاق معهما على غزو مصر فى المؤامرة التى عرفت باسم "مؤامرة العدوان الثلاثى على مصر" .. وقبلت إسرائيل أن تكون ذيلا لبريطانيا وفرنسا على أمل تمكينها من الحصول على مكاسب إقليمية فى سيناء .

لقد كان الهدف الوحيد الذى اجتمع حوله أطراف العدوان الثلاثى على مصر ـ بريطانيا وفرنسا وإسرائيل ـ عام ١٩٥٦ ، هو تدمير مصر والقضاء على نظامها الوطنى الثورى . وهو هدف تأصلت جذوره لدى الغرب وإسرائيل منذ قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ . اما الجذور التاريخية والدوافع الحقيقية الكامنة وراء هذا العدوان ، فقد اختلفت إختلافا بينا لدى كل طرف ، كما إختلفت النتائج التى كان كل من هذه الأطراف يسعى إلى تحقيقها من وراء هذا العدوان .

وهناك سؤال ظل يطرح نفسه كلما أثير أمر تأميم شركة قناة السويس : هل حقا كان تأميم شركة القناة هو السبب الحقيقى لشن هذا العدوان الثلاثى على مصر ؟ وهل كانت القناة ذاتها هى المستهدفة ؟ أم أن مصر كلها بشعبها ونظامها هى التى كانت مستهدفة فعلا ؟ هذا ما سنحاول الاجابة عليه فى الفقرات التالية .

الزمن القديم والزمن الحديث :

لقد بدأ العدوان فى اكتوبر ١٩٥٦ بهجوم مفاجىء شنته إسرائيل على شبه جزيرة سيناء .. ونظراً لشدة إلتواء الأساليب والمناورات السياسية التى صاحبت هذا العدوان ، والتعقيدات العديدة التى فرضتها إعتبارات التواطؤ على الخطط العسكرية وإخضاعها للضوابط التى أعدت لاحكام مؤامرة العدوان الثلاثى .. لم تصمد حجج وذرائع المعتدين أمام معطيات الموقف السياسى والعسكرى وإنهارت كل المبررات وتكشفت الاسباب الحقيقية الكامنة وراء العدوان ، وعرف العالم كله فضيحة التواطؤ الخفى بين الدول الثلاث بريطانيا وفرنسا وإسرائيل . واتضح أن تأميم مصر لشركة قناة السويس لم يكن هو السبب الحقيقى وراء شن هذه الحرب .. وإن كان هو الذريعة التى استخدمها المعتدون لتبرير عدوانهم . فمصر عندما أممت شركة القناة فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ ، إنما كانت تمارس حقا طبيعيا من حقوق السيادة المشروعة ، دون أن تمس من قريب أو بعيد الوظيفة الدولية التى تؤديها قناة السويس كممر بحرى بين قارات العالم . وبالتالى فان ما حدث لم يكن يشكل بأية صورة من الصور ، قضية دولية تعطى حق التدخل المسلح لأى طرف خارجى مهما كانت إدعاءاته . فشركة قناة السويس كانت شركة مصرية خاضعة لقوانين الدولة ، وينص عقد إمتيازها المبرم فى ٥ يناير عام ١٨٥٦ ، على إحترام سيادة الدولة .

فمصر لها حق ادارة هذا المرفق المصرى الحيوى ، طالما أن ذلك لا يضر بمصالح الدول الأخرى . ولعل الغريب فى الأمر ، أن هناك بعض الكتاب الغربيين قالوا أن مصر حينما أممت قناة السويس "لم تحفظ الجميل الذى أسداه لها من قاموا بهذا المشروع العظيم !!" .. أى جميل هذا الذى يتحدثون عنه .. فمن هم الذين أقاموا هذا المشروع فعلا وعملا ؟. حقيقة أن مشروع شق القناة كان مشروعاً فرنسيا فى فكرته ، وأن رءوس أموال أجنبية قد ساهمت فى إقامة شركة قناة السويس وحققت من وراء ذلك أرباحا طائلة . ولكن هؤلاء نسوا فى خضم التعصب الاعمى ، أن القناة مصرية لحماً ودماً وهى قطعة من أرض مصر .. حفرتها سواعد إبنائها وبذلوا فوق مالها العرق والدم والارواح .

فاذا لم يكن تأميم شركة قناة السويس هو السبب الحقيقى وراء هذا العدوان .. بل كان هو "الذريعة" لشن هذا العدوان . أين إذن تقع البداية التى يقف عندها التاريخ ويشير قائلا : **هنا كانت البداية ؟**

ليس المجال هنا مناسبا للخوض فى أغوار التاريخ بحثا عن جذور هذا العدوان ورواسبه التاريخية .. فقد سبقنا إلى هذا الكثير من الباحثين وعلماء التاريخ .. وكان بحثهم مثار جدل طويل بينهم .. إذ رأت أقلية من الباحثين ، أن الجذور القديمة ترجع إلى عام ١٨٩٧ تاريخ قيام المنظمة الصهيونية العالمية .. وبداية التواطؤ البريطانى الصهيونى ضد منطقة الشرق الأوسط .. وكانت بريطانيا قد إحتلت مصر فعلا وسيطرت على قناتها قبل هذا التاريخ بخمسة عشر عاماً .. بينما يعود البعض منهم إلى الوراء قليلا حتى عام ١٨٠٧ عندما دحرت مصر حملة فريزر البريطانية ، ومنهم من أشار إلى عام ١٧٩٨ حينما ظهر نابليون أمام الاسكندرية .

أما الاكثرية فيعود بجذور العداء إلى القرون الوسطى .. إلى الحروب الصليبية وإندحار لويس التاسع أمام المنصورة عام ١٢٥٠ ميلادية .. بل إلى إنتصارات صلاح الدين فى حطين قبل ذلك . وكلنا يذكر قول مارشال اللنبى ـ القائد البريطانى ـ عندما دخل القدس عام ١٩١٧ أى بعد حوالى خمسة قرون من إنتصار صلاح الدين : "**اليوم فقط يمكن أن يقال لقد إنتهت الحروب الصليبية**" . وفى نفس العام الذى دخل فيه اللنبى القدس ، أصدرت الحكومة البريطانية "وعد بلفور" الشهير الذى أعطى للصهيونية حق إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين .

وإذا كانت الخلافات التاريخية قد تعددت حول منبت الجذور فى "**الزمن القديم**" ، فان أراء معظم المؤرخين المعاصرين قد أجمعت على أن جذور هذا العداء الغربى الصهيونى لمصر ، وإن كانت قد غرست أصلا منذ زمن بعيد ، إلا أنها قد نمت فجأة ودبت فيها الحياة .. فى يوم الثالث والعشرين من شهر يوليو عام ١٩٥٢ .. يوم أن قامت ثورة مصر وحددت لنفسها أهدافا ستة كان على رأسها هدفان هامان هما :

- **القضاء على الاستعمار .**
- **إقامة جيش وطنى قوى .**

اذن .. فالزمن الحديث لجذور العداء يمكن أن يضع يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ "كنقطة بداية" . فلو كانت هذه الثورة هادنت الاستعمار أو سكتت عنه أو تعايشت مع الوجود الصهيونى فى فلسطين .. ولو لم تضع فى دستورها الأول هذين الهدفين وتحرص على تنفيذهما ، لما قدر لهذا الصدام الجذرى بين مصر والغرب أساساً أن يحدث ، ولما تطورت الأحداث إلى سلسلة متعاقبة الحلقات من المعارك السياسية والعسكرية الطاحنة التى قلبت الموقف فى الشرق الأوسط رأساً على عقب ، وأخلت بموازين للقوى كانت قد استقرت فى المنطقة على مدى قرن من الزمان .

فمنذ جاءت ثورة مصر ، بدأت تدير نضالا حقيقيا من أجل اخراج المستعمر من أرض الوطن . وتتصدى فى نفس الوقت لأحلاف الغرب التى أرادوا فرضها على المنطقة . وتكسر إحتكار السلاح وتحارب الاستعمار فى الوطن العربى وأفريقيا

وتساند حركات التحرير الوطنية وتثير خوف وقلق الصهيونية بما تثيره من تيارات قومية فى أنحاء الوطن العربى .. ثم تجىء معركتها من أجل بناء السد العالى وقيامها بتأميم شركة قناة السويس .. الأمر الذى استغلته دول العدوان ووجدت فيه أفضل ذريعة وأنسب فرصة لكى يحقق كل طرف منها أهدافه الخفية من خلال عدوانه على مصر .

لقد إرتبطت هذه المعارك الضارية التى خاضتها مصر ، بحلقة هامة تداخلت دائما مع الأحداث وأثرت فيها .. هذه الحلقة شكلها ذلك الانقلاب التاريخى الذى وقع فى قلب العالم العربى قرب نهاية النصف الأول من هذا القرن .. ذلك هو قيام دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ بفضل المساندة الضخمة والتأييد القوى الذى قدمته الدول الغربية ، على حساب الشعب العربى فى فلسطين .. وما تبع ذلك من نشوب صراع دموى طويل بين العرب واسرائيل مازال يمثل خطاً مستمراً بينهما حتى الآن . كان لهذا الصراع مساهماته الفعالة فى تعميق خطوط التصادم بين الغرب والصهيونية وبين العرب عامة ثم بينهم وبين مصر بوجه خاص لعوامل تاريخية وجغرافية وسياسية وإستراتيجية متعددة .

حقيقة الجذور والاسباب :

كانت معركة الجلاء هى أول خطوط التصادم بين مصر والغرب .. وتعتبر من أهم المعارك التى كان لها أبعد الأثر فى منطقة الشرق الأوسط وعلى أوضاع الامبراطورية البريطانية .. فكانت هى بداية النهاية لهذه الأمبراطورية التى لم تكن تغرب عنها الشمس . ففى عام ١٨٨٢ إحتلت الجيوش البريطانية الاراضى المصرية ، وظل الاحتلال جاثما فوق صدر مصر نحو إثنى وسبعين عاما .. إلى أن قضت عليه الثورة المصرية . وطوال هذه السنوات وضعت بريطانيا يدها على قناة السويس ، ذلك الشريان الحيوى الذى يمثل أقصر الطرق إلى مستعمراتها .

ولقد طال نضال شعب مصر من أجل التخلص من هذا الاستعمار .. فتعددت ثوراته حتى أصبح الوجود البريطانى فى مصر عبئا يثقل كاهل بريطانيا .. وفى عام ١٩٣٦ عقدت معاهدتها مع مصر ـ عندما لاحت بوادر قيام حرب عالمية جديدة ، وأعطت بريطانيا حق الاحتفاظ بقاعدة عسكرية ضخمة فى منطقة قناة السويس . وعندما ضاعت الهند ـ درة التاج البريطانى ـ فى عام ١٩٤٧ ، بدأت بريطانيا تركز إهتمامها على الوطن العربى وتطور فى وسائل إحتفاظها بقواعدها وعلاقاتها فى المنطقة ، فاعتمدت فى هذه المرحلة على الصداقات المحلية والعلاقات الخاصة مع بعض حكام المنطقة ..

وفى عام ١٩٥٢ أصبحت هذه الصداقات والعلاقات معرضة للضياع هى الأخرى ، بعد أن أطاحت ثورة مصر بالنظام الملكى فيها وبجيل كامل من الحكام المصريين الذين نشأوا فى ظل الوجود البريطانى ، وجاءت بجيل ثورى شاب يثق

فى قدرته على تصفية الوصاية الغربية على منطقة الشرق الأوسط . وفى عام ١٩٥٤ ، نجحت مصر ـ بعد مباحثات شاقة ـ فى الاتفاق مع بريطانيا على جلاء كل القوات البريطانية عن مصر .. مع إحتفاظ بريطانيا بقاعدة القناة على أن تدار منشآتها بواسطة مقاولين مدنيين بريطانيين .

وفى ظل هذه التطورات بدأت المعالم العدوانية للسياسة الاسرائيلية تتضح تماما ، حين إتخذت إسرائيل موقفا متشدداً من مفاوضات الجلاء ، بل حاولت بوسائل مباشرة وأخرى ملتوية ـ ومن بينها أعمال التخريب داخل مصر ـ أن توقف هذه المفاوضات أو تفسدها .. كما حاولت أن تفسد العلاقات بين مصر وكل من بريطانيا والولايات المتحدة .. فاسرائيل كانت تعتبر الوجود البريطانى العسكرى فى منطقة قناة السويس عنصرا حيويا من عناصر أمنها وخط دفاعها الأول ضد أى تحرك مصرى وصمام الأمان الذى يحمى حدودها الجنوبية ، ولذلك كان لاتفاق الجلاء أثره الشديد على إستراتيجية إسرائيل .. وهنا يمكن القول أنه فى اكتوبر ١٩٥٤ تاريخ توقيع اتفاقية الجلاء ، قررت إسرائيل أن تبدأ إستعداداتها الجدية لغزو سيناء وإحتلالها .

وفى ١٣ يونية ١٩٥٦ غادر البلاد آخر جندى بريطانى ، وأقفلت الصفحة الأخيرة لتاريخ الاحتلال البريطانى لمصر . وهى الصفحة التى حاولت بريطانيا أن تعيد فتحها مرة أخرى بالقوة المسلحة ولم يكن قد مضى على خروج آخر جندى لها من مصر ، سوى مائة وخمسة وأربعين يوماً فقط .. حين قادت عدوانا ثلاثيا غاشما ضد مصر .. وهاجمت أراضيها بالتواطؤ مع فرنسا واسرائيل براً وجواً وبحراً فى اكتوبر/نوفمبر ١٩٥٦ . ولكن قدر لهذا العدوان أن يكون هو المعول الذى قضى على البقية الباقية من إمتيازات إتفاق الجلاء وقاعدتها العسكرية فى منطقة القناة حيث قامت مصر بتصفيتها عشية العدوان وحرمانها منها إلى الأبد .

★ ★ ★

وكانت المعركة التالية فى هذا الصراع هى معركة الأحلاف العسكرية ، والتى بدأت ـ فى واقع الأمر ـ قبل أن تبدأ مباحثات الجلاء ، وإشتدت وتوازت مع معركة الجلاء بعد ذلك بل وارتبطت بها . فقد أراد الغرب ممثلا فى بريطانيا والولايات المتحدة أن يساوم مصر على إستقلالها ، وأن يكون ثمن جلاء القوات البريطانية عن أراضيها ، هو إنضمامها لحلف الدفاع الغربى . ولكن مصر رفضت وأصرت على إحباط هذه المحاولات ليست على مستواها فحسب بل على مستوى المنطقة العربية كلها . وهكذا أمكن التوصل إلى إتفاق الجلاء دون أى تعهد أو إرتباط بانضمام مصر إلى أى حلف من الاحلاف .

واستمرت محاولات الغرب وإن تعددت الأساليب ، ولكن ظلت مصر على موقفها من الأحداث لم تغيره ، الأمر الذى أدى إلى تدهور شديد فى العلاقات المصرية الغربية ، خاصة مع الولايات المتحدة ، التى كان لها دور أساسى فى الضغوط التى تعرضت لها مصر من أجل دفعها للاشتراك فى منظمة للدفاع عن الشرق

الأوسط .. ومن بين هذه الضغوط محاولة إستغلال حاجة مصر إلى تحديث جيشها وإعادة تسليحه بالأسلحة الحديثة .. حين قفز موضوع الأحلاف مرة أخرى فى عام ١٩٥٥ ، وكثرت الاغراءات بتقديم المساعدات العسكرية والاقتصادية لمصر فى حالة إنضمامها .. ورفضت مصر كل هذه الاغراءات . وكان "خطر الغزو السوفييتى" لمنطقة الفراغ فى الشرق الأوسط ، هو حجر الزاوية التى دارت حوله محاولات ضم مصر لهذه المنظمة الدفاعية . وتمسكت مصر برأيها وأصرت أن الخطر الصهيونى أشد خطراً على العالم العربى من الخطر الشيوعى ، كما أصرت على أن هذا "الفراغ" لن يملؤه إلا "دفاع ذاتى قومى" نابع من داخل المنطقة العربية . أما عن الخطر الشيوعى فان الحل الطبيعى الذى رأته مصر لمواجهته هو الاهتمام بتقوية الجبهات الداخلية العربية وتوفير القدرات الدفاعية المناسبة للدول العربية فى إطار "ميثاق الضمان الجماعى العربى" .

ثم بدأت فكرة "الحزام الشمالى" والتى تطورت إلى "حلف بغداد" - تأخذ وضعها فيما بعد .. بدأ تنفيذ الفكرة بعقد معاهدة دفاعية بين تركيا وباكستان فى إبريل ١٩٥٤ . ولما كان الفراغ الجغرافى كبيراً بين البلدين كان من الضرورى العمل على سد هذا الفراغ الفاصل بين تركيا وباكستان لكى تكتمل فعلا فكرة "الحزام الشمالى" ولذلك تقرر ضم العراق وايران وبعض الدول العربية الأخرى إلى المعاهدة لتتحول بذلك إلى حلف دفاعى يشكل وحدة جغرافية متماسكة تمتد على طول الحدود الجنوبية للاتحاد السوفييتى ولها عمق إستراتيجى مناسب .

هكذا أعلنت العراق فى يناير ١٩٥٥ فجأة إنضمامها إلى الحلف الجديد ، ودعت الدول العربية الأخرى الى الاشتراك فيه . وأدركت مصر أبعاد المخطط الغربى وخطورته على المنطقة العربية .. فقررت أن تتصدى بكل قوة لحلف بغداد الجديد ولمحاولات ضم أية دولة عربية أخرى إليه . وشنت مصر حملة عنيفة ضد الحلف ومن ورائها العالم العربى بأسره ، خاصة بعد أن أعلنت بريطانيا إنضمامها للحلف فى ابريل ١٩٥٥ ، وأصبح ارتباطه المباشر بالغرب وبحلف شمال الأطلنطى أمر لا لبس فيه .وتركت هذه الحملة المصرية أثرها البعيد فى إتجاهات السياسة البريطانية .. التى اعتبرت دور مصر القومى فى هذه الحملة عملا معاديا لمصالحها فى المنطقة . وأثمرت هذه الحملة حيث فشلت مساعى بريطانيا لضم الاردن إلى الحلف فشلا ذريعا ، حينما أرسلت جنرال تمبلر للقيام بهذه المهمة فى ديسمبر ١٩٥٥ . وإزداد التحول العدائى للسياسة البريطانية تجاه مصر . وأخذ هذا التحول شكله النهائى فى مارس ١٩٥٦ ، عقب عزل الجنرال جلوب من منصبه كقائد للفيلق العربى الاردنى ، وطرده من الاردن . وهو الحادث الذى قضى على كل أمل لبريطانيا فى ضم الاردن إلى حلف بغداد .. وحول سياستها المعادية لمصر إلى خط ثابت لا رجعة فيه .

* * *

ولم تكتف مصر بدورها المناوىء للاحلاف الغربية العسكرية .. فخاضت إلى جانب ذلك معركة لا تقل أهمية ، هدفها تحقيق حرية الارادة المصرية وإثبات استقلالية القرار المصرى فى السياسة الخارجية . وكانت بريطانيا تسيطر على سياسة مصر الخارجية بشكل مباشر حتى عام ١٩٣٦ ، ثم بشكل غير مباشر بعد هذا التاريخ وإلى أن قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ . ولم تكن بريطانيا حتى ذلك الوقت تسمح أو تتصور قيام حكومة مصرية تسيطر على علاقات مصر الخارجية وتوجهها وفقا لمصالح البلاد فحسب . وجاءت الثورة بحكومة وطنية قومية ، جديدة على خريطة السياسة الدولية تتبنى سياسة خارجية نابعة من مصالح مصر وحدها فى إطارها القومى تتمسك بمبدأ الحياد الذى استمدته من تجاربها المفجعة على مدى ١٥٠ عاما أى منذ بداية القرن التاسع عشر مع دول العالم الكبرى . فهى ترفض الاحلاف العسكرية الغربية الموجهة ضد الاتحاد السوفييتى ، ولاتشارك فى الحرب الباردة المشتعلة بين القوى الكبرى ، تحاول أن تساوى فى علاقاتها الخارجية بين الدول الغربية والاتحاد السوفييتى على اعتبار أنها جميعا دول أجنبية .

كان هذا التحول الجذرى فى نظر الغرب يمثل إخلالا خطيرا بميزان القوى السياسية فى الشرق الأوسط ، وأصبح عليه أن يعيد حساباته الاستراتيجية بدقة شديدة وعلى أسس جديدة تماما بالنسبة لبلدان إفريقيا وآسيا .. أما بالنسبة لمصر فقد أصبح نظامها الثورى التحررى مثار قلق شديد للغرب .. وتزايد هذا القلق مع إنعقاد مؤتمر باندونج ثم مؤتمر بريونى فى يوجوسلافيا والذى ضم عبدالناصر وتيتو ونهرو كزعماء مؤسسين لحركة عدم الانحياز . ومع إستمرار هذا النمو الواضح فى شخصية مصر الدولية وثقلها على الصعيد الدولى ، ازدادت حلقات التآمر الغربى والصهيونى ضدها ، وأصبح القضاء على نظام مصر الثورى هدفا حيويا فى الاستراتيجية الغربية إستمر قائما لسنوات طويلة ، تعرضت مصر بسببه إلى حربين قاسيتين فى عامى ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ .

★ ★ ★

كان هدف إنشاء الجيش الوطنى القوى أحد الأهداف الهامة للثورة المصرية ، إتضحت أبعاده فوق أرض فلسطين من خلال المآسى التى شهدتها حرب فلسطين عام ١٩٤٨ . وتأكدت ضرورة تحقيق هذا الهدف بعد اعتداءات إسرائيل المتكررة على حدود مصر من أوائل عام ١٩٥٥ . وكانت مصر قد بدأت جهودها فى هذا الاتجاه مع الدول الغربية .. ولكن محاولاتها العديدة التى استمرت طوال عامى ١٩٥٣ ، ١٩٥٤ والنصف الاول من عام ١٩٥٥ منيت جميعها بالفشل .

لقد كان عام ١٩٥٥ هو العام الحاسم فى معركة كسر احتكار السلاح ، فهو يمثل نقطة تحول أساسية فى سياسة مصر الخارجية بشأن الحصول على ما تحتاجه من أسلحة . ففى هذا العام تأكدت مصر أن سعيها من أجل السلام دون قوة تسانده

أعطى قرار تقسيم فلسطين الصادر من الامم المتحدة عام ١٩٤٧ ، ٥٦٫٥ ٪ من مساحة فلسطين للدولة اليهودية ، واستولت على مساحة ٢٠ ٪ اخرى من فلسطين وضمتها لأرضها بعد حرب ١٩٤٨/٤٩

لن يجدى شيئا .. وأن الحاجة إلى جيش قوى يقف فى وجه القوى المعادية لمصر أصبح ضرورة ملحة . خاصة وأن الغرب الذى ماطل وسوّف فى تلبية طلبات مصر من السلاح ، كان يغدق على اسرائيل ــ الدولة المعتدية ــ ويعطيها كل ما تريده من دبابات وطائرات نفاثة حديثة . وكانت صفقة الأسلحة الفرنسية السرية التى نفذت فى عام ١٩٥٥ و ١٩٥٦ هى الدافع الأول الذى شجع اسرائيل على إتخاذ قرار الحرب وقيامها بالعدوان على مصر فى عام ١٩٥٦ . وكان لابد لمصر أن تحسم موقفها .. وأن تتخذ القرار المصيرى الضرورى لاعادة تسليح الجيش المصرى . وفى ٢٧ سبتمبر ١٩٥٥ أعلن الرئيس عبد الناصر عن قيام مصر بعقد صفقة أسلحة مع احدى دول الكتلة الشرقية وهى تشيكوسلوفاكيا "لكى تواجه أخطار التسليح الاسرائيلى ، وبعد أن فشلت كل جهودها فى الحصول على السلاح من الغرب" .

واهتز الغرب لهذا القرار الجرىء ، وراح يحذر من الخطر الشيوعى والتسلسل السوفييتى فى الشرق الأوسط ، ويتحدث عن صفقة الأسلحة و"حصان طروادة" .. وفى الواقع فان هذا القرار السياسى الاستراتيجى المصرى .. قد قلب تماما موازين القوى الدولية فى المنطقة .. ومن أبرز مادل عليهُ هذا القرار من مغزى .. أن مصر ــ الدولة الصغيرة ــ لم تعد تخضع للوصاية التى فرضها الغرب عليها .. وأنها أصبحت تملك إرادتها الحرة . ولذلك كان رد فعل هذا القرار قويا على الغرب .. ومنذ هذا التاريخ أصبح الهدف الأول للاستراتيجية الغربية فى منطقة الشرق الأوسط هو "القضاء على النفوذ السوفييتى فيها" والذى نجح فى دخول المنطقة .. وكانت مصر هى الدولة المسئولة عن إحداث هذا التطور الخطير الذى أخل بموازين القوى العالمية .. وما كان لمثل هذا "الجرم" الذى ارتكبته مصر أن يمر دون عقاب جسيم من الغرب .

★ ★ ★

سبق أن أشرنا إلى الفكرة الصهيونية التوسعية بالنسبة للاراضى العربية عموما .. أما بالنسبة لمصر فقد كانت شبه جزيرة سيناء مطمعا صهيونيا قديما ، وأملا إسرائيليا متجدداً ، سعت إلى تحقيقه أكثر من مرة ، ذلك أن الاستيلاء على سيناء يحقق لها إستراتيجيا "نقل حدود إسرائيل إلى قناة السويس" وإبعاد خطر مصر عن قلب اسرائيل تماما .. كما يحقق لها سياسيا ، ضرب مصر ذاتها أخطر مراكز الأشعاع القومى العربى وأقواها تأثيراً على العالم العربى . وكثيراً ما تحدث قادة إسرائيل عن "الحدود التى تضمن حمايتها ضد أكبر دولة عربية" .. معتقدين أن أفضلها هى قناة السويس كمرفق دولى حيوى ومانع مائى قوى "لن يكون فى وسع مصر عبوره" . ورسخ هذا الاعتقاد الخاطىء فى أذهان قادة اسرائيل منذ عدوان ١٩٥٦ وإستيلاء إسرائيل على سيناء .. وظل الأمر كذلك إلى أن نجحت مصر فى القضاء على هذا الاعتقاد يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ . فقد حدث عندما وقع

الهجوم الاسرائيلى على سيناء يوم ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ ، فى إطار مؤامرة العدوان الثلاثى على مصر ، وبعد أن سحبت مصر قواتها من سيناء ، أن وقف بن جوريون فى الكنيست الاسرائيلى بعد أيام ، ليعلن « أن شبه جزيرة سيناء وقطاع غزة قد أصبحتا جزءاً من إسرائيل" .. وفى هذا اليوم ، وقف ١٢٠ عضوا فى الكنيست ينشدون نشيد الأمل "هاتكفاه" معبرين عن فرحتهم بضم جزء جديد من "إسرائيل الكبرى" .

ولكن فرحتهم لم تدم اكثر من عدة أشهر ، حيث إضطرت إسرائيل إلى الانسحاب الكامل من سيناء فى مارس ١٩٥٧ .. تحت ضغوط لم تحتملها .. كان من بينها .. تصميم شعب مصر على الدفاع عن وحدة ترابه مهما كلفه ذلك .. ثم الموقف الحازم الذى وقفه المجتمع الدولى كله ضد مؤامرة العدوان الثلاثى بعد أن أدانها ودمغها بالخسة .

ورغم أن إسرائيل قد حصلت على مكسب هام نتيجة لمساوماتها بعد إنتهاء الحرب ، وهو فتح الملاحة البحرية والجوية لها عبر خليج العقبة ومضايق تيران عند شرم الشيخ ، فان هذا الكسب الهام لم يكن فى الواقع يمثل فى مخطط إسرائيل التوسعى سوى الهدف المرحلى الأدنى الذى وضعته لحربها فى عام ١٩٥٦ .. أما الهدف الأقصى لهذه المرحلة فكان "الاستيلاء على كل شبه جزيرة سيناء وضمها لاسرائيل" .

لذلك كان لابد لاسرائيل أن تنتظر الفرصة التالية حتى يمكنها إستكمال مخططها .. وأن تستعد لحربها الجديدة أفضل إستعداد ، واضعة فى الاعتبار الأهمية الأساسية لعلاج وتفادى أسباب الفشل السابق . ولذلك ما ان إنتهت حرب ١٩٥٦ حتى وضعت إسرائيل برنامجا مكثفا لاعادة تنظيم جيشها وتطوير تسليحه بأحدث الأسلحة خاصة من الدبابات والطائرات .. وفى نفس الوقت ركزت جهودها نحو الولايات المتحدة كدولة عظمى لتتولى دعم إسرائيل وحمايتها ، بعد أن قضت مؤامرة العدوان الثلاثى على نفوذ حليفتيها بريطانيا وفرنسا أو على قدراتهما . هكذا إتجهت اسرائيل خلال الستينيات بكل ثقلها ودهائها نحو إستقطاب الولايات المتحدة .. كما أعدت خططها العسكرية لغزو الأراضى العربية فى مرحلة مبكرة . وقد تأكد أمر هذه الخطط الاسرائيلية التى بُحثت ووضعت منذ عام ١٩٦٤ . وظلت إسرائيل طوال هذه السنين ، تنتظر الفرصة المواتية لها . إلى أن أتاحت لها تصرفات قيادة مصر فى مايو ١٩٦٧ ، الفرصة الثمينة التى انتظرتها طويلا .

المرحلية فى الخطط الصهيونية :

فى الواقع فان النظرية العسكرية الاسرائيلية الموضوعة من أجل تحقيق الغايات الصهيونية ، لم يكن يمكنها أن تقنع بالحفاظ على الوضع القائم أو تكتفى بالردع كوسيلة لفرض الأمر الواقع ، فقبل قيام اسرائيل وبعد قيامها لم يكن "قبول الأمر الواقع" سوى مرحلة على الطريق نحو الغايات الأكبر .. فهى عندما انسحبت

من سيناء عام ١٩٥٧ تحت ضغط الظروف الدولية ، لم يكن ذلك تخليا عن أهدافها التوسعية ، ولكنه كان قبولا مرحليا للأمر الواقع والذى لابد من تغييره لتحقيق مخططها عندما تحين الفرصة المناسبة .. **وإذا كانت جهود الولايات المتحدة قد ساهمت فى خروج اسرائيل من سيناء عام ١٩٥٧ ، فان ما حدث كان درسا استوعبته اسرائيل تماما وقررت أن تكون عودتها الى سيناء بعد ذلك بموافقة الولايات المتحدة ومن خلال علاقة أكثر تقاربا وارتباطا بها . ولعل ذلك يفسر لنا الفرق بين الحالتين .. ففى الحالة الأولى عام ١٩٥٧ احتلت اسرائيل سيناء ضد سياسة أمريكا فى ذلك الوقت واضطرت لذلك إلى أن تنسحب منها بعد خمسة أشهر فقط من احتلالها . أما فى الحالة الثانية عام ١٩٦٧ فقد ظلت اسرائيل تحتل سيناء فى ظل الحماية والدعم الأمريكيين حوالى خمسة عشر عاما .**

ومهما حاول الاسرائيليون اخفاء أهدافهم التوسعية واستخدام الفاظ كثيرة لتغطيتها مثل **"الحدود الآمنة" و "الطبيعية" و"التاريخية"** وكلها مترادفات فى القاموس الاسرائيلى لمعنى التوسع الأقليمى ، فأحيانا ما تنطلق على ألسنة قادتهم عبارات تكشف عن نواياهم .. فى مارس ١٩٦٤ وأمام المؤتمر الصهيونى السادس والعشرين . كان حديث ليفى اشكول رئيس وزراء اسرائيل واضحا تماما فى هذا المجال إذ قال :

"... ينبغى لنا من الآن ان نرسم الخطط لاستيعاب المليونين الرابع والخامس .. من أين ومتى يأتى ، وماذا سيكون مصير الشعب اليهودى فى الشتات .. وحتى تتمكن اسرائيل من الاستمرار فى رسالتها ، يجب أن يكون هناك توسع دائم فى السكان . إن المسألة ليست مجرد ايجاد ثلاثة ملايين أو خمسة ملايين يهودى فى الدولة .. إن مهمتنا لا تنتهى عند هذا الحد فهذه ليست نهاية الرؤية الصهيونية" .

فما هى ياترى حدود تلك الرؤية الصهيونية التى تحدث عنها أشكول عام ١٩٦٤ ، والتى لا تكتفى بجمع خمسة ملايين يهودى داخل اسرائيل ؟ وإلى أين سيذهب الباقون ؟ وما رسالة اسرائيل التى ذكرها ؟

إن الاجابة عن هذه الأسئلة تشكل حقيقة الدوافع الكامنة خلف حروب اسرائيل العدوانية وخلف عدوانها الذى حدث عام ١٩٦٧ بعد ثلاث سنوات فقط من خطاب اشكول . إن الرؤية الصهيونية التى تقوم على "جمع شتات كل يهود العالم داخل أرض اسرائيل التاريخية" ، تعنى بالضرورة دفع حدود اسرائيل إلى أن تضم أرضها التاريخية وفقا للعقيدة الصهيونية : أى مزيدا من التوسع داخل الأرض العربية .

ولم يكن العدوان الاسرائيلى الموسع ضد مصر والأردن وسوريا فى يونيه ١٩٦٧ ، هو المرحلة الأولى من مراحل التوسع ولكنه المرحلة الأكبر المدعومة

بتأييد الولايات المتحدة الأمريكية . وإذا كان هذا العدوان قد حقق نجاحا كبيرا وسريعا وغير متوقع فذلك بسبب التفكك العربى والأخطاء السياسية والعسكرية العربية القاتلة ، والتعجل الشديد الذى اتسم به تصرف مصر فى محاولتها التخلص من نتائج عدوان ١٩٥٦ والخاصة بفتح خليج العقبة للملاحة الاسرائيلية ووجود قوات الطوارىء الدولية على حدود مصر واسرائيل ، دون تدبير سياسى سليم أو تخطيط عسكرى منظم .

لقد أدى التزام النظرية الاسرائيلية العسكرية بالسياسة التوسعية الصهيونية ، مع صعوبة تحقيق غايات هذه السياسة دفعة واحدة الى اتباع **"منهج المرحلية"** فى تنفيذ المخطط التوسعى . وقد عبر موشى ديان عن هذا المنهج فى كتابه "خريطة جديدة وعلاقات مختلفة" الذى كتبه بعد عدوان ١٩٦٧ بقوله : "لقد أخذنا ننتقل من غير الممكن إلى الممكن .. فها نحن اليوم ننتشر فيما بين قناة السويس ومرتفعات الجولان .. لقد أصبح ذلك الآن ممكنا ! اننا نصل إلى الممكن عندما نؤمن بسلم يعقوب الذى يقف على الأرض وتصل قمته الى السماء .. وأحيانا نجد مثل هذه الأهداف المرحلية كما لو كانت مستحيلة التحقيق ، ولكن أقدامنا وهى تقف على أرض الواقع تتيح لنا أن نتقدم مرحلة بعد أخرى متجهين نحو تحقيق أهدافنا الكبرى" .

ولكى ندرك أبعاد ما عبر عنه موشى ديان نراجع معا بالأرقام كيف تطورت المساحة التى سيطرت عليها اسرائيل خلال عشرين عاما فيما بين عامى ١٩٤٧ و ١٩٦٧ :

● عند صدور قرار التقسيم من الأمم المتحدة فى نوفمبر ١٩٤٧ كانت أملاك اليهود فى فلسطين لا تتجاوز ٧,٥٪ من مساحتها البالغة حوالى ٢٧ ألف كيلو متر مربع .. ورغم ذلك فعندما صدر قرار التقسيم الذى أوصى بإقامة دولتين فى فلسطين احداهما عربية والأخرى يهودية مع تدويل منطقة القدس ، خصص القرار للدولة اليهودية مساحة تعادل تعادل ٥٦,٥٪ من مساحة فلسطين (أكثر من ١٥ ألف كيلو متر مربع) بينما خصص للدولة العربية مساحة تعادل ٤٢,٨٪ (حوالى ١٠,٥٠٠ كيلو متر مربع) وأحتفظ بنسبة ٧, ٪ كمنطقة دولية حول القدس . وهكذا حققت الصهيونية نجاحها الأول فى التوسع باستغلال الأمم المتحدة فى تخصيص أكثر من نصف مساحة فلسطين للدولة اليهودية .

● أما النجاح الثانى أو المرحلة الثانية للتوسع فقد تمخضت عن الجولة العسكرية الأولى عام ١٩٤٨ . وانتهت بضم مساحات تزيد على المساحة المخصصة فى قرار التقسيم بما يعادل ٢٠٪ من مساحة فلسطين لتصبح مساحة الدولة اليهودية بعد توقف الحرب معادلة لنسبة ٧٧,٤٪ من مساحة فلسطين (أكثر من ٢٠ ألف كيلو متر مربع) وما بقى منها وهو يعادل ٢٢,٦٪ فى قطاع غزة والضفة الغربية .

● ولما فشلت اسرائيل فى الاستيلاء على سيناء عام ١٩٥٦ ، عادت واقتنصت الفرصة فى عام ١٩٦٧ لتحقق النجاح الثالث أو المرحلة الثالثة وهى أكبر مراحل التوسع الاسرائيلى . ولم تكتف هذه المرة بسيناء (٦٠ ألف كيلو متر مربع) وقطاع غزة بل استولت كذلك على الضفة الغربية للأردن (حوالى ٦ آلاف كيلو متر مربع) والهضبة السورية (مرتفعات الجولان) ومساحتها تزيد على ١٠٠٠ كيلو متر مربع .. وبذلك تكون قد ابتلعت كل أرض فلسطين بالاضافة الى الأراضى المصرية والسورية . وقد بلغ اجمالى مساحة هذه الأراضى أكثر من ثلاثة أضعاف مساحة اسرائيل عام ١٩٤٨ وحوالى أربعة أضعاف مساحتها فى قرار التقسيم (هذا وقد عادت سيناء كاملة الى مصر فى ابريل ١٩٨٢ . ومازالت اسرائيل تحتفظ بقطاع غزة والضفة الغربية ومرتفعات الجولان اى حوالى ٧٠٠٠ كيلو متر مربع) .

ولكن ما الدروس الهامة التى خرجت بها إسرائيل من حرب ١٩٥٦ وهل إستفادت منها فعلا ؟ وما علاقة ذلك بحرب ١٩٦٧ ؟

ليس ثمة شك فى أن حرب العدوان الثلاثى على مصر فى خريف عام ١٩٥٦ قد فشلت فى تحقيق أهدافها .. وكان لهذا الفشل آثار سياسية واسعة النطاق .. ولكن ما يهمنا هنا أن نتناول الآثار العسكرية التى إنعكست على اسرائيل وقواتها المسلحة نتيجة لهذه الحرب .. وتأثير ذلك على مسار الصراع العسكرى بين العرب واسرائيل .. وكيف طورت اسرائيل سياستها الحربية تطويرا جذريا فى فترة ما بين الحربين وصولا إلى حرب ١٩٦٧ ؟

لعل أبرز الدروس التى خرجت بها إسرائيل من حرب ١٩٥٦ ، هى ضرورة الإعتماد عسكريا على نفسها بعد أن كلفها الاستناد على التدخل السافر لقوى الأستعمار الغربى من أجل الوصول إلى أهدافها ، خسائر سياسية كبيرة . ولقد أكد ديان فى بيانه أمام الكنيست فى مارس ١٩٥٧ :

"أن الفشل العسكرى ترتب فى حقيقة أمره على هزيمة سياسية ، لم يكن أمام إسرائيل إلا أن تتجرعها حتى الثمالة وتنسحب من كل الأراضى التى إحتلتها" .
وقد وضح لاسرائيل أن أى تواطؤ جديد سيكون الصخرة التى يتحطم عليها أى نجاح ، ولذلك أيقنت ألا مفر من تغيير سياستها الحربية على أساس توفير القدرة العسكرية الذاتية لانجاز أهدافها العسكرية دون إعتماد سافر منها على أحد . ولقد عزز هذا الاتجاه ما عانت منه إسرائيل من دولتى التواطؤ وما ثار خلال المؤامرة من تنازع وتضارب فى مجالى السياسة والحرب . فكانت هذه التجربة الفاشلة دافعا لاسرائيل ، لأن تعمل منفردة فى الحرب الحتمية القادمة ضد العرب . ولكى يمكنها أن تعمل منفردة كان عليها أن تركز جهودها أساسا على تطوير قواتها المسلحة وخلق قوة ضاربة فعالة وتوفير الأسلحة الحديثة خاصة من الدبابات والطائرات . كما إهتمت إهتماما كبيراً بالمشروعات العملية التى تخدم الصناعات الحربية والمجهود الحربى الذاتى لاسرائيل .

ولا شك فى أن حرب العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ ، كان لها آثارها الايجابية العميقة والمباشرة على فكر إسرائيل ، كما كان لها أثارها على فكر مصر .. الى أى الاتجاهات قادت نتائج هذه الحرب كلا من إسرائيل ومصر ؟

●

الفصل الثانى

عدوان ١٩٥٦
وأثره على حرب ١٩٦٧

إسرائيل ودروس حرب ١٩٥٦ :

انتهت حرب العدوان الثلاثى على مصر فى عام ١٩٥٦ بانسحاب اسرائيل من سيناء فى مارس ١٩٥٧ ، دون أن تحقق هذه المؤامرة الثلاثية أهدافها السياسية المرسومة . فقد ظل النظام الثورى فى مصر صامداً بل إزداد قوة وصلابة .. كما إتسعت مجالات التعاون المصرى السوفييتى ، بينما إستمرت ثورة الجزائر قوية متجددة بفضل مساعدات مصر إلى أن تحقق لها النصر فى عام ١٩٦٢ .

أما إسرائيل فقد إنسحبت من سيناء .. وكان كسبها الوحيد من وراء العدوان ، هو السماح لسفنها بالمرور فى مضايق تيران بخليج العقبة جنوبا إلى قارتى إفريقيا وآسيا عبر البحر الأحمر . وفيما عدا ذلك إعتبرت إسرائيل أن الحرب قد إنتهت الى فشل سياسى وعسكرى كبيرين ، سببه الاساسى إرتباطها التآمرى بالدولتين الكبريين بريطانيا وفرنسا وتعلقها بأذيالهما . وكان هذا هو الدرس الأساسى الذى تعلمته إسرائيل من هذه الحرب وإستوعبت مساوئه وأبعاده .. وعلى ضوء هذا الدرس الهام بنت إسرائيل فلسفة عسكرية جديدة . وضعت على أساسها سياستها الحربية لحقبة الستينيات ، وكان هدفها الأساسى إعادة بناء وتطوير القوات المسلحة الاسرائيلية على أسس جديدة ، إستعداداً للحرب الحتمية القادمة ، كما غيرت من توجهات سياستها الخارجية لتكون مسخرة لخدمة نظريتها العسكرية الجديدة .

بعكس ما حدث فى مصر .. درست اسرائيل بعناية فائقة نتائج حرب العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ واسباب فشلها عسكريا وسياسيا . وحددت اسباب هذا الفشل فى ثلاث نقاط اساسية :

● الاعتماد عسكريا وسياسيا على قوى اجنبية استعمارية اعتمادا سافرا (القوة العسكرية البريطانية والفرنسية) فى تحقيق الاهداف الاساسية للحرب .

● تحدى ارادة الولايات المتحدة الامريكية وعدم الرضوخ لرغباتها واستراتيجيتها فى منطقة الشرق الاوسط .

● صمود القوات المصرية فى مواقعها الدفاعية وفشل القوات الاسرائيلية فى احراز اى نصر عسكرى حاسم فى اى معركة .. بسبب ضعف بناء القوات المسلحة وضعف تدريب المقاتل الاسرائيلى .

وفى ضوء هذه النتائج المحددة وضعت اسرائيل نظريتها الجديدة بغرض تصحيح كل الاخطاء وتحديد افضل الوسائل والاساليب التى تضمن تحقيق النصر فى الحرب المقبلة . وقد بنت اسرائيل نظريتها الجديدة على دعامتين اساسيتين .

الأولى : الاعتماد عسكريا على القوة الذاتية لاسرائيل ..

والثانية : الاعتماد سياسيا على دولة كبرى تحمى اسرائيل وتدعمها سياسيا واقتصاديا وعسكريا . لقد طرح بن جوريون فى عام ١٩٥٧ مبدأ الاعتماد على القوة الذاتية كأفضل الحلول لتفادى ما وقعت فيه اسرائيل من محاذير وما واجهت من اتهامات وما تحملت من مضار سياسية نتيجة لتآمرها وتواطئها مع الدولتين الكبريين بريطانيا وفرنسا ، ورضيتً أن تعمل كمخلب قط لهما ، مما خلق ردود فعل عالمية اساءت الى الدولتين وسمعتيهما اساءات بالغة ، واصابت اسرائيل باضرار سياسية كبيرة .

ولتنفيذ نظرية بن جوريون الخاصة بالاعتماد على القوة الذاتية لاسرائيل وضعت السياسة الحربية المناسبة لذلك والتى استندت على مبدأين اساسيين .

الأول : الحصول على السلاح الحديث القوى الذى يحقق لاسرائيل قوة ردع عسكرية كبيرة وتحقيقا لهذا الهدف ركزت اسرائيل توجهاتها السياسية كمرحلة عاجلة نحو فرنسا والمانيا الغربية للحصول على الاسلحة اللازمة لها على وجه السرعة . أما الهدف البعيد فهو العمل على تحويل الولايات المتحدة الى المورد الأول للأسلحة اللازمة لاسرائيل .

الثانى : اعادة تنظيم وبناء القوات المسلحة الاسرائيلية لتصبح قوة ضاربة فعالة فى المنطقة قادرة على مجابهة أكثر من دولة عربية فى وقت واحد . ولمواجهة التفوق العربى العددى يجب ان يتخذ اعادة بناء القوات المسلحة اتجاهين أساسيين :

● خلق تفوق نوعى لتعويض الفارق الكمى بين اسرائيل والعرب ، وذلك سواء فى الجانب البشرى عن طريق "الهجرة المنتخبة" و"المتطوعين المتخصصين" ، أو فى الجانب العلمى والتكنولوجى عن طريق الارتباط الكامل بالتطور العلمى والتكنولوجى الغربى وخاصة الامريكى .

● تكوين قوة مسلحة رادعة وحاسمة فى نفس الوقت توفر عنصر "الردع والتخويف النفسى" للعرب وبالقدر الذى يمنع الدول العربية من التفكير فى أى

تحرك عسكرى أو تهديد بشن حرب ضد اسرائيل ، أو القيام بحرب شاملة فى حالة فشل عنصر الردع .

اما الجانب السياسى من النظرية فهدفه "ضمان امن اسرائيل ووجودها" وذلك بمواصلة دفع وحث الولايات المتحدة لتصبح هى **"الدولة الحامية لاسرائيل"** ، بعد انهيار هيبتى بريطانيا وفرنسا وانحسار نفوذيهما عن منطقة الشرق الاوسط .. وبذلك تصبح الولايات المتحدة هى البديل الطبيعى بل والافضل والاكثر نفعا لاسرائيل ، ليس فقط لضمان حمايتها ولكن كذلك لتصبح المورد الاول والرئيسى للاسلحة اللازمة لاسرائيل . وقد استغرق هذا الهدف الأخير كل الجهود السياسية والدبلوماسية الكثيفة والمركزة لاسرائيل طوال فترة حوالى ثمان سنوات لكى يصبح امرا واقعا وذلك من عام ١٩٥٧ حتى عام ١٩٦٥ .

★ ★ ★

تؤكد هذه السياسة الإسرائيلية التى اوضحناها النمط السليم الذى سار عليه الفكر العسكرى الاسرائيلى فى اعقاب الفشل العسكرى والسياسى فى عدوان ١٩٥٦ ، وكيف أصبحت فكرة "التفوق العسكرى الاسرائيلى القائم على الاعتماد الذاتى" أو سياسة "توازن القوى" كما يحلو للاسرائيليين تسميتها .. هى المحور الرئيسى الذى تدور حوله السياسة الحربية الاسرائيلية طوال السنوات التى تفصل بين حرب ١٩٥٦ ، وحرب ١٩٦٧ . اما "فكرة الردع" فهى لم تكن جديدة على الاستراتيجية الاسرائيلية ، ولكن ما استجد فى ذلك الوقت هو صبغ هذه السياسة بطابع اكثر عنفا وشدة ، متبعا شكل محاولات مستميتة ومتصلة من اجل الحصول على اكبر قدر من الاسلحة الحديثة ، والقادرة على تحقيق مثل هذا الردع النفسى العنيف . ومن ناحية اخرى اتخذت هذه السياسة طابعا جديدا ، اذ اصبح البديل الوحيد لسياسة الردع ـ اذا ما تعرضت للفشل ـ هو "الحرب الشاملة" وكان هذا هو المبدأ الذى طبقته اسرائيل فى حربها ضد مصر عام ١٩٦٧ ، وذلك عندما احست المؤسسة العسكرية الاسرائيلية فى ضوء القرارات السياسية المصرية ، ان قدرة اسرائيل على الردع قد بدأت تتضاءل . **فقد اعتبرت اسرائيل ان مدلول قرار مصر بشأن اغلاق خليج العقبة امام الملاحة الاسرائيلية ـ والذى صدر فى ٢٣ مايو ١٩٥٦ ، لم يكن مقصورا على مجرد فقد حرية الملاحة فى الخليج ، بل أصبح يعنى أن الردع الاسرائيلى بدأ يفقد تأثيره على العرب ، الامر الذى أزعج القيادات الاسرائيلية بشدة ، وأن اسرائيل لو سكتت على ذلك ، تكون قد فقدت قدرتها على الردع نهائيا وشلت يدها العليا وذراعها الطويلة بنفسها ، كان هذا هو تقدير القيادة الاسرائيلية للموقف يوم ٢٥ مايو ١٩٦٧ . ورغم ان القرارات التى اصدرتها مصر كانت تتعلق بسيادتها على اراضيها ومياهها الاقليمية ، لم تتوان اسرائيل عن شن "الحرب الشاملة" ضد مصر .**

★ ★ ★

كانت قضية الحصول على احدث الاسلحة هى القضية المحورية العاجلة التى دارت حولها السياسة الاسرائيلية فى اعقاب انسحاب القوات الاسرائيلية من سيناء فى مارس ١٩٥٧ . فى ذلك الوقت كان للمشاركة المباشرة والوثيقة بين اسرائيل وفرنسا قبل واثناء الحرب اثرها الكبير فى دعم علاقات البلدين . وقد استثمرت اسرائيل هذا الوضع لأقصى حد ضمانا لاستمرار فرنسا فى سياستها المؤيدة لاسرائيل ، ومضيها فى تقديم كل ما تطلبه من اسلحة ومعدات ، وقد وافقت فرنسا عقب انتهاء الحرب مباشرة على عقد صفقة اسلحة جديدة لتدعيم القوات الجوية الاسرائيلية ، واعلنت صراحة "انها غير نادمة على معاونتها لاسرائيل" بل انها ذهبت فى اوائل عام ١٩٥٧ الى حد تحريض اسرائيل على عدم الانسحاب من سيناء وعرضت استعدادها للوقوف بجانب اسرائيل حتى اذا ما تعرضت لفرض عقوبات أو استؤنفت أعمال القتال .. كل ذلك نكاية فى مصر التى كانت تقف بجانب الثورة الجزائرية الوطنية وتدعمها .

ورغم ان اسرائيل كانت قد بدأت منذ عام ١٩٥٧ البحث عن مصادر اخرى للسلاح خاصة من المانيا الغربية والولايات المتحدة .. فإنها حرصت دائما على الاحتفاظ بصداقتها القديمة مع فرنسا . وعندما تغير نظام الحكم فى فرنسا بعد "ثورة الجنرالات" ووصول الجنرال ديجول الى حكم فرنسا ، حاولت اسرائيل ان تجدد ارتباطاتها مع فرنسا رغم التغيير الكبير الذى طرأ على السياسة الخارجية الفرنسية .. ونجحت اسرائيل فعلا فى عقد صفقة أخرى جديدة من طائرات "ميراج" الحديثة مع فرنسا .

غير أنه فى عام ١٩٦١ بدأت اسرائيل تشعر باحتمالات تحول السياسة الفرنسية فى عهد ديجول ، بعد ان اختفى من مسرح السياسة الفرنسية معظم اصدقاء اسرائيل القدامى من العسكريين والسياسيين الذين شاركوا فى مؤامرة التواطؤ الثلاثى ضد مصر عام ١٩٥٦ . ومنذ ذلك الوقت توجهت جهود اسرائيل بتركيز نحو المانيا الغربية والولايات المتحدة .. وفى عام ١٩٦٤ زار اشكول رئيس وزراء اسرائيل فرنسا بعد زيارة ناجحة للولايات المتحدة . وفى هذه الزيارة حدد ديجول سياسة فرنسا بالنسبة للصراع بين العرب واسرائيل قائلا لاشكول : "ان فرنسا سوف تساعد الجانب الذى يقف الحق فى جانبه" .

* * *

ويبدو ان اشكول قد فهم انه المقصود بصاحب الحق الذى اشار اليه ديجول فعاد الى اسرائيل مطمئنا لموقف فرنسا كما اطمأن لموقف الولايات المتحدة من العدوان المبيت والذى انتهى التخطيط له وبدأ الاعداد لشنه ضد الدول العربية .

من ناحية اخرى استغلت اسرائيل علاقتها الخاصة بالمانيا الغربية فى فتح نافذة جديدة لتسليحها فبدأت فى يونية ١٩٥٧ مطالبة المانيا الغربية بدفع ٢٠٪

من اقساط اتفاقية التعويضات السنوية ـ التى تدفعها المانيا لاسرائيل منذ عام ١٩٥٢ ـ فى شكل معدات للتصنيع الثقيل اللازم لدعم الصناعات الحربية الاسرائيلية ـ وجاءت الخطوة الثانية فى عام ١٩٥٩ عندما توصلت اسرائيل إلى اتفاق مع المانيا الغربية بشأن بيع بعض انواع الاسلحة الاسرائيلية لها ، فى مقابل حصول اسرائيل على معدات حربية المانية .

وبدأت اسرائيل تحركها الجدى تجاه المانيا الغربية فى مارس ١٩٦٠ عندما توجه بن جوريون فى زيارة غير رسمية الى الولايات المتحدة ليطلب منها التدخل بالضغط على المانيا الغربية لكى تقبل تزويد اسرائيل بأسلحة امريكية من الجيش الالمانى .. وكان اديناور مستشار ألمانيا الغربية فى زيارة للولايات المتحدة فى ذلك الوقت ونجح بن جوريون فى الحصول من اديناور على موافقته المبدئية بشأن تزويد اسرائيل بما تحتاج اليه من اسلحة . وبدأت اسرائيل تقترب من هدفها الاساسى الخاص بعقد صفقة اسلحة ضخمة مع المانيا الغربية تركز فيها على الاسلحة الثقيلة كالطائرات والدبابات والمدافع . وقد بارك الرئيس الامريكى كنيدى عقد هذه الصفقة ووافق عليها فى مايو ١٩٦٢ . ولما كان الشغل الشاغل لاسرائيل فى ذلك الوقت هو "انشاء القوة الضاربة المدرعة لقواتها البرّية" لذلك كانت الدبابات الامريكية من طراز "باتون" تشكل القسم الاساسى من صفقة الاسلحة الالمانية الغربية . وهى الدبابات التى شكلت القوة الضاربة الاساسية للقوات الاسرائيلية فى حرب ١٩٦٧ .

وفى عام ١٩٦٤ ، بينما يتدفق سيل الاسلحة والمعدات على اسرائيل ، بدأت انباء هذه الصفقة تتسرب الى الصحافة العالمية وكثر الحديث عن الأسلحة التى تنقل سرا من المانيا الغربية الى اسرائيل . وهكذا بدأت أزمة شديدة فى العلاقات بين المانيا الغربية والدول العربية التى هددت بقطع علاقاتها الدبلوماسية مع المانيا الغربية احتجاجا على تزويدها اسرائيل بالاسلحة والمعدات والطائرات . واضطرت المانيا فى فبراير ١٩٦٥ الى وقف ارسال باقى صفقة الاسلحة من الدبابات وطائرات الهليكوبتر والمدافع ذاتية الحركة الى اسرائيل ولكن بعد ان كان معظمها قد وصل إليها فعلا . وارضاء لاسرائيل دفعت المانيا الغربية ثمنا لذلك موافقتها على اقامة علاقات دبلوماسية مع اسرائيل ، وتعويضها ماليا عن الاسلحة الباقية .. رغم تكفل الولايات المتحدة بارسال هذه الاسلحة لاسرائيل . وتبعا لذلك اعلنت كل الدول العربية (عدا تونس والمغرب ولبنان) قطع علاقاتها الدبلوماسية بالمانيا الغربية .

★ ★ ★

اهتمت النظرية العسكرية الاسرائيلية الجديدة التى تبلورت بعد حرب العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ اهتماما اساسيا بتطوير القوة العسكرية الاسرائيلية وذلك فى ضوء الاثار الجذرية التى عكستها هذه الحرب على السياسة الحربية الاسرائيلية . وتبلورت فى بروز مبدأ "الاعتماد على القوة الذاتية الاسرائيلية" ـ كما سبق ان

اشرنا ـ باعتبار ذلك هو اهم دروس الحرب من وجهه نظر السياسة الحربيه الاسرائيلية وقد تطلبت هذه القوة الذاتية بناء قوات مسلحة حديثة تتمتع بالقدرة على العمل المستقل ، سواء كان هذا العمل فى مجال "الردع الجسيم" للعرب أو "فى مجال العمل الحاسم" بشن الحرب الشاملة ضدهم .

لذلك فان الاركان العامة الاسرائيلية ـ وقد وعت الدروس التى اظهرتها احداث عام ١٩٥٦ ـ وعلى ضوء الاستراتيجية الهجومية التى تعتنقها ـ وضعت نصب عينيها هدفا اساسيا ، حاولت تحقيقه فى هذه المرحلة الجديدة من اعادة بناء وتنظيم القوات المسلحة . وكان هذا الهدف هو "خلق قوة ضاربة للقوات المسلحة الاسرائيلية" وقد حددت الاركان العامة الاسرائيلية ثلاثة عناصر اساسية لتكوين هذه القوة الضاربة الفعالة هى : القوات الجوية والقوات المدرعة ، وقوات المظلات .

وفى عام ١٩٥٨ عين حاييم لاسكوف رئيسا للاركان العامة خلفا لموشى ديان ، ليحمل مع بداية عهده مسئولية تنفيذ السياسة الحربية الجديدة ، فقام بوضع برنامج اسماه "برنامج الردع" هدفه اعادة تنظيم وتشكيل وتسليح القوات المسلحة وزيادة حجمها وتدعيمها وتدريبها على الاسلحة الحديثة التى تعاقدت عليها اسرائيل عقب الحرب ، بحيث يمكن انشاء جهاز عسكرى قوى مع وضع نظام صارم للأسبقيات يرتكز على :

- بناء قوة جوية كبيرة من الطائرات القاذفة المقاتلة .
- انشاء قوة ضاربة مدرعة وميكانيكية وسلاح متخصص للمهندسين .
- انشاء قوة اقتحام جوى رأسى وجنود المظلات على كفاءة عالية .

كانت هذه هى الأسس الجوهرية التى حكمت بناء وتنظيم وتدريب الجيش الاسرائيلى واستمرت قائمة ومتبعة طوال السنوات التالية لحرب ١٩٥٦ وحتى عام ١٩٦٧ . وبناء على ذلك سعت اسرائيل للحصول على طائرات "سوبر مستير" ثم طائرات "ميراج" من فرنسا ، كما حصلت على دبابات "سنتوريان" من بريطانيا ، ودبابات باتون وطائرات هليكوبتر من المانيا الغربية ثم الولايات المتحدة فضلا عن كميات ضخمة من الاسلحة والمعدات الحديثة تشمل المدفعية ذاتية الحركة والمدفعية المضادة للطائرات والناقلات المدرعة وغيرها من المعدات . وفى عام ١٩٦٢ وافقت الولايات المتحدة لاول مرة على تزويد اسرائيل بصواريخ ارض/جو من طراز "هوك" الامريكية الصنع .. وفى عام ١٩٦٦ نجحت اسرائيل فى الحصول لاول مرة كذلك على صفقة من الطائرات الامريكية القاذفة المقاتلة من طراز "سكاى هوك" .

وبناء على هذه السياسة تبلورت الاستراتيجية الاسرائيلية حول مبدأ هام : "ان الهجوم هو الشكل الرئيسى للاعمال الحربية ، واصبح "الهجوم

الاستراتيجى" هو اساس كل الاعمال الاستراتيجية "حتى يمكن حماية الاهداف الحيوية والتغلب على ضحالة العمق الاستراتيجى لاسرائيل وبالتالى دعم عناصر الامن القومى الاسرائيلى" .

★ ★ ★

من البدهى ان مثل هذه المهام كانت تتطلب قوات على درجة عالية من الاستعداد القتالى وقوة هجومية ضاربة كبيرة ، تتميز بعنف الصدمة وسرعة الحركة والقدرة على الحسم . ولهذا ركزت اسرائيل على القوات الجوية لحسم الموقف فى الجو والقوات المدرعة لحسمه على الارض بالتعاون مع القوات الجوية . ان مثل هذا الاختيار النابع من التقييم الصحيح للاهمية الحاسمة للمرحلة الافتتاحية للحرب ، كان يقتضى بالضرورة الاهتمام بتحقيق السيطرة الجوية بمجرد نشوب الحرب ، مع توفير الدعم الجوى الكبير لمعاونة القوات البرية وضمان نجاحها السريع .. وحتى لا تتحول الحرب السريعة الخاطفة الى حرب استنزاف طويلة غير مضمونة العواقب .. ومن هذا المنطلق جاءت فكرة ضرورة أن تفتتح الحرب بتوجيه "الضربة الجوية المفاجئة" . وفى عام ١٩٦٢ اوضح شيمون بيريز (الذى اصبح نائبا لوزير الدفاع الاسرائيلى) فى مجال دراسة الاسلحة الحديثة وتحديد اتجاهات الجهود الرامية للحصول عليها : **"ان المبدأ الرئيسى الذى يشغل اذهاننا وتفكيرنا حول امن اسرائيل ، هو تدعيم القوات الجوية ، فان الجانب الذى سيفاجىء خصمه من الجو سوف يفوز بتفوق حاسم يحدد فى الواقع مصير الحرب من البداية . ان المعركة الفاصلة ستتحقق بالطائرات فى الجو وبالمدرعات على الارض" .**

وفى عام ١٩٥٨ عين عايزر وايزمان قائدا للقوات الجوية وبدأ يضع هذه النظريات موضع التطبيق ، فحدد المعالم الاساسية لاسلوب تسليح واستخدام القوات الاسرائيلية وطبيعة مهامها فى الحرب المقبلة . وفى مجال البحث عن سلاح ردع قوى لاسرائيل ، درست فكرة الحصول على صواريخ ارض / ارض (كانت مصر قد اعلنت فى ذلك الوقت عن انتاجها لصواريخ ارض / ارض) ولكن اسرائيل كانت ترى فى ذلك الوقت ، ان الصواريخ ارض / ارض سلاح يوفر "ردعا معنويا" وقت السلم واثناء التوتر ، الا ان تكاليفها باهظة لا تحتملها الدول الصغيرة . واسرائيل فى حاجة الى سلاح قادر على حسم الحرب وتحقيق النصر ، لذلك فان القوات الجوية هى التى يمكنها تحقيق هذا الغرض . فلم يركز وايزمان الا على الصواريخ ارض / جو حتى يمكن توفير دفاع جوى قوى ليس فقط بالطائرات ولكن بالصواريخ والاسلحة المضادة للطائرات . كما اهتم وايزمان باختيار انسب الطائرات اللازمة لمهام القوات الجوية الجديدة . وركزت اسرائيل على الطائرات التى تتمتع بطول المدى والقدرة على اختراق الدفاع الجوى المعادى ، والقيام بقذف الاهداف العربية بحمولة كبيرة من القنابل والصواريخ .

ولم تقتصر مهمة عايزر وايزمان على وضع وتطبيق الفلسفة الجوية الاسرائيلية ، بل بدأ منذ عام ١٩٦٢ فى وضع الخطط الجوية والاستعداد لتوجيه الضربة الجوية ضد مصر . وفى عام ١٩٦٣ صرح وايزمان بقوله "فى حالة الحرب مع العرب فان أفضل أساليب الدفاع هو العمل على تهديد دمشق واحتلال الضفة الغربية والاندفاع نحو قناة السويس" هكذا حدد وايزمان فى عام ١٩٦٣ الاستراتيجية الاساسية والخطط الجوية لجولة يونية ١٩٦٧ ، اى قبل بدء الحرب بأربع سنوات .

★ ★ ★

أما بالنسبة للقوات البرية فقد حظيت القوات المدرعة فى البر بنفس الاهتمام الذى حظيت به الطائرات فى الجو .. خاصة بعد ان حددت الاستراتيجية الاسرائيلية شكل الحرب البرية القادمة على اساس "الحرب الميكانيكية" التى تعتمد على القوات المدرعة الكبيرة ، تكون مهمتها نقل الحرب الى ارض "العدو" والوصول بها الى نتائج حاسمة .. ولذلك اعتبر تطوير القوات المدرعة الاسرائيلية وتدعيمها هو العمل الذى سيحول الجيش الاسرائيلى الى جيش حديث قادر على شن الحرب الميكانيكية . التى تقوم على اختراق الدفاعات وشق الطريق الى عمق دفاعات "العدو" فى فريق متجانس يضم وحدات ميكانيكية ووحدات مهندسين ووحدات مظلات .

ان الحرب الميكانيكية الخفيفة الحركة ، تتميز بالمواقف المائعة ، وقد ادركت القيادة الاسرائيلية انه فى ظل ظروف الحرب الحديثة اصبحت "القيادة والسيطرة على القوات" هى العامل الاول فى ضمان النجاح والنصر . ولذلك اهتمت اهتماما كبيرا باختيار وتدريب القادة والتركيز على نوعية الفرد ورفع مستوى الانضباط ومستوى الكفاءة الفنية والقدرة القتالية ، بحيث اصبحت القوات المدرعة الاسرائيلية قادرة على خوض الحرب الميكانيكية الحديثة الخفيفة الحركة فى مسرح عمليات مثالى وارض صالحة تماما لفتح واستخدام تشكيلات ضخمة من المدرعات .

★ ★ ★

ولم تتوقف جهود التطوير العسكرى فى اسرائيل عند هذا الحد ، بل اهتمت اهتماما بالغا بتحقيق التفوق النوعى للقوى البشرية كذلك .. باختيار العناصر الصالحة للعمل على الاسلحة والمعدات الحديثة والوظائف العسكرية التى تتطلب مستوى ثقافيا خاصا فى ظل التطور العلمى والتكنولوجى الهائل فى الاسلحة والمعدات الحديثة . ولما كانت دولة كاسرائيل محدودة فى قواها البشرية التى لا تتناسب مع اطماعها التوسعية وحاجتها المستمرة الى القوة العسكرية لتحقيق اهدافها ، فاننا نجد ان جيشها يعتمد الى حد كبير على عناصر الاحتياط . ولهذا فان حياة المعسكرات تعتبر قصيرة بالنسبة للغالبية العظمى من الضباط والجنود

مما أثر على مستوى الاحتراف ومستوى الانضباط . وقد تم علاج هذا القصور عن طريق المستعمرات الزراعية الجماعية "كيبوتز" حيث اصبحت معملا لخلق المواطن المؤهل ايديولجيا وعسكريا او كما اطلق عليه بن جوريون "المقاتل البناء" .

من ناحية اخرى وضعت اسرائيل العديد من النظم التى تكفل حشد اكبر قدر من القوى البشرية ، فطورت نظم التعبئة العامة لتتناسب مع الاطار الجديد للقوات المسلحة والذى دخلت به حرب ١٩٦٧ .. واشتمل التطوير كل نظم واساليب التجنيد اللازمة لشن "الحرب الشاملة" ضد الدول العربية المجاورة لها دون اعتماد سافر على حليف كما حدث فى عام ١٩٥٦ ، ولذلك ارتفع وعاء التعبئة من ١٥٠ الفا فى عام ١٩٥٦ الى ٢٥٠ الف رجل أمكن حشدهم فى عام ١٩٦٧ . وقد امكنها فى ظل هذه النظم عندما اعلنت التعبئة العامة فى مايو ١٩٦٧ ، ان ترفع حجم قواتها البرية النظامية الى سبعة امثالها تقريبا خلال فترة لم تتجاوز اسبوعين . وبذلك تكون اسرائيل قد عبأت لحرب ١٩٦٧ ما يعادل نسبة ١١٪ من اجمالى عداد سكانها فى ذلك الوقت وهى نسبة عالية جدا تناهز ٢٥٪ من القوة البشرية العاملة فى اسرائيل .

ولقد استمرت جهود اسرائيل طوال تلك السنوات لتحويل المجتمع الاسرائيلى كله الى "مجتمع عسكرى" وتنمية مجموعة من الطباع المتطرفة بين شباب المجتمع والجيش الاسرائيليين كالقوة والعنصرية والتعصب والعدوان ، انعكست بالتالى على اساليب القتال ومفاهيم الحرب وساهمت بعد ذلك فى تجسيد المفاهيم الخاطئة التى سادت فى اسرائيل بعد حرب ١٩٦٧ حول "الجندى الذى لا يقهر" ! ولعل فيما كتبه الكاتب العسكرى الاسرائيلى "ليوهايمان" فى وصفه لاسرائيل عندما تحولت الى "معسكر مسلح" وقت الحرب ، خير تعبير عن هذا الوضع بقوله :

"ان اسرائيل البلد الصغير ذا المصادر المحدودة ، يمكنه ان يتحول زمن الحرب وبمجرد اعلان التعبئة الى معسكر مسلح ، ويرجع هذا التحول السريع الى وجود نظام دقيق ومتكامل للتعبئة . نظام قادر على تسخير كافة الطاقات البشرية للمجتمع بدءا من رجال المناجم والملاحين حتى ربات البيوت واطفال المدارس ، وتعبئتهم فى الوقت والمكان المناسبين ، وبدون هذا النظام الدقيق لا يمكن ان تتحول البلاد الى آلة حربية سهلة الدوران قادرة على التصدى لقوات معادية متفوقة عدديا" .

هكذا .. أعدت اسرائيل مجتمعها وجيشها لخوض الحرب حين وقعت فى عام ١٩٦٧ فهل اكتفت بهذا الاعداد العسكرى والاجتماعى ؟ أن اسرائيل لم تكتف باعداد المجتمع الاسرائيلى للحرب بل انها اعدت المجتمع الدولى لقبول هذه الحرب والوقوف بجانبها كذلك ..

مصر ونتائج حرب ١٩٥٦ :

وللأسف أننا فى مصر لم نعامل هذا الحدث الخطير بما يستحقه من اهتمام ودراسة ، فقد استغرقنا النجاح السياسى ، وجذبنا بريقه وردود فعله فى المنطقة العربية ، وألهانا الانتشار السياسى والعسكرى الواسع لمصر فى المنطقة العربية - سوريا ، العراق ، اليمن ، الجزائر - عن المصالح المباشرة لمصر وعن الأخطار المعرضة لها ، وعن تطورات الوضع العسكرى فى المنطقة وكذا عن تقدير مخاطر التطور الكبير الذى طرأ على سياسة الولايات المتحدة خلال النصف الأول من حقبة الستينيات ودخولها حلبة الصراع فى المنطقة الى جانب اسرائيل وتحولها الى الدولة الحامية لاسرائيل ومموردها الأول للسلاح . لم تعط مصر الاهمية الكافية لمواجهة هذه التطورات التى أصبحت تهدد أمن مصر القومى تهديدا مباشرا .

إن الفشل الذريع الذى حاق بقوى العدوان الثلاثى على مصر فى خريف عام ١٩٥٦ ، كان محصلة طبيعية لمجموعة من الظروف غير الطبيعية ، التى تجمعت فى لحظة تاريخية معينة بشكل قد لا يكرره التاريخ مرة أخرى . وقياسا على ذلك يمكننا القول ان النجاح السياسى الذى تحقق لمصر نتيجة هذا العدوان كان هو الصدى الطبيعى لما منى به العدوان من فشل .. بمعنى ان هذا النجاح لم يأت نتيجة لنصر عسكرى حاسم أو عمل سياسى فرضته مصر على خصومها .. ان هذا القول لا ينفى بالطبع الدور العظيم والهام الذى لعبته قوات مصر المسلحة وشعبها الصامد الشجاع فى التأثير على تداعيات الاحداث ونتائج العدوان .. وقد قصدت ابراز هذه الحقيقة فى البداية لما كان لها من تأثير مدمر على مقاييس ومفاهيم النصر والهزيمة فى تفكير القيادات المصرية السياسية والعسكرية بعد ذلك .

★★★

كذلك من حقائق هذه الحرب التى لم نحسن قياسها فى السنوات التالية الدور الأساسى الذى لعبته القوى الدولية والعالمية الذى كان له الاثر المباشر على وقف العدوان وافشاله .

.. كما أن العدوان ذاته كان له اثره الكبير على مسار السياسة الدولية فى منطقة الشرق الأوسط ، وعلى اظهار فاعلية الدور الامريكى الذى مارسته الولايات المتحدة اثناء وقوع العدوان وبعده .. الأمر الذى ادى الى انتهاء العدوان دون أن يتمكن اى طرف شارك فيه من الحصول على اى مكاسب سياسية .

ولقد عمقت هذه الابعاد كلها ، الدور العظيم الذى لعبه شعب مصر ، وما ابداه من اصرار على مواجهة المعتدين ، وصمود فى وجه العدوان ، واستعداد للتضحية

والفداء من أجل مصر وكرامتها وحريتها .. لقد كان ما حدث عاملا اساسيا هاما دفع الكثير من دول العالم الى شجب العدوان بشدة والوقوف ضد الدول المعتدية والى جانب نصرة الحق المصرى . ومما زاد من اصرار شعب مصر فى ذلك الوقت واعطى له ذلك الطابع الرائع .. حرصه الشديد على عدم التفريط ابدا فيما حققه من مكاسب وطنية ظل يكافح من أجلها اثنى وسبعين عاما الى ان تخلص من الاحتلال البريطانى بجلاء اخر جندى بريطانى عن ارض مصر فى شهر يونية ١٩٥٦ اى قبل وقوع العدوان بأربعة اشهر فحسب .. **لذلك عندما قامت الحرب وبدأ العدوان البريطانى الفرنسى ضد مصر وضد شعب بورسعيد الآمن .. كانت مصر حكومة وشعبا على استعداد كامل لبذل كل التضحيات من أجل رفض ومنع عودة الوجود الاستعمارى الى ارض مصر مرة أخرى ومهما كان الثمن .**

★ ★ ★

لقد تحطمت كل اهداف العدوان الثلاثى على صخرة صمود الشعب المصرى وتأييد المجتمع الدولى له ووقوفه بجانب الحق والعدل . فضلا عن الدور الذى لعبته الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى كل من وجهة نظره وبدافع الحرص على مصالحه . ولكن رغم ضخامة الأحداث وجسامة الاخطار التى تعرضت لها مصر فى ذلك الوقت ، فان السرعة التى زالت بها آثار هذا العدوان خلال فترة اقل من ستة أشهر حين عادت سيناء كاملة الى مصر ، قد أثارت المشاعر الوطنية الفياضة فحسب .. وفى خضم هذه المشاعر يبدو أن قيادات مصر لم تحاول ان تقيس نصرها السياسى الذى تحقق على قوى عدوانية عاتية بالمقاييس العلمية الصحيحة التى تقدر بدقة العوامل الحقيقية التى أدت اليه ، وكيف تجمعت هذه العوامل المحلية والاقليمية والعالمية لتساهم ـ فى اشكال متعددة وبدرجات متفاوتة ـ فى افشال العدوان . كان ذلك كله فى امس الحاجة الى الدراسة الامنية والتقييم العلمى السليم ، فضلا عن الادراك الواعى العميق لحقائق الاوضاع التى صاحبت عدوان ١٩٥٦ ، وذلك حتى نستفيد من دروس الماضى ولا ننخدع بعد ذلك عندما تصادفنا ظروف مماثلة أو نتعرض لعدوان جديد .

لقد أغفلنا دراسة هذه العوامل السياسية الهامة رغم ارتباطها الوثيق بأوضاعنا وبالاوضاع الدولية الحيوية والاستراتيجيات العالمية المحددة .. ولم نع الدرس وعدنا الى اغفال دراسة نفس العوامل الدولية والعالمية مرة أخرى عندما ارادت القيادة السياسية أن تحقق انجازا سياسيا هاما فى عام ١٩٦٧ .. مع علمها بأن مثل هذا الانجاز سيكون له اثاره السياسية والعسكرية اقليميا وعالميا .

وكانت النتيجة الحتمية لهذا الاغفال أن ضلت قيادات مصر فى ذلك الوقت الطريق السليم ، وذلك لعدم استيعابها للفارق الهائل بين العوامل التى صاحبت

مؤامرة العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ وموقف القوى الكبرى منها ، وخاصة موقف الادارة الامريكية تحت رئاسة ايزنهاور ومعارضته للسلوك البريطانى والفرنسى تجاه مصر من منطلق علاقات التحالف فيما بين هذه الدول وليس من منطلق الحرص على مصلحة مصر .. وبين عدوان ١٩٦٧ ، وهو عدوان مدبر ومبيت ، تحددت اهدافه منذ سنوات .. ووقفت الادارة الأمريكية تحت رئاسة ليندون جونسون خلفه ـ بعد أن باركته وصدقت عليه . تؤيده وتدعمه . وكان معروفا ان جونسون يناصب مصر ونظامها الثورى العداء ، بل ان العمل على تقويض هذا النظام الثورى والقضاء عليه وعلى كل اثاره التى انتشرت فى المنطقة العربية والعالم الثالث ، كان أحد اهداف الاستراتيجية الامريكية فى منطقة الشرق الاوسط والمقررة منذ نهاية عدوان ١٩٥٦ .

★ ★ ★

كان الأثر التالى الذى ترسب فى ذهن القيادة المصرية السياسية والعسكرية ، تلك التجربة الناجحة التى خاضتها قواتنا المسلحة فى سيناء عندما صدر القرار الخاص باخلاء شبه جزيرة سيناء من القوات مساء يوم ٣١ أكتوبر ١٩٥٦ وبعد أن تكشفت ابعاد المؤامرة الثلاثية على مصر . وكان القتال مشتعلا فى سيناء ضد القوات الاسرائيلية منذ ثلاثة أيام دون أن تحقق اسرائيل اى نجاح . لقد اتخذ هذا القرار الاستراتيجى ـ بينما كانت قواتنا مشتبكة فعلا مع القوات الاسرائيلية فى سيناء ـ بهدف تجميع جنود القوات المسلحة المصرية فى مناطق غرب القناة ووادى النيل لمواجهة عدوان اكبر وأخطر وابعد اثرا على مصير البلاد ، من الدولتين الكبريين بريطانيا وفرنسا .

وقد جاء النجاح الذى احرزه هذا القرار فى ظل موقف استراتيجى عام كان يحتم توحيد جهود القوات المسلحة فى الاتجاه الرئيسى وضد العدو الرئيسى .. ومن ناحية اخرى كان الصراع العسكرى قد بدأ يتحول من مواجهة عسكرية بين جيشين الى حرب وطنية على مستوى البلاد ، يشنها الشعب وقواته المسلحة ضد قوات المعتدين . كان ذلك من الناحية الاستراتيجية ، اما الناحية العسكرية للقرار ، فقد وضع القرار فى اعتباره الحجم المحدد لقواتنا فى سيناء فى ذلك الوقت والذى لم يتجاوز ٢٠٪ من حجم القوات التى حشدت فى سيناء عام ١٩٦٧ ، كما وضعت خطة سليمة متكاملة لتنفيذ هذا الانسحاب بشكل منظم وعلى عدة مراحل استغرق تنفيذها ثلاثة أيام (٣١ أكتوبر ، ١ ـ ٢ نوفمبر ١٩٥٦) .

وبناء على هذه العوامل فان قرار الانسحاب الذى اتخذ يوم ٣١ اكتوبر ١٩٥٦ ، يعتبر من حيث الظروف الزمانية والمكانية والتقديرات الاستراتيجية للصراع ، سواء بالنسبة لابعاده أو بالنسبة للقوى الكبيرة المساهمة فيه والتى اقتحمت الموقف وفرضت وجودها على تطور الحرب .. قرارا سليما من كل الوجوه.وبكل المقاييس العسكرية الاستراتيجية والسياسية . لذلك فقد أدى الغرض الذى اتخذ من أجله بنجاح . ويكفى أن هذا القرار قد ادى الى انقاذ قسم كبير من قواتنا

المسلحة كان يراد بها السقوط فى مصيدة نصبت لها فى سيناء لكى تدق عظامها بين مطرقة القوات الاسرائيلية المتوغلة فى سيناء وسندان القوات البريطانية والفرنسية بعد أن تحتل خط قناة السويس وتمنع قواتنا من العبور الى الغرب .

ولذلك كله فان محاولة تكرار التجربة مرة أخرى فى معارك ١٩٦٧ كانت محاولة فجة ومتسرعة اتخذ القرار فيها بتعجل وبدون دراسة كما أن توقع ان تحدث نفس النتائج التى حدثت فى عام ١٩٥٦ كان خطأ فاحشا فى التقدير نظرا للاختلاف البين فى الظروف . ان قرار الانسحاب من القرارات العسكرية الصعبة والخطيرة ، والتى لا تتخذ سوى فى ظل ظروف قهرية معينة أو من أجل تنفيذ مناورة واسعة بالقوات لتحقيق هدف استراتيجى هام .. والانسحاب المنظم له أسسه ومبادئه وأساليبه التى تصونه وتحافظ على نظامه حتى لا يتحول الى تقهقر أو كارثة ، خاصة اذا كان ينفذ تحت ضغط قوات العدو كما حدث فى عام ١٩٦٧ ، الأمر الذى سنتناوله فيما بعد .

★ ★ ★

لعل ابرز الآثار التى ترتبت على عدوان يونيه ١٩٥٦ وكانت له صلة مباشرة بالاحداث التى ادت الى اشتعال الحرب فى يونيه ١٩٦٧ .. ذلك الاتفاق بين مصر واسرائيل عن طريق الولايات المتحدة الخاص بانسحاب اسرائيل من سيناء فى عام ١٩٥٧ . وكان هذا الاتفاق ذا شقين : الاول وهو الشق المعلن ويختص بقبول وجود قوات الطوارىء الدولية على الحدود بين مصر واسرائيل ، وكذا - وهو الأهم - وجود هذه القوات فى منطقة شرم الشيخ حيث تقع مضايق تيران التى تتحكم فى الملاحة بخليج العقبة - أما الشق الثانى الذى لم يعلن عنه ، فكان يختص بالسماح للسفن الاسرائيلية بالمرور فى مضيق تيران وفتح الملاحة لها الى البحر الاحمر وذلك فى مقابل انسحاب اسرائيل الكامل من اراضى شبه جزيرة سيناء . **وقد تعهدت الولايات المتحدة لاسرائيل بضمان "استمرار حرية الملاحة فى مضايق خليج العقبة"** . وليس ثمة شك فى أن الحكومة المصرية قد قبلت مثل هذا الاتفاق تحت ضغط الظروف وفى مقابل مطلب حيوى هو عودة سيناء كاملة الى مصر .

ولذلك ظلت الحكومة المصرية تنظر الى هذا الوضع بقلق شديد وتعتبره نقطة ضعف فى علاقاتها مع اسرائيل يجب التخلص منها . وقد شكل هذا الامر ضغطا نفسيا على حكومة مصر وقيادتها طوال السنين التى اعقبت عدوان ١٩٥٦ ادى الى ترسب رغبة قوية فى وجدان القيادة المصرية بضرورة التخلص من آثار عدوان ١٩٥٦ وازالتها باعادة اغلاق مدخل خليج العقبة مرة أخرى وانهاء وجود قوات الطوارىء التابعة للأمم المتحدة . وكلاهما كان التزاما دوليا التزمت به مصر .

انتظرت القيادة المصرية على مضض وصبرت على هذا الوضع سنوات عشر ، تحت ضغط متزايد نتيجة للمزيدات العربية التى استغلت هذا الوضع

وظلت تطارد القيادة المصرية وتهاجمها . وفي مايو ١٩٦٧ عندما أعلن عن وجود حشد اسرائيلى امام سوريا .. ظنت القيادة المصرية ان الفرصة قد حانت ، أو ربما كان الصبر قد نفد ، فاقدمت فى وقت غير مناسب وفى ظل مناخ سياسى شديد السوء عربيا ودوليا ووضع عسكرى مصرى معقد ومشتت ، على اتخاذ قراراتها الوطنية هذه .. وهى القرارات التى قلبت موازين الموقف وأعطت اسرائيل الفرصة الذهبية التى انتظرتها سنوات لشن هجومها ، كما أعطت الولايات المتحدة المبرر الكافي للوقوف الى جانب العدوان .. وإن كان التأييد الأمريكى لاسرائيل فى ذلك الوقت أصبح نابعا اساسا من سياستها واستراتيجيتها فى منطقة الشرق الأوسط .. ونلاحظ هنا أن القرارين (قرار تأميم قناة السويس في يوليه ١٩٥٦ ، وقرار قفل مضيق خليج العقبة فى مايو ١٩٦٧) رغم انهما يتعلقان بسيادة مصر على أراضيها ومياهها الاقليمية ، فإن معطيات كل موقف والظروف التى نبعت منها كانت شديدة الاختلاف والتباين .. لذلك اختلفت الاثار وردود الفعل التى ترتبت عليهما تماما .

اننا اذ نطرح هذه الأبعاد التى ترتبت على عدوان عام ١٩٥٦ ونضعها امام اعيننا ذلك لأننا نعتقد انها شاركت فى ارساء مفاهيم معينة ترسبت فى تفكير القيادة السياسية المصرية واثرت تأثيرا مباشرا على اسلوب صنع القرار السياسى واسلوب ادارة الازمات الخارجية فى مصر ، ونحن نطرح هذه الابعاد لكى نوضح مدى الاختلاف والتباين الشديد بين ظروف الموقفين فى عامى ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، وخاصة اذا ما حاولنا قياس أو مقارنة حقائق الموقف فى كلتا الحالتين .

التطورات السياسية فى المنطقة بعد حرب ١٩٥٦ :

لعبت الأحداث التى وقعت بين حربى العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ ويونيه عام ١٩٦٧ ، دورا خطيرا فى التمهيد لحرب ١٩٦٧ ، والنجاح الكبير الذى حققته اسرائيل فى هذه الحرب . ولقد عمرت هذه الفترة بأحداث متنوعة متعددة الجوانب والأبعاد ، بعضها سياسى وبعضها عسكرى . وكانت منطقة الشرق الأوسط هى الساحة التى شهدت هذه الاحداث ، سواء من جانب إسرائيل التى مارست خلالها الدور الأكثر فاعلية ونشاطا وتطورا واتساعا .. أو من جانب العرب الذين حاولوا من خلال تفككهم المزمن أن يفعلوا شيئا ولكنهم فشلوا فى الخروج من دائرة التخبط التى حصرتهم داخلها عوامل انعدام ثقة وعدم الجدية والزيف السياسى .

ورغم ان هذه الفترة من الصراع الاسرائيلى قد شهدت ولأول مرة منذ بدأ الصراع ظاهرة مؤتمرات القمة العربية .. فإن هذه المؤتمرات ـ التى احيطت بهالات براقة ودعايات واسعة ـ لم تتمخض عن اى عمل عربى جاد .. تحشد له

القدرات الحقيقية الهائلة للأمم العربية حتى يكون له التأثير الفاعل الحاسم على سير الصراع .. والغريب فى الأمر ان ما اتخذ من خطوات شكلية وقرارات ضد اسرائيل لم تكن تفتقد الى الفاعلية فحسب ، بل انها احدثت نتائج عكسية تماما . فلم يحقق العرب منها شيئا يتجاوز الكلمات التى صيغت بها هذه القرارات ، بينما نجحت اسرائيل فى أن تحقق اقصى فائدة سياسية عسكرية من وراء هذه المؤتمرات باستغلالها بمهارة ساعدت على حدوث بعض التطورات الحاسمة التى أثرت على مسار الصراع خلال السنوات التى سبقت عدوان ١٩٦٧ . ولعل أهم هذه التطورات كان التحول السافر فى السياسة الامريكية تجاه اسرائيل بعد أن اصبحت هى الدولة الكبرى الحامية لها والداعمة لوجودها سياسيا واقتصاديا وعسكريا بلا حدود ولا قيود .

بعد فشل العدوان الثلاثى على مصر .. سخرت اسرائيل سياستها الخارجية لخدمة أمنها القومى ونظريتها العسكرية .. وركزتها خلال حقبة الستينيات حتى وقوع عدوان ١٩٦٧ ، فى اتجاهين اساسيين ، الأول : هو الحصول على احدث الأسلحة والمعدات لتطوير جيشها . والثانى : هو كسب أكبر قدر من ضمانات الأمن من القوى الغربية لتأمين وحماية حدودها خاصة من قبل الولايات المتحدة الامريكية .

وبناء على هذا المخطط اتجهت اسرائيل منذ عام ١٩٥٧ بكل قواها السياسية والدبلوماسية وضغوطها الصهيونية نحو الولايات المتحدة تطلب منها توفير هذه الضمانات الأمنية وتعرض عليها ثمنا لذلك : أن تستخدم الولايات المتحدة الموانىء والمطارات الاسرائيلية بعد توسيعها وتجهيزها ، كقواعد عسكرية امريكية فى حالات الطوارىء ، غير ان الولايات المتحدة تحت ادارة ايزنهاور كانت فى ذلك الوقت مشغولة بمحاولات اخرى خاصة بملء الفراغ الاستراتيجى الذى نجم عن انحسار النفوذ البريطانى عن المنطقة بعد حرب السويس ، وكانت ترى ان "مبدأ إيزنهاور" سيكون فيه من الضمانات ما يحقق لاسرائيل مطالبها .

ولكن اسرائيل لم تهدأ ، بل اتجهت اتجاها جديدا فسعت ـ تساعدها فى ذلك جهود حليفتها فرنسا ـ الى الانضمام لحلف شمال الاطلنطى ، ولكنها فشلت فى تحقيق اى ارتباط مباشر بالحلف أو فى الحصول على ضمانات مباشرة لأمن حدودها . وفى مارس ١٩٥٧ اقر الكونجرس الأمريكى مشروع ايزنهاور تحت اسم قرار **"دعم السلام وتوطيد الاستقرار فى الشرق الأوسط"** الذى خول ايزنهاور سلطة استخدام القوة المسلحة فى المنطقة . واوفد ايزنهاور ممثله الشخصى جيمس ريتشاردز الى اسرائيل لحثها على قبول مبدأ ايزنهاور . ولم تكن اسرائيل فى حاجة الى تشجيع ، فقد اعلنت فورا عن ترحيبها "بمساعدة الولايات المتحدة فى المحافظة على استقلال دول الشرق الأوسط ووحدة اراضيها" خاصة بعد القضاء على هيبة بريطانيا وفرنسا ونفوذهما السياسى فى المنطقة !! وهو الأمر الذى دفع الولايات المتحدة الى العمل على "سد فراغ القوة فى هذه المنطقة

الاستراتيجية الحيوية" . وهكذا بدأت الولايات المتحدة فى ربيع ١٩٥٧ تحاول ان تمارس نفس الدور الذى سبق ان لعبته بريطانيا وفرنسا فى منطقة الشرق الأوسط والذى انتهى بفشل عدوانهما على مصر عام ١٩٥٦ . اما اسرائيل فقد تشبثت بهذه الفرصة وارادت ان تستغل هذا الوضع الجديد ، فتتبنى دعوة الولايات المتحدة الخاصة بـ "مبدأ إيزنهاور" وتبدأ فى بذل مساعيها النشطة لتجسيم وتضخيم الخط الشيوعى "الذى يهدد المنطقة واستقلال دولها" . وسخرت إسرائيل هذه الادعاءات لخدمة اهدافها التوسعية ودعم مركزها السياسى والعسكرى . ومد نشاطها تحت هذا الستار إلى دول القارة الافريقية للخروج من دائرة الحصار العربى .

* * *

وقد أوضح شيمون بيريز ـ مدير وزارة الدفاع فى ذلك الوقت ـ هذه الاتجاهات فى حديث له مع المسئولين البريطانيين اثناء زيارته للندن عقب ظهور مشروع ايزنهاور فى اوائل عام ١٩٥٧ ، محاولا ايهامهم بأن وجود اسرائيل فى المنطقة يحميها من انتشار المد الشيوعى "ليس فى الشرق الأوسط فحسب .. بل وفى افريقيا كذلك" مطالبا بتقوية اسرائيل "لضمان استقلال كثير من شعوب المنطقة" . وهكذا اراد بيريز ان يستعير لاسرائيل دوراً أكبر كثيراً من حجمها .. بل هو دور يتعارض مع سياستها العدوانية التى لا تستقيم مع مطالبها بحماية دول العالم الثالث من المد الشيوعى وكل ما اراده بيريز من ذلك الحصول على مزيد من الاسلحة والمعدات الحديثة لاعادة بناء قواتها المسلحة الجديدة التى بدأت تعدها لشن عدوان جديد على الدول العربية ، وذلك بحجة تقوية اسرائيل لتصبح قادرة على حماية المنطقة من الخطر الذى يخشاه الغرب وهو الخطر الشيوعى .

وكانت الجهود الاسرائيلية قد انطلقت الى افريقيا منذ عام ١٩٥٧ .. خاصة بعد فتح خليج العقبة للملاحة الاسرائيلية . وارادت اسرائيل بمحاولاتها خلق هذه العلاقات الجديدة مع دول العالم الثالث وفى قلب القارة الافريقية على وجه الخصوص ، ان تكسر طرق الحصار العربى المضروب حولها بالانطلاق من خليج العقبة الى البحر الأحمر وقارتى افريقيا وآسيا ، بغرض السيطرة على الدول الافريقية حديثة الاستقلال والاضرار بمصالح الدول العربية والحد من نفوذها فيها ، خاصة نفوذ مصر وأثرها على الدول الافريقية بحكم دورها الرائد فى مجال التحرر الوطنى . وتعزيزا لهذه الجهود قام موشى ديان رئيس الاركان العامة ومعه شيمون بيريز بجولة واسعة فى القارة الافريقية زارا خلالها غانا وكينيا وتنجانيقا (ضمن تنزانيا حاليا) وساحل العاج وفولتا العليا وتشاد والكونغو ، واتفقا على تقديم مستشارين عسكريين اسرائيليين لهذه الدول الحديثة والتى كانت تتلهف على مساعدات من أية دولة . ويلاحظ هنا أن مساعدات اسرائيل كانت مركزة اساسا على الجوانب العسكرية .

ومع اتساع المصالح الاسرائيلية فى افريقيا وآسيا أصبح من المحتم ان تتصدى بكل قواها وبمساندة دول الغرب للوقوف فى وجه أى محاولة من جانب مصر لاعادة الحصار البحرى والجوى عليها بقفل خليج العقبة وحرمانها من مجالات واسعة لنشاطها العسكرى والاقتصادى التى نجحت فى فتحها فى كل من افريقيا واسيا . خاصة امدادات البترول الواردة اليها من ايران .

★ ★ ★

ومن ناحية اخرى كانت سياسة الولايات المتحدة الخاصة بمبدأ ايزنهاور قد فشلت نتيجة لرفض الدول العربية له ، الأمر الذى دفع الولايات المتحدة إلى أن تتجه بسياستها خلال النصف الثانى من عام ١٩٥٧ .. الى محاولة تفتيت الجبهة العربية المناوئة لهذه السياسة .. وتقطيع أوصال التعاون العسكرى العربى المتمثل فى وجود قيادة عسكرية عربية مشتركة . وقد نجحت فى عام ١٩٥٧ .. فى السيطرة على الأردن ، وبعد أن أعلنت قلقها من امتداد الخطر الشيوعى اليها ، اضافتها الى قائمة البلاد التى تمنحها مساعدات عسكرية واتجهت الخطوة الأمريكية التالية الى سوريا .. فحرضت اسرائيل وتركيا لاثارة القلاقل على حدودها ، وخلال شهر أكتوبر ١٩٥٧ .. انكشفت خطة مدبرة للتدخل المسلح ضد سوريا باستخدام القوات الاسرائيلية من ناحية والتركية من ناحية أخرى .. وقامت مصر بارسال بعض وحداتها العسكرية وعدد من ضباطها المتخصصين لدعم الموقف العسكرى فى سوريا .. غير أن هذه النوعية من الأعمال العدائية لم ترهب العرب فى ذلك الوقت ، بل اتت بنتائج عكسية حيث أدت الضغوط الموجهة الى سوريا الى قيام الوحدة العربية بينها وبين مصر وتكوين الجمهورية العربية المتحدة فى فبراير ١٩٥٨ .

●

الفصل الثالث

أحداث مابين الحربين
(١٩٥٦ - ١٩٦٧)

مصر والعرب :

عندما أعلنت الوحدة العربية بين مصر وسوريا ردا على هذه المؤامرة الأمريكية الاسرائيلية التركية ضد سوريا فى عام ١٩٥٨ . اعتبر هذا الحدث القومى تحولا خطيرا فى مسار حركة التحرر العربية ، كما اعتبرته الدول الغربية تطورا يهدد مصالحها الحيوية ونفوذها فى المنطقة . أما إسرائيل فقد سارعت تستنجد بالولايات المتحدة ، ويذهب بن جوريون لمقابلة الرئيس الأمريكى ايزنهاور ليطلب منه الأسلحة الأمريكية "لكى تحمى اسرائيل من الوحدة العربية التى حاصرتها من الشمال والجنوب .. وطوقتها بدولة واحدة هى الجمهورية العربية المتحدة" ، وقد قوبل هذا الحدث القومى العربى الكبير بردود فعل فى العالم العربى وبتجاوب عظيم من الشعوب العربية فبدأت بذور الثورة الشعبية فى لبنان ، ثم وقعت ثورة العراق فى يوليو ١٩٥٨ .. لتقضى على النظام الملكى هناك وعلى حكم نورى السعيد الموالى للغرب . ويسقط "حلف بغداد" الذى أقامته الولايات المتحدة وبريطانيا .

وواجه النفوذ الغربى فى المنطقة تدهورا واضحا وموقفا شديد الحرج . فى ظل هذه الظروف حاولت الولايات المتحدة أن تختبر قدرتها على التدخل المباشر فى شئون الدول العربية ، فتدخلت عسكريا فى لبنان فى صيف ١٩٥٨ ، حين انزلت مشاة الاسطول السادس الامريكى على شواطىء بيروت ، كما دفعت بريطانيا الى ارسال قواتها المنقولة جوا الى الاردن ، وكان المجال الجوى الاسرائيلى هو الطريق المفتوح الذى سلكته الطائرات البريطانية الى الاردن . واستمرت محاولات الولايات المتحدة لمنع إنتشار حركة التحرر العربية ، التى تقودها مصر ولو باستخدام القوة العسكرية . ولكن سياسة القوة هذه لاقت فشلا كاملا بفضل صمود الشعوب العربية ومعارضتها لهذه السياسة المعادية لها والضارة بأمانيها . وقد شكل هذا الفشل الأمريكى ضربة قاضية لمشروع ايزنهاور وللاستعمار

الغربى فى الشرق الأوسط فى آن واحد .. وبذلك أصبح التخلص من النظم العربية التى تعتبرها الولايات المتحدة مناوئة لسياستها فى منطقة الشرق الأوسط ، هدفا هاما من اهداف السياسة الأمريكية .. ويأتى نظام مصر على رأس هذه النظم .

أن هذه الأحداث قد عمقت من جذور التآمر ضد مصر والعالم العربى ودعمت الأسباب التى دفعت الغرب ليلتقى مع إسرائيل حول حتمية استخدام القوة العسكرية ضد العرب عامة وضد مصر بوجه خاص . واذا كان استخدام القوة ضد مصر فى عام ١٩٥٦ بواسطة ثلاث دول لم يحقق أهدافه العسكرية والسياسية فمن الضرورى العمل فى الجولة التالية على تفادى كل الأسباب التى أدت إلى هذا الفشل لكى يتحقق النجاح فى المرة القادمة .. لم يدرك العرب كل هذه الأبعاد وخطورتها على وجودهم ومستقبلهم .. حتى بعد سقوط تجربة الوحدة بين مصر وسوريا فى عام ١٩٦١ ـ نتيجة لمؤامرة معادية لآمال الأمة العربية . وكانت مؤامرة الانفصال بين مصر وسوريا التى وقعت فى سبتمبر ١٩٦١ هى ثمرة حلف غير مقدس بين الدول الاستعمارية وبعض النظم العربية المناوئة لحركة التحرر العربى .

وعندما تقدمت مصر لمساعدة الثورة اليمنية فى سبتمبر ١٩٦٢ ، تحولت هذه المساعدة ـ بفضل جهود هذا الحلف ـ تدريجيا الى حرب طويلة الأمد استهدفت استنزاف قدرات مصر العسكرية والسياسية .. وصولا الى مؤامرة توريط مصر عام ١٩٦٧ . ولم يتنبه العرب أو تنتبه مصر وقيادتها لابعاد ما يحاك ضدها وللمخاطر المعرضة لها .. فسرعان ما جذبتها الاهتمامات القومية فكثفت مصر جهودها نحو دعم الثورات وحركات التحرر العربية مثل ثورة اليمن وثورة العراق وحركة التحرير الجزائرية ثم الجزائر المستقلة بعد ذلك .. ورغم كل الأضرار التى لحقت بمصر نتيجة لذلك فهى لم تتخل أبدا عن انتمائها العربى .. وكانت مصر تمر بهذه الظروف التى تحجب عنها حقائق الموقف والرؤية السليمة لابعادها ، بينما عين إسرائيل لم تغفل عنها .. ترقبها وتنتظر فرصتها لكى تضرب ضربتها وتفرض سياستها التوسعية .

لقد أدى الدور الأمريكى الاسرائيلى ومساهمة الاتحاد السوفييتى الى جر مصر ودفعها نحو حرب خاسرة مخططة منذ سنوات طويلة ، لم تكن مصر قد استعدت لها أو خططت لقيامها .. حيث كانت الامكانات العسكرية المتاحة والمحسوبة لا تسمح لمصر بالادارة العسكرية الناجحة لاعمال القتال على جبهتين واسعتين ورئيسيتين ، تفصل بينهما مسافة حوالى ٣٠٠٠ كيلو متر من مياه البحر الأحمر بين سيناء شمالا واليمن جنوبا .

★ ★ ★

كان الموقف العربى خلال سنوات ما قبل النكسة شديد الاضطراب والتفكك خاصة بعد وقوع الانفصال بين سوريا ومصر عام ١٩٦١ ، ثم باشتعال ثورة اليمن عام ١٩٦٢ ، واضطرار مصر إلى إرسال قوات عسكرية إلى اليمن لانقاذ الثورة من اعدائها . وبدأت هذه القوات محدودة ولكن بمرور الزمن تضاعف حجمها وتضخم حتى وصل بعد مرور عدة سنوات الى ما يعادل ٤٠٪ من حجم القوات البرية المصرية بالاضافة إلى عدة اسراب من الطائرات المصرية وعدد من القطع البحرية . وقد قاتلت قواتنا قتالا مريرا فى الأراضى اليمنية الوعرة حتى يتخلص اليمن من حكم القرون الوسطى الذى كان مطبقا بواسطة الأئمة على هذه البلاد لقرون طويلة . وقد سارعت القيادة المصرية الى مساعدة الثورة اليمنية الوطنية عسكريا من منطلق قومى بحت ، ولكنه فى نفس الوقت قد أتاح لمصر فرصة استعادة وضعها السياسى ونفوذها القومى فى العالم العربى ، بعد الانتكاسة التى اصابته نتيجة لانفصال الوحدة مع سوريا الذى وقع قبل عام من وقوع ثورة اليمن .

ولاشك فى أن قواتنا المسلحة قد استطاعت ـ بعد كثير من التضحيات ـ أن تثبت أقدام الثورة اليمنية وأن يصبح اليمن المتحرر حقيقة واقعة ، رغم كل ما تعرضت له من محن واضرار ومؤامرات لم تتوقف . كما استطاعت الثورة أن تمد أثرها الى عدن فتحرر جمهورية اليمن الجنوبية .. كانت تلك هى النتائج العربية المباشرة لعملياتنا فى اليمن .. ولكن فى مقابل هذا النجاح السياسى الكبير على الصعيد العربى ألحقنا ضررا بالغا بقدرة الجبهة المصرية الرئيسية فى سيناء ـ وسيناء هى دون شك المسرح الرئيسى والأول للقوات المسلحة المصرية ـ كما فقدنا الآلاف من خيرة رجال القوات المسلحة وزهرة شبابها فوق جبال اليمن وفى وديانها ووهادها .

أما من الناحية العسكرية فما من شك فى أن هذه الحرب قد أدت إلى تشتت قدرات قواتنا المسلحة .. بالاضافة لذلك فان اختلاف مسرح العمليات والفرق الكبير بين مسرح سيناء الصحراوى ومسرح اليمن الجبلى ، فضلا عن اختلاف نوعية قوات الخصم والعناصر المتمردة التى قاتلتها القوات المصرية فى جبال اليمن طوال خمس سنوات .. قد أثرت جميعها على الكفاءة القتالية للقوات والى تراكم مفاهيم عسكرية غير سليمة عن معركة الأسلحة المشتركة الحديثة ، وذلك نتيجة للخدمة الطويلة لكثير من الوحدات المصرية فى مسرح اليمن . وكان نظام غيار القوات العاملة بمسرح اليمن ، الذى اتبعته القيادة العامة ، قد اتاح لمعظم الوحدات البرية المصرية فرصة الخدمة فى اليمن لفترة طويلة نسبيا قبل تغييرها بوحدات مماثلة أخرى .

لقد تآمرت القوى الاستعمارية مع بعض القوى العربية التى وقفت ضد ثورة اليمن ، على تحويل هذه الثورة الى صراع دموى طويل مع العناصر المناوئة للثورة والمدعومة بهذه القوى الخارجية .. وإلى حرب لاستنزاف للقوات المسلحة

المصرية وإستنزاف الاقتصاد المصرى . فلقد اضطرت مصر إلى ارسال خيرة قواتها ورجالها لتحارب حربا قاسية بعيدا عن حدودها .. وتحملت ميزانيتها ولخمس سنوات كاملة اعباء ضخمة ونفقات كبيرة ، فضلا عما خسرته القوات من اسلحة ومعدات كثيرة .. وأخيرا ما ضحت به مصر من أرواح الشهداء . وعندما اشتعلت الحرب فى سيناء عام ١٩٦٧ كانت كل هذه القوات لا تزال موجودة فى اليمن ولم تعد إلى مصر إلا بعد انتهاء حرب يونيه ١٩٦٧ بعدة اشهر ، وانعقاد مؤتمر القمة العربى فى الخرطوم ، حيث تم الاتفاق بين الرئيس جمال عبد الناصر والملك فيصل على تسوية مشكلة اليمن .

لقد واجهنا الحرب التى فرضتها علينا اسرائيل فى يونيه ١٩٦٧ . بعد أن أتحنا لها الفرصة لشن هذه الحرب ، وهناك قسم أساسى من قواتنا المسلحة يقاتل فى جبهة أخرى تبعد عن الجبهة المصرية عدة آلاف من الكيلومترات .. دخلنا حربا لم نستعد لها . ضد عدو استعد تماما وتسلح حتى الأسنان .. فى الوقت الذى كنا نحارب فيه معركة رئيسية أخرى غير معركتنا فى مصر ، ولحماية ثورة عربية غير ثورتنا ، تلبية لنداء القومية العربية والالتزام العربى . وبينما قواتنا تستنزف فوق جبال اليمن .. وفى أسوأ الاوقات اختيارا . فتحنا على انفسنا معركة سياسية عسكرية ضارية مع اسرائيل ومن هم وراء إسرائيل .. ومكنّاهم من تنفيذ مخطط طالما تطلعت اسرائيل الى تنفيذه وظلت تتربص بنا فى انتظار أحسن الفرص . لقد اتخذنا قرارات سياسية وعسكرية غاية فى الخطورة دون محاولة لدراسة واستيعاب حقائق الموقف السياسى الدولى وقدرات القوات العسكرية فى ذلك الوقت .. ومدى تأثير وجود جزء رئيسى من هذه القوات بعيدا عن ارض الوطن ، ودون الالتزام بخطة العمليات الموضوعة خصيصا لمواجهة مثل هذه الظروف .

★ ★ ★

لقد واجهت مصر هذه الظروف وسط عالم عربى يسوده التمزق .. وعلاقتها العربية فى غاية السوء . فى هذا الوقت كان نظام الحكم فى سوريا حريصا على شن أعنف الحملات الاعلامية ضد مصر وضد زعيمها جمال عبد الناصر .. فكان يشهر به وبقوميته بل بوطنيته ، مستغلا الأوضاع التى ترتبت على حرب ١٩٥٦ وانسحاب اسرائيل من سيناء وقطاع غزة .. والخاصة بقبول مصر فتح مضيق تيران وخليج العقبة للملاحة الاسرائيلية البحرية والجوية .. وكذا قبول وجود قوات الطوارىء التابعة للأمم المتحدة على الحدود المصرية ، وقد استمرت هذه الحملة تتهم عبد الناصر بترك منطقة شرم الشيخ تحت الاحتلال الاسرائيلى ـ ولم يكن ذلك صحيحا ـ كما قالوا إن قوات الطوارىء الدولية قد جاءت إلى مصر لكى تحميها من هجمات إسرائيل .

لاشك فى أن هذه الاتهامات والحملات العربية المغرضة قد شكلت عبئا نفسيا متزايدا وثقيلا على كاهل القيادة المصرية ، وضغوطا مستمرة تؤثر

على الموقف الداخلي في مصر .. ولقد ازداد هذا العبء النفسي ثقلا لوجود النية لدى القيادة المصرية على العمل لازالة كل الآثار التى ترتبت على عدوان ١٩٥٦ .. ولكنها كانت تنتظر الفرصة المناسبة والظروف الملائمة لتنفيذها .. فلما اختارت القيادة المصرية الوقت لتنفيذ ما تريده أساءت اختيار الوقت الذى لم يكن مناسبا عسكريا أو سياسيا . حيث كانت مصر متورطة فى حرب ضارية تعانى من استنزاف طويل .. ومع ذلك فقد نجحت المزايدات العربية فى الطرق على الحديد الساخن ، لم تحتمل القيادة المصرية كل هذا العبء ، فانتهزت أول فرصة ظنت أنها مناسبة ـ تمثلت فى اشاعة أو خبر غير مؤكد عن حشد قوات إسرائيلية على حدود سوريا ، لتندفع فى اتخاذ موقف متشدد ومفاجيء .. وتفجّر عدة قرارات سياسية خطيرة تتابعت بمعدل سريع وأدت خلال فترة قصيرة لم تتجاوز ثلاثة أسابيع إلى خلق ازمة سياسية وعسكرية خطيرة .. فلما تفاقم الموقف وضاقت حلقاته . كانت مصر قد قطعت شوطا كبيرا تجاه نقطة اللا عودة .. فلم يكن أمامها مجال لاى تراجع وهكذا ارادت القيادة المصرية أن تضع حدا ، للمهاترات العربية وأن تقطع الطريق على المزايدين من الحكام العرب .. فواجهت طريقا مسدودا أمام عدو متربص .. نهاز للفرص .. تسانده وتشجعه قوى عالمية كبرى تريد أن تجهز على ثورة مصر ونظامها التحررى الوطنى .

أمريكا حامية لاسرائيل :

تغيرت السياسة الأمريكية تجاه إسرائيل خلال حقبة الستينيات فى المجالين السياسى والعسكرى . فتحولت من السرية الى العلن ، وذلك نتيجة لعدة تغيرات جوهرية فى الموقف الدولى عامة والموقف فى الشرق الأوسط بوجه خاص .

فقد ترك رحيل فرنسا عن شمال أفريقيا ، وبريطانيا عن باقى أراضى الشرق الأوسط ، مجال العمل مفتوحاً أمام الولايات المتحدة . وكان مشروع "مبدأ إيزنهاور" أولى الخطوات الأمريكية المنفردة "لسد فراغ القوة" والوقوف فى وجه "الخطر الشيوعى" بالمنطقة . ولقد استفادت إسرائيل من كل هذه التطورات واستغلت قيام الولايات المتحدة باعادة النظرة فى سياستها فى المنطقة ، لاحداث تغيير تدريجى فى مدى الاستجابة الأمريكية للضغوط الصهيونية والمطالب الاسرائيلية السياسية والعسكرية .. وتحولها من التأييد السياسى إلى الدعم الشامل ، ومن الحظر الكامل للسلاح فى بداية الخمسينيات الى الامداد بالدبابات والطائرات والصواريخ فى منتصف الستينيات .

وفى أعقاب فشل "مبدأ أيزنهاور" ، وبعد إخفاق التدخل العسكرى الامريكى فى لبنان ، والبريطانى فى الاردن عام ١٩٥٨ ، أدركت اسرائيل أن مثل هذا الفشل فى تغيير الاوضاع بالعالم العربى سوف يؤدى بالضرورة إلى إحداث تغيير أساسى

فى سياسة الولايات المتحدة ذاتها تجاه الدول العربية وبالتالى تجاه إسرائيل . وهكذا إنتظرت اسرائيل اللحظة المناسبة لتنفيذ سياستها خاصة فى مجال التسليح . وفى أغسطس ١٩٥٨ تقدمت الى الولايات المتحدة بأول قائمة بالاسلحة والمعدات اللازمة لها . غير أن إدارة ايزنهاور لم تكن مستعدة لتغيير سياستها تجاه تسليح اسرائيل القائمة على استمرار الدول الغربية الأوربية مثل بريطانيا وفرنسا وألمانيا الغربية فى تأدية هذه المهمة .

وفى أوائل عام ١٩٦٠ ذهب بن جوريون إلى الولايات المتحدة ، حيث قابل ايزنهاور وطلب منه السماح لاسرائيل بشراء السلاح الأمريكى الثقيل ، وخاصة الصواريخ المضادة للطائرات طراز "هوك" حتى تحمى سماء اسرائيل "من الوحدة العربية التى حاصرتها من الشمال والجنوب" ولكن إيزنهاور لم يبت فى هذا المطلب خاصة أنه كان فى أواخر عهد رئاسته .

ولم تتغير السياسة الامريكية تجاه اسرائيل فى عهد جون كنيدى ، واستمرت مقصورة على المؤازرة السياسية مع دعمها عسكريا من الدول الغربية الأخرى ، وإغداق المعونات المالية عليها لتشترى بها ما تريد من سلاح وتنشىء المصانع الحربية الجديدة . غير أن الطموح الاسرائيلى لم يقنع بهذا القدر ، فعاد بن جوريون مرة أخرى الى الولايات المتحدة فى مايو ١٩٦١ ولكن موقف الولايات المتحدة لم يتغير .

وفى عام ١٩٦٢ تكررت المحاولات بشكل أكثر تركيزا وتنظيما .. وقام المسئولون الاسرائيليون بعدة زيارات للولايات المتحدة لشرح أبعاد المخاطر التى تتعرض لها إسرائيل وأهمية مساهمة واشنطن فى الحفاظ على قوة الردع الاسرائيلى ، وعدم إلقاء العبء على فرنسا وحدها ، لاسيما وقد أنهت فرنسا مشكلة الجزائر ولم تعد تبدى نفس الحماس والاندفاع السابقين فى مناوأة القوة العربية النامية بواسطة إسرائيل ، التى استمرت فى رسم صور غير حقيقية عن الاخطار الوهمية المعرضة لها وطرحها أمام المسئولين الأمريكيين فى ذلك الوقت أمثال بول نيسا وزير الدفاع ووالت روستو رئيس مجلس التخطيط بالادارة الأمريكية ، مع التأكيد على أن أمن إسرائيل لا يمكن أن يعتمد على مجرد وعود إمريكية بينما مصر تعتبر أنها فى حالة حرب مع إسرائيل .. وإن هذه الوعود "لا يمكن أن توقف هجوما جويا مصريا ضد اسرائيل يمكن أن يقع بعد فترة إنذار لن تزيد على خمس دقائق .. أن الساعات الاولى ستكون مصيرية ، ولن تستطيع اسرائيل الاعتماد على قوة جيشها ما لم يزود هذا الجيش بالأسلحة المجدية حتى يستطيع وقف الهجوم" .

لقد رسمت هذه الكلمات صورة واضحة لاتجاهات السياسة الاسرائيلية ونواياها المبيتة ، رغم عدم توافر أية نوايا عربية عدوانية ضدها ، وقد دأب الاسرائيليون

على تصوير دولتهم بالدولة الضعيفة التى تخشى الاعتداء عليها ، بينما هى فى واقع الأمر تستعد بكل طاقتها لشن عدوان شامل ضد الدول العربية المجاورة لها .

وفى عام ١٩٦٢ حققت إسرائيل نجاحا ملموسا وهاما مع الولايات المتحدة حين وافقت الأخيرة على عقد صفقة الأسلحة الثقيلة الكبيرة مع المانيا الغربية .. وكذلك على امداد اسرائيل ولاول مرة بصواريخ "هوك" المضادة للطائرات . ويمثل هذا الاتفاق الأخير أول نقطة تحول هامة فى سياسة الولايات المتحدة نحو اسرائيل . فلأول مرة تخرج الولايات المتحدة من خلف الستار وترسل الأسلحة الأمريكية إلى إسرائيل مباشرة .

وبعد هذا التطور نجد أن مطالب إسرائيل فى عام ١٩٦٣ قد إتسع نطاقها فتضمنت السعى من أجل ضمان أمريكى بردع أى عدوان أجنبى فى الشرق الأوسط ، وامداد إسرائيل مباشرة بالأسلحة الثقيلة خاصة الدبابات والطائرات ، ثم الاستمرار فى تقديم المساعدات والمعونات الاقتصادية لاسرائيل .

ولكن باستثناء صفقة الصواريخ "هوك" استمرت السياسة الامريكية تجاه اسرائيل دون تغيير يذكر حتى نهاية عهد كنيدى ووصول ليندون جونسون الى قمة السلطة فى أوائل عام ١٩٦٤ ، لكى تبدأ مرحلة جديدة وهامة فى العلاقات الأمريكية الاسرائيلية . وصاحبت هذه المرحلة تطورا عربيا هاما هو بداية إنعقاد مؤتمرات القمة العربية التى انعقد أولها عام ١٩٦٤ ، لبحث مشروعات اسرائيل الخاصة بتحويل مياه نهر الاردن . وقد إتخذت الولايات المتحدة موقفا متشددا من قرارات القمة العربية الأولى فى صالح اسرائيل ، وفى نفس الوقت وافقت على قيام ليفى أشكول بأول زيارة رسمية لرئيس وزراء اسرائيل بدعوة من حكومة الولايات المتحدة . وفى مناخ موات تمت الزيارة فى صيف ١٩٦٤ ، واعتبرت هذه الزيارة انجازا اسرائيليا كبيرا وناجحا ، حيث عكست لأول مرة تحولا واضحا فى سياسة الولايات المتحدة تجاه الشرق الأوسط . وعرض الاسرائيليون المخاطر الناجمة عن "انشاء القيادة الموحدة لجيوش الدول العربية" ، وما تشكله من "تهديد مباشر لأمن إسرائيل ، التى اصبحت معرضة لهجوم مفاجىء قد يقضى عليها قبل أن تدركها الولايات المتحدة .." !

وفى الحقيقة كان اهتمام إسرائيل البالغ بشأن الحصول على الأسلحة الأمريكية منصبا أساسا على مضمونه السياسى الهام لمعنى حصولها على أسلحة أمريكية من مصادر أمريكية ، بكل ما يحمله هذا المضمون من "تعزيز لقوة الردع الاسرائيلية" وقد أمكن لاسرائيل أن تحصل فى عام ١٩٦٤ على موافقة الولايات المتحدة على تزويد اسرائيل بكل ما تحتاج إليه من الأسلحة والمعدات الثقيلة . ومن الناحية السياسية وافقت الولايات المتحدة على الالتزام بوقوفها خلف اسرائيل فى دفاعها عن نفسها ، وأنها لن تقف مكتوفة الأيدى إذا ما تعرضت إسرائيل للهجوم . وقد إعتبرت إسرائيل هذا النجاح

فى سياسة الولايات المتحدة ذاتها تجاه الدول العربية وبالتالى تجاه إسرائيل . وهكذا إنتظرت اسرائيل اللحظة المناسبة لتنفيذ سياستها خاصة فى مجال التسليح . وفى أغسطس ١٩٥٨ تقدمت الى الولايات المتحدة بأول قائمة بالاسلحة والمعدات اللازمة لها . غير أن إدارة ايزنهاور لم تكن مستعدة لتغيير سياستها تجاه تسليح اسرائيل القائمة على استمرار الدول الغربية الأوربية مثل بريطانيا وفرنسا وألمانيا الغربية فى تأدية هذه المهمة .

وفى أوائل عام ١٩٦٠ ذهب بن جوريون إلى الولايات المتحدة ، حيث قابل ايزنهاور وطلب منه السماح لاسرائيل بشراء السلاح الأمريكى الثقيل ، وخاصة الصواريخ المضادة للطائرات طراز "هوك" حتى تحمى سماء اسرائيل "من الوحدة العربية التى حاصرتها من الشمال والجنوب" ولكن إيزنهاور لم يبت فى هذا المطلب خاصة أنه كان فى أواخر عهد رئاسته .

ولم تتغير السياسة الامريكية تجاه اسرائيل فى عهد جون كنيدى ، واستمرت مقصورة على المؤازرة السياسية مع دعمها عسكريا من الدول الغربية الأخرى ، وإغداق المعونات المالية عليها لتشترى بها ما تريد من سلاح وتنشىء المصانع الحربية الجديدة . غير أن الطموح الاسرائيلى لم يقنع بهذا القدر ، فعاد بن جوريون مرة أخرى الى الولايات المتحدة فى مايو ١٩٦١ ولكن موقف الولايات المتحدة لم يتغير .

وفى عام ١٩٦٢ تكررت المحاولات بشكل أكثر تركيزا وتنظيما .. وقام المسئولون الاسرائيليون بعدة زيارات للولايات المتحدة لشرح أبعاد المخاطر التى تتعرض لها إسرائيل وأهمية مساهمة واشنطن فى الحفاظ على قوة الردع الاسرائيلى ، وعدم إلقاء العبء على فرنسا وحدها ، لاسيما وقد أنهت فرنسا مشكلة الجزائر ولم تعد تبدى نفس الحماس والاندفاع السابقين فى مناوأة القوة العربية النامية بواسطة إسرائيل ، التى استمرت فى رسم صور غير حقيقية عن الاخطار الوهمية المعرضة لها وطرحها أمام المسئولين الأمريكيين فى ذلك الوقت أمثال بول نيسا وزير الدفاع ووالت روستو رئيس مجلس التخطيط بالادارة الأمريكية ، مع التأكيد على أن أمن إسرائيل لا يمكن أن يعتمد على مجرد وعود إمريكية بينما مصر تعتبر أنها فى حالة حرب مع إسرائيل .. وإن هذه الوعود "لا يمكن أن توقف هجوما جويا مصريا ضد اسرائيل يمكن أن يقع بعد فترة إنذار لن تزيد على خمس دقائق .. أن الساعات الاولى ستكون مصيرية ، ولن تستطيع اسرائيل الاعتماد على قوة جيشها ما لم يزود هذا الجيش بالأسلحة المجدية حتى يستطيع وقف الهجوم" .

لقد رسمت هذه الكلمات صورة واضحة لاتجاهات السياسة الاسرائيلية ونواياها المبيتة ، رغم عدم توافر أية نوايا عربية عدوانية ضدها ، وقد دأب الاسرائيليون

على تصوير دولتهم بالدولة الضعيفة التى تخشى الاعتداء عليها ، بينما هى فى واقع الأمر تستعد بكل طاقتها لشن عدوان شامل ضد الدول العربية المجاورة لها .

وفى عام ١٩٦٢ حققت إسرائيل نجاحا ملموسا وهاما مع الولايات المتحدة حين وافقت الأخيرة على عقد صفقة الأسلحة الثقيلة الكبيرة مع المانيا الغربية .. وكذلك على امداد اسرائيل ولاول مرة بصواريخ "هوك" المضادة للطائرات . ويمثل هذا الاتفاق الأخير أول نقطة تحول هامة فى سياسة الولايات المتحدة نحو اسرائيل . فلأول مرة تخرج الولايات المتحدة من خلف الستار وترسل الأسلحة الأمريكية إلى إسرائيل مباشرة .

وبعد هذا التطور نجد أن مطالب إسرائيل فى عام ١٩٦٣ قد إتسع نطاقها فتضمنت السعى من أجل ضمان أمريكى بردع أى عدوان أجنبى فى الشرق الأوسط ، وامداد إسرائيل مباشرة بالأسلحة الثقيلة خاصة الدبابات والطائرات ، ثم الاستمرار فى تقديم المساعدات والمعونات الاقتصادية لاسرائيل .

ولكن باستثناء صفقة الصواريخ "هوك" استمرت السياسة الامريكية تجاه اسرائيل دون تغيير يذكر حتى نهاية عهد كنيدى ووصول ليندون جونسون الى قمة السلطة فى أوائل عام ١٩٦٤ ، لكى تبدأ مرحلة جديدة وهامة فى العلاقات الأمريكية الاسرائيلية . وصاحبت هذه المرحلة تطورا عربيا هاما هو بداية إنعقاد مؤتمرات القمة العربية التى انعقد أولها عام ١٩٦٤ ، لبحث مشروعات اسرائيل الخاصة بتحويل مياه نهر الاردن . وقد إتخذت الولايات المتحدة موقفا متشددا من قرارات القمة العربية الأولى فى صالح اسرائيل ، وفى نفس الوقت وافقت على قيام ليفى أشكول بأول زيارة رسمية لرئيس وزراء اسرائيل بدعوة من حكومة الولايات المتحدة . وفى مناخ موات تمت الزيارة فى صيف ١٩٦٤ ، واعتبرت هذه الزيارة انجازا اسرائيليا كبيرا وناجحا ، حيث عكست لأول مرة تحولا واضحا فى سياسة الولايات المتحدة تجاه الشرق الأوسط . وعرض الاسرائيليون المخاطر الناجمة عن "انشاء القيادة الموحدة لجيوش الدول العربية" ، وما تشكله من "تهديد مباشر لأمن إسرائيل ، التى اصبحت معرضة لهجوم مفاجىء قد يقضى عليها قبل أن تدركها الولايات المتحدة .." !

وفى الحقيقة كان اهتمام إسرائيل البالغ بشأن الحصول على الأسلحة الأمريكية منصبا أساسا على مضمونه السياسى الهام لمعنى حصولها على أسلحة أمريكية من مصادر أمريكية ، بكل ما يحمله هذا المضمون من "تعزيز لقوة الردع الاسرائيلية" وقد أمكن لاسرائيل أن تحصل فى عام ١٩٦٤ على موافقة الولايات المتحدة على تزويد اسرائيل بكل ما تحتاج إليه من الأسلحة والمعدات الثقيلة . ومن الناحية السياسية وافقت الولايات المتحدة على الالتزام بوقوفها خلف اسرائيل فى دفاعها عن نفسها ، وأنها لن تقف مكتوفة الأيدى إذا ما تعرضت إسرائيل للهجوم . وقد إعتبرت إسرائيل هذا النجاح

السياسى والعسكرى عاملا هاما ومشجعا بل وموافقة أمريكية على المضى فى الاعداد لشن حربها المبيتة ضد الدول العربية ، بعد أن إطمأنت إلى مؤازرة الولايات المتحدة لها فى المجالين السياسى والعسكرى معا . هذا وقد ثبت أن خطط العدوان على مصر والدول العربية الأخرى التى نفذت فى عام ١٩٦٧ ، قد تبلورت وإستكملت وإعدت فى عام ١٩٦٤ .

شهد عام ١٩٦٥ أول ثمرة للسياسة الأمريكية الجديدة تجاه اسرائيل بعد موافقة الولايات المتحدة على قيامها بامداد إسرائيل بالطائرات الأمريكية النفاثة من طائرات "سكاى هوك" . وكانت هذه الصفقة هى البداية الفعلية لتحول الولايات المتحدة تحولا سافرا لتكون المورد الرئيسى والأول للأسلحة التى تحتاج إليها اسرائيل ، ومنذ هذا التاريخ أصبحت ترسانات الأسلحة الأمريكية الحديثة مفتوحة أمام إسرائيل تأخذ منها ما تشاء حتى يومنا هذا . وبذلك أصبحت سياسة الولايات المتحدة فى منطقة الشرق الأوسط تمثل أفضل السياسات الملائمة لاسرائيل ، وتهيىء لها المناخ المناسب لشن عدوانها على الدول العربية وهى مطمئنة الى تأييد أمريكى كامل . ويلاحظ أن السياسة الأمريكية فى هذه المرحلة قد اتسمت بسمة واضحة ظلت تكتنف الاستراتيجية الامريكية . هى استمرار رفضها لحقائق الصراع وجذوره الأصلية وأبعاده الحقيقية ، أو لكشف حقيقة إسرائيل كدولة صهيونية توسعية على حساب الأرض والشعوب العربية .

بعد هذا التطور بدأ زعماء إسرائيل نغمة جديدة فى حديثهم عن العلاقات مع الولايات المتحدة ، فأصبحوا يتحدثون بثقة زائدة ويصرون على تأكيد المصالح المشتركة بين البلدين ، وأصبحت اسرائيل هى الحارسة لمصالح الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط ، وأن وجودها فى المنطقة هو بمثابة جسر لهذه المصالح فى المنطقة . ويقول إيجال آلون **"ان بقاء إسرائيل دولة مستقلة قوية فى قلب منطقة الشرق الأوسط وعلى ساحل البحر المتوسط ، يعتبر كحقيقة سياسية جغرافية فى عداد المصالح الأمريكية الحيوية"** . أما شيمون بيريز ـ المنفذ الأول لسياسة التسليح الاسرائيلية طوال الخمسة عشر عاما التى سبقت حرب يونيه ١٩٦٧ ـ فهو يحدد الأسباب الكامنة وراء سعى اسرائيل واهتمامها الدائب لحمل الولايات المتحدة على تزويدها بالسلاح ونشر حمايتها على إسرائيل فيما يلى : (نشرها فى كتاب "المرحلة القادمة")

١ ـ إن موافقة الولايات المتحدة على إمداد إسرائيل بالسلاح ، هو تعبير مادى علنى عن السياسة الأمريكية الحقيقية الرامية الى دعم إسرائيل وعن الحرص على تمتعها بتفوق حاسم على الدول العربية .

٢ ـ إن السياسة الأمريكية تعتبر من السياسات الأكثر ثباتا وإستقرارا بين سياسات الدول الغربية ـ وأن إحتمالات تغييرها لا يستوجبها سوى ظروف غير عادية أو غير طبيعية ، ولذلك فان هذه السياسة الامريكية تجاه إسرائيل تعتبر نصرا كبيرا لاسرائيل وضمانا حيويا لقوتها وبقائها .

٣ - إن الحصول على سلاح من الولايات المتحدة ، لن يكون عائقا أمام إسرائيل فى الحصول على أسلحة من الدول الأخرى ، بل سيشجع هذه الدول على إقتفاء أثر الولايات المتحدة .

* * *

أما الولايات المتحدة فقد حرصت سياستها فى هذه الحقبة وما بعدها على ضمان التفوق العسكرى لاسرائيل على أى مجموعة من الدول العربية ، وهى السياسة التى تحددت وتبلورت فى عهد جونسون وحققت هدفها العسكرى كاملا فى يونيه ١٩٦٧ . أما الهدف السياسى الذى سعت اليه لسنوات طويلة فهو لم يتحقق بفضل صمود الشعوب العربية وما أظهرته مصر من قدرة اصيلة على إمتصاص الصدمات والخروج من الازمات اكثر قوة وأكثر تمسكا بحقها وكرامتها .

مشروعات المياه ومؤتمرات القمة :

برزت فكرة عقد مؤتمرات القمة العربية مع نهاية عام ١٩٦٣ . وكانت اسرائيل قد أعلنت عن قرب إنتهائها من المرحلة الأولى لمشروع تحويل مياه نهر الأردن . ورأت مصر ضرورة التصدى لهذا التحدى الاسرائيلى على المستوى العربى الشامل نظرا للأضرار البالغة التى ستقع على ثلاثة شعوب عربية نتيجة لهذه المشروعات هى شعوب لبنان وسوريا والاردن . فدعت الى عقد **"مؤتمر القمة العربية الأول" فى يناير ١٩٦٤** .

فما هى قصة هذه المشروعات الاسرائيلية التى إستهدفت حجز مياه نهر الاردن لصالح مخططات التوسع باعتبارها أساسا ضروريا للوصول بحجم سكان اسرائيل الى مستوى الهدف المرحلى المحدد للجيل الأول للدولة ؟

وليس ثمة شك فى أن هذه المشروعات الاسرائيلية والمشروعات العربية المضادة لها قد شكلت أحد الاسباب الهامة لقيام إسرائيل بشن الحرب ضد ثلاث دول عربية فى عام ١٩٦٧ ، لكى تفرض ما تريده على العرب فى النهاية بالقوة المسلحة . وكانت كل الشواهد فى ذلك الوقت تدل على أن إسرائيل تستعد بكل الوسائل لمواجهة هذا الموقف خاصة عندما يأتى وقت تحويل المياه . وقد أشارت بعض الصحف الصهيونية ، ومن بينها "جيوش اوبزيرفر" اللندنية الى توقع نشوب الحرب بين إسرائيل والعرب عند نهاية المرحلة الأولى لمشروع التحويل فى عام ١٩٦٣ أو ١٩٦٤ ، ونلاحظ انه خلال هذه الفترة تضاعفت الجهود الاسرائيلية وبلغت مساعى إسرائيل ذروتها من أجل الحصول على الأسلحة الثقيلة . وأمكنها من خلال هذه الجهود عقد صفقة ضخمة للأسلحة والمعدات الثقيلة مع ألمانيا الغربية . كما حصلت إسرائيل ولأول مرة على صواريخ "هوك" المضادة للطائرات من الولايات المتحدة الامريكية .

لذلك كله لا يمكننا ونحن نتحدث عن الدوافع الكامنة خلف عدوان ١٩٦٧ ، وعن جذور الصراع وتراكماته التى جعلت هذه الحرب حتمية من وجهة نظر إسرائيل ، وقبل أن تقع فعلا بسنوات .. دون أن نتعرض لمشروعات المياه الاسرائيلية باعتبارها ركنا هاما من أركان الخطط التوسعية الاسرائيلية ، وسببا مباشرا من أسباب شن حرب يونيه ١٩٦٧ .

تتميز الخطط التوسعية الاسرائيلية بمستويين للتوسع :

"**مستوى التوسع الافقى**" ونقصد به ضم المزيد من الأراضى العربية المحيطة بها وتوسيع رقعة الدولة باستخدام القوات المسلحة وشن الحروب العدوانية فى أعوام ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، ١٩٨٢ .

"**مستوى التوسع الرأسى**" ونقصد به استغلال كل المساحات المتاحة داخل إسرائيل فى إستيعاب المهاجرين الجدد إلى إسرائيل وذلك بعد استصلاح هذه المساحات وزراعتها . وتعتبر منطقة النقب أهم المناطق فى هذا المجال ، يزيد من أهميته أنه السبيل الوحيد للوصول الى خليج العقبة ، والبحر الأحمر ثم إلى إفريقيا وآسيا . ولكى تستوعب منطقة النقب أكبر عدد من المهاجرين كان لابد من تعميرها . أصبح تعمير منطقة النقب يشكل لاسرائيل ضرورة سياسية وإستراتيجية وإقتصادية . وكان "المشروع القومى للمياه" هو الاداة الرئيسية فى تعمير منطقة النقب ، بنقل مياه الأنهار من المناطق الشمالية الى الأراضى الصحراوية فى الجنوب .

وفى مقدمة الكتاب السنوى لاسرائيل عام ١٩٥٦ ، تحدث بن جوريون عن أهمية منطقة النقب بقوله : "... فى النقب ترسم أعظم امال اليهود .. ان دولة إسرائيل الصغيرة ، لا تستطيع الصبر طويلا على بقاء صحراء النقب ـ التى تشكل نصف مساحة إسرائيل ـ على وضعها الحالى .. وإن لم تستغل إسرائيل هذه الصحراء فستبقى هى نقطة الضعف فى إسرائيل ومصدر الخطر على مستقبلها وسببا فى نهايتها" .

★ ★ ★

وكان لورد ميلك البريطانى الجنسية هو أول الخبراء الذين ربطوا بين مسألة المياه وحجم الاستيعاب البشرى الذى حدده المخطط الصهيونى ، وذلك فى مشروعه الذى نشره فى كتاب عن فلسطين تحت عنوان "فلسطين .. أرض الميعاد" والذى نشر فى لندن عام ١٩٤٤ . فى هذا الكتاب إقترح لورد ميلك تحويل مياه نهر الاردن الى السهل الساحلى لفلسطين وأراضى النقب الواسعة . كما تحدث عن قدرة فلسطين على الاستيعاب البشرى ، وحددها ـ فى هذه الحالة ـ بأربعة ملايين يهودى . ومنذ ذلك الوقت أصبح هذا التقدير هو أساس المخططات الاسرائيلية والمستوى المطلوب تحقيقه كهدف للجيل الأول للدولة اليهودية . ولهذا الغرض وضعت إسرائيل مشروعها الضخم لتحويل مياه الاردن ، واسمته

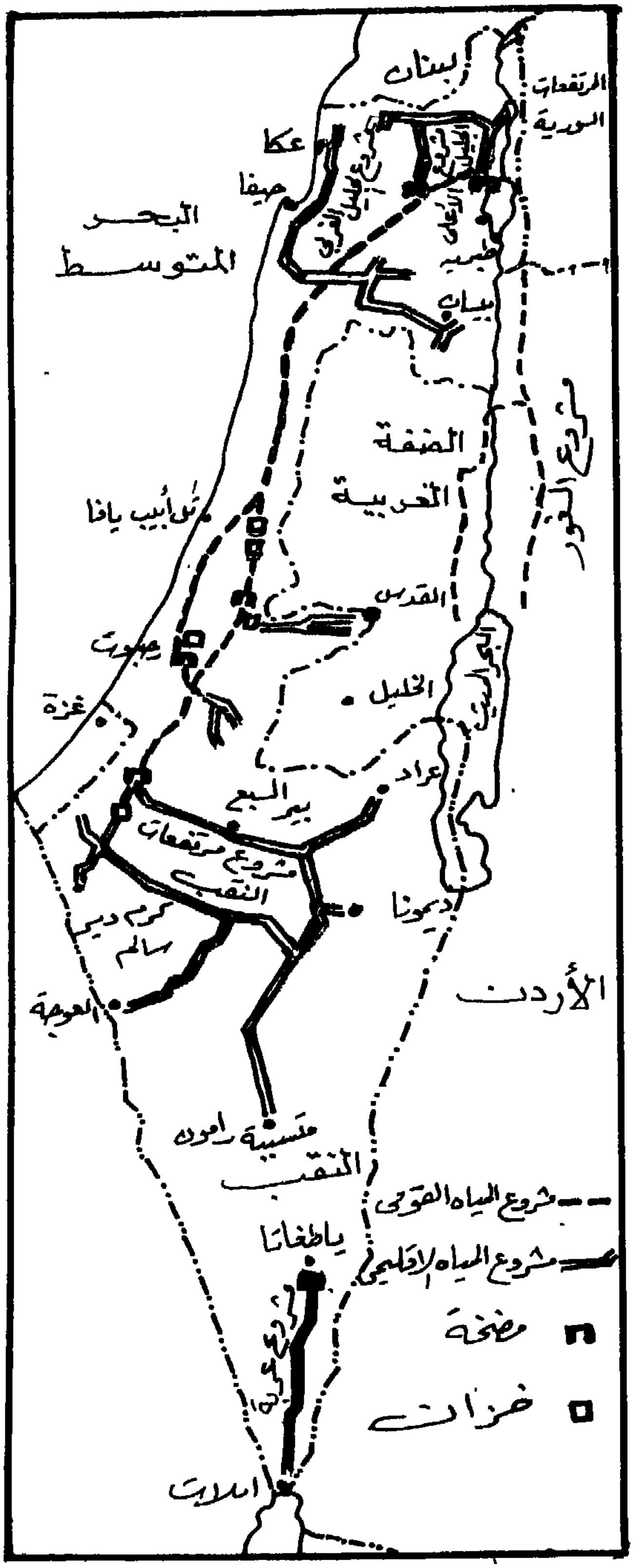

مشروع المياه الاسرائيلى لتحويل مياه نهر الأردن

"المشروع القومى للمياه" كان هدفه وقتئذ تحويل ٣٠٠ مليون متر مكعب من المياه سنويا الى النقب الشمالى والجنوبى عن طريق قناة مكشوفة ومحطات ضخ وخزانات مياه .

★ ★ ★

وكان طبيعيا أن يرفض العرب هذه المشروعات الاسرائيلية لأنها لا ترعى مصلحة العرب بل تضر ضرراً بليغاً بمصالحهم وتعتبر عدوانا صارخا على حقوقهم المشروعة فى الاستفادة من مياه الأنهار التى تنبع من أراضيهم ، خاصة أن تحويل مياه الأردن إلى إسرائيل كان يعنى استيلاءها على نصف مياه النهر . ورغم المعارضة العربية الشديدة فقد استمرت إسرائيل فى تنفيذ مشروعاتها الضارة ، ضاربة بهذه المعارضة عرض الحائط .. بل راحت تستعد لاستخدام القوة المسلحة لفرض مشروعاتها على العرب . وكانت كل هذه التطورات والاحتمالات مطروحة على الساحة العربية الممزقة منذ السنوات الأولى لحقبة الستينيات .

فماذا فعل العرب لمواجهة هذا التهديد السافر لمصالحهم والعدوان المباشر الذى سيحرمهم من حقوقهم المشروعة فى مياه الأنهار ؟

رغم أن مصر لم تكن صاحبة مصلحة مباشرة فى هذا الموضوع الحيوى . فهى الدولة العربية الوحيدة التى تحركت ودعت إلى عقد أول مؤتمر قمة عربية لمواجهة المشروعات الاسرائيلية لتحويل مياه الأردن . وكان اقصى ما فعله العرب هو عقد عدد من هذه المؤتمرات وإصدار عدد من القرارات الحماسية ، والتى تعذر تنفيذ معظمها ، أو نفذت شكلا فحسب ، وبقى مضمونها خالياً من الفاعلية والحسم .

وكان أهم ما أصدره مؤتمر القمة الأول الذى عقد بمصر فى يناير ١٩٦٤ مايلى :

التنديد بمشروعات إسرائيل لتحويل مجرى نهر الأردن باعتباره عدوانا خطيراً على المياه العربية .. وأن هذه المشروعات إنما تستهدف "تحقيق المطامع الصهيونية التوسعية بجلب المزيد من قوى العدوان .. لذلك من الضرورى اتخاذ القرارات العملية اللازمة لاتقاء الخطر الصهيونى الماثل ، سواء فى الميدان الدفاعى أو الميدان الفنى أو ميدان تنظيم الشعب الفلسطينى وتمكينه من القيام بدوره فى تحرير وطنه وتقرير مصيره" . وهكذا تقرر وضع المشروعات اللازمة لتحويل روافد نهر الأردن الواقعة فى لبنان وسوريا لحرمان إسرائيل من سحب مياهها . ويغذى نهر الأردن ثلاثة روافد اساسية فى الشمال : الحصبانى فى جنوب لبنان ، وبانياس فى هضبة الجولان السورية ، ودان فى إسرائيل . فضلاً عن نهر اليرموك الذى يصب فى نهر الأردن جنوب بحيرة طبرية . وكان المشروع العربى يتلخص فى حجز مياه الحصبانى وإقامة قناة تحويلية لتحويل مياه بانياس إلى نهر اليرموك .

وكتعبير عن نية العرب فى منع إسرائيل من التدخل المسلح فى مشروعات المياه العربية قرر مؤتمر القمة تشكيل "قيادة موحدة للجيوش العربية" وكعادة العرب كان لهذا القرار بريق شديد ولكنه ظل بلا فاعلية أو مضمون عملى واضح ومؤثر .. بينما استغلت إسرائيل هذا القرار وغيره من القرارات أحسن استغلال فى دعم موقفها السياسى والعسكرى وكسب المزيد من التأييد العالمى . ولعل القرار الأخير كان أفضلها وأكثرها فاعلية وهو قرار إنشاء "منظمة التحرير الفلسطينية" من أجل تنظيم الشعب الفلسطينى حتى يقوم بدوره فى تحرير وطنه . وقد نجح الشعب الفلسطينى فى أن يجعل لهذه المنظمة دورها المعبر عن ارادته الحرة .. ولعل من غرائب الموقف العربى أن تتحول بعض الدول العربية التى ساهمت فى قرار إنشاء المنظمة عام ١٩٦٤ وبعد مرور عشرين عاما على قيامها إلى العمل على ضرب المنظمة والقضاء على كيانها وتفتيتها إلى شراذم وفصائل متناحرة .

وكما سبق أن أشرت سرعان ما استغلت إسرائيل هذه القرارات العربية لصالحها ، فى دول أوربا الغربية والولايات المتحدة ، التى نظرت إلى هذه القرارات نظرة جادة ، شكلت نقطة تحول فى سياسة الولايات المتحدة ، فقد بادرت باعلان حمايتها لاسرائيل ضد أى عدوان عربى .. رغم تأكدها من أن إسرائيل قادرة ـ بفضل السيل المتدفق من الأسلحة الأمريكية إليها ـ على حماية نفسها ، كما أعلنت واشنطن أنها "لن تقف مكتوفة الأيدى إزاء أى عدوان يقوم به أى بلد عربى فى الشرق الأوسط" . فى هذا اليوم نشرت صحيفة جيروزاليم بوست الاسرائيلية على صفحتها الأولى عنوانا ضخما يقول :

"إسرائيل تحيى الانذار الأمريكى ضد العدوان" .

وهكذا كان عام ١٩٦٤ عاما هاما وحاسما فى السياسة الاسرائيلية بل والسياسة الأمريكية ، كذلك ففى هذا العام أصبح شن الحرب الاسرائيلية ضد العرب أمراً مقرراً بل ومخططاً منذ ذلك الوقت . وباستغلال قرارات مؤتمرات القمة العربية التى عقدت فى هذه الفترة وبعدها ، بدأت إسرائيل حملة منظمة واسعة النطاق لتهيئة الرأى العام العالمى لتقبل هذه الحرب العدوانية . وفى يونيه ١٩٦٤ ، أى قبل ثلاث سنوات من الحرب ، أجرى الجيش الاسرائيلى مناورات ضخمة خاصة فى المناطق الجنوبية وبعد إنتهاء المناورة صرح الجنرال "أشعيا جافيش" (رئيس تدريب الجيش فى ذلك الوقت ثم قائد الجبهة الجنوبية المواجهة لمصر فى حرب ١٩٦٧) أن أهم أهداف المناورة هو "الاستعداد للحرب القادمة" .

★ ★ ★

وخلال عام ١٩٦٤ كثرت الاعتداءات الاسرائيلية على الحدود العربية حتى بلغت ١٤ إعتداءً فى شهرين فقط .. وفى سبتمبر ١٩٦٤ ـ فى ظل هذا التوتر ـ "عقد

مؤتمر القمة العربية الثانى" فى هذا المؤتمر حدد العرب "الهدف القومى العربى" أنه : "تحرير فلسطين من الاستعمار الصهيونى والالتزام بخطة عمل عربية مشتركة" .. فهل فعل العرب شيئاً من أجل تحقيق هذا الهدف القومى ، وأين الخطط المشتركة التى تؤدى إلى تحقيقه ووضعه موضع التنفيذ ؟!

هكذا .. يمكن القول إن نتائج مؤتمرات القمة لم ترتق إلى مستوى قراراتها ، حيث كانت معظم هذه القرارات غير واقعية تتسم بحماس عقيم لا يضع الواقع العربى فى اعتباره .. إذ كانت العقبات تنتظرها وتحول بينها وبين تنفيذها .. لعل أبسط هذه العقبات الافتقار إلى الثقة وعدم جدية العديد من الدول العربية وعدم توافر الامانة القومية اللازمة لمعالجة هذه القضايا المصيرية .

اما إسرائيل فكانت مستمرة فى سياستها المرسومة على أساس الاستفادة سياسياً وعسكرياً وإعلامياً من هذه القرارات العربية باعتبارها "سياسة عربية رسمية معلنة هدفها القضاء على إسرائيل" حتى أن إسرائيل قد طالبت الأمم المتحدة "والشعوب المحبة للسلام" ! بالوقوف إلى جانبها "ورفض قرارات القمة العربية ومعارضتها وحماية إسرائيل من هذا الخطر العربى الذى يداهمها" .. كانت هذه التطورات تحدث عاما وراء عام وإسرائيل تكسب المزيد من تأييد الغرب والرأى العام الغربى بينما سيل الأسلحة الغربية يتدفق عليها من كل صوب من المانيا الغربية وفرنسا ثم بعد ذلك من الولايات المتحدة .. لم يتوقف هذا السيل تحت أى ظروف .. فحينما اضطرت ألمانيا الغربية إلى التوقف عن إرسال شحنات الأسلحة لاسرائيل نتيجة للضغوط العربية التى تعرضت لها ، سارعت الولايات المتحدة للموافقة على أن تحل محل ألمانيا الغربية وتستكمل باقى صفقة الأسلحة لاسرائيل ، بل وتضيف إليها فيما بعد ولأول مرة صفقات أمريكية أخرى بعد أن تحولت الولايات المتحدة إلى توريد الأسلحة مباشرة إلى إسرائيل وبشكل سافر . لقد كانت الاستراتيجية الأمريكية تستهدف تحقيق ما أطلقت عليه "توازن القوى العسكرية بين إسرائيل والدول العربية مجتمعة" .

ومع نهاية عام ١٩٦٤ بدأ تنفيذ المرحلة الأولى من الخطة العربية الخاصة بتحويل روافد نهر الأردن فى نفس الوقت الذى إتخذت فيه إسرائيل اتجاها عدوانياً سافراً أدى إلى تفاقم الأحداث العسكرية ووقوع سلسلة من الاشتباكات المسلحة خاصة على الحدود السورية ، ثم انتقلت إلى الحدود الأردنية عام ١٩٦٥ . وكانت اسرائيل تعلم أن مثل هذه الأعمال العسكرية سوف تؤدى إلى وقوع الصدام المسلح الواسع الذى تعد له . وزادت تصريحات قادة إسرائيل وتهديداتهم وإعلانهم عن أن "أى محاولة لحرمان إسرائيل من مياه نهر الأردن ، سينظر إليها كعدوان على الأراضى الاسرائيلية ، وأن إسرائيل إزاء ذلك تحتفظ بحقها فى التحرك .. وسوف تدافع عن حقوقها بكل ما تملك من قوة" .

وفى سبتمبر عام ١٩٦٥ أقر "مؤتمر القمة العربية الثالث" ميثاقا للتضامن العربى يوصى بتوحيد كلمة الدول العربية ، ويضفى شكلاً من الجدية على العمل العربى المضاد لاسرائيل ورغم انعدام "وحدة الكلمة العربية" أو إضفاء صفة الجدية عليها . فقد سعت إسرائيل إلى توسيع نطاق أعمالها العدوانية عبر الحدود وخاصة ضد مناطق التحويل السورية فى الربع الأخير من عام ١٩٦٥ .

ومع أوائل عام ١٩٦٦ كانت القوات المسلحة الاسرائيلية تقترب من نهاية مرحلة الاعداد ، خاصة بعد أن تكفلت الولايات المتحدة بأكمال تزويدها بأسلحة ومعدات الصفقة الالمانية الغربية .. وكان على رأس هذه الأسلحة والمعدات الدبابات الأمريكية من طراز "باتون" .. **وبهذا الاستعداد بدأت إسرائيل مرحلة خلق النزاعات الحادة مع العرب للوصول بالموقف إلى "حافة الهاوية" ثم شن الحرب ، التى انتظرتها طويلاً وأعدت لها عسكرياً ومهدت سياسياً منذ عدة سنوات والعرب لا يدركون حقيقة ما يدبر لهم وإن أدركوا فهم لا يفعلون شيئاً .. وإن فعلوا شيئاً فهم لا يحسمون أمراً .**

الوجود العسكرى المصرى خارج الحدود :

لم يكن الوجود العسكرى المصرى فى اليمن ولمدة خمس سنوات ـ فيما بين عامى ١٩٦٢ و ١٩٦٧ ـ هو الوجود العسكرى المصرى الوحيد خارج حدود مصر ، وإن كان أكبرها حجما وأطولها بقاء واستمرارا . **فلقد تميزت السنوات العشر التى اعقبت عدوان ١٩٥٦ بين عامى ١٩٥٧ و ١٩٦٧ .. بظاهرة الانتشار العسكرى المصرى خارج حدود مصر فى بعض البلدان العربية . وتعتبر هذه الظاهرة هى أحد الاثار الهامة التى تمخضت عنها حرب العدوان الثلاثى على مصر ١٩٥٦ . حيث خرجت مصر من هذا العدوان أكثر قوة وأكثر انتشارا فى العالم العربى وأصبح زعيم مصر فى ذلك الوقت الرئيس جمال عبد الناصر زعيما للأمة العربية كما أصبحت مصر قبلة الشعوب العربية ومحط آمالها وتطلعاتها القومية .. ورمزا عالميا لحركات التحرر فى العالم الثالث عامة والبلدان العربية خاصة .**

وانجذبت قيادات مصر نحو هذا التيار القومى الدولى . وباعتبار أن مصر اصبحت الدولة الطليعية للشعوب المغلوبة على أمرها ، فقد أقدمت على توسيع نطاق دعمها وتأييدها ومعاوناتها لحركات التحرر العربية وأن كانت ظاهرة الانتشار السياسى والعسكرى المصرى هذه قد اعتبرت وقتئذ قمة فى النجاح السياسى لمصر وسياسة مصر .. إلا انها فى واقع الأمر قد أدت الى حجب الاهتمامات العملية والواقعية بالأمن القومى المصرى المباشر ومستلزمات وضمانات وجوده عن القيادات المصرية العليا السياسية والعسكرية .

لقد بدأت ظاهرة الانتشار العسكرى للقوات المصرية فى عام ١٩٥٧ ، عندما تعرضت سوريا لمؤامرة غربية عدوانية تستخدم فيها اسرائيل وتركيا كأدوات لتهديدها . واستنجدت سوريا بمصر التى سارعت بارسال بعض وحداتها العسكرية وعدد من ضباطها المتخصصين الى سوريا فى أواخر عام ١٩٥٧ لدعمها عسكريا فى مواجهة هذا العدوان الوشيك .. ثم تطورت الامور بين مصر وسوريا الى أن تحققت الوحدة فى فبراير عام ١٩٥٨ .. وفى ظل الوحدة ارسل المئات من ضباط القوات المسلحة فى شتى الافرع والتخصصات للعمل بالجيش السورى أو (الجيش الأول كما اطلق عليه بعد الوحدة) وابتعد هؤلاء الضباط عن وحداتهم وجنودهم عدة سنوات .. ثم كانت مأساة الانفصال وما تعرض له هؤلاء الضباط واسرهم من معاملة غاية فى السوء لاشك فى انها قد تركت انعكاسات نفسية سيئة بين ضباط القوات المسلحة ، ساهمت فى حالة التمزق النفسى التى بدأت تنتشر بين أفراد القوات المسلحة خاصة بعد بداية تجربة اليمن .

وكان تأثير تجربة حرب اليمن على نفوس الضباط ـ ماديا ومعنويا ـ اكثر عمقا وأبعد أثرا . فقد خلقت بين القوات احساسا بالتشتت . حيث أنهم ذهبوا ليدافعوا عن ثورة عربية وطنية ، فاذا هم يواجهون مؤامرات غربية وعربية استمرت سنوات .. تحملت خلالها القوات الكثير من الخسائر والمشاق وسقوط مئات من الشهداء فوق سفوح الجبال اليمنية الوعرة .. ومما زاد الطين بلة أن تحول هذا العمل القومى فى بعض الحالات بين الضباط إلى هدف لتحقيق المنفعة الشخصية .

ثم جاءت تجربة الجزائر فى عام ١٩٦٣ حينما تعرضت الجزائر ـ الدولة العربية الحديثة الاستقلال ـ لعدوان من دولة عربية مجاورة هى المغرب ، ونشبت المعارك فى مناطق الحدود ، حيث تتوافر الثروات المعدنية بكثرة . والتى سببت هذا النزاع فى الطرف الجنوبى الغربى للجزائر . وكانت الجزائر لا تزال فى المراحل الأولى لبناء قواتها المسلحة . وعندما طلبت القيادة الجزائرية فى شخص الرئيس الجزائرى أحمد بن بيللا مساعدة مصر لم تتردد القيادة المصرية فى ارسال بعض الوحدات من القوات المسلحة المصرية من الدبابات أو المدفعية والمشاة الميكانيكية وبعض الطائرات إلى الجزائر لمساعدتها فى مواجهة ما تتعرض له أراضيها من عدوان .. وقد لاقت هذه القوات مشاق ضخمة فى تحركاتها بحرا من الاسكندرية إلى ميناء وهران ثم برا على الطرق الى عمق الصحراء الجزائرية (الصحراء الكبرى) ولمسافة تقرب من ١٠٠٠ كيلو متر ـ وقد كان لى شرف قيادة هذه القوات ـ وفى مارس عام ١٩٦٤ عادت القوات إلى مصر بعد أن حققت مهمتها دون قتال . فقد كان لوصول القوات المصرية إلى الجزائر اثره المباشر فى قبول المغرب لوقف اطلاق النار وتسوية الأزمة .. ومن الأحداث التى تركت اثرها فى هذه التجربة .. هبوط عدد من الضباط المصريين بطريق الخطأ بطائرة هليكوبتر يقودها طيار جزائرى داخل الحدود المغربية . وقد قبضت عليهم السلطات المغربية ووضعتهم فى السجن لمدة بلغت حوالى ثلاثة أشهر أساءت خلالها معاملتهم .. وقد

أثار هذا الحادث رد فعل سيىء بين ضباط القوات المسلحة وانتشرت التساؤلات حول جدوى تشتيت قواتنا هنا وهناك ، وما يتعرض له رجالها من متاعب وما يتحملونه من تضحيات !

كما ارسلت مصر بعض وحداتها الى العراق لمساندة الثورة العراقية بعد ذهاب عبد الكريم قاسم .. وكانت هذه القوات محدودة نوعا أرسلت أساسا بغرض مساندة النظام وحمايته وعادت بعد أن استتبت الأمور فى بغداد . هكذا انتشرت قوات مصر فى العالم العربى من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ومن أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب .

ولا شك فى أن تجربة اليمن كان لها طابعها الفريد من حيث نوعية التجربة القتالية والحجم الضخم للقوات واستمرارها لمدة طويلة بلغت خمس سنوات ، لذلك كان تأثيرها أعمق كثيرا .. وقد استمرت هذه الأوضاع إلى أن قامت الحرب بين مصر وإسرائيل فى يونية ١٩٦٧ .

لقد كانت الخطة الدفاعية المعروفة باسم "قاهر" التى وضعت فى عام ١٩٦٦ للدفاع عن سيناء ، إحدى النتائج المباشرة لنقص القوات فى جبهة سيناء الناجم عن استمرار ارسال القوات الى جبهة اليمن التى استوعبت حجما بلغ حوالى ٤٠٪ من القوات البرية كما سبق القول ، فضلا عن الامدادات المستمرة طوال هذه السنوات لتعويض الخسائر فى الأسلحة والمعدات والضباط والجنود . ولو أن الخطة "قاهر" كانت فعلا خطة محكمة وسليمة ذات حجم قوات مناسب للمهام الدفاعية التى كلفت بها ، إلا انها كانت خطة مقصورة على المهام الدفاعية البحتة لعدم توافر القدرات والقوات الكافية للقيام بمهام هجومية . وكان أحد أخطاء القيادة السياسية والعسكرية فى عام ١٩٦٧ ـ والتى سنتعرض لها فيما بعد ـ هو التفكير فى القيام بأعمال تعرضية وإن كانت محدودة . وقد ساهم هذا الاتجاه فى زيادة حالة التشتت التى كانت تعانيها القوات المصرية فى سيناء فضلا عن التشتت الذهنى الذى عانته القيادات الميدانية فى ذلك الوقت . وفى كل الأحوال كانت "الخطة قاهر" تمثل الحد الأدنى المسموح به استراتيجيا لممارسة عمليات حربية فى سيناء اذا اضطرتنا الظروف اضطرارا لخوض الحرب .

★ ★ ★

ولعل من أخطر جوانب التأثير التى فرضها الوجود العسكرى المصرى خارج الحدود فى هذه الحقبة ـ خاصة حرب اليمن ـ على الكفاءة القتالية للقوات المسلحة فى مصر وعلى خطط الدفاع عنها وحماية أمنها القومى المباشر هى الناحية الاقتصادية .. فقد كانت حرب اليمن بابا واسعا لاستنزاف ثروة مصر وابتلاع ميزانية القوات المكلفة بالدفاع عنها . وكان ذلك فى النهاية على حساب أمن مصر القومى وقدرتها فى الدفاع عن نفسها ضد العدوان المباشر .. خاصة فيما يتعلق بحجم وكفاءة القوات وتجهيز الدولة ومسرح العمليات للحرب . ولتوضيح

هذا الأثر سوف اكتفى بذكر ثلاثة أمثلة هامة لاوضح ما تركته من أثار خطيرة على استعداد القوات المسلحة وتجهيز مسرح العمليات للحرب :

١ ـ كلنا يعرف ان طائرات قواتنا الجوية . قد ضربت جوا صباح ٥ يونيه ١٩٦٧ وهى فى مطاراتها وقواعدها الجوية .. مكشوفة ومعرضة تماما . مما أدى إلى تدمير القسم الأكبر من هذه الطائرات وهى رابضة على الأرض . وخسرت مصر قواتها الجوية منذ اللحظات الأولى للحرب . وأود فى البداية أن أوضح هنا أن ما سأذكره ليس دفاعا عن قيادة القوات الجوية فى ذلك الوقت ولا يعفيها ابدا من قصورها فى اتخاذ الاجراءات الضرورية الكافية لتأمين المطارات والقوات . ففى عام ١٩٦٦ طلبت قيادة القوات الجوية تخصيص اعتماد مالى كبير يبلغ عدة ملايين لتنفيذ خطة متكاملة لتأمين المطارات وحماية الطائرات ببناء الدشم والتحصينات اللازمة لهذه الحماية .. غير أن العجز الشديد فى ميزانية القوات المسلحة فى ذلك الوقت نتيجة لما تستنزفه حرب اليمن ، قد أدى إلى رفض تنفيذ خطة الحماية هذه وتأجيلها لوقت آخر . وهكذا ظلت مطاراتنا الحربية معرضة وطائراتنا مكشوفة فوق سطح الأرض .. كهدف ثمين سهل للقوات الجوية الاسرائيلية حين هاجمتها صباح يوم ٥ يونية ١٩٦٧ .

٢ ـ والمثال الثانى الذى يبين اثر العجز المالى فى ميزانية القوات المسلحة .. هو النقص الشديد فى الاعتمادات التى خصصت لتجهيز مسرح العمليات وتنفيذ الخطة الهندسية الضرورية لبناء التحصينات والتجهيزات الدفاعية المختلفة . فقد كانت للخطة الدفاعية "قاهر" خطة تكميلية خاصة بإقامة التجهيزات الهندسية اللازمة لمسرح العمليات حتى يمكن تنفيذ خطة العمليات .. وقد حددت الخطة اسبقيات التنفيذ ووضع لذلك جدول زمنى يستغرق اتمامه فترة تتراوح بين اربعة وستة أشهر .. وقد نفذت التجهيزات الخاصة بالخطوط الأمامية وإن لم تستثمر استثمارا كاملا .. اما التجهيزات الأساسية لوسط سيناء وهى تجهيزات لها أهمية تعبوية كبيرة حيث كان من المنتظر أن تدور المعارك الحاسمة فى هذه المناطق (النطاق الدفاعى الثانى والمتوسط) فلم تستكمل حتى بداية الحرب .. اما دفاعات النطاق التعبوى الخاصة بتأمين منطقة المضايق الاستراتيجية ، فهى لم تجهز على الاطلاق . وذلك بسبب نقص الاعتمادات اللازمة لتنفيذ الخطة الموضوعة وللأسلوب غير الواعى الذى اتبع فى ضغط مصروفات جبهة مصر لتغطية مطالب جبهة اليمن .

★ ★ ★

٣ ـ وفى محاولات القيادة العامة للقوات المسلحة للتخفيف من المصروفات والاعباء الاقتصادية حتى يمكن توفير الاعتمادات اللازمة لحرب اليمن ، أمرت القيادة فى أول مايو ١٩٦٧ بتسريح دفعات الاحتياط (الرديف) من الوحدات قبل موعدها بشهرين توفيرا لمرتباتها ، مع تأخير استعواضها بالجنود المستجدين لمدة ثلاثة أشهر لنفس الغرض . وقد تم تنفيذ هذه الخطة فعلا فى أول مايو .

وأصبحت مرتبات الوحدات المقاتلة أقل من المرتبات المخفضة أصلا والمحددة لها وقت السلم ، وبعد أسبوعين بالضبط ، أى فى ١٤ مايو ١٩٦٧ فوجئت القوات المسلحة بتفجير أزمة سياسية خطيرة ألقت على كاهلها أعباء ضخمة ومفاجئة ، بينما وحداتها تعانى نقصا كبيرا فى مرتباتها من الأفراد بلغ فى بعض الحالات حوالى ٣٧٪ من الضباط و ٣٠٪ من الرتب الأخرى . ارتفع بعد تنفيذ الخطة الى ٤٠٪ فى الضباط و ٤٤٪ فى الرتب الأخرى .. وقد أدى وجود هذا الوضع وضرورة علاجه فورا وخلال فترة زمنية محددة لمواجهة الاعباء الطارئة الى ارتباك شديد فى خطة التعبئة العامة وحدوث الكثير من الأخطاء التى اثرت تأثيرا شديدا على مستوى الاستعداد القتالى للقوات .

★ ★ ★

هكذا ظلت القوات المسلحة تعانى من التشتت المادى والتمزق المعنوى ، بعد أن تركزت اهتمامات القيادة المصرية طوال سنوات هذه الحقبة خارج مصر ، وبالتالى انصرف اهتمام الضباط والجنود الى التطلع نحو العمل خارج مصر بعد أن تعددت هذه المجالات .. فتوزعت اهتمامات القادة والضباط ـ بعيدا عن مهامهم الطبيعية وواجباتهم الوطنية ـ بين التسابق للعمل فى اليمن أو غيرها والصراعات على السلطة التى كانت دائرة فى الداخل .. خاصة ما تم من تكليف لضباطها بمهام داخلية لا تمت بصلة الى مهام القوات المسلحة .

★ ★ ★

ودون الخوض فى أى تفاصيل تتعلق بطبيعة الصراع على السلطة الذى كان دائرا داخل دوائر الحكم فى مصر طوال سنوات ما قبل النكسة ، سأتعرض هنا باختصار لآثار هذا الصراع على الموقف داخل القوات المسلحة ، فلا شك فى أن استمرار هذا الصراع لفترة طويلة قد أحدث بعض التمزقات داخل القوات المسلحة ، فضلا عن أن الكثير من الضباط قد جذبهم هذا الصراع وشغلتهم المسائل الخاصة بالسياسة الداخلية أكثر من انشغالهم بمهامهم العسكرية فابتعدوا بذلك عن المهام الطبيعية للقوات المسلحة . من ناحية أخرى فقد أدى استخدام بعض ضباط القوات المسلحة وبعض العناصر فى أعمال مدنية لا علاقة لها بالعمل العسكرى وان كانت تتميز بممارسة واسعة للسلطة .. قد خلقت تنافسا بين الضباط وصراعا حول مثل هذه الأعمال . والمثال الصارخ لهذه الحالة فى المرحلة التى سبقت نكسة ١٩٦٧ .. هو مشاركة ضباط القوات المسلحة وعناصر منها فى أعمال "لجنة تصفية الاقطاع" وما كان لهذه المشاركة من ردود فعل عكسية اجتماعية وسياسية على كل الاطراف سواء افراد الشعب أو ضباط القوات المسلحة .. ولا شك فى أن هذه الظروف الداخلية قد تركت آثارها المعنوية والنفسية على القوات المسلحة مما عمق فى النهاية حالة التمزق النفسى والتشتت

الذهنى .. فضلا عن انشغال بال الضباط والقيادات بما يصرفها عن مهامها العسكرية الطبيعية .

إن كل هذه الظروف والأحداث والملابسات التى غطت فترة تزيد على عشر سنوات ، قد عكست كثيرا من الدلالات والآثار والعواقب داخل مصر .. ورسبت الكثير من المفاهيم والأخطاء فى أساليب صنع القرار السياسى ووسائل ادارة الأزمات الخارجية .. لقد كان من الضرورى ان تدخل كل هذه الأمور فى حساباتنا قبل اتخاذ اى قرار سياسى ، مادام هذه القرار سوف يغير أوضاعا تمس أطرافا أخرى .. كان لزاما أن توضع فى الاعتبار وأن تخضع كل الظروف والملابسات والعوامل المؤثرة للدراسة الجادة قبل مواجهة الموقف فى عام ١٩٦٧ .. ولعل الأهم من ذلك كله هو إهمال كل ما تركته هذه الأحداث والتطورات على القوات من أثار التشتت المادى والتمزق المعنوى لسنوات طوال سبقت نكسة يونية ١٩٦٧ .

اسرائيل : لا بديل عن الحرب :

فى هذه الظروف الصعبة التى كانت تمر بها مصر خارجيا وداخليا ، سياسيا وعسكريا واقتصاديا واجتماعيا .. كان الاندفاع الاسرائيلى نحو الحرب على أشده خلال عام ١٩٦٦ وبداية عام ١٩٦٧ . فى هذه الأوقات كانت القيادة السياسية الاسرائيلية والمؤسسة العسكرية الاسرائيلية تعتقدان أن ظروف الموقف الدولى والمحلى والداخلى فى اسرائيل جميعها اصبحت مواتية لشن الحرب الشاملة ضد الدول العربية المجاورة مع اتخاذ مشروعات تحويل المياه فى سوريا ذريعة لتفجير الموقف كله واشعال الحرب . **فكيف كانت الأوضاع السياسية والعسكرية فى المنطقة عندما فتح باب الصراع على مصراعيه واتخذنا من القرارات ونفذنا من الاعمال ما وفر لإسرائيل أفضل الذرائع وأنسب الأجواء ؟**

● كانت إسرائيل قد اطمأنت تماما الى نجاح سياستها مع الولايات المتحدة ، فقد أصبح الدعم الأمريكى لاسرائيل سواء السياسى أو العسكرى أو الاقتصادى كاملا ومؤكدا ، كما اصبحت الولايات المتحدة الأمريكية هى الدولة الكبرى الحامية لاسرائيل ، وهى المصدر الأساسى الأول لحصولها على أحدث الأسلحة ، وأصبحت الترسانة الأمريكية أخيرا مفتوحة أمام كل احتياجات إسرائيل من الأسلحة والمعدات ، وكان ذلك اعتبارا من عام ١٩٦٤ ، حين بدأت الدبابات "باتون" ثم بعد ذلك الطائرات "سكاى هوك" تتدفق على إسرائيل .. بينما كانت العلاقات بين الادارة الأمريكية تحت رئاسة جونسون ، والدول العربية - وعلى رأسها مصر - تتدهور من سيىء إلى أسوأ .

● كانت القرارات البراقة التى صدرت عن مؤتمرات القمة العربية خلال عامى ١٩٦٤ و ١٩٦٥ .. أسيرة لسياسات عربية متنافرة ، تتعثر تماما فى مسارها ..

بينما دأب بعض المسئولين العرب على اطلاق تصريحات غير مسئولة .. حول إزالة إسرائيل من الوجود وإلقائها فى البحر .. وعرفت إسرائيل ـ وهى ترحب سرا بمثل هذه التصريحات ـ كيف تستغلها بكل مهارة فى تأليب الرأى العام العالمى ضد العرب ، وتهيئته لقبول مزاعمها الخاصة بحقها فى الوقوف أمام التهديدات الموجهة اليها والدفاع عن النفس ورد العدوان العربى قبل وقوعه ، حفاظا على كيانها وضمانا لبقائها واستمرار وجودها .

● إنه بالرغم من انعقاد مؤتمرات القمة العربية ، وصدور قراراتها الخادعة ، كانت العلاقات العربية ذاتها فى أسوأ حالاتها ، بعد أن بلغت حالة مؤسفة من التفسخ وفقدان الثقة لم تصل اليها من قبل وزاد هذا التفسخ اتساعا فى ظل الصراع الدامى الذى كان دائرا فوق أرض اليمن ، حيث كانت القوات المصرية ـ وهى تسعى الى تثبيت اقدام الثورة اليمنية الوطنية ـ تتلقى الطعنات من الخلف بواسطة قوى عربية وأجنبية كانت تتآمر على مصير اليمن ، وتزيد نار الحرب اشتعالا فوق أرض اليمن ، وتشن حربا شعواء على الوجود المصرى بها ، وكانت مصر تؤدى واجبا قوميا وتتحمل الكثير من التضحيات التى أثرت على أمنها المباشر ذاته ، فى سبيل انقاذ شعب عربى شقيق من براثن التخلف ومن حكم العصور الوسطى .

● كانت القوات المسلحة المصرية تمر بمرحلة شديدة الحرج ، بعد أن نجح مسرح اليمن فى استدراج حوالى ٤٠٪ من خيرة قواتها ، والتى ظلت معرضة لأعمال الاستنزاف الممتدة لفترة خمس سنوات متصلة ، تتحمل الخسائر الثقيلة فى الأرواح والأسلحة والمعدات .. لقد خاضت قواتنا المسلحة فى اليمن معارك صعبة فى مناطق جبلية شديدة الوعورة ، ولا شك فى أن قوات مصر هى القوات التى تحسب إسرائيل حسابها دائما . لذلك فان انشغال هذا القسم الكبير منها فى اليمن أصبح يمثل لاسرائيل انسب وأفضل الفرص العسكرية التى انتظرتها طويلا .. وكان من الضرورى الا تضيعها وأن تنتهزها وتستغلها لصالح مخططاتها .

● على الجانب الآخر كانت القوات الاسرائيلية فى عنفوان استعدادها ،استكملت تسليحها الحديث . وعبأت قواتها التى بلغت ربع مليون جندى وأعدت خططها واستعدت لشن الحرب باستخدام قوات ضاربة جوية وبرية ، قادرة على مهاجمة ثلاث جبهات عربية فى حرب خاطفة وحاسمة .

● كانت المشاكل الاقتصادية تتفاقم داخل إسرائيل مع نهاية عام ١٩٦٦ . بعد انتهاء اتفاقية التعويضات الألمانية والتى استمرت منذ عام ١٩٥٢ وانتهت فى عام ١٩٦٥ . وقد بلغت قيمة التعويضات التى دفعتها ألمانيا الغربية لاسرائيل ٣٤٥٠ مليون مارك ألمانى غربى . وقد وصل مقدار العجز فى ميزان التجارة الخارجية ٥٠٠ مليون دولار . بينما أدت سياسة التقشف التى اتبعها اتحاد العمال الاسرائيلى "الهيستدروت" الى ارتفاع نسبة العمال العاطلين فى نهاية عام

١٩٦٦ . حتى بلغ عددهم حوالى ١٠٠ ألف عاطل ، أى اكثر من ١٢٪ من حجم القوى العاملة فى اسرائيل وقتئذ .

وهكذا اصبحت الحرب هي الحل الأنسب للتخلص من هذه المشاكل الاقتصادية .

★ ★ ★

عندما بدأت اسرائيل بحثها عن المدخل المناسب لشن عدوانها الكبير المبيت ، وجدت فى سوريا ضالتها ، فسوريا هي احدى الدول الثلاث القائمة بتنفيذ مشروعات المياه العربية ، التى تعمل إسرائيل على احباطها بشتى الوسائل بما فى ذلك استخدام القوة العسكرية سواء بشكل محدود أو بشكل شامل . ومع استمرار العرب فى تنفيذ مشروعات التمويل وجدت إسرائيل فرصتها فى تصعيد الموقف العسكرى وإثارة التوتر الشديد على هذه الجبهة مرة بحشد قواتها على الحدود وأخرى باصدار التصريحات التى تحمل تهديدا مباشرا لسوريا ، مما يسبب فى النهاية خلق الأزمة التى تؤدى إلى انفجار الموقف واشتعال الحرب . ولما كانت مصر هى الهدف الأول للحرب العدوانية الاسرائيلية ، ومع علم اسرائيل بأن تعرض سوريا للتهديد بالتعاون سوف يدفع مصر الى التحرك وفاء لالتزاماتها القومية العربية ، ولتخفيف الضغط عن سوريا والدفاع عن الحقوق العربية .. فهكذا تتاح الفرصة أمام إسرائيل لخلق ذريعة الحرب وشن هجومها ضد مصر أساسا ثم التحول الى سوريا والأردن بعد ذلك إذا استدعى الأمر .

من ناحية أخرى كانت مرتفعات "الجولان" السورية - حيث تنتشر المواقع العسكرية فوق الهضبة - المتحكمة فى الأراضى الاسرائيلية المنخفضة ، هدفا من الأهداف الحرب الاسرائيلية فضلا عن أن منطقة الحدود السورية قد تجمعت حولها أنواع متعددة من النزاعات التى يمثل مجموعها محصلة لطبيعة الاطماع الاسرائيلية سواء فى المياه العربية أو فى الأراضى العربية أو كمتطلبات لأمنها .. وأخيرا يأتى الاتهام الذى دأبت إسرائيل على توجيهه لسوريا طوال هذه الفترة بأنها الدولة التى تشجع النشاط المتزايد للمقاومة الفلسطينية داخل الأراضى الاسرائيلية . لذلك كله فان المؤسسة العسكرية الاسرائيلية كانت تعتقد بوجود "حساب قديم" .. يلزم تسويته مع الجيش السورى ، الذى لم يكف - مستغلا ميزة طبوغرافية - عن ملاحقة وضرب المستعمرات الزراعية التى يشرف عليها من أعلى الهضبة .

رغم كل هذه الأسباب فانها فى واقع الأمر لم تكن تمثل الأسباب الحقيقية التى سعت إسرائيل لشن الحرب من أجلها . كان هدفها الأساسى الأول هو "تدمير الجيوش العربية ، ثم التوسع الاقليمى فى الأراضى العربية لمصر وسوريا والأردن ، وأخيرا فرض السلام الاسرائيلى على المنطقة العربية ، وهو السلام القائم على رضوخ العرب للأمر الواقع . ولكنها كانت الحجج المناسبة لتطوير

النزاع وتوسيع حلقاته ، وخلق مبررات الحرب فى المنطقة . وعند ذلك تتحول الجهود الأساسية للقوات المسلحة الاسرائيلية .. نحوَ الاتجاه الرئيسى لتبدأ الحرب ضد الجبهة المصرية وقوات مصر المسلحة .

هكذا استمرت اسرائيل توالى تهديداتها واعتداءاتها على سوريا دائما والأردن أحيانا ، وتهيىء فى نفس الوقت الرأى العام الاسرائيلى والعالمى لتقبل نواياها المبيتة ، بعد أن تغلفها فى قوالب غير حقيقية من الألفاظ الخادعة مثل "حق الدفاع عن النفس" .. و "اعادة السلام الى المنطقة" لتغطية نواياها الحقيقية .

وفى منتصف عام ١٩٦٦ تحولت إسرائيل من مرحلة خلق النزاعات الى مرحلة التصعيد العسكرى المباشر . فشنت فى يوليو ١٩٦٦ هجوما جويا كبيرا ضد مناطق التحويل فى سوريا لتدمير المعدات المستخدمة فى تنفيذ مشروعات المياه عند منابع الأردن . وبحجة القضاء على الفدائيين نفذت فى نوفمبر ١٩٦٦ عدوانا وحشيا بريا واسع النطاق ضد قرية السموع فى قطاع الخليل بالضفة الغربية للأردن وقتلت مائتى مواطن من سكانها . ورغم الاستنكار الشديد الذى قوبلت به حادثة "السموع" فى أنحاء العالم وادانة إسرائيل على هذا العمل الوحشى ، فإنها ظلت حريصة على تصعيد الصدام المسلح عبر الحدود وخطوط الهدنة ، بل أن اسحق رابين أعلن فى شهر ديسمبر التالى عن استعداد إسرائيل لشن الحرب قائلا : إن قوة الجيش الاسرائيلى قد أصبحت ثلاثة أضعاف ما كانت عليه فى السابق ، وإن القوات المسلحة تركز استعداداتها لصد العدو ولنقل الحرب إلى أراضيه .

وفى نفس هذا الشهر ديسمبر ١٩٦٦ ، حدد أبا إيبان وزير خارجية اسرائيل ، العوامل والضمانات التى تعطى إسرائيل "أملا فى البقاء" على حد قوله ، وفقا للترتيب التالى :

- **استمرار المساعدات العسكرية الأمريكية المباشرة التى بدأت بالصواريخ من طراز "هوك" .**
- **استمرار حماية الدول الكبرى للوضع الراهن فى المنطقة .**
- **استمرار الخلافات العربية ، لأنه لو اتحد العرب لما بقى احد يهتم بنا ، ولسهل عليهم إذابة كياننا ، لأننا سنبقى دائما شوكة فى الجسم الذى يحتوينا .**

لقد رسم ايبان صورة واضحة للأهداف الاساسية التى سعت اليها إسرائيل منذ نهاية الخمسينيات ، والتى شكلت فى نفس الوقت ، أفضل الظروف السياسية وأنسبها لأن تشن إسرائيل حربها ضد الدول العربية وهى مطمئنة إلى :

- **قوة جيشها .. باستمرار المساعدات الأمريكية لها .**
- **أمن حدودها .. بحماية الدول الغربية الكبرى لها .**
- **ضعف العرب .. بتفكك الدول العربية واستمرار الخلافات فيما بينها .**

كانت تلك هى الشروط الثلاثة الأساسية التى لو سقط أحدها لما أقدمت إسرائيل

على شن الحرب ضد ثلاث دول عربية فى يونيه عام ١٩٦٧ ، بعد أن مهدت لها سنوات طوال بالجهد السياسى والعمل الدعائى والاستعداد العسكرى .. فلما اطمأنت لذلك ، بدأت فى تصعيد الموقف العسكرى مع بداية عام ١٩٦٧ ، حتى بلغ الذروة وحانت الفرصة التى انتظرتها إسرائيل زهاء عشر سنوات مضت على الجولة الثانية منذ خريف عام ١٩٥٦ . فكيف تحركت الأحداث نحو الحرب ؟ وكيف ساهمت قرارات مصر المتعجلة فى دفع هذه الأحداث نحو مصيرها المحتوم ؟

●

الفصل الرابع

الطريق إلى الحرب

سحب العاصفة تتجمع :

بقدر ما تعرضت القوات المسلحة المصرية خلال الأعوام العشرة التى سبقت حرب ١٩٦٧ ، للعديد من المؤثرات السياسية والعسكرية والاقتصادية والمعنوية والتى تناولناها فى الفصل السابق .. وبقدر ما سببته هذه المؤثرات من إنعكاسات على الحالة العامة للقوات المسلحة ومن تعرضها لحالة غير عادية من التشتت المادى والمعنوى .. كان النشاط السياسى والعسكرى الاسرائيلى قد بلغ ذروته . ويصف الكاتب الاسرائيلى يوسف عفرون كيف أمكن تسخير السياسات الاسرائيلية لخدمة البناء العسكرى لاسرائيل بقوله : أنه لولا العمل السياسى الدائب الذى سُخر لخدمة السياسة الحربية ، وأدى إلى تنفيذ صفقات ضخمة من الأسلحة والمعدات الحربية سبقت العمل العسكرى وكانت من الدوافع الأساسية لتنفيذه . لولا ذلك لما إستطاع الجيش الاسرائيلى أن يشن حربه عام ١٩٦٧ "فان الدبابات والطائرات التى أدت إلى النصر لم تهبط على الجيش الاسرائيلى من السماء ، بل كانت ثمرة تخطيط دقيق وعمل شاق لسنوات طوال" .

وتوضح هذه الكلمات المصدر الذى يستمد منه زعماء إسرائيل شجاعتهم عندما يعبرون عن آرائهم . فنجد موشى ديان يستنكر ويسفه سياسة "ضبط النفس" التى إتبعتها الحكومة الاسرائيلية فى بعض المراحل ، ويندد بالسياسة الدفاعية والاجراءات الوقائية "كاقامة الاسوار المكهربة على الحدود كما نادى بعض الاسرائيليين .. حتى لا تتحول البلاد إلى "جيتو" لليهود خلف الاسلاك الشائكة . (والجيتو هو اسم يطلق على الأحياء اليهودية المعزولة داخل المدن الأوربية لقرون طويلة سابقة) .. ثم يطالب ديان بشن الحرب فوراً على العرب ، "لأن إسرائيل إستعدت لمقابلة عدوها وسحقه قبل أن يثب عليها" . تلك كانت المعالم المحددة الواضحة للسياسة الحربية الاسرائيلية التى تولى ديان تطبيقها بنفسه فى عام ١٩٦٧ عندما عين وزيراً للدفاع قبل شن الحرب بأيام معدودة .

منذ أوائل عام ١٩٦٧ ، بدأ التوتر فى منطقة الشرق الأوسط يتخذ أبعادا جديدة نتيجة لتحول قادة إسرائيل الى مرحلة التهديد العلنى المباشر "بغزو الأراضى السورية" وباحتلال دمشق وإسقاط النظام الحاكم فيها ! وليس ثمة شك فى أن هذا الموقف الاسرائيلى المتصاعد وإن كان نابعا من مخطط إسرائيلى محدد ، إلا أنه كان يستمد عناصر قوته من موقف الولايات المتحدة واتجاهاتها العدوانية تجاه الدول العربية المتحررة .. بينما كان النفوذ الغربى فى المنطقة العربية يمر بمرحلة هامة من مراحل تدهوره .. وكان عامل الوقت فى صالح المد التحررى المدعم بامكانات مصر وغيرها من الدول العربية المتحررة .. وقد أضافت هذه التطورات بأبعادها وآثارها سببا آخر هاما للتعجيل بشن الحرب .

ومن السمات التى برزت فى هذه الفترة ، ذلك النشاط الكبير فى العلاقات بين الولايات المتحدة وإسرائيل ، واتساع نطاق الزيارات المتبادلة بين المسئولين من البلدين . فخلال شهر مارس ١٩٦٧ زار إسرائيل كل من : لوشيوس باتل مساعد وزير الخارجية الأمريكية لشئون الشرق الأدنى ، وهارولد ساندوز مستشار الرئيس جونسون ، وتاونسند هوبتر من وزارة الدفاع الأمريكية ، وأعلن أنهم جميعا كانوا يبحثون مسألة أمن اسرائيل ومشاكلها مع الدول العربية وأوضاع الحدود مع مصر وسوريا .

وفى الشهر التالى مباشرة بلغت الاعتداءات الاسرائيلية ذروتها حين شنت إسرائيل هجوما جويا ضخما على سوريا فى ٧ إبريل ١٩٦٧ ، واشترك فى هذا الهجوم ستون طائرة إسرائيلية . وفى بداية مايو ارتفع معدل التهديدات وتزايدت على كافة المستويات الاسرائيلية ابتداء من رئيس وزراء إسرائيل حتى أعضاء الكنيست .. ومن الملاحظ أن كل التهديدات والاعتداءات كانت موجهة إلى سوريا ، إمعانا فى خداع مصر وجذب قواتها الى المصيدة التى أعدت لها فى سيناء . فهذا رئيس الأركان العامة الاسرائيلى يهدد باحتلال دمشق ، بينما يطالب وزير خارجية إسرائيل بشن عمليات تأديبية واسعة . وفى ٩ مايو ١٩٦٧ - قبل أى تحرك عربى سياسى أو عسكرى ضد إسرائيل - منحت لجنة الأمن فى الكنيست سلطات كاملة للحكومة للقيام بعمليات عسكرية ضد جيرانها من الدول العربية .. بينما تواترت الأنباء عن إعلان التعبئة الجزئية فى الجيش الاسرائيلى .. وفى نفس الوقت أبلغت مصر من أكثر من مصدر - من بينها الاتحاد السوفييتى - بوجود حشود إسرائيلية على الحدود السورية .

وابتعلت مصر الطعم ، وسهل من ابتلاعه تلك الرغبة الكامنة لدى قادة مصر بإزالة ما ترتب عن حرب ١٩٥٦ من مزايا ظلت إسرائيل تتمتع بها عشر سنوات .. وأقصد بها منحها حرية المرور فى مضيق تيران بخليج العقبة . فأسرعت القيادة السياسية فى ١٤ مايو عام ١٩٦٧ إلى إعلان حالة الطوارىء ورفع درجة استعداد القوات المسلحة المصرية الى الحالة القصوى .. ثم بدأت فى اليوم التالى فى حشد قواتها بشبه جزيرة سيناء ، بطريقة تظاهرية وعلنية بل ودعائية فى نفس

الوقت ، وقد تصورت القيادة المصرية أنها بهذا الأسلوب توجه حملة نفسية ضد إسرائيل ، بينما كانت إسرائيل فى انتظار هذه اللحظة لكى تضرب ضربتها ، وقد أعلنت مصر أنها اتخذت هذه الاجراءات العسكرية من أجل الوفاء بالتزاماتها العربية ، ولوقف العدوان الاسرائيلى المبيت .

وفى اليوم التالى مباشرة ـ ١٥ مايو ١٩٦٧ ـ هذا اليوم الذى وافق الذكرى التاسعة عشرة لاقامة دولة إسرائيل ، اقدمت مصر على الخطوة التالية فطلبت سحب قوات الطوارىء التابعة للأمم المتحدة ، من نقط الحدود وتجميعها فى قطاع غزة حتى لا يتيح وضعها على الحدود المصرية أى مزايا تستغلها إسرائيل للقيام بعمليات عسكرية ضد البلاد العربية الأخرى . **وطرح هذا القرار وبشكل مفاجىء العديد من المشاكل الخطيرة أمام أجهزة التخطيط العسكرية المصرية . فقد صدر القرار دون الرجوع لهذه الأجهزة المختصة ودون إجراء أى دراسة أو اتخاذ أى خطوات عملية ضرورية لمواجهة هذا التغيير الأساسى الذى سيحدث فى جبهة سيناء بل وعلى خطها الأمامى المواجه للعدو مباشرة ..** هذا فضلا عما يمكن أن يتسبب عن الموقف المتصاعد فى المنطقة الحساسة ـ شرم الشيخ ـ من احتمالات وتداعيات ، وما يتطلبه ذلك من تخطيط واعداد ومن اجراءات عسكرية ضرورية ومتعددة لمواجهة هذا الموقف الخطير الطارىء .

* * *

أما على الجانب الآخر فقد بدأت عجلة الحرب تسرع فى دورانها فى إسرائيل .. وتحركت المؤسسة العسكرية الاسرائيلية لكى تمسك بزمام الموقف وتوجه سير الأحداث فى إسرائيل نحو التعجيل بشن الحرب . وفى مساء هذا اليوم وجه إسحق رابين رئيس الأركان العامة الدعوة لجميع رؤساء الأركان القدامى منذ نشأة إسرائيل ، للاجتماع فى اليوم التالى ١٦ مايو لبحث أمور غاية فى الخطورة تتعلق بأمن ووجود إسرائيل . وقد ضم الاجتماع كل رؤساء الأركان القدامى وهم : يعقوب دورى أول رؤساء الأركان ، وايجال يادين ومردخاى ماكليف وموشى ديان وحاييم لاسكوف وزفى تسور .. وبحثوا معا الموقف العسكرى والظروف الاستراتيجية السائدة ودرجة استعداد القوات الاسرائيلية المسلحة لشن الحرب . ورغم ان معظم المجتمعين اعتبروا التجمعات المصرية التى بدأت فى سيناء مظهرا من مظاهر استعراض القوة .. فإن موشى ديان ـ وكان فى انتظار تكليفه بوزارة الدفاع لشن الحرب ـ علق بقوله "إن مصر هى عدونا الحقيقى ، وعلينا ان نركز اهتمامنا الأساسى نحوها" .

وقد استغرق بحث موضوع سحب قوات الطوارىء الدولية مع سكرتير عام الأمم المتحدة مستر يوثانت ، عدة أيام ، أصرت مصر خلالها على ضرورة إنهاء وجود قوات الطوارىء الدولية فى أراضى مصر وقطاع غزة كذلك .. وأوضحت أن أى محاولة لابقاء هذه القوات ضد رغبة الحكومة المصرية سوف يؤدى الى اعتبارها

"قوات احتلال" .. وهكذا سدت حكومة مصر منافذ الحركة أمامها تماما وحرمت نفسها من أى فرصة للمناورة أو لمراجعة موقفها .. واضطر سكرتير عام الأمم المتحدة ان يعلن يوم ١٩ مايو ١٩٦٧ عن إنهاء وجود قوات الطوارىء التابعة للأمم المتحدة فى مصر وقطاع غزة "لاستحالة بقائها هناك دون موافقة مصر" . وقد اثار هذا القرار المتعجل استياء الكثيرين من الدول خاصة الدول الغربية والولايات المتحدة .. أما إسرائيل فقد اتهمت مصر بأنها تدفع الموقف نحو الانفجار وحملتها مسئولية ما قد يحدث من تطورات . لقد كان اليوم التالى لذلك ـ ٢٠ مايو ١٩٦٧ ـ يوما عصيبا فى القيادة العامة للقوات المسلحة .

ففى هذا اليوم قفزت مسألة قفل الملاحة فى خليج العقبة إلى مركز الصدارة بين المشاكل السياسية والعسكرية فى المنطقة . فقد كان من الضرورى ان تسيطر القوات المصرية على منطقة شرم الشيخ بعد انسحاب قوات الطوارىء .. ولا يمكن أن تعود سيطرة القوات المصرية على مضيق تيران دون إغلاقه أمام الملاحة الاسرائيلية التابعة لدول معادية لمصر وفى حالة حرب معها ! وفعلا وصلت قوة مظلات مصرية على وجه السرعة إلى منطقة شرم الشيخ لتعيد سيطرة الدولة على مدخل الخليج باعتباره مياها إقليمية مصرية .

لقد كان من الواضح تماما أمام القيادات العسكرية ان تخلى قوات الطوارىء الدولية عن منطقة شرم الشيخ سوف يثير مشاكل سياسية وعسكرية واسعة النطاق .. وتوقعت أن يترتب على هذا العمل ردود فعل عنيفة سواء على المستوى الدولى أو من جانب إسرائيل .. لقد كانت أجهزة التخطيط المصرية توقن تماما أن قفل خليج العقبة أمام الملاحة الاسرائيلية هو من الأسباب المحددة لدى إسرائيل لشن الحرب من جانبها ، فهى تعتبر هذا الاجراء بمثابة إعلان الحرب عليها باعتباره إجراء يضر بأحد مقومات أمنها القومى الأساسية .

هكذا توقفت قوات الطوارىء الدولية عن أداء مهامها الدولية على خطوط الحدود وخطوط الهدنة ومنطقة شرم الشيخ . وأعلنت إسرائيل رسميا "أنها قد اتخذت الخطوات والاجراءات المناسبة لمواجهة الموقف الجديد فى شبه جزيرة سيناء" . وما أن اتمت قوات الطوارىء الدولية إخلاء منطقة شرم الشيخ ، واستكملت مصر سيطرتها بالقوات على هذه المنطقة الحيوية ، حتى اعلنت فى ٢٣ مايو ١٩٦٧ رسميا عن : عدم السماح بمرور السفن الاسرائيلية أو السفن التابعة لدول أخرى تحمل مواد استراتيجية إلى إسرائيل بما فى ذلك ناقلات البترول ، فى مضيق خليج العقبة (مضيق تيران) الذى يقع فى المياه الاقليمية المصرية .. مع اخضاع جميع السفن المارة لاجراءات التفتيش البحرى .

ونلاحظ هنا أن مصر حاولت أن تخفف من وقع القرار ومن عواقبه ، بجعل قرار منع المرور بالنسبة للسفن الأجنبية مقصورا على السفن التى تحمل مواد

استراتيجية فحسب .. ولكن هذا التحديد فى واقع الأمر ، لم يغير من الموقف شيئا أو يقلل من ردود الفعل الدولية أو الاسرائيلية .. فقد اعتبرت إسرائيل ـ وكذا الدول الغربية ـ أن القرار قد عطل حرية الملاحة فى مضيق خليج العقبة .

ولذلك أثارت إسرائيل والدول الغربية ـ عقب اعلان القرار ـ زوبعة سياسية عاتية بسبب سيطرة القوات المصرية على منطقة شرم الشيخ وقيامها بقفل مدخل خليج العقبة . أما المؤسسة العسكرية الاسرائيلية فقد جسدت المشكلة فى إطار مختلف ، أكثر خطورة وأبعد أثرا ، إذ اعتبرت صدور مثل هذا القرار من مصر بمثابة تهديد لأمن إسرائيل ووجودها .. وأن الأمر ليس مقصورا على مجرد فقد حرية الملاحة فى خليج العقبة فحسب ، ولكن الأخطر والأهم ـ من وجهة النظر الاسرائيلية ـ أن اتخاذ مصر لهذا القرار وقيامها بتنفيذه يعنى أن إسرائيل قد فقدت امتلاكها "لليد العليا" فى المنطقة ، وبالتالى يجب عليها أن تضرب ضربتها فورا وبكل قوة قبل أن يستفحل اثر هذا التطور وتفقد إسرائيل قدرتها على ردع العرب .

وبينما كان الدبلوماسيون الاسرائيليون فى واشنطن يطالبون الحكومة الأمريكية بأن تنفذ تعهدها السابق ـ إبان ازمة العدوان الثلاثى ١٩٥٧/٥٦ "بحماية حرية الملاحة فى خليج العقبة" .. استمرت الاستعدادات العسكرية الاسرائيلية على أشدها ، فتمت مراجعة الخطط الهجومية الاسرائيلية يوم ٢٤ مايو ضد مصر وسوريا والأردن بل ولبنان كذلك .. وفى يوم ٢٥ مايو ١٩٦٧ كان الجيش الاسرائيلى قد أنهى استعداداته وأتم حشد قواته أمام الجبهة المصرية .. وفى نفس اليوم قام ليفى اشكول ومعه إيجال الون وإسحق رابين وحاييم بارليف بجولة على امتداد الحدود مع مصر ، التقوا خلالها بالجنرال اشعياهو جافيش قائد الجبهة الجنوبية وقادة مجموعات العمليات المخصصة للهجوم على سيناء وهم : إسرائيل تال ، وإريل شارون وابراهام يافيه . وفى هذا اليوم طالب القادة الاسرائيليون بسرعة شن الهجوم على سيناء ، وحملوا الحكومة مسئولية "ازدياد الضحايا التى ستؤدى اليه سياسة الانتظار" .

تساؤلات حول القرارات السياسية المصرية :

ليس ثمة شك فى أن القرارات السياسية التى اصدرتها القيادة المصرية ووضعتها موضع التنفيذ فى مايو ١٩٦٧ ، كانت من منطلق وطنى قومى أصيل .. أرادت به قيادة مصر أن تسترد لمصر كرامتها وأن تستعيد ما سبق أن تنازلت عنه تحت ضغط الظروف التى كانت قائمة فى عام ١٩٥٧ واهمها احتلال إسرائيل لسيناء ، وباعتبار أن العمل على استعادة مصر لأرض سيناء كاملة هدف عظيم الأهمية يستحق شيئا من التضحية .. ولكن ؟

هناك الكثير من علامات الاستفهام والتساؤلات التى أثارها اتخاذ هذه القرارات الوطنية ، والتى سنحاول هنا أن نطرحها ثم نجتهد فى تفسيرها من خلال تحليلنا للأحداث وفيما يلى مجموعة بارزة من هذه التساؤلات .

● **فمن حيث الموضوع** : ألم تكن القيادة المصرية ـ بحكم دراستها وادراكها لخطط عدوها التقليدى ـ تعلم يقينا أن إصدار وتنفيذ القرارات الخاصة بإغلاق مدخل خليج العقبة أمام الملاحة الاسرائيلية ، وما لها من طبيعة سياسية واستراتيجية حيوية تمثل تحديا سافرا لأوضاع استمرت قائمة ومقبولة من مصر لمدة عشر سنوات .. وان إسرائيل سوف تعتبر هذا العمل ـ رغم كونه إجراء مشروعا تمارسه مصر من منطلق حقوق سيادتها على أرضها ومياهها الاقليمية ـ بمثابة إعلان للحرب عليها . وانها لن تهدأ أو تسكت عن محاولة تغيير هذا الوضع بكل الوسائل المتاحة لها : سياسية أو عسكرية ؟ وإذا كانت هذه التحديات واضحة لدى القيادة المصرية فهل كانت فعلا فى وضع يسمح لها بتحمل عواقبها ؟ ام أن الأمر كان مجرد فورة من الحماسة الوطنية غير محسوبة العواقب والأبعاد ؟

● **من حيث التوقيت** : وقد قبلنا أن تستمر هذه الأوضاع عشر سنوات . فهل كان اختيار هذا التوقيت لاتخاذ هذه الخطوات السياسية الاستراتيجية الحيوية ، والمختزنة فى ضمير القيادة المصرية طوال هذه المدة .. هو انسب التوقيتات لتنفيذ هذه الخطوات فى ظل موقف عسكرى غير مكتمل القوة بسبب حرب اليمن ، وموقف داخلى غير مستقر بسبب العلاقات الشخصية المتوترة بين القيادة السياسية ممثلة فى الرئيس جمال عبد الناصر والقيادة العسكرية ممثلة فى المشير عبد الحكيم عامر ؟ وموقف سياسى دولى غير موات . فلقد ثبت أن صميم مشكلتنا فى ذلك الوقت وفى معظم الأوقات فى عصرنا هذا الذى يتميز بعلاقات دولية متشابكة شديدة التعقيد .. اننا لا ندرس ولا نستوعب حقائق العالم الذى نعيش فيه .. ونحن جزء لا يتجزأ منه نتأثر به أكثر مما نؤثر فيه .. وهو يمر بمراحل فائقة السرعة من التغيير والتطور فى شتى مناحى الحياة .. ونحن نقف عاجزين عن متابعة كل هذا التطور وملاحقته ، والأهم من ذلك أن نلائم عملنا الوطنى والقومى مع هذا الوجود المعقد والمتشابك من العلاقات الدولية .

● **من حيث المبررات** : هل كانت الحشود الاسرائيلية على الحدود السورية مبررا كافيا لاتخاذ هذه الخطوات الهامة ؟ خاصة أنها بنيت على معلومات غير مؤكدة ان لم تكن غير حقيقية حول الحشود العسكرية على الحدود السورية . فهل أخذت هذه المعلومات دون تقييم حقيقى باعتبارها الذريعة المنتظرة لتنفيذ إجراءات سياسية وعسكرية محددة بغض النظر عما يترتب عليها من عواقب ؟ أم **هل كانت الرغبة القوية لدى القيادة السياسية المصرية فى التخلص من المزايدات العربية على موقف مصر مبررا كافيا للاقدام على تصرفات وأعمال تضع مصر فى مأزق سياسى وعسكرى يصل الى احتمال اشتعال الحرب ؟**

● **من حيث أسلوب صنع القرار** : هل اتبعت القيادة السياسية عند اتخاذها لمثل هذه القرارات الهامة الأسلوب الصحيح الذى يضع أمام القادة حقائق الموقف عارية دون مواربة أو تبسيط مخل للأمور ، ويضع تحت أعين المسئولين التقديرات السليمة للعواقب مجردة من الهوى أو الخوف أو النفاق ؟ وهل شاركت الأجهزة السياسية المعنية للدولة واجهزة القيادة العامة للقوات المسلحة بابداء وجهات نظرها ؟ وذلك لكى تبنى القرارات على أساس متين من حقائق ومعطيات الموقف السياسى والعسكرى والاقتصادى والمعنوى .

● **من حيث القدرات** : هل تم التأكد بشكل محسوب ودقيق وواضح .. وليس من خلال كلمة عابرة يقولها مسئول عسكرى كبير فى اجتماع على مستوى عال "إن قواتنا المسلحة مستعدة لمقابلة أى احتمال" ! وهل درس حجم وطبيعة الالتزامات العسكرية الجسيمة التى سوف تترتب على هذه القرارات ، ومدى توافر الامكانات العسكرية اللازمة لتحمل اعبائها وحمايتها ؟ مع الوضع فى الاعتبار ان هذه الاعباء قد تتجاوز القدرات المتاحة فعلا .. وفى هذه الحالة يمكن أن تصل العواقب الى الحد الذى يطيح تماما بكل الاهداف المأمول تحقيقها من وراء هذه الاجراءات ، بمعنى انه لكى نتخلص من آثار محدودة لعدوان وقع على مصر منذ زمن نعرض البلاد لعدوان أشد وأنكى ، وبدلا من ان نضع حدا للمزايدات العربية ونقطع الألسن التى تستغل بعض الأوضاع وتشن حملاتها الدعائية المحمومة ضد مصر وزعامة مصر .. نعطى هذه الدوائر العربية الحاقدة مادة لا تنضب من الدعايات المضادة لمصر التى تمس كيانها السياسى وقواتها المسلحة .

★ ★ ★

ولتحقيق الأهداف السياسية العسكرية أعلنت حالة الطوارىء فى القوات المسلحة وصدرت الأوامر بحشد القوات فى سيناء لتكون فى موقف التحدى والمواجهة لاسرائيل .. وقد ترسخ فى ذهن القيادة المصرية اعتقاد خاطىء بان هذه المظاهرة العسكرية سوف تمنع إسرائيل من الاقدام على أى رد فعل عسكرى مضاد .

ففى صباح ١٥ مايو ١٩٦٧ ، استيقظ سكان العاصمة على اصوات لم يعتادوا سماعها ومشهد غريب لم يألفوه من قبل .. أرتال لا تنتهى من العربات العسكرية والمركبات المصفحة والدبابات والمدافع والأسلحة والمعدات الحربية تملأ شوارع القاهرة وتتحرك فى طريقها الى منطقة قناة السويس ومنها الى سيناء فى مظاهرة عسكرية ضخمة ، عززتها حملة اعلامية ودعائية هائلة ، لتغطية هذا الحدث الفريد صحفيا واذاعيا وتليفزيونيا !!

ومن الواضح فى هذه المرحلة ان صانع القرار المصرى قد حدد هدفه السياسى بأسلوب عشوائى ، فهو لم يؤسسه على دراسات واقعية محددة .. وكان لزاما ـ بعد تحديد الهدف السياسى وعلى اساسه ـ تحديد الهدف الاستراتيجى

العسكرى والمهمة التى ستكلف بها القوات المسلحة .. كل ذلك كان من المفروض أن يتم قبل تحريك أى قوات .. مالم يكن الغرض من تحريك هذه القوات تنفيذ خطة العمليات الموضوعة والخاصة بالدفاع عن شبه جزيرة سيناء .. ولكن بمجرد بدء عملية الحشد اتضحت نية القيادة السياسية بعدم الأخذ بالخطة الموضوعة فعلا .. وبذلك استمر حشد القوات دون وجود مظلة من الخطط العسكرية الكاملة التى تنظم عملية الفتح والانتشار التعبوى وتحدد أوضاع القوات فى مسرح العمليات على اساس المهام المحددة والمنتظر ان تكلف بتنفيذها . ولكن شيئا من ذلك لم يحدث لأنه لم يعمل حسابه من البداية .

لقد تعددت مظاهر الخلل السياسى والاستراتيجى الذى اصاب اداء القيادات السياسية والعسكرية العليا ، ورغم أن هذا الخلل قد بدت مظاهره منذ سنوات طويلة سابقة على النكسة ، فإن ابعاد خطورته لم تتكشف إلا عندما تعرضت هذه القيادات لموقف سياسى عسكرى شديد الأهمية والتعقيد .. كان هو المحك الحقيقى الذى كشف حقيقة ابعاد هذا الخلل . كان الموقف يتلخص فى أن القيادة المصرية أرادت الاستفادة من ظروف عسكرية خارجية ، ممثلة فى معلومات وردت من الاتحاد السوفييتى حول حشود إسرائيلية على الحدود السورية ، فى اتخاذ اجراءات سياسية استراتيجية عسكرية هامة ، لها تأثير مباشر على علاقات القوى بالمنطقة وعلى أوضاع عسكرية حساسة مستقرة منذ عشر سنوات .. وذلك فى مرحلة حرجة من مراحل الصراع الخفى على السلطة فى مصر .. ومرحلة اشد حرجا تواجهها القوات المسلحة المصرية المشتتة بين مسرح اليمن ومسرح سيناء .. يصاحبها تجاهل غريب أو تهاون شديد فى تقدير ما سوف يترتب على ذلك من نتائج خطيرة .. وهى النتائج التى ادت فعلا الى جر مصر وتوريطها فى حرب لم تكن راغبة فيها أو مستعدة لها ، وفى وقت لا يناسبها .

★ ★ ★

وسنتابع هنا معا ذلك الاسبوع الحاسم من القرارات السياسية الحافلة بالمفاجآت ، وكيف توالى صدور هذه القرارات فى الفترة من ١٤ إلى ٢٣ مايو ١٩٦٧ ، فى شكل تصاعدى مثير ومتلاحق دفع بالأحداث فى سرعة غير طبيعية نحو "حافة الهاوية" ثم الى الهاوية ذاتها .. وقد يظن البعض ان قيادة مصر قد فاجأت العالم بهذه القرارات ـ وهذه حقيقة ـ ولكنها فى الواقع قد فاجأت كذلك قيادات القوات المسلحة واجهزة القيادة العامة المصرية مفاجأة كاملة بصدور هذه القرارات السياسية كما سيتضح فيما بعد :

● **فى ١٤ مايو ١٩٦٧** : وبناء على تعليمات من القيادة السياسية ، أصدرت القيادة العامة للقوات المسلحة قرارا مفاجئا باعلان حالة الطوارىء ، ورفع درجة استعداد القوات المسلحة إلى الحالة القصوى واعلان التعبئة العامة .. وجميعها إجراءات لا تتخذ إلا فى حالة واحدة .. حالة وقوع حرب وشيكة ! وعمت الدهشة

بين القوات حيث لم يكن هناك من المؤشرات ما يشير إلى وجود اى توتر فى الموقف مع إسرائيل .. وزادت الدهشة عندما ألغيت الاجازات واوقفت كل الدورات التدريبية فى القوات المسلحة بكافة افرعها ، ثم صدور اوامر بتحريك القوات إلى جبهة القتال فى سيناء . وعندما استفسر بعض كبار القادة عن اسباب كل هذه التطورات المفاجئة والخطيرة كان الرد المبدئى انها لأسباب سياسية فحسب . **وقد اثبتت تطورات الأحداث بعد ذلك أن هذا الحشد لم يكن هدفه القيام بعمليات حربية ، بل كان الحشد ذاته هو الهدف كمظاهرة عسكرية الغرض منها دعم القرارات السياسية التى صدرت بعد ذلك .**

● **فى يوم ١٥ مايو ١٩٦٧** : فوجئت القوات مرة أخرى بصدور قرار سياسى أخر له أبعاده العسكرية الخطيرة فضلا عن أبعاده السياسية . هو قرار سحب قوات الطوارىء التابعة للأمم المتحدة من شبه جزيرة سيناء ، على أن تجمع القوات فى قطاع غزة حتى لا يتيح وضعها على الحدود المصرية أى مزايا لاسرائيل ، للقيام بعمليات عسكرية ضد البلاد العربية الأخرى . وكان هذا القرار يعنى سحب قوات الطوارىء من منطقة شديدة الحساسية لها وضع دولى سبق الاتفاق عليه وهى "منطقة شرم الشيخ" .. إن مثل هذا الإجراء كان يتطلب القيام بتمهيد سياسى مصحوب بإعداد دقيق لمواجهة كل النتائج والاحتمالات .. وان يتم ذلك قبل إعلان القرار ، كما كان الأمر يتطلب دراسة واقعية لردود الفعل السياسية العسكرية المنتظرة بعد ذلك ، لمواجهة المواقف المنتظر أن تتخذها بعض الدول خاصة الولايات المتحدة الامريكية وإسرائيل ، نظرا لأن هذه المنطقة ذاتها كانت هى السبب الرئيسى الذى شنت إسرائيل من أجله حربها ضد مصر فى أكتوبر ١٩٥٦ .. وقبلت القيام بدور التابع لبريطانيا وفرنسا من أجل تمكينها من تحقيق هدف فتح مضيق تيران للملاحة الاسرائيلية !.

● **فى يوم ٢٣ مايو ١٩٦٧** : بلغت القرارات السياسية ذروتها حيث أعلن فى هذا اليوم عن قفل خليج العقبة أمام الملاحة الاسرائيلية .. وهنا تأكد للقادة والقوات أن مصر تندفع وبسرعة كبيرة نحو الحرب .. **فقد اشعل هذا التصعيد المفاجىء والسريع جبهة سيناء ، وجعل الموقف العسكرى يركض لاهثا خلف التطورات المفاجئة دون إعطاء أى فرصة لالتقاط الأنفاس ، ودون أمل فى أن يلحق الموقف العسكرى بها أو بالتطورات العسكرية المترتبة عليها .**

لقد صدرت هذه القرارات السياسية التى تتعلق بسياسة مصر الخارجية وتؤثر تأثيرا مباشرا على سياستها الحربية دون أية مشاركة إيجابية من اجهزة القيادة العامة للقوات المسلحة سواء فى شكل دراسات أو تقديرات مواقف سياسية عسكرية تعتبر ضرورة فى مثل هذه المواقف ، كما ان هذه الأجهزة ـ خاصة المسئولة منها عن وضع ومتابعة خطط العمليات ـ لم تكن تعلم حتى بالدافع الحقيقى لصدور هذه القرارات أو الهدف من تنفيذها على هذه الصورة خلال هذه الفترة الزمنية المحددة .

ولعل أغرب ما واجه القوات المسلحة فى تلك الأونة الحرجة ، أنها وهى تشعر بانها معرضة لخوض مغامرة عسكرية غير محسوبة العواقب وأن حربا وشيكة سوف تقع .. لم تكن تعلم بالمهمة المطلوبة منها لمواجهة هذه الاحتمالات ولتحمل مسئولياتها كاملة فى تحمل اعباء ما سيترتب على هذه القرارات من تطورات وردود فعل . **ومما زاد الأمر خطورة ما صاحب تنفيذ هذه الاجراءات العسكرية من ضجة إعلامية وخطب سياسية أدت إلى الكشف عن ابعاد اللعبة السياسية المصرية ، الأمر الذى أعطى إسرائيل مؤشرات مؤكدة ، أن ما يجرى فى سيناء كان مجرد مظاهرة عسكرية غير منظمة .. وان التعامل مع مثل هذا الحشد الضخم غير المنظم قد سهل مأمورية إسرائيل وأعطاها افضل الفرص وأسهلها للقضاء على القوات المصرية بأقل الجهد وأقل الخسائر .**

★ ★ ★

كان الانعكاس الطبيعى لتعاقب التطورات السياسية والأحداث المفاجئة ، أن واجهت قيادات القوات المسلحة حالة من الارتباك الشديد بسبب الأعباء الضخمة التى ألقتها القرارات السياسية فجأة على عاتقها .. الأمر الذى لم يكن فى الحسبان ، لذلك لم يدخل فى دراستها وحساباتها الموضوعة . كما لم يسبق ان كلفت بالتخطيط لمواجهته كهدف سياسى للدولة تريد تحقيقه فى مرحلة لاحقة . وكان هذا الموقف تأكيدا واضحا لانعدام الرؤية السياسية لابعاد الموقف العسكرى واحتمالاته . وكانت النتيجة الحتمية هى تخبط التخطيط العسكرى وضياع الوقت الثمين فى اجراء العديد من التعديلات والتغييرات والتبديلات العقيمة على الخطط العسكرية الموضوعة ، فى محاولات لتحديد حقيقة الأهداف فى ضوء هذا الموقف السياسى الطارئ .. **وقاد هذا التخبط ـ الذى استمر طوال فترة الحشد إلى أن بدأت الحرب ـ إلى فقد الاتزان العسكرى لمسرح العمليات الحربية فى سيناء قبل أن تبدأ الحرب . ولذلك ما أن بدأ القتال بالهجوم الاسرائيلى الجوى والبرى حتى واجهت القوات المسلحة المصرية موقفا استراتيجيا خطيرا وضعها فى مأزق شديد الحرج ، فقد واجهت حالة حرب دون أن يكون لها مهمة واضحة ومحددة تعمل على اساسها .** وهكذا اتسع نطاق الارتباك والتخبط خاصة على مستوى القيادة العسكرية الأعلى .. وانعكس ذلك كله على التطورات المتلاحقة فى الموقف العسكرى وأدى الى تدهوره السريع .. والى وقوع كارثة عسكرية كانت القوات المسلحة فى غنى عنها .. كما كانت هى ضحيتها الأولى فى نفس الوقت ..

★ ★ ★

وفى ضوء هذا التحليل المبدئى يمكن القول إن القيادة السياسية العسكرية فى مصر ، إن كانت قد ادركت ابعاد التآمر الدولى الموجه ضد مصر والبلدان العربية مستهدفا حركة التحرر العربية ممثلة فى الثورة المصرية :

● فهى لم تكن تدرك أو تقدر عواقب قراراتها السياسية والعسكرية التقدير السليم وابعاد ردود الفعل المضادة التى يمكن أن تحدث على المستوى الدولى أو على مستوى الصراع بين العرب وإسرائيل .

● كما انها لم تمهد اى تمهيد سياسى او تهييء الرأى العام العالمى او الرأى العام المصرى ـ الذى كان ضحية خدعة سياسية من قيادته أدت إلى احداث صدمة نفسية قاسية عانى منها الشعب عندما تكشفت له الحقائق فجأة ـ لقبول التطورات التى تنوى فرضها .

● وإن كانت القيادة قد ادركت حجم وابعاد العواقب السياسية والعسكرية التى يمكن ان تترتب على الوضع الجديد ولم تضعها فى الاعتبار .. فإنها تكون قد اساءت تقييم القدرات العسكرية المتاحة تحت يدها واللازمة لتحمل الأعباء العسكرية التى يمكن أن تترتب على ذلك ، والكافية لحماية هذه القرارات وردع أى تدخل عسكرى ضدها .

● أو انها قد بالغت فى تقدير هذه الامكانات كما بالغت فيما يمكن ان تقدمه الدول العربية من دعم سياسى أو مساهمة عسكرية يمكن لمحصلتها ان تمنع إسرائيل من الاقدام على اى مغامرة عسكرية وتردعها عن التفكير فى استخدام قوتها العسكرية لتغيير الوضع الجديد .

● وأخيراً .. من ناحية أخرى فقد اهملت القيادة السياسية او تعمدت التغاضى عن الدور الخطير السياسى والعسكرى الذى يمكن ان تلعبه الولايات المتحدة التى اعلنت تأييدها السافر لاسرائيل وفتحت لها ابواب ترسانتها العسكرية تأخذ ما تريد .

فضلا عن ذلك كله فقد ثبت ان الصراع على السلطة فى مصر قد انعكس على الاستقرار الداخلى .. وان النظام كان يعانى من انفصال يكاد يكون كاملا بين صناعة القرار السياسى والتزامات الموقف العسكرى ، اى بين المسئوليات السياسية والمسئوليات العسكرية .. إن هذا الشرخ الخطير الذى كان قائما وعميقا فى كيان القيادة المصرية العليا ، والذى بدأ فى اعقاب مؤامرة انفصال سوريا عن مصر عام ١٩٦١ ، قد استمر واستفحل أثره خلال حرب اليمن حين تفاقمت ابعاد الصراع خلال خمس سنوات من الحرب .. الى أن تجلى فى اسوأ صوره اثناء الاحداث الخطيرة التى جرت فى شهرى مايو ويونيه ١٩٦٧ .. ثم تفجر هذا الصراع وبلغ ذروته بعد وقوع الكارثة العسكرية فى يونيه ١٩٦٧ .

وباختصار شديد ـ ونحن نتناول قضية حساسة ليس هنا مجال دراستها او تحليلها ـ نقول ان النتيجة الحتمية لاستمرار هذا الصدام بين السلطة السياسية ممثلة فى الرئيس جمال عبد الناصر والسلطة العسكرية ممثلة فى المشير عبد الحكيم عامر باعتباره نائبا للقائد الاعلى للقوات المسلحة .. هى حدوث خلل خطير فى اسلوب صنع القرار السياسى السليم ، وبالتالى فى إصدار القرارات السياسية المتوازنة مع الالتزامات العسكرية والمتطلبات الضرورية لادارة صراع مسلح

ناجح ، كما انعكس الخلل بشدة على اسلوب اتخاذ القرارات العسكرية وعلى وسائل معالجة الازمة وتجريدها من مقومات الجدية .

لقد اتسمت القرارات السياسية بالعشوائية التى أدت الى تخبط القرارات العسكرية وفى النهاية الى وقوع الكارثة العسكرية . وما ترتب عليها من عواقب وخيمة وضعت مصر وقواتها المسلحة فى مأزق سياسى عسكرى خطير .. ظلت تعانى وهى تكافح للتخلص منه ست سنوات قاسية مريرة تطلبت صبرا طويلا وجهدا خارقا وعملا مستمرا شاقا .. إلى أن انتهت هذه السنوات الصعبة حينما توجتها جهود النجاح واكاليل النصر فى يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ .

حرب بلا إستراتيجية :

لا يقل الجانب العسكرى أهمية عن الجانب السياسى فى هزيمة يونية ١٩٦٧ .. وان كانت القرارات السياسية قد شابها قصور خطير ووقعت فى أخطاء قاتلة ، إلا أن ذلك لا ينفى وجود قصور عسكرى كذلك كان له أثره المباشر والعميق فى سرعة تردى الموقف العسكرى وإنهياره

ولعل من أبرز جوانب القصور العسكرى فى عام ١٩٦٧ بل ومن أهم أسباب الهزيمة العسكرية ، إفتقار القوات المسلحة المصرية فى ذلك الوقت إلى وجود إستراتيجية عسكرية واضحة المعالم محددة الأهداف والأبعاد والوسائل .. نابعة من إستراتيجية شاملة للدولة ، تعمل على حشد وتعبئة إمكاناتها المتاحة عسكريا وإقتصاديا وسياسيا ومعنويا .. فما لم تتوافر مثل هذه الاستراتيجية الشاملة للدولة ، لا يمكن أن يتحقق التوازن السليم والتنسيق الضرورى بين طبيعة الهدف السياسى للدولة وقدراتها العسكرية القائمة فى لحظة زمنية معينة .. من هنا يأتى التناقض الذى يمكن أن يؤدى فى النهاية الى النكسات السياسية والهزائم العسكرية .

واذا حاولنا قياس ما حدث فى عام ١٩٦٧ على أساس هذه القاعدة ، لوجدنا أن ما حدث لم يكن له علاقة بهذه القاعدة الاستراتيجية السليمة .. إن ما حدث كان قلبا للمنطق السليم فى أسلوب صنع وتنفيذ القرار السياسى أو العسكرى . فقد فوجئت القوات المسلحة بصدور قرارات سياسية على جانب كبير من الأهمية لأنها قرارات تتعلق بسيادة الدولة .. أرادت القيادة السياسية العسكرية العليا المصرية أن تفرض هذه القرارات السيادية كأمر واقع .. وفى نفس الوقت أن تحميها من أى تدخلات خارجية ، ولكن دون أن تؤدى هذه الحماية إلى التورط فى حرب لم تستعد

لها .. فاختارت لتحقيق هذا الغرض أن تسخر قواتها المسلحة للقيام بمظاهرة عسكرية ، فكلفت هذه القوات بأن تحتشد فى شبه جزيرة سيناء دون أن توضح لقادتها الأسباب المنطقية لمثل هذا الحشد العشوائى الكبير ! أو تحدد الهدف الاستراتيجى المطلوب تحقيقه .. بل دون أن تعرف القيادات والتشكيلات الميدانية ماهى طبيعة العمليات المطلوب تنفيذها ، ودون الالتزام بخطة عمليات معروفة أو مهام محددة !

ولكى تلبى القوات المسلحة متطلبات هذا الحشد المفاجىء ، كان لابد من أن تعلن التعبئة العامة ، ثم تتوالى الاوامر والتعديلات والالغاءات والتغييرات فى توجيهات القيادة العليا فيما يتعلق بالتعبئة والحشد ، بل تصدر تعليمات تعبئة جديدة مختلفة تماما لم يسبق أن ارتبطت بأى خطط عمليات أو تضمنتها خطط التعبئة المعدة من قبل والمعتمدة مسبقا .. مما أربك جهاز التعبئة وأوقع الفوضى فى تشكيل الوحدات الاحتياطية الأصلية واستكمال مرتبات الوحدات من أفراد ، وذلك نتيجة لسوء التنظيم والارتجال .. بعد أن أصبح هَمَّ رجال التعبئة تجميع أكبر عدد من جنود الاحتياط وشحنهم الى جبهة القتال حتى وهم بملابسهم المدنية .. وتشكيل وحدات جديدة من جنود الاحتياط لارسالها الى هناك على وجه السرعة ، أحيانا دون أن تستكمل الكثير من أسلحتها ومعداتها .. ذلك لأن حجم الأسلحة والمعدات والعربات المتوافرة وقتئذ فى المستودعات لم يكن كافيا لتنفيذ كل هذه التعليمات الاضافية بقوات احتياطية جديدة .. وبالتالى وقف هذا الأمر حجر عثرة فى سبيل تحقيق استكمال المستوى الفعلى المطلوب للقوات قبل الزج بها فى مسرح العمليات .

ففى عام ١٩٦٧ لم تكن هناك خطة تعبئة موضوعة لمقابلة مثل هذه التطورات المفاجئة . فلما اعلنت حالة الطوارىء وتطلب الأمر استدعاء ١٢٠ ألف جندى احتياط ، اجتمعت عدة عوامل معوقة لتتسبب فى فشل نظام أو أجراءات التعبئة التى دارت على مدى ثلاثة أسابيع كاملة . وكانت نتائجها ـ فى ظل الظروف التى احاطت بها ـ لا تبرر تلك الجهود العريضة التى بذلت لمجرد حشد أكبر عدد من الجنود والوحدات فى سيناء . ويمكن القول دون مبالغة إنه كان الأفضل كثيرا ـ بعيدا عن المظهرية ـ الاقتصار خلال هذه المدة على استكمال الوحدات النظامية العاملة للوصول الى مستويات الحرب المقررة لها ، تلك الوحدات المنصوص عليها فى خطة تعبئة القوات المسلحة الموضوعة لخدمة خطة العمليات المصدق عليها . غير أن الغاية من تعبئة القوات المسلحة على هذه الصورة الأخيرة كانت مختلفة .. فهى لم تكن من أجل خدمة خطة عمليات محددة ، ولكن من أجل زيادة حجم القوات البرية أساسا وتضخيمها بإنشاء وحدات جديدة لم يكن منصوصا عليها ضمن الخطة .

★ ★ ★

ولأن جيش اسرائيل يعتمد اساسا على الاحتياط فإن نظام التعبئة فيه نظام أساسى ، وعلى نجاحه يتوقف إمكان إعداد الجيش للحرب . لذلك عندما أتمت اسرائيل إجراءات التعبئة العامة خلال أيام معدودة وصلت بحجم قواتها من نحو ٤٠ ألف جندى عند إعلان التعبئة الى نحو ٢٥٠ ألفا بعد إنتهاء التعبئة كما تضمنت هذه الخطة تعبئة المتطوعين اليهود من الخارج فأضافت بهذه الطريقة إلى قواتها الجوية ٦٠٠ طيار و ١٢٥٠ مقاتلا اجنبيا من المتطوعين اليهود من ذوى الخبرات الميدانية الخاصة التى اكتسبوها فى مسارح الحرب المعاصرة . وهكذا نجحت إسرائيل فى زيادة حجم قواتها البرية من ثلاثة ألوية مشاة ولواء مدرع الى أربعة وعشرين لواء مشاة وسبعة ألوية مدرعة أى بزيادة بلغت أكثر من سبعة أضعاف القوات العاملة . كما نجحت فى إعداد ٣٧٦ طائرة مقاتلة وقاذفة مقاتلة وحوالى ٦٠٠ طيار لشن الضربة الجوية المفاجئة الأولى ضد مصر .

أما القوات البرية المصرية فرق ارتفعت بالتعبئة من أربع فرق الى ما يعادل سبع فرق .. ومن ثلاثة ألوية مدرعة الى اربعة . إن هذه الزيادة لم تكن تتجاوز نصف القوات الموجودة فعلا قبل التعبئة كما لم تخطط أو تنفذ أى تعبئة إضافية فى القوات الجوية .

وبالمقارنة العددية نتبين أن إسرائيل قد تمكنت من تعبئة حوالى ربع مليون مقاتل أى بنسبة ١١٪ من إجمالى تعداد السكان تقريبا بينما كان هدف التعبئة المصرية استدعاء أقل من ٨/١ مليون مقاتل من الاحتياط ، وتم فعلا إستدعاء ما يعادل ٦٠٪ فقط من الحجم المطلوب ، وكان يمثل حوالى ٠,٣٪ من إجمالى تعداد الشعب .

لقد تحركت حشود القوات الى سيناء فى مشهد غريب يمتد على الطريق بين القاهرة ومنطقة قناة السويس ، ومنها الى جبهة سيناء . فأرتال القوات من الدبابات والمركبات المدرعة والمدافع كانت تندفع على الطرق داخل القاهرة وخارجها متجهة الى سيناء بطريقة يبدو عليها التسرع والارتجال .. عبر الطرق الصحراوية الى السويس والاسماعيلية مارة فى شوارع القاهرة الرئيسية فى شكل مظاهرة عسكرية ضخمة .. ثم تعبر قناة السويس فوق المعابر التى أعدتها وحدات المهندسين العسكريين ، لتواصل اندفاعها شرقا الى قلب سيناء . إن الظروف التى جرى فيها هذا التحرك والاسلوب الذى نفذ به اعطياه طابع التحرك الادارى ، فهو لم يكن أبدا تحرك عمليات ينفذ وفقا لخطة عمليات موضوعة ، إذ نفذت التحركات فى وضح النهار وكانت الوحدات تتدفق على مختلف الطرق صوب سيناء دون أى محاولة لاخفائها .. وفى علانية كاملة لم تأخذ من إسرائيل أى جهد لكى تحس بها ثم تتبعها عيونها وتتابعها عناصر استطلاعها البرية والجوية ولترصد كافة دقائق وتفاصيل عملية الفتح والانتشار المصرية .

لقد أدى عُدم وجود أساس منطقى واضح أو هدف محدد لعملية حشد القوات

فى سيناء الى دخولها فى دوامات التغيير والتبديل والتعديل ، وإجراء تحركات عشوائية لا أول لها ولا آخر .. أثرت دون شك فى كفاءة القوات وأنهكت قدراتها المادية والمعنوية معا . بذلك يمكن القول إن بذور الهزيمة كانت قد غرست مبكرا قبل أن يبدأ القتال ، بل وأثناء عملية الحشد ذاتها ، وأن القيادات السياسية والعسكرية العليا قد مهدت لهذه الهزيمة قبل أن تخوض قواتها الحرب . ولقد استحال على أى متابع لما كان يحدث فى سيناء فى ذلك الوقت ، أن يستشف أو يستنتج شكلا واضحا أو نظاما معينا لتحركات القوات أو خطة محددة تنفذها التشكيلات والوحدات .. بل كان من الصعب الحكم على طبيعة الأوضاع التى تتخذها القوات .. هل هى أوضاع دفاعية هجومية أم بين بين ؟! والمعنى الواقعى لعدم الوضوح هذا .. أنها أوضاع لم تكن تصلح لهذا أو ذاك بل لم تكن تصلح لتنفيذ أى عمل عسكرى منظم على مستوى الجبهة . لقد أوقعت هذه الأوضاع مصادر المخابرات والمعلومات الأمريكية فى حيرة .. ولكنها كانت موقنة ـ وهذا ما تم إبلاغه الى إسرائيل ـ أن أوضاع القوات المصرية فى سيناء لا تنم عن وجود أى نية للهجوم .

والأمثلة كثيرة وصارخة للمعاناة التى عانتها وحدات كثيرة من فوضى التحركات .. ومن النتائج المباشرة لهذه الظاهرة أن فرقة مشاة كاملة دفعت الى منطقة رفح ـ التى لم تكن مجهزة للقيام بأى دور دفاعى رئيسى ـ ولم تكلف هذه الفرقة بمهمة محددة سواء كانت هجومية أو دفاعية .. وظلت هذه الفرقة فى مواقعها المؤقتة دون تجهيزات كافية لوقايتها الى أن بدأ الهجوم الأسرائيلى وكانت هذه الفرقة أولى الضحايا حيث اكتسحتها المدرعات الاسرائيلية فى خلال ساعات من صباح يوم ٥ يونيه ١٩٦٧ ، واستشهد قائدها .

ويعتبر اللواء ١٤ مدرع من الوحدات التى تعرضت لظروف مأساوية غريبة ، حيث كانت التعليمات تصدر اليه بالتحرك يوميا منذ وصوله الى سيناء دون هدف واضح أو مهمة محددة نتيجة لتخبط التخطيط وتغيره بين لحظة وأخرى . وظل اللواء يجوب سيناء شمالا وجنوبا .. شرقا وغربا فى سلسلة من التحركات وكان آخرها صباح يوم ٦ يونيه ، أى بعد بدء الحرب بأربع وعشرين ساعة ، وقد تحرك هذا اللواء من المحور الجنوبى الى المحور الأوسط فى هذا اليوم لكى يدخل معركة شرسة مع المدرعات الاسرائيلية فى منطقة الحمة بعد أن قطع ١٢٠٠ كيلو متر من التحركات على جنازير الدبابات ، فأصاب أفراده الأرهاق الشديد واستهلكت معداته ودباباته فى تحركات عشوائية وتظاهرات لا طائل منها .. ورغم ذلك فقد ادار هذا اللواء معركته ببسالة ، وأنزل بالمدرعات الأسرائيلية خسائر فادحة وعطل تقدمها على هذا المحور حوالى ٢٤ ساعة .. وقد جرح قائد اللواء (العميد عبد المنعم واصل) فى هذه المعركة .

أما اللواء الرابع المشاة فقصته أكثر عجبا .. كان هذا اللواء مخصصا فى الخطة الدفاعية "قاهر" للدفاع عن منطقة شرم الشيخ .. وكان من المحتم ـ بعد

إغلاق مضيق تيران وبعد أن أصبحت الحرب على الأبواب ـ الاسراع بدفع هذا اللواء المجهز والمدرب على واجباته والمعد لأداء مهمته الى منطقة شرم الشيخ لتأمينها والدفاع عنها .. ولكن فى خضم التخبط العشوائى ارسلت الى شرم الشيخ بعض وحدات المظلات .

ثم توالت التدعيمات التى لم يرد ذكر لها فى الخطة الأصلية . أما اللواء المخصص لهذه المهمة الحيوية فقد بعثرت وحداته الفرعية بشكل غريب .. فانتشرت كتائبه فيما بين المحور الساحلى ووسط سيناء ومنطقة الغردقة على ساحل البحر الأحمر خارج سيناء . وهكذا تم تمزيق وحدة من الوحدات العالية الكفاءة ونشرها على مسافات امتدت أكثر من الف كيلو متر ..

وأود هنا أن اؤكد بشدة على نقطة معينة خاصة بهذه التحركات .. فلم تكن هذه التحركات تتم بناء على أفكار محلية من قيادات الجبهة .. ولكنها جاءت ـ كما سيتضح لنا عندما نتحدث عن تطورات التخطيط فيما بعد ـ نتيجة لسيل من التكليفات والمهام والتعديلات التى كانت تتدفق على الجبهة من القيادة العامة بالقاهرة التى كانت هى الاخرى تنفذ تعليمات ورغبات سياسية وعسكرية تكلف بتغطيتها من القيادة السياسية والعسكرية العليا ، وكانت تستسلم لتنفيذها دون إعتراض .

من ناحية أخرى فمن المعروف فى العلم العسكرى أن أى حشد للقوات فى جبهة القتال لا يتم دون وجود خطة عمليات محددة تنظم هذا الحشد وتحدد المهام والواجبات التى توجه اليها جهود القوات . غير أن هذا الحشد الهائل فى سيناء لم تصاحبه تعليمات صريحة بتنفيذ خطة العمليات الدفاعية الموضوعة ، بل إن كثيرا من الوحدات صدرت لها التعليمات بالتحرك الى أماكن مخالفة لأماكنها المحددة لها فى خطة العمليات الموضوعة .. علما بأن عملية حشد القوات فى تسلسل المرحلة التحضيرية للحرب عادة ما تمثل آخر المراحل التنفيذية لخطة عمليات موضوعة وجار تنفيذها وليس أولها .

ولكن يبدو أن كل الأوضاع السياسية والعسكرية فى ذلك الوقت كانت تعالج فى غياب الحلول المنطقية بل والحتمية . **فهاهى القرارات السياسية الهامة تصدر قبل تقدير وحساب نتائجها العسكرية بدقة ووضوح .. ثم تجرى اعمال ضخمة لحشد أكبر حجم من القوات فى جبهة القتال قبل وضع خطة العمليات التى تحشد من أجل تنفيذها .. ليس هناك شك فى أن كل هذه الأوضاع المقلوبة قد جاءت نتيجة الارتجال المخل سواء على أعلى مستوى سياسى أو أعلى مستوى عسكرى .**

وقد كانت القوات فى سيناء ترقب ما يحدث وتتعجب له ـ وقد كنت أحد الضباط الذين شاهدوا هذه المرحلة فى سيناء ، وكنت أشغل منصب رئيس أركان اللواء

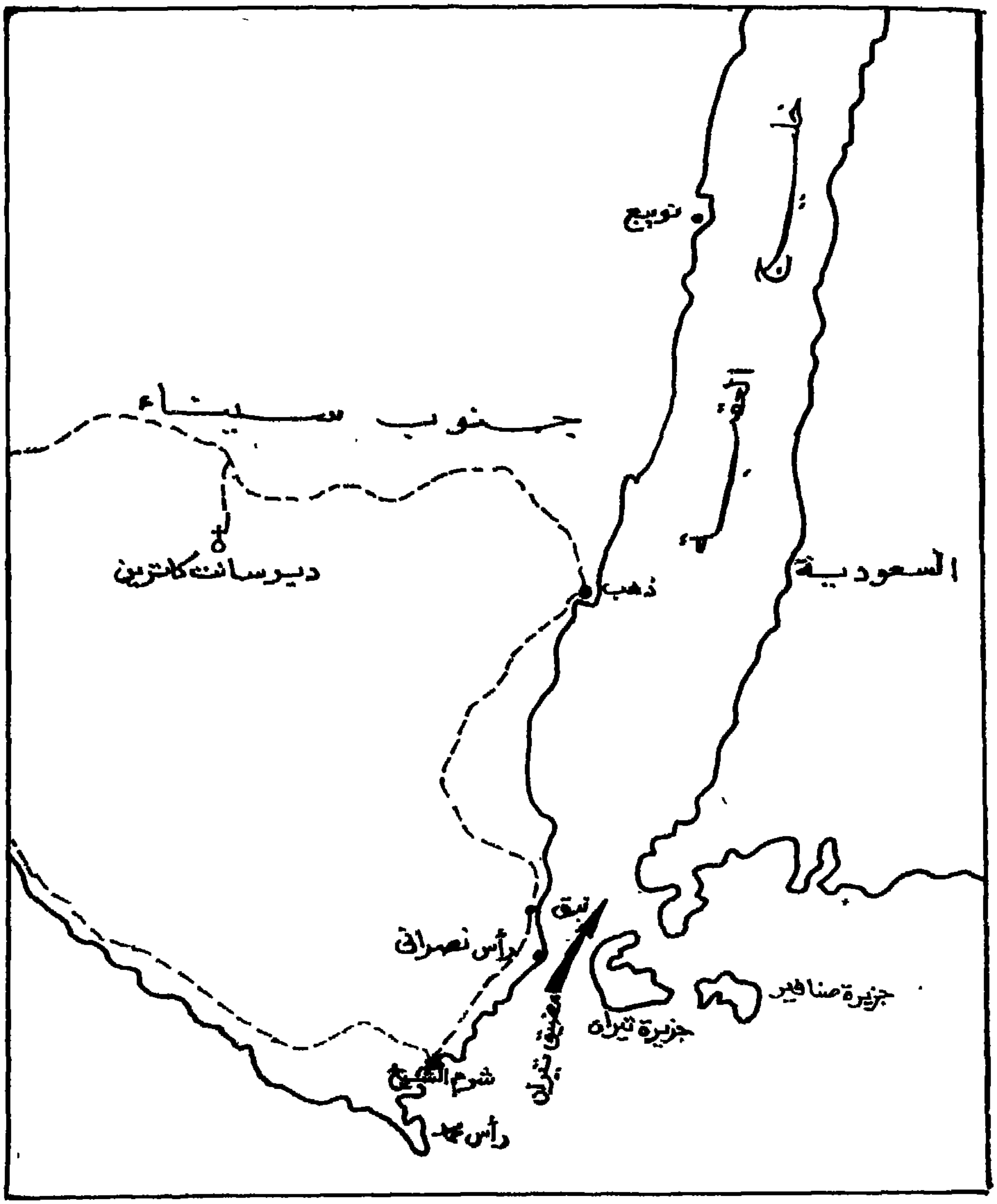

مضايق تيران .. مياه اقليمية مصرية

الثالث المدرع من الفرقة الرابعة المدرعة ـ ودار كثير من الهمس بين القادة والضباط فى سيناء حول حقيقة هذا الحشد . وهل هو مجرد استعراض للعضلات ، أحيط بحملة دعائية ضخمة ومدبرة .. واذا كان الأمر مجرد استعراض عضلات فلماذا نتخلى عن خطتنا الأصلية وتصدر تكليفات بالاعداد للقيام ببعض الأعمال التعرضية المحدودة ' مع وجود احتمالات غير مؤكدة بالاستعداد فى نفس الوقت للدفاع . كل هذا التضارب انعكس بشدة على حالة القوات ومعنويات الضباط والجنود ، أصابت الجميع بحالة من الارتباك والتشتت الذهنى . فالمواقع التى توجد بها القوات لم تكن مجهزة لعمليات هجومية .. بينما لم تكتمل التجهيزات الدفاعية وفقا للخطة الدفاعية الموضوعة "قاهر" .

وأن كانت هذه المرحلة قد تميزت بنشاط حركى غير محدود ، إلا أنه لم يكن يعالج الموقف الحقيقى الذى بدأت قواتنا تواجهه فى الجبهة ، بل كان يزيده تعقيدا وإرباكا .. دون اتخاذ الاجراءات الضرورية لتأمين هذا الحجم من القوات البرية ، وكذلك تأمين قواتنا الجوية فى مطاراتها وقواعدها الجوية .. حيث لم تتخذ الاجراءات المناسبة لاعادة انتشار القوات الجوية والعمل على توفير وسائل فعالة لحمايتها فى مطاراتها .. ومن الحقائق المتعلقة بالقوات الجوية ـ وقد سبق أن أشرنا اليها ـ وجود خطة وضعتها القوات الجوية لبناء الدشم والملاجىء اللازمة لحماية الطائرات .. ولكن لم تتح لهذه الخطة فرصة أن ترى النور لعدم توافر الاعتمادات المالية اللازمة لتنفيذها ، حيث كانت حرب اليمن تبتلع معظم ميزانية القوات المسلحة ، وذلك على حساب المطالب الحيوية لتأمين الجبهة المصرية وتأمين أرض الوطن التأمين المناسب ضد عدو كان من الواضح انه يتربص بمصر وينتظر الفرصة الملائمة لمهاجمتها . وأن كان عدم تنفيذ هذه الخطة لا يعفى قائد القوات الجوية من مسئولية عدم اتخاذ إجراءات الدفاع الجوى السلبى الأخرى لحماية الطائرات كالانتشار والاخفاء والتمويه وأعمال إعادة التمركز .. لقد أدت هذه الأمور الى تدمير القسم الأكبر من القوات الجوية أثناء الضربة الجوية الأولى .. ثم توالت بعد ذلك المفاجآت والمآسى .

★ ★ ★

ولعل أهم النقط الخاصة بأخطاء عملية الحشد .. هى انزلاق القيادة المصرية الى خطأ الاعتقاد بأن مثل هذا الحشد الكبير فى سيناء سوف يردع إسرائيل أو يمنع تفاقم الأمور الى حد إشتعال الحرب .. خاصة أن مصر قد سبق لها أن قامت بنفس التجربة فى عام ١٩٦٠ ـ فى فترة قيام الوحدة المصرية السورية ـ وذلك عندما حدث نزاع بين سوريا وإسرائيل حول المنطقة المنزوعة السلاح على الحدود بين البلدين .. فى ذلك الوقت قامت مصر بحشد قواتها فى سيناء ، مع وجود فوارق هامة بين الحالتين ، ففى عام ١٩٦٠ تم الحشد وفقا لخطة العمليات الموضوعة كما لم يبلغ حجم القوات هذا الحجم الهائل الذى حشد عام ١٩٦٧ .. فى ذلك الوقت هددت مصر بالحرب ضد إسرائيل ، ولكن لم تحدث مضاعفات لهذا الموقف .

وربما اعتقدت القيادة المصرية ـ فى ضوء هذه التجربة ـ أن ما حدث فى عام ١٩٦٠ يمكن أن يتكرر فى عام ١٩٦٧ دون وقوع أى أضرار جسيمة . وفات القيادة المصرية فى تقديراتها لهذا الموقف الخطير ، اختلاف العوامل والمعطيات السياسية والعسكرية الكثيرة التى طرأت على الموقف خلال السنوات السبع بين عامى ١٩٦٠ و ١٩٦٧ ، ففى عام ١٩٦٠ كان برنامج إعادة بناء القوات المسلحة الاسرائيلية الحديثة (برنامج الردع) مازال يخطو أولى خطواته . وكانت إسرائيل مازالت حتى ذلك الوقت تبذل قصارى جهدها لعقد صفقات الأسلحة الضخمة اللازمة لتنفيذ برنامجها الطموح ، ولم تنجح فى عقد صفقة اسلحة كبيرة سوى فى عام ١٩٦٢ مع المانيا الغربية لتزويدها بالدبابات والمدفعية ذاتية الحركة والمركبات المدرعة وطائرات الهليكوبتر .

أما فى عام ١٩٦٧ فإن إسرائيل كانت قد أتمت كل استعداداتها العسكرية منذ سنوات واستوعبت قواتها المسلحة كل الأسلحة الحديثة التى حصلت عليها وأتمت بناء قوة جوية حديثة معتمدة على الطائرات الفرنسية "سوبر مستير" و "ميراج" والطائرات الأمريكية "سكاى هوك" كما أتمت إنشاء قوتها الضاربة البرية من التشكيلات المدرعة المزودة بالدبابات الفرنسية AMX والدبابات البريطانية "سنتوريان" والدبابات الأمريكية "باتون" .. كما كانت قد بذلت جهودا ضخمة ومستمرة لتمهيد الرأى العام العالمى عامة والغربى بوجه خاص لتقبل هذه الحرب التى ستخوضها إسرائيل دفاعا عن وجودها وردا للأخطار الداهمة التى تتعرض لها من جيرانها العرب !! وهكذا كانت إسرائيل قد أعدت جيشها وأصبح مستعدا لخوض الحرب بل كان متربصا فى انتظار الفرصة المناسبة . وهاهى الفرصة الذهبية قد أتت .. فكيف لاسرائيل أن تضيعها .. وقد جاءت اليها تطرق بابها ؟!

قيادة بلا سيطرة :

رغم كل الأخطاء السياسية والعسكرية التى سبقت قيام الحرب ، فقد كان من الممكن اتخاذ بعض الاجراءات والترتيبات وتنفيذ التحركات لانقاذ الموقف ووقف الهجوم الاسرائيلى على بعض الخطوط المناسبة فى وسط سيناء أو على خط المضايق الاستراتيجى .. ولكن الذى حدث صباح يوم ٥ يونيه ١٩٦٧ ـ وبمجرد قيام اسرائيل بتوجيه ضربتها الجوية التى أدت الى تدمير القسم الأكبر من طائراتنا فى مطاراتها ، ونجاحها فى اختراق محور رفح العريش ـ أصاب القيادة العليا وأجهزة القيادة العامة بصدمة عنيفة أدت الى حالة طارئة من الشلل الفكرى والتشتت الذهنى وعدم القدرة على التصرف السريع والسليم .

وكان حدوث هذا الأمر تطورا فى غاية الخطورة ، يقع فى أشد اللحظات حرجا وفى موقف يحتاج إلى قدر كبير من التماسك ورباطة الجأش وحسن التقدير وسرعة التصرف .. وقد انعكست أثار الصدمة على طبيعة القرارات المصيرية التى

صدرت بعد ذلك من القيادة العسكرية العليا ، كما أثرت بشدة على كل مستويات القيادة الميدانية فاهتزت السيطرة على القوات وبدأت حالة من التفكك تسرى فى أوصال الجبهة .. ومع استمرار التطورات السريعة لظروف القتال وفى غياب خطة عمليات محددة وجاهزة للتصدى أو قيادة عامة قادرة على مواجهة الموقف والتصرف الحاسم .. فقدت القيادة سيطرتها على القوات .. ولذلك ذهبت كل الجهود التى بذلت بعد ذلك لإنقاذ الموقف سدى .. وتدهور الموقف بسرعة غير عادية وبشكل مفاجىء .

ومما زاد الطين بلة ، تلك الأوضاع القيادية الغريبة التى استحدثتها القيادة العامة اثناء تنفيذ عملية الحشد اذ صدرت تعليماتها بتشكيل قيادة ميدانية وسيطة سميت بقيادة الجبهة الشرقية ، وذلك رغم وجود القيادة الميدانية الأصلية وهى القيادة الشرقية التى أصبحت قيادة الجيش الثانى الميدانى بعد ذلك ، كانت مستعدة ومؤهلة بكامل أجهزتها لأن تتولى القيادة والسيطرة الفعلية على القوات فى سيناء أى تمارس المهمة التى قامت من أجلها هذه القيادة والتى ظلت تمارسها سنوات طويلة قبل الحرب .

وقد كلفت هذه القيادة الوسيطة بمهام قيادية وإشرافية على سير العمليات فى سيناء ، وعين لها قائد برتبة كبيرة .. وقد ذكر وقتها أن هذه القيادة تعتبر قيادة أمامية أو متقدمة للقيادة العامة للقوات المسلحة .. وهو مفهوم غير سليم لمهمة القيادة المتقدمة .. التى تدفع من داخل أجهزة القيادة العامة الى جبهة القتال عندما يتقدم القائد العام للقوات المسلحة الى مناطق الجبهة لمتابعة سير العمليات أو الأشراف على سيرها . ولكن ما حدث لم يكن يمثل أى شكل سليم من أشكال القيادة .. فهذه القيادة لم تكن قيادة متقدمة للقائد العام كما لم تكن قيادة جبهة .. بالاضافة إلى ذلك فإن سرعة إنشائها وتكوينها جعلتها تعانى من نقص شديد فى الأجهزة اللازمة لها وفى وسائل الاتصال الضرورية لممارسة أعمال القيادة والسيطرة وحتى فى وسائل تأمينها محليا .

كان ذلك يحدث ويسبب المزيد من الارتباكات والحلقات القيادية المتداخلة خاصة بعد أن دأبت القيادة العامة بالقاهرة على إضافة المزيد من التعقيدات المربكة باتباع أساليب غير طبيعية ولا تتفق مع أصول القيادة العسكرية السليمة ، وذلك بإصدار وتوصيل أوامر كثيرة الى القيادات المختلفة على كل المستويات الموجودة على الجبهة .. حتى وصلت القيادة العامة الى مستوى الاتصال المباشر بقيادات التشكيلات بل والوحدات .

وهكذا فقد نظام القيادة والسيطرة ـ الذى يمثل عصب القوات المسلحة ـ معالمه ومقوماته العملية وقدرته على التأثير فى سير الأحداث . واختفت القنوات الطبيعية للسيطرة على القوات لتحل محلها عناصر دخيلة على نظام القيادة والسيطرة ، غير معروف دورها أو مسئولياتها أو سلطاتها تتدخل

وتصدر الأوامر باسم القيادة العامة .. كما تفشت ظاهرة إيفاد الكثير من ضباط الاتصال الى الجبهة والى التشكيلات والوحدات باعتبارهم مندوبين عن القيادة العامة .. ولكن تحول كل منهم الى التدخل فى التخطيط والتوجيه حتى اختلطت الأمور وفقدت أجهزة القيادة والسيطرة قدرتها على العمل أو التدخل لوقف انهيار الموقف عندما بدأت الحرب . وهكذا وقبل أن تبدأ الحرب ورغم أن وقوعها أصبح أمرا حتميا .. إلا أن الجمود الفكرى كان قد خيم على جبهة القتال وتجمدت المحاولات الجادة والمدروسة لمواجهة الموقف ولتوقى الضربة الوشيكة .. ولذلك عندما وقعت الضربة كان أول ما سقط فى البناء العسكرى هو أعمدة القيادة والسيطرة .

واعتقد اننا وقد تعرضنا لموضع القيادة والسيطرة فى نكسة ١٩٦٧ ، لا يمكننا قبل أن نختتم هذا الفصل أن نترك هذا الموضوع دون أن نستوفى نقطة فى غاية الأهمية .. لا شك فى أنها كانت شديدة التأثير على مسار الأحداث وتطور الأمور على مستوى القيادة العامة للقوات المسلحة .. فمن المعروف تماما أن القيادة العسكرية العليا لم تكن على المستوى العلمى الضرورى لتولى مثل هذه المسئولية الجسيمة .. مسئولية إدارة الصراع المسلح واتخاذ القرارات القيادية المتحكمة فى مسار الحرب ونتائجها . لقد غلب الطابع السياسى على أسلوب قيادة القوات المسلحة رغم وجود الكثير من ضباطها من ذوى الخبرات العالية والعلم العسكرى الغزير ، ولكن لم يكن الأسلوب السياسى للقيادة العسكرية الذى يركز كل اهتماماته فى وسائل تأمين القوات المسلحة من الداخل ، ليتيح لهؤلاء الضباط الاكفاء فرصة تولى المسئوليات .. وحتى هؤلاء الذين شغلوا مناصب اساسية فى أجهزة القيادة العامة للقوات المسلحة ، لم يكونوا يملكون القدرة على التأثير الحقيقى فى صنع القرار السياسى أو حتى القرار العسكرى خاصة فى مرحلة إعداده وقبل التوصل الى شكله النهائى .

ولعل المثل الصارخ الذى يعكس هذه المفاهيم السياسية الأمنية ويخلط بشدة بين مسألتى الثقة والخبرة فى أمور خطيرة خاصة بالقيادة العسكرية فى زمن الحرب .. هو ما حدث قبل وقوع الحرب بعشرة أيام حين أصدرت القيادة العليا للقوات المسلحة تعليمات غريبة بتغيير عدد من كبار قادة التشكيلات الميدانية بآخرين ، علما بأن هؤلاء القادة المستبعدين ظلوا يقودون تشكيلاتهم لفترة طويلة وهم على دراية كاملة بخطط العمليات الموضوعة وبالمهام التى يمكن قيامهم بها . وأهم هذه التغيرات : تعيين قائد لفرقة مشاة كان رئيسا لمكتب المشتروات المصرى فى المانيا الغربية ، كما عين رئيس أركان نفس الفرقة وكان كبيرا لمعلمى الكلية الحربية . أما قائد الفرقة الثالثة المشاة فقد استبعد وحل محله قائد الفرقة السابعة مشاة ، الذى حل محله فى قيادة الفرقة السابعة قائد مدرسة المشاة (استشهد قائد الفرقة السابعة المشاة الجديد فى الساعات الأولى للهجوم الاسرائيلى على منطقة رفح صباح يوم ٥ يونيه ١٩٦٧ ، وهو قائد الفرقة الوحيد الذى استشهد فى حرب ١٩٦٧) .

الفصل الخامس

الموقف على جانبى الجبهة

أحداث الذروة :

فى ٢٣ مايو ١٩٦٧ أعلنت السلطات المصرية رسميا منع مرور السفن الاسرائيلية والسفن الأجنبية التى تحمل مواد استراتيجية الى اسرائيل فى مضيق خليج العقبة (مضيق تيران) باعتباره مياها اقليمية مصرية .. وأن التفتيش البحرى سيجرى على كل السفن التى تمر فى المضيق . وما من شك فى أنه فى هذا اليوم زال أى تردد لدى اسرائيل فى سرعة شن الحرب ضد مصر .

وقد قيل فى بعض المصادر إن مصر قد اضطرت لاتخاذ هذا الأجراء ، وأن موقف يوثانت سكرتير عام الأمم المتحدة وقبوله طلب مصر سحب قوات الطوارئ الدولية دون عرض الأمر على مجلس الأمن لم يكن فى حسبان الحكومة المصرية التى كانت تأمل فى أن يصدر مجلس الأمن قرارا ببقاء القوات وينتهى الأمر عند هذا الحد . ومما لاشك فيه ان القيادة السياسية فى مصر لم تكن تنوى القيام بأى عدوان على اسرائيل بالرغم من الحشود التى أرسلت الى سيناء . وبالرغم من اعلان قفل مدخل خليج العقبة . فخلال الاسبوعين التاليين لذلك لم تقع اى اعمال عدائية او تحرشات عسكرية من جانب مصر رغم انسحاب قوات الطوارئ الدولية ورغم مواجهة الوحدات المصرية للوحدات الاسرائيلية على طول خط الحدود .

وفى نفس اليوم الذى اعلنت مصر فيه قفل الخليج . يبدو أن القيادة العسكرية العليا أرادت أن تؤكد نواياها وأن تشعر اسرائيل بمدى الجدية التى تعنيها مصر باتخاذها هذا القرار ، مما قد يردعها عن الاقدام على اى عمل عسكرى مضاد .. فاصدرت القيادة المصرية اوامرها بتحريك الفرقة الرابعة المدرعة التى تمثل الاحتياط الاستراتيجى الأخير للقيادة العامة الى سيناء وقد اثارت هذه التعليمات دهشة القادة خاصة عندما تم تعديل مناطق التمركز المخصصة لوحدات الفرقة فى سيناء وفقا للخطة «قاهر» دون ابداء الأسباب او تحديد النوايا التى تطلبت مثل هذا التعديل الذى يعنى أن الفرقة لن تكون فى وضع يسمح لها بتنفيذ المهام المخصصة لها من قبل نظرا لتغير مناطق التمركز السابق تحديدها لها .

أما على الجانب الاسرائيلى ، فقد كان لزاما على اسرائيل ، وقد أصبحت الولايات المتحدة الدولة الحامية لها والموردة لسلاحها ، أن تتلقى منها الضوء الأخضر وأن توافق على الخطة الهجومية العامة ضد الدول العربية الثلاث مصر والأردن وسوريا .. وفى يوم ٢٦ مايو ١٩٦٧ ـ اى بعد اعلان مصر قفل مدخل خليج العقبة ـ طار وزير خارجية اسرائيل الى واشنطن ، وأجتمع فى نفس اليوم مع مجموعة من كبار المسئولين الامريكيين من السياسيين والعسكريين . وبعد حديث طويل مع دين راسك وزير الخارجية الامريكية . عقد اجتماعا مطولا فى وزارة الدفاع الامريكية مع روبرت ماكنمارا وزير الدفاع والجنرال اريل هويلر رئيس الأركان الامريكية المشتركة . وفى هذا الاجتماع أكد ماكنمارا « **أن الأدلة غير متوافرة لديهم على أن مصر تنوى بالفعل الهجوم على اسرائيل » .. وبعد أن عرض ايبان ما ازمعت اسرائيل أن تقوم به ضد الدول الغربية الثلاث خاصة مصر تحدث جنرال هويلر وأكد أن التشكيل العسكرى المصرى فى سيناء لايحمل اى طابع هجومى ، وطمأن المجتمعين بنتائج الحرب المنتظرة مؤكدا أن اسرائيل سوف تنتصر اذا نشبت الحرب بينها وبين مصر ، وأضاف هويلر أنه قد توصل الى الاستنتاج بناء على دراسات دقيقة شاملة لامكانات قوات وجيوش دول الشرق الأوسط ، وأن هذه الأمور قد بحثت فى لجان خاصة تابعة للبنتاجون وتوصلت الى هذه النتيجة بعد أن قامت بدراسة كل المعلومات والاحصائيات الخاصة بالجيش المصرى والجيش الاسرائيلى .**

وفى نفس هذا اليوم اجتمع ايبان مع جونسون فى البيت الأبيض وعرض عليه الموقف فى المنطقة والموقف الدولى . وقال ايبان ان اسرائيل لاتطلب من الولايات المتحدة اى جندى امريكى للدفاع عنها ، لكنها تطلب تفهمها السياسى لعدالة موقفها .. وقال ان اسرائيل لاتريد أن يتكرر الوضع الذى حدث فى عام ١٩٥٦ عندما ظفرت مصر بالنصر السياسى ، رغم ماحققته اسرائيل من نصر عسكرى . وعندما قال جونسون انه قد علم من كبار مساعديه ان النصر العسكرى سيكون حليفا لاسرائيل عند حدوث المواجهة .. علق إيبان على ذلك بأنه يتوقع أن تفاجىء مصر إسرائيل بالهجوم .. وهنا تدخل ماكنمارا ـ وكان حاضرا الاجتماع ـ بقوله « حتى فى هذه الحالة ايضا سوف تنتصر اسرائيل » .

ولعل الغريب فى الأمر .. أن جونسون وهو يؤكد لايبان انتصار اسرائيل فى كل الظروف والأحوال .. وفى نفس يوم اجتماعه فى واشنطن ـ ٢٦ مايو ١٩٦٧ اجتمع السفير الأمريكى فى القاهرة برئيس الجمهورية لينقل اليه رسالة من الرئيس جونسون ، يطلب فيها من مصر عدم البدء بالعدوان وأن حكومة اسرائيل لديها معلومات بعزم مصر وسوريا على مهاجمة اسرائيل ليلة ٢٦/٢٧ مايو !! **ألا يعنى ذلك أن الولايات المتحدة قد ساهمت فى خداع مصر بل وحاولت سلب مصر قدرتها على الحركة والعمل الايجابى .. بينما هى وفى نفس اليوم تعطى لاسرائيل الضوء الأخضر لتهاجم مصر ؟! .**

★ ★ ★

في اليوم التالى مباشرة ـ ٢٧ مايو ١٩٦٧ ـ اتجه صراع السلطة فى إسرائيل بين الحكومة والمؤسسة العسكرية نحو أيامه الحاسمة والتى استمرت من ٢٧ مايو الى أول يونيه ١٩٦٧ حين انتهى هذا الصرع لصالح شن الحرب ضد مصر والأردن وسوريا . ففى هذا اليوم عاد ايبان من واشنطن حاملا معه التأييد الامريكى السياسى والعسكرى لخطة الحرب .. وقد عبر إيبان عن هذا التأييد فى تصريح للصحفيين قال فيه : إن اسرائيل متأكدة من أنها لن تجتاز هذا الامتحان بمفردها .

وفى نفس الوقت كان رئيس الاركان العامة الاسرائيلى يؤكد لرئيس الوزراء ان الجيش الاسرائيلى يقف على أهبة الاستعداد على حدود مصر فى انتظار صدور اشارة الهجوم .

ولاشك فى أن اجتماع واشنطن قد حمل الى اسرائيل دلالات كثيرة فى غاية الأهمية . فالولايات المتحدة قد باركت عدوان اسرائيل على مصر ووافقت على خططه واهدافه رغم علمها بأن التشكيل العسكرى المصرى فى سيناء لايحمل اى طابع هجومى .. وفقا لما جاء على لسان جنرال هويلر رئيس الأركان الأمريكية المشتركة .. أى أن مصر لم تكن تنوى القيام بأى عمل عدوانى ضد اسرائيل . كما أكد الاجتماع مدى دقة التنسيق السياسى والعسكرى بين الولايات المتحدة واسرائيل .. وأن إسرائيل لم تشن هذا العدوان إلا بعد أن تلقت الضوء الأخضر من واشنطن .

بعد هذا التطور الهام انبرت القيادة العامة الاسرائيلية للحكومة وطالبتها بالانتقال الى مجال العمل اى مجال الحرب ، بل أنها لم تنتظر أوامر الحكومة ، فأصدرت أوامرها فى هذا اليوم بتحرك القوات من المناطق الخلفية الى المناطق الأمامية لتضع الحكومة أمام الأمر الواقع . وعقدت الحكومة اكثر من اجتماع مع زعماء المؤسسة العسكرية ومنهم اسحق رابين وحاييم بارليف وعيزراويزمان وأهارون ياريف وأرييل شارون .. وبلغت لهجة العسكريين حد توجيه التهديد للحكومة . وكانت وجهة نظر المؤسسة العسكرية حول ضرورة الاسراع فورا فى شن الحرب ضد مصر ، أن تحتفظ اسرائيل بميزة المبادأة فى الهجوم .. والا تفقد قدرتها على ردع العرب اذا ترك التحدى العربى دون رد قوى .. فضلا عن عامل الوقت وأهميته لاسرائيل خاصة بعد استكمال التعبئة العامة وتعطل القدرة الانتاجية للمجتمع الأسرائيلى .

★ ★ ★

لاشك فى أن إسرائيل كانت تعرف ان مصر لم تكن تنوى القيام بأى عدوان عليها خاصة بعد أن حققت هدفها السياسى وتخلصت من آثار حرب ١٩٥٦ بأنهاء وجود قوات الطوارىء الدولية وإعادة قفل خليج العقبة أمام الملاحة الاسرائيلية .

ورغم ذلك فقد جاء اعلان انضمام الاردن الى «اتفاق الدفاع العربى المشترك» فى ٣٠ مايو ١٩٦٧ فرصة اخرى لاسرائيل لتؤكد أن مصر تنوى الاعتداء عليها ومما زاد الامر تعقيدا وتأكيدا لعدوان مصر قيامها بارسال أحد كبار ضباطها (اللواء عبدالمنعم رياض) الى الأردن لممارسة أعمال القيادة المشتركة على الجبهة الأردنية .. كما قامت بارسال ثلاث كتائب صاعقة الى الأردن لتأكيد الوجود العربى العسكرى المشترك على هذه الجبهة ..

وقد أدى انضمام الاردن الى اتفاقية الدفاع العربى المشترك الى ارتفاع اصوات المؤسسة العسكرية ومطالبتها بأن يتولى صقر اسرائيل ونبيها المسلح دافيد بن جوريون سلطة العملين السياسى والعسكرى فى الحكومة باعتباره اقدر قادة اسرائيل على خلق التوازن بين العمل السياسى والعمل العسكرى .. وحتى يقود البلاد الى الحرب على أن يكون معه كل من موشى ديان ومناحم بيجن الزعيم الارهابى القديم .

فى هذا الوقت وبينما الصراع مشتعل على أشده فى اسرائيل حول شن الحرب تصورت بعض أجهزة المعلومات العربية والمصرية ، فى ضوء توقيع اتفاق الدفاع المشترك ، تصورات بعيدة عن الواقع . ووضعت تقديرات لاتمت بصلة الى حقيقة مايحدث فعلا فى اسرائيل . حيث ذكرت أن انضمام الاردن الى اتفاقية الدفاع المشترك سوف يخلق ظروفا صعبة امام اسرائيل تضطرها الى توزيع قواتها على أكثر من جبهة عربية ، وبالتالى سوف تجبرها على عدم اثارة احداث تزيد من توتر الموقف .. الغريب أن تأخذ القيادات العربية بمثل هذه الاقوال وتضعها فى اعتبارها ، بينما الامدادات الامريكية العاجلة تنهال على اسرائيل ، حيث قامت الولايات المتحدة بارسال سربين من الطائرات القاذفة المقاتلة «سكاى هوك» وحوالى مائة ناقلة افراد مدرعة الى اسرائيل على وجه السرعة .. فضلا عما قيل حول احتمال وصول ٢٠ طائرة سوبر مستير من فرنسا لاسرائيل .

ولعل الواقعة التى اسوقها هنا ، قد أكدت نوايا اسرائيل .. فلأول مرة منذ عشرين عاما يقبل بن جوريون الاجتماع بعدوه السابق مناحم بيجن ـ قائد عصابة « إرجون » وبطل مذبحة دير ياسين عام ١٩٤٨ ـ أى منذ أن قام بن جوريون بالقضاء على عصابة «ارجون» بعد حادثة السفينة «التالينا» فى يونيه ١٩٤٨ ، التى كانت تحمل اسلحة مهربة الى عصابة اريجون . وكانت هذه العصابة تنادى فى ذلك الوقت «بفلسطين التاريخية أرضا لاسرائيل» . **كان المعنى العميق لهذا اللقاء وبعد مرور كل هذه السنين .. أن الأهداف الصهيونية المرحلية قد وصلت فى عام ١٩٦٧ الى المرحلة التوسعية التى كان يطالب بها « يابوتنسكى » ـ الزعيم الصهيونى شديد التطرف وخليفته وتلميذه مناحم بيجن ـ منذ اكثر من ربع قرن كما كان يطالب بشن الحرب المصحوبة بالارهاب ضد العرب كوسيلة وحيدة لتحقيق هذا الهدف . وفى عام ١٩٦٧ ـ بعد عشرين عاما على قيام الدولة ـ لم تعد هذه المطالب تمثل تطرفا أو انحرافا مرحليا ، كما عوملت من**

بن جوريون فى تلك الأوقات .. بل أصبحت تعبر عن واقع الأهداف الصهيونية وبعد مرور سبعين عاما على اقرارها فى المؤتمر الصهيونى الأول ببازل فى عام ١٨٩٧ .

فى هذا الاجتماع تقاربت وجهات النظر بين بن جوريون وبيجن ، واجتمعت الآراء على شن الحرب فورا ، وانحصر البحث بعد ذلك فى تحديد اسلوب ادارة الحرب وشكل الجهاز السياسى المناسب.. وبعد كثير من المساومات بين الحكومة والمؤسسة العسكرية ، خضعت الحكومة لمطالب المؤسسة . وفى أول يونيه ١٩٦٧ يشكل ليفى أشكول «وزارة حرب» ويدخلها اثنان من أكبر دعاة الحرب وهما موشى ديان وزيرا للدفاع ، ومناحم بيجن وزيرا للدولة ، وأصبحت الوزارة تضم الاحزاب الاسرائيلية الكبرى لتكون المسئولية مشتركة فى المرحلة الحاسمة المقبلة ، وبذلك تكون اسرائيل قد اتمت تشكيل جهاز ادارة الحرب .

★ ★ ★

يعتبر يوم ٢ يونيو ١٩٦٧ من الأيام الهامة التى أثرت على احداث الحرب والتطورات التى وقعت بعدها . ففى هذا اليوم اجتمعت القيادة السياسية العسكرية المصرية بمقر القيادة العامة للقوات المسلحة بالقاهرة ، من أجل المراجعة الاخيرة لخطة عمليات لم تعرف تفاصيلها فى ذلك الوقت ولم يتح الوقت لوصولها الى الوحدات أو التجهيز لتنفيذها وكذا لاستعراض الموقفين السياسى والعسكرى بعد تشكيل وزارة الحرب فى اسرائيل واتخاذ القرارات المناسبة حيالها . وفى هذا الاجتماع ذكر رئيس الجمهورية ان احتمال قيام اسرائيل بشن الحرب قد اصبح مؤكدا بنسبة مائة فى المائة . وأكد على ضرورة الاستعداد لتلقى الضربة الجوية الأولى المنتظر ان توجهها اسرائيل الى مصر خلال يومين على الاكثر .

وقد استمع الى هذه التوجيهات كل من نائب القائد الاعلى للقوات المسلحة ورئيس هيئة اركان حرب وقائد القوات البرية وقائد القوات الجوية والدفاع الجوى ورئيس هيئة عمليات القوات المسلحة . ويبدو أنه رغم هذا التحذير فلم تتخذ أية اجراءات سواء فى القوات الجوية أو فى جبهة القتال فى سيناء لمواجهة الاحتمال الذى أكده رئيس الجمهورية ، والغريب انه رغم هذا التأكيد على بدء اسرائيل الحرب فى ظرف يومين أن تجىء معلومات المخابرات فى نفس اليوم ترجح عدم قيام اسرائيل بأى عمل عسكرى هجومى ، نظرا « لصلابة الجبهة العربية التى ستجبر اسرائيل على تقدير العواقب المختلفة المترتبة على إندلاع الحرب ! » ويبدو أن هذه المعلومات وغيرها من المعلومات والاستنتاجات غير السليمة الصادرة عن أجهزة المعلومات المصرية قد ساهمت الى حد كبير فى خلق حالة من التهاون والتراخى فى تنفيذ توجيهات رئيس الجمهورية التى ذكرها فى هذه الليلة .

وفى نفس هذا اليوم اجتمع فى باريس مجلس الوزراء الفرنسى برئاسة الجنرال ديجول ، وبعد أن تأكدت الحكومة الفرنسية من أن إسرائيل تسير بسرعة نحو

الحرب أعلنت أن الدولة التى ستبدأ بالعدوان وتطلق الطلقة الأولى ، لن تحظى بتأييد فرنسا . وكان هذا التحذير موجها الى إسرائيل لاصرارها على شن الحرب التى أعدت لها منذ زمن بعيد ، ونظرا لأن اسرائيل هى الدولة التى ستتأثر تأثرا مباشرا بالموقف الذى ستتخذه فرنسا ضدها باعتبارها الدولة البادئة بالعدوان ، والتى تعتمد فى نفس الوقت اعتمادا اساسيا على التسليح الفرنسى خاصة بالنسبة للطائرات فقد ارادت فرنسا ان تمنع اسرائيل من الاقدام على شن الحرب ، ولكنها كانت قد وصلت فى اصرارها الى مرحلة اللاعودة ، ولم يردعها موقف فرنسا ، بل حاولت ان تتخذ منه قوة دفع جديدة للاسراع فى شن الحرب . واعتبر قادتها ان موقف فرنسا هذا يحتم ما اسموه بـ « اختراق المسافات » وبدء العمل العدوانى سريعا وقبل أن تتفاقم اثار السياسة الفرنسية وتؤدى الى شل اسرائيل ومنعها من حرية الحركة ، وتوجيه ضربتها ضد مصر ، خاصة أن التعبئة العامة بدأت تستنزف الكثير من اقتصاد اسرائيل وأن الانتظار اصبح لايعنى سوى تبديد امكانات العمل للجيش الاسرائيلى ، الذى قد نقطع عنه مصدر من أهم مصادر امداده واكثرها حيوية . ولاشك فى أن التشجيع الاساسى لموقف اسرائيل كان هو التأييد والدعم الامريكى لها ، والاطمئنان الى موقف الولايات المتحدة وموافقتها على شن الحرب ضد مصر وضمان نتائجها المحسوبة .

وبناء على ذلك عقد مجلس الوزراء الاسرائيلى الجديد اجتماعا يوم ٤ يونيه ١٩٦٧ ، حيث اتخذ المجلس قرار شن الحرب فى صباح اليوم التالى الاثنين ٥ يونيه ١٩٦٧ .

كيف خططت اسرائيل للحرب

لو ألقينا نظرة فاحصة على الحروب الاسرائيلية العربية الثلاث التى وقعت على امتداد تسعة عشر عاما بين عامى ١٩٤٨ ـ ١٩٦٧ اى منذ نشأة اسرائيل ، يمكننا ان نحدد الاسلوب الذى اتبعته المؤسسة العسكرية الاسرائيلية فى اتخاذ قرار الحرب . فعادة مايعتمد بناء هذا القرار على الدراسة الدقيقة لأوجه القوة وأوجه الضعف لدى العرب ومايمكن استغلاله منها .. والى اى مدى يمكن أن يستمر هذا الوضع من القوة أو الضعف ، ما ينتظر أن يستجد عليها من استفحال او اضمحلال .. ثم تحدد المزايا ونقاط القوة المتيسرة لدى اسرائيل خلال فترة زمنية معينة .. وأسلوب تنميتها وزيادتها وأفضل وسائل استثمارها ، ضمانا لاستمرار الفارق النوعى أو تزايده للتغلب على التفوق العددى العربى .. وبناء على كل هذه الدراسات الواقعية الشاملة يتم تحديد الهدف السياسى المرحلى للحرب والأهداف العسكرية التى يجرى التخطيط على اساسها .

هكذا كانت الحال فى الجولة الاسرائيلية العربية الأولى ٤٨ ـ ١٩٤٩ ، حين ركزت اسرائيل على التفكك العربى وضعف الجبهات الداخلية . فاتبعت مثلا

اسلوب شن المذابح وعمليات الابادة الجماعية للتخلص من السكان العرب فى فلسطين واستخلاصها لنفسها . وعندما جاءت ثورة مصر فى عام ١٩٥٢ ، راع اسرائيل خطر الانتفاضة العربية التى ترتبت على هذه الثورة وامتداد آثارها الى العالم العربى بل والى العالم الثالث مما يعرض أمنها وبقاءها فى المنطقة للخطر .. الأمر الذى يحتم عليها حسب تصورها ضرورة استخدام القوة المسلحة ويفسر ديان هذه الحقيقة بقوله « **أنه ليس أمام اسرائيل من بديل عن استعمال القوة لتحقيق اى تسوية فى خلافاتها مع الدول العربية فالمسألة بينها وبين العرب لاتنحصر فى مجرد ايجاد حل لهذا الموضوع او ذاك بل أن المشكلة تتعلق بوجود اسرائيل وبقائها** » .

هكذا سارعت اسرائيل الى تغيير اهدافها العسكرية وتحولت عن سياسة الردع عن طريق الاغارات الانتقامية ضد القرى والمواقع العسكرية العربية على الحدود الى سياسة الردع عن طريق «الحرب الوقائية» السافرة المتبوعة بالتوسع الاقليمى . وعندما حدث هذا التحول الاستراتيجى فى عام ١٩٥٣ .. لم تكن قدرتها العسكرية الذاتية فى ذلك الوقت كافية لشن الحرب الشاملة السافرة ، لذلك ظلت تستعد وتتربص الى أن حانت الفرصة المناسبة فى حرب العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ .

ولما خابت امال اسرائيل وفشلت فى تحقيق اهدافها السياسية أو العسكرية فور انتهاء هذه الجولة ، اعادت النظر فى سياستها الحربية وغيرت من نظريتها العسكرية تغييرا اساسيا ووضعت الاطار العريض للعمل المطلوب انجازه ضد العرب فى الجولة التالية ، فركزت على تطوير قدراتها العسكرية الى اقصى حد استمر عشر سنوات منذ عام ١٩٥٧ . وكما سبق ان أوضحنا كيف تبنت اسرائيل سياسة «الاعتماد على القوة الذاتية » وكسب الدعم والتأييد الامريكى الكامل السافر .

وقد تحقق لها كل ما ارادت بفضل مساعدات الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة ، فخلقت قوة ضاربة برية تعتمد اساسا على الدبابات الامريكية «باتون» كما استبدلت الطائرات البريطانية والفرنسية التى شاركت بها مشاركة هامشية فى حرب ١٩٥٦ بطائرات قوية وحديثة لها مواصفات خاصة قادرة على توفير كفاءة ذاتية تحقق لها مهمة الضربة الجوية منفردة ، وليس بالاستعانة بالقوات الجوية البريطانية والفرنسية كما حدث فى عدوان ١٩٥٦ . أما القوات البحرية فلم تهتم اسرائيل بتطويرها فى ذلك الوقت بعد ان ضمنت التأييد والدعم الكامل للولايات المتحدة لها ، وأصبح وجود الاسطول السادس الأمريكى فى البحر المتوسط ، هو المسئول عن حماية اسرائيل

لقد استغرق وضع هذه الخطط سنوات طوال بدأت بعد فشل حرب العدوان الثلاثى على مصر ويعلق موردخاى هود قائد القوات الجوية الاسرائيلية عام

١٩٦٧ على ذلك بقوله ان الفضل فى هذه الخطط يعود الى سلفه عيزرا وايزمان «الذى بدأ الاعداد للحرب غداة أن حرمنا ثمار النصر عام ١٩٥٦ » ولذلك نجد ان الاستعداد الجيد والمبادأة يشكلان العامل الحاسم فى حروب اسرائيل فى أعوام ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ثم ١٩٦٧ . وتعتبر اسرائيل أن امساكها بالمبادأة واحتفاظها بها هو اقوى ركائز نظريتها العسكرية وأمنها القومى . واستنادا الى هذه الركيزة الهامة كانت اسرائيل هى البادئة بالهجوم فى حرب ١٩٥٦ وحرب ١٩٦٧ .

مصر والتخطيط للحرب :

كان لعدم وضوح الرؤية السياسية فى أحداث ١٩٦٧ أثره المباشر فى عدم وجود هدف استراتيجى واضح أو محدد للقوات المسلحة فى ذلك الوقت . ويبدو أن جسامة المسئولة العسكرية التى فرضها هذا الموقف السياسى الشاذ .. دفع كبار القادة والمسئولين فى القوات المسلحة الى تفادى التصدى لهذا الموقف وتحاشى مواجهة مسئولياتهم بما يتطلبه ذلك من صدق وصراحة وحسم .. كان من الممكن لو حدث أن يضع حدا لهذه الاتجاهات المحفوفة بمخاطر شديدة .. وقد حدث ذلك إما خوفا من مواجهة القيادات الأعلى بآراء مخالفة .. أو نفاقا لهذه القيادات وحرصا على المناصب رغم أن المصالح العليا للوطن كانت معرضة لأخطار جسيمة .

وكانت النتيجة الطبيعية لمثل هذا الوضع الغير طبيعى ، ذلك الارتباك الشديد الذى لحق بالموقف العسكرى وهو يحاول ملاحقة تطورات الموقف السياسى المفاجئة والمتعاقبة لاهثا خلفها دون أن يتمكن من اللحاق بها أو الاحاطة بالآثار التى ترتبت عليها ، وبالتالى مواجهتها . وتبعا لذلك تعرض التخطيط العسكرى فى هذه الفترة لحالة من التخبط الشديد

وبينما كان التخطيط العسكرى الاسرائيلى مستقرا تماما على أوضاع وخطط مدروسة منذ سنوات وبناء على أسس ومبادىء استراتيجية واضحة ومحددة .. تعرض التخطيط المصرى فى هذه المرحلة الحرجة ، لكافة انواع التخبط والارتباك وفقدان البصيرة .. وتراوح بين مجرد تنفيذ مظاهرة عسكرية والاستعداد لشن حرب حقيقه .. بين الاستعداد لعمليات هجومية والتحول الطبيعى للدفاع .. وبين هذه المتناقضات ضاعت معالم الطريق .. علما بأن التقديرات الاستراتيجية والتعبوية التى سبق اعدادها بدقة ، فى أجهزة القيادة العامة للقوات المسلحة قبل نشوب هذه الأزمة بشهور طويلة .. كانت امينة وواضحة وصريحة . وقد انتهت هذه التقديرات فى ضوء الموقف العام للقوات المسلحة فى مسرحى العمليات بكل من سيناء واليمن .. الى ضرورة الاكتفاء بتنفيذ الخطط الدفاعية فى سيناء ... وعدم تجاوزها الى عمليات أوسع لأسباب وعوامل كثيرة ، ربما كان أبرزها من الناحية العملية البحتة وجود ٤٠ ٪ من خيرة وحدات القوات البرية فى مسرح اليمن وعلى مسافة ٣٠٠٠ كيلومتر من مسرح سيناء . وعلى اساس هذه التقديرات وضعت

خطة العمليات الدفاعية عن شبه جزيرة سيناء تحت اسم «الخطة قاهر» وهى الخطة التى لم يكتب لها أن ترى النور .

وفى مجال الحديث عن تطورات التخطيط للعمليات بعد صدور القرارات السياسية نجد أن هناك الكثير من التساؤلات تتعلق بالأسلوب الذى أتبع سواء فى التخطيط او فى ادارة الحرب بعد اشتعالها . فهل كان هناك إطار استراتيجى يحكم هذا الأسلوب وان وجد فما هو هذا الاطار ؟ وأين ذهبت خطة العمليات الاصلية الموضوعة «قاهر» ولماذا لم يؤخذ بها رغم انها كانت الخطة الوحيدة الجاهزة والصالحة للتنفيذ ؟ وأين التنسيق والتعاون مع الجبهات العربية الاخرى . وهل كان هناك قيادة عربية مشتركة المفروض انها تجمع بين هذه الجبهات ؟ ثم كيف صارت اعمال القيادة والسيطرة على القوات ؟

ليس من السهل أن نجد الاجابات الواضحة عن كل هذه التساؤلات بشكل يمكن أن يرضى فضول المتسائلين والمحللين والباحثين . ولكن سنحاول فى هذا الفصل ان نسرد فى نطاق ضيق ثم نحلل الجوانب المتعددة المتعلقة بما سأسميه تجاوزا «أسلوب التخطيط المتبع» وكذا أسلوب «ادارة العمليات الحربية» وعسى أن نجد من خلال ذلك الاجابات المناسبة عن بعض أو كل التساؤلات .

ويهمنا فى البداية أن نتعرض هنا للمبادىء الاساسية التى اعتمد عليها التخطيط الاسرائيلى عند وضع خطة عمليات ١٩٦٧ .. ثم نوضح كيف عوملت الخطط المصرية فى سيناء حتى انهارت أركانها وتهدمت مقوماتها وأدت فى النهاية الى كارثة الانسحاب .

الخطة قاهر التى هدمت أركانها :

فى عام ١٩٦٥ قامت هيئة عمليات القوات المسلحة المصرية بعمل تقدير شامل للموقف الاسراتيجى فى مسرحى شبه جزيرة سيناء واليمن .. إتضح من هذا التقدير ضرورة إعادة النظر فى خطة العمليات الموضوعة للدفاع عن سيناء وكان اسمها الرمزى «ظافر» .. كان السبب الاساسى الذى استندت اليه هيئة العمليات .. هو الحاجة الملحة الى اعادة التوازن الاستراتيجى لمسرح عمليات سيناء نتيجة للحجم المتزايد من القوات المصرية التى يمتصها مسرح اليمن على حساب المسرح الاساسى فى سيناء . وفى ضوء هذه الدراسات وضعت خطة دفاعية جديدة تحت اسم «الخطة قاهر» واصبحت هذه الخطة جاهزة للتنفيذ ـ بعد أن صدق عليها نائب القائد الاعلى للقوات المسلحة ـ اعتبارا من ديسمبر ١٩٦٦ .

وكانت الفكرة الاساسية للخطة تعتمد على اسلوب الدفاع المرن ، أو الدفاع المتحرك فى عمق المسرح مع حشد الجهد الرئيسى للقوات فى وسط سيناء وتوفير قوات مناسبة للدفاع عن الخط الأمامى والاحتفاظ بالعقد الدفاعية الرئيسية مثل

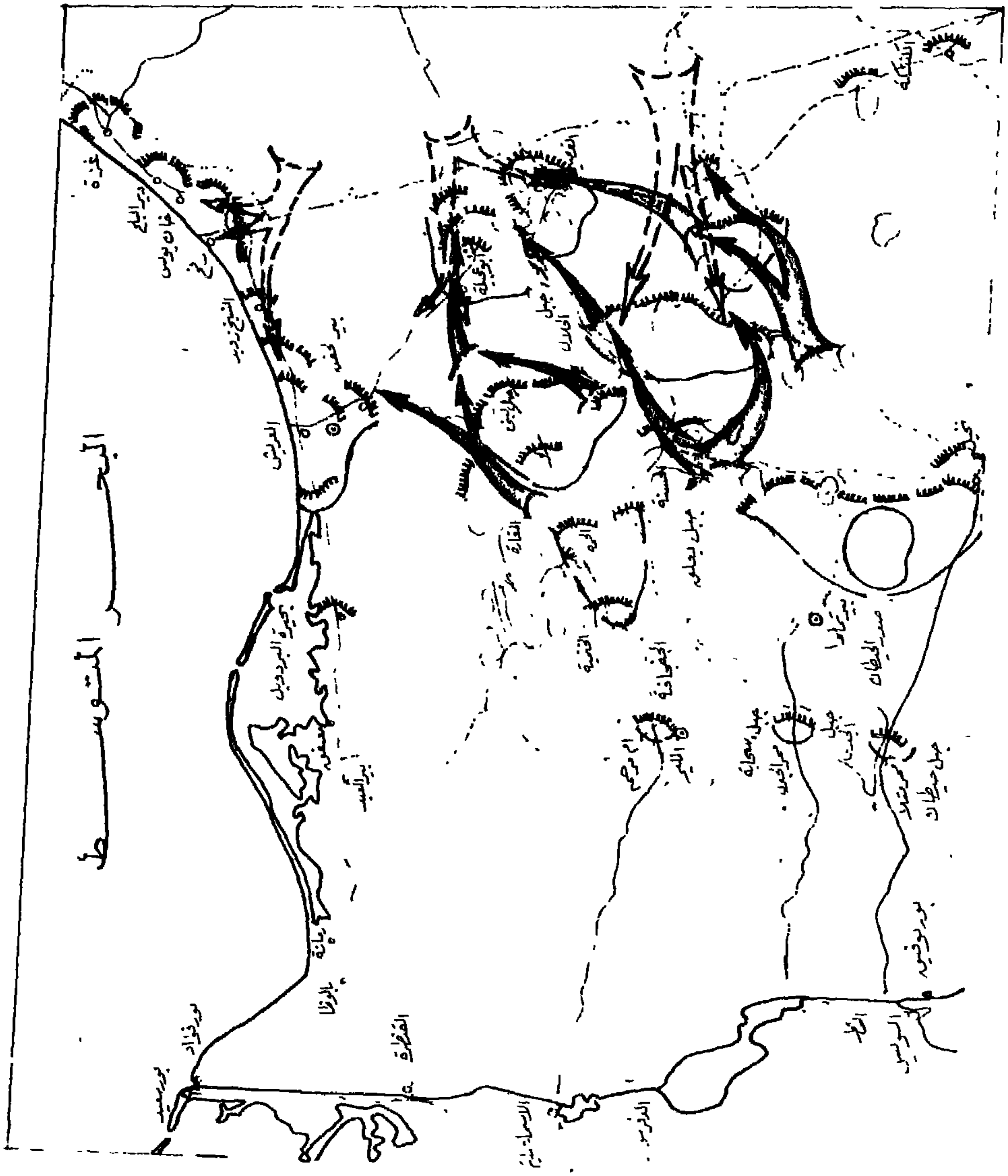

الخطة الدفاعية « قاهر » وخطط الهجوم الاسرائيلى

العريش وابو عجيلة والقسيمة .. على أن يسمح للعدو الاسرائيلى المهاجم بالاختراق الى عمق سيناء حيث جهزت «مناطق قتل» فى وسط سيناء لتدمير القوات المهاجمة .

وقد روعى فى هذه الخطة توزيع القوات المصرية بين مسرحى سيناء واليمن ومطالب الدفاع عن باقى المناطق العسكرية فى البلاد . كما ربطت فكرتها الدفاعية الأعمال القتالية الخاصة بالقوات البرية مع القوات الجوية والبحرية . وكان هدف الخطة الذى يمكن أن يتحقق بنجاح فى حدود الامكانات العسكرية المتوافرة هو العمل على امتصاص الصدمة الأولى لهجوم العدو وكسر قوته الدافعة تمهيدا لانتزاع المبادأة ثم التحول للهجوم بتوجيه الهجمات والضربات المضادة بواسطة احتياطى استراتيجى عام كبير يعتمد اساسا على الفرقة الرابعة المدرعة ووحدات اخرى من المشاة والمدفعية والمظلات .. وبالتعاون الوثيق مع قوات الجبهة يتم تدمير القوات المهاجمة .. من ناحية اخرى حددت الخطة مهام القوات الجوية اللازمة لمعاونة القوات البرية وفقا لمراحل العمليات المختلفة ، بالاضافة الى أعمال الاستطلاع الجوى والضرب الجوى واسقاط قوات المظلات وغيرها من المهام الجوية .

وفى نفس الوقت وضعت الخطط التكميلية الضرورية ومن بينها خطة تجهيز مسرح العمليات للدفاع وفقا للخطة الموضوعة .

وبدأ تنفيذها فعلا وكان من المقرر أن تنتهى التجهيزات خلال ستة أشهر ولكن نظرا للمعوقات المالية بسبب حرب اليمن ـ وقد سبق التعرض لهذه النقطة ـ لم ينفذ من خطة تجهيز المسرح سوى التجهيزات الدفاعية للنطاق الدفاعى الأول .. اما النطاقات الاخرى فى العمق فلم يكن معظمها قد نفذ عندما قامت الحرب فى يونيه ١٩٦٧ .

وليس ثمة شك فى أن هذه الخطة قد أخذت حقها كاملا من الوقت والدراسة الجادة والاعداد السليم سواء من قبل أجهزة القيادة العامة أو من قبل قيادة الجبهة الشرقية .. كما نفذت لخدمة هذه الخطة الكثير من الاستطلاعات الميدانية التى استغرقت عدة اشهر قبل ان تأخذ الخطة شكلها النهائى . وتصبح معدة للتنفيذ فى أول ديسمبر ١٩٦٦ . لقد كانت هذه الخطة الواقعية سليمة تماما بكل المقاييس العسكرية والاستراتيجية والتعبوية .. كاملة الاركان متماسكة البناء فى حدود الامكانات الحقيقية المتاحة . من ناحية اخرى فقد درستها جميع التشكيلات والوحدات المشتركة فيها .. ودرب بعضها على تنفيذ مهامها بل وأجريت بعض التجارب العملية على تنفيذها فى بعض القطاعات الهامة من الجبهة .

ولقد ابدى الكثير من المحللين العسكريين الاوربيين والأمريكيين ، ممن اطلعوا على هذه الخطة .. دهشتهم لاهمال خطة سليمة البنية والالتجاء الى تظاهرات هشة لامعنى لها بينما الوضع خطير وجاد لايحتمل اضاعة الوقت والجهد فى هدم اركان

الخطة بادخال العديد من التغييرات والتعديلات التى لاجدوى منها خلال فترة زمنية محدودة .. لم يكن لها من نتيجة سوى خلق حالة غريبة من التخبط والارتباك الشديد بين القيادات والتشكيلات والوحدات .. كان من الممكن تفاديها والابتعاد عن ذلك المأزق الخطير الذى وضعت فيه القوات فى سيناء لو أصرت القيادة العامة وأجهزتها على التمسك بالخطة الموضوعة أو تعديلها فى اضيق نطاق والوقوف بصلابة أمام الرغبات السياسية البراقة التى أضرت بالموقف الاستراتيجى كله ضررا بليغا ، وتركته مهلهلا بلا سمة أو قدرة .

★ ★ ★

ويمكن القول بأن قيادة المنطقة الشرقية قد استمرت تعمل وفقا للخطة الدفاعية «قاهر» حتى صباح يوم ١٤ مايو ١٩٦٧ عندما صدرت أوامر باعلان حالة الطوارىء ثم بدأت التعديلات والتغييرات تتوالى على هذه الخطة وبمعدل سريع وبصورة فجائية ، مما ادى الى استحالة تقسيم او تنظيم هذه التغييرات أو وضعها فى مراحل او تصنيفها فى مجموعات خاضعة لفترات معينة أو مرتبطة بأهداف سياسية عسكرية واضحة ومحددة .

وفى الواقع فإن التعديلات قد بدأت فعلا مع صدور اول توجيهات عمليات من القيادة العليا للقوات المسلحة يوم ١٤ مايو ١٩٦٧ والتى اشارت الى احتمال قيام اسرائيل بعمل عدوانى ضد سوريا ، والى عزم القيادة السياسية العسكرية المصرية على أن تتدخل بقواتها المسلحة ضد اسرائيل اذا ما اعتدت على سوريا . وانه بناء على ذلك ترفع درجات استعداد القوات المسلحة الى درجة الاستعداد القصوى ، على أن يتم حشد القوات المناسبة فى جبهة سيناء لصد اى عدوان وتأمين منطقة شرم الشيخ والاستعداد لتوجيه ضربة لاسرائيل . وهكذا حملت هذه التوجيهات داخل سطورها أول بشائر الخروج عن الخطة المعتمدة «قاهر» . بل أنها افصحت عن إحتمال القيام بعملية تعرضية محدودة . وفى نفس الوقت عدلت فى حجم القوات المخصصة للخطة الدفاعية .

وفى يوم ١٦ مايو قفزت فجأة مسألة مدخل خليج العقبة الى مركز الصدارة بين المشاكل السياسية والعسكرية الملحة التى واجهها جهاز التخطيط فى القيادة العامة بعد صدور قرار سحب قوات الطوارىء الدولية فى هذا اليوم . وقد تصدت أجهزة القيادة العامة لهذا الموقف فقامت بتقديم العديد من التقديرات وادارت عدة مناقشات وعرضت الاحتمالات المختلفة واوضحت العقبات والعواقب واظهرت الأبعاد الخطيرة للموقف .. الأمر الذى دفع كبار المسئولين فى أجهزة القيادة العامة الى طلب تأجيل تسليم الوثيقة الخاصة بطلب سحب قوات الطوارىء الدولية الى قائد القوات ، وذلك الى أن تستكمل دراسة الأمر والاعداد المناسب لمواجهة نتائجه وعواقبه . ولكن لم تفلح هذه المحاولة الهامة إذ جاءت متأخرة ، وكانت الوثيقة قد سلمت فعلا واصبح لامفر من الاستمرار فى العملية أو فى هذه اللعبة

السياسية الخطيرة .. هكذا بدأت أركان الخطة «قاهر» تتعرض للاهتزاز منذ اللحظة الأولى .

ويلاحظ هنا أن الخطة «قاهر» لم تكن قد اسقطت من اعتبارها الاحتمال الخاص باعادة احتلال وتأمين منطقة شرم الشيخ ، فخصصت لهذا الغرض لواء مشاه كاملا ومدعما يكون مستعدا لاحتلال المنطقة عند الضرورة وفقا للخطة الموضوعة . والغريب في الأمر أنه بعد عدة ساعات من صدور الأمر لهذا اللواء بالاستعداد للتحرك بناء على الخطة الأصلية صدرت توجيهات القيادة العليا بالغاء تحركه وتجهيز قوة مظلات لاحتلال منطقة شرم الشيخ على وجه السرعة .

وكان ذلك هو أول خروج عملي وأساسي عن الخطة «قاهر» لم يكن هناك من العوامل مايبرره خاصة أن خليج العقبة لم يغلق سوى يوم ٢٣ مايو أى بعد أسبوع كامل من صدور هذه الأوامر كان من الممكن للواء المدعم أن ينفذ مهمته خلالها بسهولة ، ولكن يبدو أن هناك افكارا اخرى كانت في ذهن القيادة السياسية العسكرية العليا لم تفصح عنها سوى يوم ١٨ مايو ١٩٦٧ .

ففي هذا اليوم وصلت تعليمات من القيادة العليا الى القيادة الشرقية أو قيادة الجيش الميداني في سيناء تنص فكرتها على الاعداد لشن عملية تعرضية محدودة ضد منطقة جنوب النقب . وكان ذلك التعديل هو البداية لتهاوى الاركان المتماسكة للخطة الدفاعية ونلاحظ هنا انه بينما قضت توجيهات القيادة العليا التى صدرت يوم ١٤ مايو بحشد قوات «مناسبة» في جبهة سيناء لصد أى عدوان قد تشنه اسرائيل ، وامتصاص قدرتها العسكرية المحتشدة امام سوريا ، جاء التعديل الأول في الخطة خاصا بمنطقة شرم الشيخ ثم يأتى هنا تعديل اساسى آخر بتكليف الجيش الميداني بمهمة تعرضية تتطلب ادخال تعديلات اخرى جوهرية ونقل اتجاه العمل الرئيسى الى القطاع الجنوبى من شمال سيناء .

وقد حدث عندما عرضت خطة العمليات «قاهر» على الرئيس جمال عبدالناصر - بعد أن بدأ حشد القوات في سيناء - أن إعترض على فكرة الخطة الدفاعية الموضوعة قائلا أنها ستسمح بالتخلي عن قطاع غزة ومناطق مثل رفح والكونتلا مع إحتمال فقد منطقتى أبو عجيلة والعريش .. حتى ولو كان ذلك بصفة مؤقتة . وكان رفضه هذا مبنيا على أسباب سياسية تتعلق بوضع مصر أمام العالم العربى .. وكان معنى هذا الرفض - القائم على حساسية سياسية مفرطة - ضرورة تعديل الخطة وتدعيم الدفاع عن قطاع غزة وكذا تقديم الحد الأمامى للدفاع للأمام من منطقة العريش شرقا حتى رفح ، وكذا مده جنوبا حتى الكونتلا . وقد ترتب على ذلك كله أن أصبحت الوحدات لاتكاد تصل الى مواقعها المحددة في الخطة «قاهر» حتى تصدر لها تعليمات بالتحرك مرة أخرى الى مكان جديد .

وما من شك في أن عدم اطلاع رئيس الجمهورية وهو القائد الأعلى للقوات المسلحة على خطة العمليات المنفذة فعلا منذ شهور طويلة ، هو أمر بالغ

الخطورة ، يوضح مدى عمق الانفصال بين القيادة السياسية والقيادة العسكرية ، الأمر الذى ترتب عليه اعتراض رئيس الجمهورية على فكرة العملية وطلب تغييرها فى وقت شديد الحرج وبشكل احدث خللا كبيرا فى الفكرة الاساسية التى تقوم عليها الخطة الدفاعية . ويبدو أن احدا من كبار المسئولين العسكريين لم يعارض هذا التعديل أو يحاول شرح أو إيضاح مدى خطورته على الخطة الدفاعية .. فى وقت تحاول فيه مصر أن تفرض تطورات اساسية وتغير أوضاعا هامة سادت المنطقة فترة طويلة والتزمت بهامصر عشر سنوات كاملة .

من ناحية أخرى فان فكرة تدعيم الدفاع فى قطاع غزة والعمل على منع اختراقه ، كانت فكرة مستحيلة من الناحية العملية بسبب العوامل الجغرافية والطبيعية فى القطاع . **ورغم ان القيادة العسكرية لم تكن تؤمن بجدوى هذه الترتيبات الدفاعية التى ستكلف القيادة المزيد من القوات والأسلحة ولن تضيف لقدرات الدفاع شيئا يذكر ، فإنها لم تنجح فى مواجهة أو وقف الرغبة الشديدة لدى القيادة السياسية فى عدم وقوع القطاع فى يد إسرائيل لما سيترتب على ذلك من أثار نفسية عربية سيئة** !! ولذلك شهد يوم ٢٠ مايو ـ اليوم التالى لانتهاء وجود قوات الطوارىء الدولية فى سيناء والقطاع ـ صدور العديد من تعليمات التحرك التى تخالف فكرة وأوضاع خطة الدفاع الاصلية وتضعف فى نفس الوقت من البنيان الدفاعى تماما .

وعندما أعلن رسميا عن غلق مدخل خليج العقبة اعتبارا من ظهر يوم ٢٣ مايو أمام الملاحة الاسرائيلية ، تصورت القيادة العسكرية المصرية أن رد فعل اسرائيل المنتظر سيقتصر على القيام بعملية هجومية محدودة لاعادة فتح مدخل الخليج ، كما رجحت القيادة المصرية ، أن يكون هذا الهجوم فى إتجاه القطاع الجنوبى من الحدود . وهنا ظهرت فكرة مد الخطوط الدفاعية الامامية تجاه الجنوب وتوسيع جبهة الدفاع الامامية وبالتالى جلب المزيد من القوات . إن إجراء هذه التغييرات الأساسية فى البناء الدفاعى الاستراتيجى لشبه جزيرة سيناء وادخال تعديلات متعددة على أوضاع القوات قد تطلب بالضرورة حجما كبيرا من الأعمال الميدانية والتحضيرات الهندسية لتغطية هذه الأضافات الجديدة وماحتاج اليه ذلك من وقت وجهد وقوات .

هكذا وبسبب الرغبة فى الحفاظ على الهيبة عربيا جرى تحول حاد وإهتمام غير واقعى بتأمين منطقة رفح وقطاع غزة .. وعندما يبلغ هذا الاهتمام ذروته يوم ٢٦ مايو ، تتحول الانظار بغتة بناء على استنتاجات غير مؤكدة من اقصى الشمال الى الجنوب ويدفع معظم حجم وجهود القوات فى هذا الاتجاه الجديد . ثم تتوالى التوقعات والاحتمالات والاستنتاجات التى تؤيد هذا العمل دون استناد الى حقائق ملموسة أو معلومات مؤكدة . ويضطر المخططون ـ ازاء التعليمات الصادرة من اعلى ـ الى تحريك القوات صوب

الاتجاه الجديد وتكثيف الدفاعات فى هذا الاتجاه وانشاء خط دفاعى جديد اطلق عليه اسم «الستارة المضادة للدبابات» فى منطقة تسمى المطلة لمقابلة ضربة العدو المدرعة الرئيسية (المزعومة) المتوقع شنها فى هذا الاتجاه وبذلك استكمل هدم اركان الخطة الاصلية هدما كاملا .

ولقد تبين للقيادة المصرية بعد ذلك عندما قامت الحرب ، أن ماحدث من تحول فى المجهود الرئيسى للقوات نحو الجنوب إنما كان يخدم فكرة العملية الهجومية الاسرائيلية . وأن المعلومات والتحركات الاسرائيلية . التى جرت فى اتجاه الجنوب كانت خطة خداعية تحت اسم «ضباب الحرب» الغرض منها تحويل الانظار وتشتيت الجهود المصرية بعيدا عن المجهود الاسرائيلى الحقيقى فى شمال سيناء .

وحينما بدأت القيادة العامة تدرك مدى خطورة الموقف قبل يومين من نشوب القتال . وحاولت العودة جزئيا الى الخطة الدفاعية الاصلية ، حينما امرت باحتلال دفاعات عمق سيناء كاملة كان الوقت متأخر لاتخاذ اى خطوات لانقاذ الموقف بعد تخبط تخطيطى استمر حوالى اسبوعين .. وبعد أن أصبح الموقف فى المسرح شديد الارتباك ، مختلفا تماما عن الخطة الدفاعية الاصلية شكلا وموضوعا .

★ ★ ★

ذكر بعض كبار المسئولين من المصريين ومن بينهم الرئيس الراحل أنور السادات ، أنه فى اجتماع ٢ يونيه ١٩٦٧ للقيادة السياسية العسكرية فى مقر القيادة العامة ، الذى شارك فيه قادة القوات المسلحة صدق عبدالناصر بصفته رئيسا للجمهورية على الخطة العسكرية النهائية !! ثم وجه حديثه الى قائد القوات الجوية قائلا «ان الضربة الأولى سيوجهها اليهود ضد طيراننا ، وأن موعد الحرب لن يتجاوز يوم الأثنين ٥ يونيه »

ولن نحاول هنا الخوض فى تفاصيل هذه القصة سواء دفاعا عنها أو تعريضا بها . ذلك لأن الاقوال قد اختلفت كثيرا بالنسبة لها خاصة أن وجود قادة القوات المسلحة فى هذا الاجتماع الهام واستماعهم لمثل هذه الأقوال الخطيرة من رئيس الجمهورية كان لابد من أن ينعكس فورا على استعداد وخطط القوات المسلحة الأمر الذى لم يحدث فى هذا اليوم أو فى الأيام التالية الى أن قامت الحرب فعلا صباح يوم الاثنين ٥ يونيه ١٩٦٧ . ولكن باللجوء الى التحليل والمنطق نجد أن التصديق على خطة عمليات جديدة وقد اصبحت الحرب على الأبواب ـ بناء على توقعات رئيس الجمهورية ـ لم يكن ليقدم أو يؤخر أو يغير من الوضع تغييرا جذريا يواجه هذا الاحتمال نظرا لضيق الوقت الشديد ، ولأن عجلة الحرب كانت قد دارت بأقصى سرعتها على الجانب الاخر وفى الاتجاه المخطط له . ولم يكن هناك الكثير الذى نملكه من قدرة سياسية أو عسكرية يمكن بواسطتها وقف دوران عجلة الحرب

الاسرائيلية أو ردع مخطط اسرائيل العدواني قبل ستين ساعة فقط من بدء العدوان !

كذلك فان صدور القرارات العسكرية تأسيسا على القرارات السياسية التى سبق أن صدرت كان فى الواقع تجسيدا للأخطاء الجسيمة التى سببتها هذه القرارات .. ولأن مابنى على خطأ لايمكن الا أن يكون خطأ ، لذلك لم يكن من المنتظر ابدا أن تتمكن هذه القرارات العسكرية المتأخرة من اصلاح ما فسد طوال هذه الاسابيع او من تغيير النتيجة الحتمية لهذه الحرب ، التى تقع فى اسوأ ظروف يمكن أن تواجهها قوات مسلحة . وكان الأمل الوحيد فى ظل هذه الظروف هو العمل السريع على تخفيف وطأة النتائج المنتظرة والاقلال من الخسائر .. ومواجهة الهجوم الاسرائيلى المتوقع لوقفه فى مرحلة متأخرة فى عمق سيناء وقبل وصوله الى قناة السويس

ولقد قيل ان الخطة التى تم التصديق عليها فى هذا اليوم .. كانت خطة هجومية لم يحدد موعد تنفيذها .. فكيف يستقيم هذا القول مع ما اثير فى نفس الاجتماع حول موعد قيام اسرائيل بهجومها وضرورة الاستعداد لتلقى الضربة الأولى .. وهو سياق لايتفق مع المنطق ، اذ لايمكن قبول الضربة الأولى بينما الخطة الموضوعة كانت خطة هجومية وهذا يعنى ضرورة سبق العدو قبل قيامه بالهجوم ، أو ادارة عملية دفاعية كاملة يتم فيها صد الهجوم المعادى وتدميره ثم التحول الى الهجوم .. وهذه كانت هى نفس فكرة الخطة «قاهر» التى قضت عليها التعديلات والتبديلات .

مما تقدم يتضح وجود استحالة عملية لتنفيذ الخطة الهجومية بالاضافة الى وجود التناقض الزمنى الواضح بين موعد التصديق على الخطة والموعد المنتظر لتنفيذ الهجوم الاسرائيلى . ألم يكن من المفروض فى ظل الموقف صدور امر صريح بالتحول فورا الى الخطة الدفاعية الموضوعة لمواجهة هذا الهجوم ؟! خاصة ان اى خطة جديدة ستحتاج الى فترة زمنية لاتقل عن اسبوع يتم خلالها توزيع المهام على القوات والتشكيلات ثم الوحدات والوحدات الفرعية ، وقيام القيادات الميدانية على كافة المستويات بوضع خططهم الفرعية فضلا عن الخطط التكميلية الضرورية لمساندة خطة العمليات الرئيسية ، وأهمية التأكد من المام جميع القادة على كل المستويات بالمهام المكلفين بها .

هكذا يتضح ان ما كان يدور فى القيادة العامة كان بعيدا عن الواقع الحقيقى لحالة وأوضاع القوات فى الجبهة ... واذا كان هذا الأمر قد حدث فعلا فان مسئولية القادة الميدانيين الذين حضروا هذا الاجتماع كانت تستوجب رفضهم الموافقة على أمور بعيدة عن حقيقة الأوضاع .. إن مثل هذه اللحظات المصيرية الحاسمة لاتحتمل ترددا فى مواجهة الأمر الواقع أو مواجهة رؤسائهم من العسكريين والسياسيين ، وهم القادة المتخصصون

الذين يملكون الخبرة والعلم والمعلومات . ان الدفاع بكفاءة عن سيناء كان يجب أن يكون هو الشغل الشاغل للقيادة العسكرية العليا فى هذه المرحلة الدقيقة .. لأن اى محاولة لفتح محاور عمليات جديدة لم تكن مخططة أو مجهزة للعمليات من قبل .. كان عملا خطيرا .. كانت اولى نتائجه عندما اشتعلت الحرب أن تعرضت فرقة مشاة كاملة للدمار فى منطقة رفح خلال ساعات من بدء الحرب نتيجة لهذا الخطأ التعبوى الجسيم .

★ ★ ★

إن الخطة الموضوعة «قاهر» بشكلها الذى صودق عليه فى ديسمبر ١٩٦٦ ، كانت قد انتهت فاعليتها كخطة دفاعية متكاملة البناء ، بعد التعديلات الجذرية التى ادخلت عليها وسبق ان تعرضنا لأهمها ـ وكان أبرزها هو مد الخطوط الدفاعية جنوبا بشكل أدى الى استخدام قوات بلغت ضعف القوات المخصصة الاصلية .. وتبع ذلك نقل مجهود القوات الرئيسية من وسط سيناء الى جنوبها على حساب المناطق الدفاعية الاخرى واضافة جبهة بلغ عرضها ٨٠ كيلو مترا من الاراضى التى تزداد وعورة كلما اتجهنا جنوبا . وأصبح على القوات ان تنشر جهودها على جبهة بلغ عرضها ١٠٠ كيلومتر بينما مواجهة المسرح لم تتجاوز ١٢٧ كيلومترا .

من ناحية اخرى فان كل هذه التوسعات والمهام الاضافية والأعباء المتوالية التى حملتها القيادة العليا لقوات الجبهة قد تجاوزت القدرات الحقيقية لهذه القوات خاصة بعد ماتعرضت له من تحركات وتعديلات فى المهام وانتقالات اجهدت الوحدات والتشكيلات وأثرت دون شك على كفاءتها القتالية كذلك كان من نتيجة توسيع نطاق وجبهة الدفاع دون مبرر حقيقى وبناء على معلومات غير مؤكدة ، ترك عمق الدفاعات فى الخلف بلا قوات للدفاع ، خاصة فى المنطقة الحيوية الواقعة عند خط المضايق الاستراتيجى ، إن كثرة الاعباء وتنوعها بين الدفاع والهجوم مع نقل ثقل الدفاع الى خط الحدود ومده جنوبا لمسافات كبيرة . قد ادى الى اهمال خط دفاعى اساسى ، له أهمية استراتيجية وسياسية كبيرة هو خط المضايق . ولذلك عندما برزت الحاجة الملحة الى الدفاع عن هذا الخط الحيوى يومى ٦ ، ٧ يونية ١٩٦٧ ، أسقط فى يد القيادة العسكرية العليا واضطربت قراراتها .. ولم تجد امامها سوى أثمن مالديها من تشكيلات هو الفرقة الرابعة المدرعة الاحتياطى العام والأخير للقيام بهذه المهمة التى لاتناسبها والتى لم تستعد لتنفيذها من قبل .. وسنرى كيف عوملت هذه الفرقة من القيادات العسكرية حتى عرضتها للدمار .

★ ★ ★

من ناحية أخرى فان حدوث انفصام بين المنطق العسكرى ومبادىء الحرب الاساسية وحقيقة الاوضاع الجارية فى ميدان القتال كان على مدى التاريخ العسكرى بمثابة السقطة القاتلة التى تضيع حولها وبسببها كثير من الجهود المضنية والآمال العريضة ، فضلا عن الأرواح التى تذهب تضحياتها هباء . لأن

الافتقاد الى التوازن السليم بين حجم القوات واتساع مواجهات القتال وعمق المسرح والتوزيع الدقيق لهذه القوات ، بحيث تغطى ابعاد المسرح طولا وعرضا بما يحقق احتياجاته ، يؤدى بالضرورة الى وقوع حالة من الخلل الاستراتيجى الشامل .. نجم عنه ـ عندما بدأ القتال ـ تطورات مفاجئة وسريعة ومفجعة .. أدت بالموقف العسكرى العام الى التدهور السريع والانهيار غير المتوقع ، رغم أن حجم ونوعية القوات المتوفرة بالمسرح ، كان كافيا لوقف اى هجوم الا أن حالة وأوضاع هذه القوات والأخطاء التى سادت طريقة استخدامها ، قد افقدتها القدرة على القتال المنظم العنيد لذلك ، فإن القول بان القوات لم تتح لها فرصة حقيقية للقتال هو قول صادق ومعبر عن واقع ما حدث فى يونيه ١٩٦٧ بسيناء .

ومن الظواهر الدالة على مدى اهتزاز القيادة العسكرية العليا حتى قبل بدء الحرب .. الانسياق وراء احتمالات نظرية حول الأعمال المنتظر أن يقوم بها العدو ، ثم تجسيد هذه الاحتمالات والارتقاء بها الى مستوى الواقع ، فتنقلب من مجرد احتمال الى حقيقة تملأ ذهن القيادة يقينا بها ، قد ادى فعلا الى أوخم العواقب .. ففى مثل هذه الظروف ليس هناك نهاية لنظريات الاحتمالات لما يمكن أن يقوم به العدو . فليست كل الشواهد التى تفصح عنها أماكن قوات العدو بريئة من شبهة الخداع والتمويه المتعمد الخاضع لخطة خداع مدبرة . وكانت نتيجة الانسياق وراء هذه الاحتمالات افساد كل الخطط السليمة واجراء تحركات لاحصر لها أدت الى انهاك القوات وتشتيت جهودها وبعثرة قدراتها فوق ساحة القتال وعلى امتدادها .. كما حرمت القوات من اثمن عوامل النجاح فى ميدان القتال وهو الاستقرار الخططى وتوفير الوقت الكافى لاحكام الخطط والاستعداد ، وحسن تدريب القوات على مهام واضحة ومحددة .

ان النظريات العسكرية قد حذرت بشدة من محاولة أن تكون قويا فى كل مكان فى آن واحد . فلا يمكن أن تكون قويا وقادرا على التصدى للعدو فى كل مكان وعلى اى إتجاه أو محور فى كل الأوقات . ان النتيجة الحتمية لمثل هذه المحاولة هى أن تصبح ضعيفا فى كل مكان عاجزا عن التصدى للعدو فى اى اتجاه وعلى أى محور .

أين ذهب التعاون العربى ؟

ولايمكننا ونحن نعالج كارثة ١٩٦٧ الا أن نتعرض لموقف الدول العربية ومستوى التعاون المفترض وجوده بين جيوشها . وفى الواقع .. لم يحدث منذ أن بدأ الصراع بين العرب واسرائيل اى تنسيق حقيقى فى الخطط للقيام بعمليات حربية عربية مشتركة ضد اسرائيل سواء فى عام ١٩٤٨ أو بعد ذلك .. وكل ماحدث فى ذلك الوقت هو الموافقة على تعيين الملك عبدالله قائدا «للجيوش العربية » مع تبادل بعض ضباط الاتصال بين الجيوش العربية . وفى الحقيقة فان

التنافس والحقد السائدين بين القادة العرب قد منع اقامة اى نوع من التنسيق الجاد بين اى جيشين من الجيوش العربية .. فيما عدا بعض الحالات النادرة .. حتى ضباط الاتصال المرسلين لجيش عربى آخر ، لم يكن معهم وسائل اتصال مباشر بحكوماتهم أو رئاستهم ، ولذلك فلم يكن لوجودهم فائدة تذكر من الناحية العسكرية البحتة .. ولم يكن هناك اى خطط خاصة بالتعاون أو التنسيق بين عمليات الجيوش العربية .

وفى عام ١٩٥٦ كانت مثل هذه الخطط موجودة ، ولكن لم تكن تمثل اى نوع حقيقى من التخطيط الجاد .. ولم توضع موضع الاختبار نظرا لوقوع العدوان البريطانى الفرنسى على مصر .. أما فى عام ١٩٦٧ فلم يكن الموقف التخطيطى بين الجيوش العربية أكثر تحسنا .. ورغم وجود القيادة العربية المشتركة فلم يكن هناك أى عمل جاد ومنظم تم الاتفاق عليه بين الجيوش العربية ، حيث كانت العلاقات تفتقد الى الثقة والاخلاص القومى . ولذلك فان تبادل الخطط والوثائق بين الجيوش العربية فى ذلك الوقت كان مجرد عمل شكلى لايمثل وضعا حقيقيا . فبالنسبة لسوريا لم تكن هناك اى خطط حقيقية مشتركة لتنفيذها مع مصر .. أما الاردن فلم تتخذ اى خطوات جدية او عملية سوى يوم ٣٠ مايو ١٩٦٧ ، اى قبل الحرب بخمسة ايام فقط ولذلك لم تكن الخطوات التى اتخذت بعد ذلك بارسال كتائب الصاعقة المصرية الى الاردن ، ذات تأثير فعال . وهكذا كانت المظهرية هى السائدة على المستوى العربى كله .

مصير الحرب يتقرر قبل أن تبدأ :

إن الحرب حدث خطير فى حياة الأمم وتاريخها .. وهى ليست «لعبة سياسية» كما أنها ليست «مظاهرة عسكرية» .. بل هى طريق المصير للأمم والشعوب طريق ملىء بالدماء والتضحيات الجسام .. فإذا تغلبت المظهرية ـ فى مثل هذه الظروف المصيرية ـ على كل التصرفات يختفى المنطق وتهمل الجدية وتستبعد الآراء الناضجة لأنها لاتؤدى إلى تحقيق الهدف الدعائى .. ولاتتناسب مع تلك الضجة الاعلامية الهائلة التى صاحبت المظاهرة العسكرية . ولكن اسرائيل ومن ورائها مصادر المعلومات الامريكية لم تنخدع .. وأدركت أن المسألة لا تخرج عن كونها عملية استعراض للقوة ، وأنها لن تتجاوز هذا الاطار .. لقد انتظرت اسرائيل فرصة لشن الحرب منذ عام ١٩٦٤ .. ولكنها لم تتوقع مثل هذه الفرصة الذهبية التى اتاحتها لها قيادة مصر .. حين حشدت قوات ضخمة فى سيناء بلا خطة ولا مهمة ولاشكل يوحى باعداد لأى عمل عسكرى .. فخلقت بذلك وضعا جعل من القوات المصرية ـ جوية أو برية ـ لقمة سائغة للضربتين الجوية والبرية اللتين افتتحت اسرائيل بهما الحرب .. وهكذا فان مصير الحرب كان قد تقرر فعلا قبل ان تبدأ ..

وبالتالى يمكننا القول أن اسرائيل لم تحقق انتصارا علينا فى هذه الحرب بقدر ما الحقنا نحن الهزيمة بأنفسنا فى واقع الأمر .

فان قواتنا المسلحة وفقا لما كتبه الرئيس الراحل أنور السادات : «راحت يوم ٥ يونيه ١٩٦٧ ، ضحية لعدم وجود اوامر .. وحينما صدرت الاوامر ، صدرت هوجاء متناقضة تبدد الجهد والوقت والسلاح .. ان القوات المسلحة لم تتح لها اى فرصة حقيقية لكى تحارب .. ولذلك فان القول بانها قد هزمت قول ظالم لايتسق مع الحقيقة ولامع مسار واسلوب تطور الاحداث .. ان القوات المسلحة قد هزمتها قياداتها ووضعت الخطوط الاساسية لهذه الهزيمة قبل أن تبدأ الحرب فى شكل سلسلة متصلة ومتناقضة من القرارات السياسية والعسكرية غير المدروسة ، أو المبنية على تقديرات حقيقية .. واقعية .. سليمة » .

إن هذه العبارات القليلة التى ذكرها الرئيس الراحل فى تحليله المركز لأسباب نكسة يونية ١٩٦٧ ، تعبر بكل الصدق والامانة عن حقيقة المأساة التى وقعت فى يونية ١٩٦٧ ، وأدت الى هزيمة القوات المسلحة المصرية .. ولقد سبق ان أوضحنا وحللنا كل العوامل التى اجملت نتائجها فى هذه العبارات ، وشرحنا كيف ساءت المعالجة العسكرية فى مرحلة التخطيط .. نتيجة لجسامة الالتزامات التى ترتبت على القرارات السياسية ، والتى لم تحظ بالاهتمام الذى تستحقه . ومادل عليه ذلك من وجود انفصال خطير بين الرؤية السياسية المصرية فى ذلك الوقت وحقيقة الموقف الاستراتيجى والأوضاع العسكرية القائمة على واقع الامكانات المتاحة وعلى معطيات الموقف العام فى المنطقة وعلى جانبى الحدود .

ولاشك أن النظرة الأولى لحجم القوات التى كانت محتشدة فى سيناء ، توحى بكفايتها لأحباط اى عمل عسكرى اسرائيلى . ولكن هذه النظرة لم تخدع اسرائيل ، بل شجعتها على التعجيل بشن الهجوم دون تردد . ذلك لأن مظهر هذه القوات الضخمة وأوضاعها لم يكن يوحى بأى جديه فى تنفيذ عمل عسكرى منظم وحاسم . ولتأكيد هذه الحقيقة نعود لما حدث فى الجولة السابقة عام ١٩٥٦ ، حين كان حجم القوات المدافعة فى سيناء اقل من حجمها فى عام ١٩٦٧ بفارق ضخم يصل الى عُشر هذه القوات ، ورغم ذلك كانت اسرائيل فى عام ١٩٥٦ اشد حرصا وأكثر حذراً ، فلم تقدم على عدوانها إلا بعد أن إطمأنت تماما لجدية وحجم المساندة العسكرية المباشرة وغير المباشرة المقدمة من الدولتين الكبريين بريطانيا وفرنسا .

ففى عام ١٩٥٦ تعرضت سيناء لعدوان إسرائيلى شامل ومفاجىء تعززه وتسانده الامكانيات البريطانية والفرنسية .. ودارت خلاله معارك طاحنة فى كل من ممر متلا وأبو عجيلة ورفح وشرم الشيخ .. ورغم إنعدام التكافؤ بين القوات المهاجمة والقوات المدافعة ، فقد صمدت قواتنا صموداً رائعا فى كل هذه المواقع

دون إستثناء ، وظلت تقاتل القوات المهاجمة المتفوقة عليها بلا إنقطاع ولعدة أيام رغم عدم توفر وسائل الدفاع الجوى اللازمة لحمايتها . ورغم ذلك لم تنجح القوات الاسرائيلية فى إقتحام مواقعها أو إختراقها مع وجود التفوق العددى فى جانب اسرائيل الذى بلغت نسبته ٤ : ١ فى أبو عجيلة ، ٥ : ١ فى ممر متلا لصالح إسرائيل .. ولم تتمكن القوات الاسرائيلية من دخول هذه المواقع ـ فيما عدا شرم الشيخ ـ الا بعد إخلائها من القوات المصرية التى إنسحبت تنفيذاً لاوامر الانسحاب المنظم التى صدرت مساء اليوم الثالث لبدء القتال نتيجة لاكتمال مؤامرة العدوان الثلاثى وبدء الهجوم البريطانى الفرنسى على مصر .

فماذا كان حجم القوات المصرية فى كل سيناء التى أبلت كل هذا البلاء ، وقاتلت دبابات الجيش الاسرائيلى بنجاح وأنزلت به خسائر فادحة فى الارواح عام ١٩٥٦ ؟ إن الحجم الحقيقى لهذه القوات لم تتجاوز ما يعادل ثمانى كتائب مشاة مدعمة بمدفعية الميدان والمدفعية المضادة للدبابات ـ ليس من بينها دبابة واحدة ـ وموزعة بين رفح والعريش وأبو عجيلة وشرم الشيخ وممر متلا .. أى أنها كانت أقل من حجم فرقة مشاة كاملة الوحدات والتسليح . لقد قاتلت قواتنا فى عام ١٩٥٦ ببسالة عندما أتيحت لها فرصة القتال ومواجهة العدو .. عندما توفرت لها الخطط الجادة والمهام الواضحة المحددة والثقة الكاملة فى قيادتها . أما فى عام ١٩٦٧ ، فما لم يكن هناك أخطاء قاتلة وقصور شديد سواء فى إتخاذ القرارات السياسية أو القرارات العسكرية أو فى أسلوب التخطيط والاعداد ثم فى طريقة معالجة الموقف برمته .. لِمَا حدثت هذه الكارثة . وليس ثمة شك فى أن كل هذه الأخطاء كانت إنعكاساً طبيعياً لعدم توفر الجدية المطلقة فى معالجة الموقف .. والتصدى لقضايا مصيرية غاية فى الخطورة باسلوب ينم عن إستعانة بالغة ومظهرية مميتة .. كان لها أسوأ الأثر على مسار الحرب منذ لحظتها الأولى .

★ ★ ★

كان هذا هو الموقف على جانبنا .. فماذا كان الموقف على الجانب الآخر ؟ كان هناك عدو شديد اليقظة ، يعرف ما يريد تماما .. إستوعب دروس حرب ١٩٥٦ إستيعابا كاملا فأحسن التخطيط للعمليات والاستعداد للحرب واضعا لها إسبقياتها الدقيقة والمتعاقبة ، بحيث يتعامل أولا مع الجبهة الاقوى والاخطر ـ اخطر الاعداء ـ ثم يتحول الى الجبهة التالية فى خطورتها على اسرائيل .. وهكذا وعلى هذه الاسس حددت اسرائيل ان تبدأ حربها ضد الجبهة المصرية أولا باعتبارها الجبهة العربية الرئيسية .. وعلى مستوى الجبهة اختارت أن تبدأ هجومها فى جبهة مصر ضد ما اعتبرته أقوى عناصر الخطر التى تهددها من قوات مصر اى القوات الجوية .. فوجهت ضربتها الأولى اليها وتبعتها بهجوم برى مفاجىء لاستغلال نجاح ماحققته الضربة الجوية من نتائج .. ثم باستغلال الآثار النفسية السيئة التى تركتها هذه الضربة على العرب ... فتحولت لضرب الجبهة العربية التالية وهى الأردن باعتبارها تمثل التهديد المباشر لوسط اسرائيل والسهل

الساحلى حيث يبعد الساحل عن خط الحدود فى هذه المنطقة من ١٥ الى ٢٠ كيلومترا .. ثم اتجهت بعد ذلك نحو سوريا للتخلص من التهديد المستمر الذى تمثله هضبة الجولان السورية ضد سهل الحولة والمناطق المنخفضة التى تطل عليها المرتفعات .. وقد استغلت اسرائيل فى تنفيذ هذه الضربات ميزة العمل على خطوط داخلية توفر لها سرعة التحول المأمون من جبهة الى اخرى وتحريك القوات شمالا أوشرقا أوجنوبا فى انسب التوقيتات التى تخدم مخططاتها واهدافها .

ولكى تضمن اسرائيل نجاحا كاملا فى جبهة مصر ، أولتها اهتماما خاصا ووضعت لها خطة لاعمال الخداع السياسى والعسكرى . فحاولت فى البداية ان توهم العرب والعالم كله بأنها سوف تهاجم سوريا بسبب مشروع تحويل مياه نهر الاردن فاطلق قادتها التصريحات الكثيرة المعادية لسوريا الى حد التهديد باحتلال دمشق واسقاط نظام الحكم القائم .. حدث ذلك دون ادنى تعرض لمصر . كما اجرت بعض الوحدات الاسرائيلية تحركات عسكرية محدودة فى المنطقة الشمالية .

وعندما اقتربت ساعة الهجوم الحقيقى ضد مصر استعانت اسرائيل بخطة خداع ساعدت على تهيئة ظروف النجاح للقوات الاسرائيلية . فقد شهدت الايام الأخيرة من شهر مايو ١٩٦٧ جهودا اسرائيلية متعددة كان هدفها جذب نظر القيادة المصرية بعيدا عن اتجاه ضربتها الرئيسية فى سيناء . فبينما قامت بحشد مجموعات العمليات الثلاث الاسرائيلية الرئيسية فى الركن الشمالى الغربى لاسرائيل فى سرية وهدوء تامين ـ لم تجذب اليها عناصر الاستطلاع المصرية ـ خصصت فى نفس الوقت لواء وبعض الكتائب للقيام بتحركات خداعية مكشوفة فى جنوب النقب .. وهكذا نجحت خطة «**ضباب الحرب**» الاسرائيلية فى جذب انتباه القيادة العامة المصرية جنوبا وبعيدا عن اتجاه العمل الحقيقى فى الشمال ، فضلا عن تخصيص عدد من الطائرات الخفيفة وطائرات الهليكوبتر لاظهار نشاط جوى خداعى فوق منطقة جنوب النقب وعند الحدود المشتركة . ولاشك فى أن هذه التحركات الخداعية الاسرائيلية كانت احد العوامل الهامة التى ادت الى قلب خطة الدفاع المصرية فى سيناء رأسا على عقب وتحويل الحجم الرئيسى للقوات نحو الجنوب على حساب دفاعات القطاعين الشمالى والأوسط حيث وقع الهجوم الاسرائيلى .

●

الفصل السادس

الحرب

كارثة الانسحاب :

عندما وجهت اسرائيل ضربتها الجوية البرية المفاجئة صباح يوم ٥ يونيه ١٩٦٧ .. وخلال الساعات الأولى للحرب ، تم تدمير معظم طائرات قواتنا الجوية وهى رابضة على الأرض فى مطاراتها .. وفى نفس الوقت أكتسحت فرقة مشاة فى منطقة رفح نتيجة لخطأ جسيم ، بدفع هذه الفرقة الى خط الحدود وفى وقت متأخر ، وخارج نطاق خطة العمليات الموضوعة أو أى خطة اخرى معروفة ، دون مهمة محددة أو تحضيرات مسبقة لتأمين دفعها الى منطقة الحدود وحماية وجودها هناك .

لقد أدت هذه الخسائر الجسيمة المفاجئة والمبكرة الى احداث صدمة قوية لدى القيادة العامة للقوات المسلحة وباقى القيادات الميدانية ، خلقت حالة من الشلل وعدم القدرة على التفكير السريع والتصرف السليم الحاسم ، الامر الذى أدى الى حدوث ارتباك شديد فى أسلوب معالجة الموقف بما يتطلبه ذلك من مواجهة حاسمة تحفظ للقوات المسلحة تماسكها .. ومما زاد من شدة الصدمة والارتباك ، ان القوات المسلحة قد فوجئت ببدء الحرب وهى معلقة بين السماء والأرض .. فالوحدات والتشكيلات مبعثرة فوق صحراء سيناء من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب .. دون خطة تربطها أو مهام تؤديها أو تتفق مع الخطط السابق وضعها والتصديق عليها .. ثم ضرب بها عرض الحائط عندما حانت ساعة الجد .

ففى ظل هذه التطورات السريعة والمفاجئة فى أعمال القتال .. جاءت القرارات غير مدروسة وأحيانا متسرعة .. جسدت فى اللحظة الحاسمة وبشكل رهيب كل الأخطاء والتهاونات التى تراكمت خلال الأسابيع الثلاثة التى مضت منذ اتخاذ القرار السياسى .. فتضخمت وتجسدت حتى بلغت ذروة المأساة بصدور أخطر القرارات العسكرية جميعا وأسوأها أثرا وأكثرها

تعبيراً عن حالة التخبط الجسيم التى كانت تعانيها القيادة المصـرية فى هذه اللحظات المصيرية .. واقصد بذلك « قرار الانسحاب الكامل من سيناء » والذى صدر مساء يوم ٦ يونيه ١٩٦٧ .. بعد أقل من ثلاثين ساعة فقط من بدء القتال .

وقد ظنت القيادة العليا المصـرية ـ والتى سبق لها أن اقدمت على تجربة مماثلة فى عام ١٩٥٦ ومرت هذه التجربة بسلام ـ أنها يمكنها أن تكرر نفس التجربة مرة اخرى .. وأن تحقق نفس النتائج .. مع العلم بأن الظروف والملابسات والأوضاع السياسية والعسكرية والاستراتيجية كانت شديدة الاختلاف فى الحالتين .. فلم يكن هناك اى وجه للتشابه بين ظروف عام ١٩٥٦ .. وظروف عام ١٩٦٧ .. خاصة بعد التحول الخطير الذى حدث فى الوضع السياسى نتيجة لما طرأ من تغير هام على التوجه السياسى للولايات المتحدة فى المنطقة خلال سنوات الستينيات حينما اصبحت الولايات المتحدة الأمريكية هى الدولة الحامية لاسرائيل ، والمؤيدة لسياستها تأييداً كاملا وسافراً والقائمة بدعم وتزويد اسرائيل باحتياجاتها العسكرية والالتقاء معها حول هدف معاداة العرب ومحاربة القومية العربية .

وعموما فان الفارق كان كبيراً جداً فى الحالتين .. ولكى نقرب الى ذهن القارىء حجم هذا الفارق الكبير فى الموقفين عامى ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ .. نسترجع ماحدث فى عام ١٩٥٧ حينما اضطرت اسرائيل الى الانسحاب من سيناء مرغمة تحت ضغط الولايات المتحدة والرأى العام العالمى قبل مضى سبعة أشهر فقط على احتلالها .. بينما أمكن لاسرائيل بعد جولة ١٩٦٧ أن تحتفظ بسيناء تحت الاحتلال لمدة خمسة عشر عاما (١٩٦٧ ـ ١٩٨٢) بتأييد كامل من الولايات المتحدة ، بل أنها مازالت حتى يومنا هذا ـ وقد مضى على العدوان أكثر من عشرين عاماً ـ تحتل الضفة الغربية وقطاع غزة ، وهضبة الجولان ، وترفض الجلاء عنها .. ويعلم الله متى ستجلو عن هذه الأراضى العربية .

واذا كان قرار الانسحاب فى حد ذاته يمثل عملا طائشا وخطأ استراتيجيا جسيما ، وقع فى ظروف صعبة ومعقدة لاتحتمل أى خطأ .. فان محاولة تنفيذه دون خطة لتنظيمه والسيطرة عليه ، وخلال فترة زمنية محدودة جداً ، قد ضاعفت من آثار هذا الخطأ التى حولت الانسحاب من فوضى ضاربة الى كارثة محققة .. فلم يكن من المعقول أبداً افتراض أن هذا الحجم الكبير من القوات والذى استغرق حشده فى سيناء ثلاثة أسابيع تقريبا .. يمكن سحبه من الجبهة ، تحت ظروف الاشتباك مع العدو ، الى منطقة القناة خلال فترة تقل عن ٢٤ ساعة ، باستخدام ثلاثة طرق رئيسية مكشوفه ، تمر اجزاء منها داخل مضايق جبلية تحد من حرية حركة القوات وتضعها فى مصيدة التدمير .. ولم تتعظ القيادة من تجربة قاسية سابقة فى مضيق متلا اثناء عدوان عام ١٩٥٦ عندما اضطرت القوات القادمة من السويس للقيام بقفل الممر ، الى التحرك داخله فى وضح النهار ، فتعرض معظمها للدمار عندما فاجأتها الطائرات المعادية وهاجمتها داخل الممر .

إن صدور قرار الانسحاب ، بينما القسم الأكبر من التشكيلات البرية كان مازال سليما تماما ـ أكثر من فرقتى مشأة وفرقة مدرعة ـ وموجودا فى مواقع تحميه على الأقل من التعرض لضربات العدو الجوية وتمكنه من الدفاع عن وجوده ، بل كان من الممكن بعد اجراء بعض التعديلات المحددة والضرورية استخدام هذه القوات الكبيرة من المشاة فى احتلال خط المضايق ووقف تقدم القوات المهاجمة .. ولكن امعانا فى الخطأ رأت القيادة ان تستخدم الفرقة المدرعة فى هذه المهمة التى لاتناسبها فتعرضها للدمار دون مبرر مقبول .. **من ناحية اخرى فلم يثبت إن كانت القيادة السياسية قد وافقت على قرار الانسحاب أو انه عرض عليها أصلا !! ورغم ذلك فاننا نقول ان قرارا على هذا المستوى من الأهمية الاستراتيجية وما له من نتائج سياسية بعيدة الأثر .. يعد قرارا سياسيا استراتيجيا بالدرجة الأولى ، فهو لم يكن يعنى مجرد انسحاب القوات من ميدان القتال ولكنه فى الواقع كان يعنى تخلى الدولة عن الاستمرار فى الحرب وقبولها لهزيمة عسكرية .**

من ناحية أخرى .. لم يستشر احد من اعضاء القيادة العامة وضباط العمليات قبل صدور أمر الانسحاب .. بل أنه صدر رأسا الى جميع التشكيلات والوحدات فى وقت واحد تقريبا ، دون أى دراسة لأوضاع القوات سواء تلك التى على اتصال بالعدو ، أو القوات التى ليست على اتصال معه ، ودون وضع خطة لتنظيم الانسحاب وتوفير الدفاعات التعطيلية الكافية اللازمة لتأمين هذا الانسحاب قبل تنفيذه وليس اثناء تنفيذه .. وذلك حتى يتم انسحاب القوات تحت ستر الوحدات المدافعة التى تحميها وتؤمنها .. وتقوم فى نفس الوقت بوقف تقدم القوات المهاجمة لأطول فترة ممكنة .

★ ★ ★

وفى الواقع فان الوضع فى القيادة العامة عندما صدر أمر الانسحاب من نائب القائد الأعلى ، كان مخالفا لذلك تماما ، حيث كان ضباط العمليات مازالوا يعولون على العودة السريعة الى خطة الدفاع الأساسية ولو جزئيا ، والتى تقبل الاختراق ثم تشن معركتها الرئيسية فى عمق سيناء وتوجه ضربة مضادة للقوات الاسرائيلية لوقف هجومها فى منطقة وسط سيناء كحد أدنى .

ولكن صدور القرار على هذه الصورة وبهذا الأسلوب العشوائى ..لم يترك مجالا لأى تصرف يمكن ان يؤدى الى انقاذ الموقف قبل تدهوره ، أو يسمح بتنظيم الدفاعات فى وسط وعمق سيناء نتيجة لخروج كل القوات من معاقلها الدفاعية فى وقت واحد واندفاعها من الخطوط الأمامية تجاه الغرب نحو قناة السويس .. فضلا عن استحالة تحريك اى قوات اخرى مكلفة بتنفيذ اى أعمال دفاعية أو تعطيلية على نفس الطرق المستخدمة فى عملية انسحاب .. ولم يكن هذا يعنى ضياع كل سيناء فحسب ، بل وفى نفس الوقت تعرض القسم الأكبر من القوات المنسحبة للدمار .

وحينما سارعت مجموعة من ضباط القيادة العامة والعمليات لمحاولة تعديل او وقف تنفيذ هذا القرار ، ونجحت بعد جهد فى اقناع نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة بأن أمر الانسحاب يمكن أن يتحول إلى كارثة ، ووافق على وقف تنفيذ الأمر ليلة ٦/٧ يونيه .. كان الوقت قد فات وسبق السيف العزل .. حيث كانت معظم الاتصالات مع التشكيلات والوحدات قد قطعت وبدأت جميعها التحرك غربا نحو القناة .. عارية من أى نوع من الحماية فيما عدا ظلام الليل ، معرضة للضرب الجوى المركز فوق أرض سيناء المكشوفة عندما تشرق شمس النهار ، مع انعدام وسائل الدفاع الجوى الفعالة ، من عدو يمتلك التفوق الجوى الكامل ويعتمد اعتمادا اساسيا على قواته الجوية .. من هنا كان قرار الانسحاب مناقضا للموقف العام فى الجبهة بصفة عامة وللموقف الجوى بصفة خاصة ، وكانت النتيجة ان تحول الانسحاب الى فوضى كاملة وأن تعرضت القوات المنسحبة لمذبحة جوية .

قصة الفرقة الرابعة المدرعة :

لقد اخترت الفرقة الرابعة المدرعة كنموذج يعكس أبعاد الأحداث التى شاهدها مسرح العمليات فى الفترة من منتصف مايو ١٩٦٧ لسببين : الأول لكون الفرقة الرابعة تعتبر بأحداثها نموذجا صارخا يجمع كل متناقضات النكسة ومعظم أخطائها .. ويوضح فى نفس الوقت ما اتسمت به القرارات من سوء فى استخدام القوات وما ساد هذا الاستخدام من ارتباك شديد بلغ حد الفوضى .. أما السبب الثانى فهو أننى ـ شخصيا ـ قد عايشت أحداث الفرقة الرابعة المدرعة وكنت فى خضم هذه الأحداث باعتبارى أحد ضباط هذه الفرقة فى ذلك الوقت ، حيث كنت رئيسا لاركان اللواء الثالث المدرع .

اننا اذا عدنا الى مرحلة حشد قواتنا فى سيناء فسنجد أن القيادة العليا ـ وقد غمرها الحماس الزائد للمظاهرة العسكرية الضخمة التى مارستها ـ أرسلت بين ما أرسلت الى سيناء العديد من الوحدات من الاحتياطيات المحتفظ بها تحت يدها فى المناطق الواقعة غرب قناة السويس وفى القاهرة الى سيناء .. وكان من بينها وحدات وتشكيلات لم تكن أصلا مشتركة فى خطة الدفاع عن سيناء .. ومع ذلك كان قرار دفع الفرقة الرابعة المدرعة من منطقة انتشارها شرق القاهرة على الطريق الصحراوى القاهرة ـ الاسماعيلية الى سيناء يوم ٢٣ مايو ١٩٦٧ وهو نفس اليوم الذى أعلنت فيه مصر رسميا قفل خليج العقبة أمام الملاحة الاسرائيلية .. كان مثارا لدهشة شديدة بين قيادات القوات المسلحة ومفاجأة مزدوجة لم يتوقعها أحد .. أولا لأنها كانت تعكس اصراراً على الوصول بحالة التوتر الشديد السائدة الى ذروتها وبالتالى أصبح انفجار الموقف وتحوله الى حرب حقيقية ضارية أمراً متوقعا فى أى لحظة .. وثانيا لان الفرقة المدرعة كانت تمثل وقتئذ الاحتياطى الاستراتيجى الوحيد على مستوى الدولة .. وكان من المفروض الا يتعرض هذا

الاحتياطى الاستراتيجى العام لأى نوع من التورط المبكر فى هذه اللعبة السياسية الخطرة والمظاهرة العسكرية الخادعة .

★ ★ ★

وتحركت الفرقة المدرعة فوق جنازير دباباتها ـ دون استخدام الناقلات الخاصة بنقل الدبابات ـ من القاهرة الى وسط سيناء لمسافة تراوحت بين مائتى وخمسين كيلومترا وثلاثمائة كيلومتر حيث انتشرت وحدات الفرقة على الطريق العرضى بين منطقتى بير تمادا والجفجافة ويبلغ طوله حوالى ٤٥ كيلومترا .. وظلت الفرقة منتشرة فى هذه المنطقة ـ وهى ليست المنطقة السابق تحديدها للفرقة فى خطة العمليات الدفاعية الموضوعة ـ منذ وصولها يوم ٢٤ مايو حتى اشتعال القتال صباح ٥ يونيه ١٩٦٧ .. دون أن تتلقى وحداتها مهام محددة أو تعليمات تتعلق بواجباتها المنتظرة .

وعندما بدأ القتال يوم ٥ يونيه جاءت المفاجأة الأولى عندما صدرت التعليمات للواء الثانى المدرع الموجود فى بير تمادا بالتحرك شرقا الى منطقة المطلة فى القطاع الجنوبى من جبهة سيناء الشمالية .. وهو القطاع الذى جذب قسما كبيرا من قوات الجبهة المصـرية نتيجة لخطة الأعمال الخداعية التى نفذتها اسرائيل قبل ٥ يونيه .. وتحرك اللواء تحت قيادة « العميد » كمال حسن على بمهمة احتلال خط المطلة الذى أطلق عليه وقتئذ « **خط الستارة المضادة للدبابات** » بغرض صد هجوم متوقع لقوات العدو المدرعة يأتى من هذا الاتجاه وهو الهجوم الذى لم يحدث أبداً .. وفى مساء نفس يوم ٥ يونيه صدرت التعليمات للواء الثالث المدرع الموجود فى منطقة الجفجافة بالتحرك ليلا الى منطقة بيرتمادا ليحل محل اللواء الثانى الذى توجه الى المطلة ، ولم تحدد لهذا اللواء أى مهمة يمكن أن ينفذها من موقعه الجديد .

★ ★ ★

وعندما اتضح الاتجاه الرئيسى للهجوم الاسرائيلى فى سيناء مساء يوم ٥ يونيه وصباح يوم ٦ يونيه وهو الاتجاه الذى سحبت منه القوات من الشمال والوسط فى اليوم السابق لتحشد جنوبا ، أضطرت القيادة الى اصدار أوامر للواء الثانى المدرع بالتحرك فى وضح النهار يوم ٦ يونيه للخلف الى منطقة مضيق الجدى ، مما عرض اللواء لضرب جوى وخسائر كبيرة أثناء تحركه . وهكذا منذ بداية العمليات تعرضت وحدات الفرقة المدرعة لتعليمات وتحركات مبكرة أفقدتها تماسكها وقدرتها على العمل الحاسم .

والغريب فى الأمر أنه عند صدور قرار الانسحاب مساء يوم ٦ يونيه ١٩٦٧ ، كلفت الفرقة الرابعة بمفردها بمهمة الدفاع عن المضايق الثلاثة ممر متلا ومضيق الجدى ومضيق الختمية . والمضايق الثلاثة منفصلة تماما عن بعضها وتمتد على مسافة حوالى ٨٠ كيلومترا . ولم يخطر على بال القيادة تكليف بعض وحدات

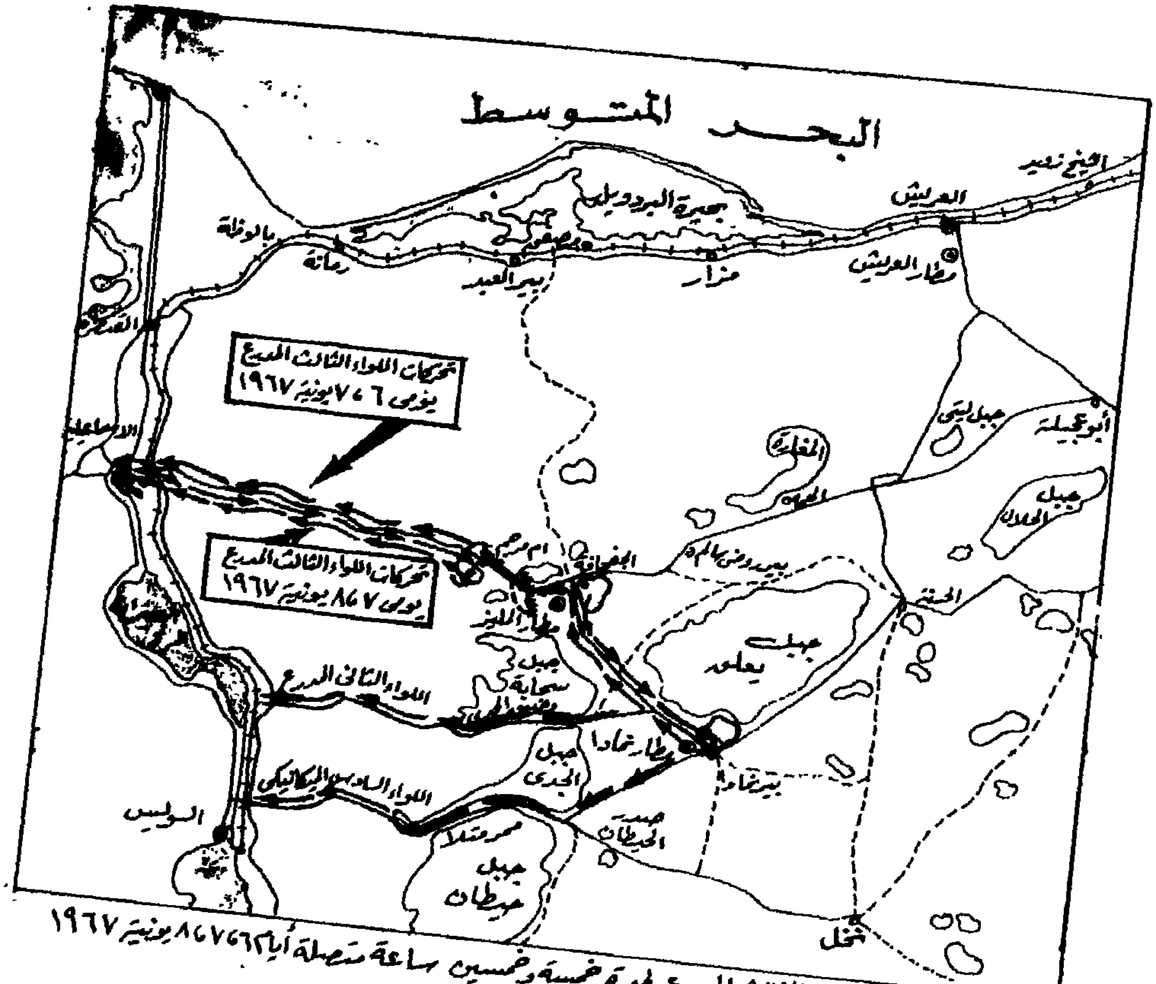

تحركات اللواء الثالث المدرع لمدة خمسة وخمسين ساعة متصلة أيام ٦ و٧ و٨ يونيه ١٩٦٧

المشاه بهذه المهمة وكانت هناك وحدات وتشكيلات منها فى سيناء سليمة لم تمس خاصة تلك التى حشدت فى القطاع الجنوبى من الجبهة . فلم تكن الفرقة المدرعة بالقطع هى أنسب التشكيلات البرية للقيام بهذه المهمة ذات الطبيعة الخاصة ، فمن المعروف ان القتال فى الممرات الجبلية لايناسب الدبابات ويضعها فى مصيدة تعرضها للتدمير . كما لم يكن من الحكمة فى مثل هذا الموقف الدقيق ان نلقى فى أتون المعركة بالتشكيل المدرع الرئيسى والوحيد ، ونكلفه بمهمة دفاعية ونضع كل دباباته فى مصيدة الابادة داخل ممرات ضيقة لايزيد عرضها عن عشرات الأمتار .. علما بأن هذه المهمة لم تكن اصلا من المهام المحددة للفرقة او التى سبق ان كلفت بمثلها من قبل .

مرة أخرى لم تع القيادة العامة أو تتذكر درس معركة ممر متلا فى عام ١٩٥٦ ، تلك المعركة الرائعة التى ادارتها عناصر محدودة من وحدات المشاة ، حيث تمكنت ثلاث سرايا مشاه مجردة من الأسلحة الثقيلة من صد ووقف تقدم لواء المظلات الاسرائيلى ٢٠٢ المدعم بالدبابات والمدفعية تعاونه الطائرات ، ويقوده أرييل شارون رجل المهام الدموية ـ كما يعتبرونه فى اسرائيل . ورغم ذلك أمكن لهذه العناصر المصرية المحدودة وبأسلحتها الخفيفة أن تصد ثلاث هجمات متعاقبة شنها هذا اللواء لاقتحام ممر متلا وأوقعت به أفدح خسائر تحملتها وحدة من الجيش الاسرائيلى فى حرب ١٩٥٦ .. واعترف الاسرائيليون بأن هذه المعركة كانت اقسى واشرس معارك هذه الحرب .. حيث استمر القتال ضاريا ومريرا ومتصلا لمدة تقرب من اثنتى عشرة ساعة دون اى نجاح يذكر تحققه قوات اسرائيل واضطرت هذه القوات ـ بعد معارك وصلت لحد القتال بالسلاح الأبيض ـ الى أن توقف هجومها وتقف لاهثة وقد تقطعت انفاسها امام هذه العناصر المصرية .. بل انها لم تجرؤ على دخول ممر متلا سوى بعد مرور ٣٦ ساعة على توقف القتال . وبعد ارسال عناصر الاستطلاع الاسرائيلية للتأكد من خلو الممر تماما من القوات المصرية التى كانت قد انسحبت بعد أن توقف القتال تنفيذا لأوامر الانسحاب التى أصدرتها القيادة العامة وقتئذ لمواجهة العدوان البريطانى الفرنسى الوشيك .

كان الاستخدام الأمثل للفرقة المدرعة هو قيامها بضربات مضادة ضد القوات المهاجمة بعد وقف تقدمها بوحدات المشاة .. أما استخدام الفرقة المدرعة فى هذه المهمة الدفاعية مع غياب عنصر الدعم الجوى والحماية الجوية الضرورية لحماية الدبابات من الهجمات الجوية .. وفى وقت كانت الفرقة المدرعة هى الهدف الثمين الذى ظلت القوات الجوية الاسرائيلية تبحث عنه طوال يومى ٥ ، ٦ يونيه .. فهو عمل انتحاري منذ البداية .. كما كان اعادة دفع الفرقة الى سيناء مرة اخرى يوم ٧ يونيه عملا يتسم بانعدام الشعور بالمسئولية .. أتاح للطائرات الاسرائيلية فرصة الانفراد بالفرقة فى المسرح المكشوف والانقضاض عليها يومى ٧ ، ٨ يونيه ، فعرضنا بذلك الورقة الأخيرة فى يد القيادة المصرية للدمار . ولم نمكنها من تحقيق

اى مهام حاسمة تتناسب مع قدراتها وكشفنا دفاعاتنا غرب القناة . ولعل فى قصة اللواء الثالث المدرع ـ أحد ألوية الفرقة ـ التى سأرويها باختصار خير دليل على ماذكرت .

★ ★ ★

يسمح لى القارىء أن اروى باختصار شديد تجربتى الذاتية فى حرب ١٩٦٧ . من خلال قصة اللواء الثالث المدرع الذى كنت رئيسا لأركانه فى هذه الحرب .. كنموذج أو كمثال لما واجهته التشكيلات والوحدات البرية فى الجبهة بصفة عامة ولما واجهته الوحدات المدرعة خاصة وما عانته من اضطراب القيادات وتخبطها . فقد تحرك اللواء الثالث المدرع الى سيناء مساء يوم ٢٣ مايو ١٩٦٧ ضمن الفرقة الرابعة . ووصل صباح اليوم التالى الى المنطقة التى حددت لتمركزه وهى منطقة الجفجافة على مسافة ١٠٠ كيلومتر على طريق الاسماعيلية ـ ابو عجيلة . وكانت الملحوظة الأولى ان اللواء لم يتمركز فى المنطقة المحددة له وفقا لخطة العمليات «قاهر» والتى شاركت شخصيا فى وضعها حينما كنت نائبا لرئيس التخطيط فى هيئة العمليات فى الفترة من مارس ٦٤ الى مارس ١٩٦٧ .

ومنذ وصول اللواء الى منطقة الجفجافة حتى قيام الحرب صباح ٥ يونيه ، لم يكلف اللواء بأى مهمة قتالية محددة وانحصر نشاطه قبل ٥ يونيه فى القيام ببعض اعمال الاستطلاع فى عدة محاور واتجاهات مختلفة . فى صباح ٥ يونيه اشتبكت عناصر اللواء المضادة للطائرات بطائرات العدو التى كانت تهاجم مطار المليز المجاور لمنطقة اللواء . وتعرض اللواء فى هذا اليوم للغارات الجوية نتيجة لذلك . وفى مساء نفس اليوم تحرك اللواء من الجفجافة الى بيرتمادا ليحل محل اللواء الثانى المدرع الذى تحرك من بير تمادا الى منطقة المطلة كما سبق القول (وكان هذا اللواء تحت قيادة العميد ـ فى ذلك الوقت ـ كمال حسن على وقد سبق أن روى قصته فى كتابه «محاربون ومفاوضون») . وتمركز اللواء الثالث فى بير تمادا دون أن يكلف بأى مهمة عمليات واستمر هذا الوضع الى ان صدرت اوامر الانسحاب مساء يوم ٦ يونيو ١٩٦٧ .

نصت أوامر انسحاب اللواء التى تعدلت أكثر من مرة على الانسحاب الى الأسماعيلية باستخدام الطريق الاوسط ، على أن يتوقف اللواء على الطريق عند مضيق أم مرجم للقيام بمهمة القتال التعطيلى حتى الساعة الثانية عشرة ظهر يوم ٧ يونيو . ثم يواصل انسحابه الى الاسماعيلية .. وقد تلقى اللواء هذه المهمة الاخيرة بعد أن بدأ تحركه فعلا وقطعت الاتصالات اللاسلكية بين وحداته .

★ ★ ★

ومع شروق شمس يوم ٧ يونيه بدات الطائرات الاسرائيلية تبحث عن صيدها الثمين المتحرك فوق الطرق المكشوفة المكدسة بالقوات والمعدات

والاسلحة ، وتوالت الغارات الجوية الكثيفة ، تتعامل مع هذه الحشود الهائلة المتحركة فوق عدد محدود جدا من الطريق بشكل جعل من مهمة الطائرات الاسرائيلية رحلة تدريبية حيث كانت تمتلك السيادة الجوية ، بينما الأهداف مكدسة على الطرق تدعوها لوليمة دسمة ، مما أدى الى جسامة الخسائر التى تعرضت لها القوات فى هذا اليوم سواء فى المعدات أو الأرواح الأمر الذى حول الانسحاب الى كارثة . كما ادى الى عدم قدرة اللواء على تنفيذ المهمة المكلف بها حيث كانت الوحدات المنسحبة والقادمة من الخطوط الامامية تكتسح أمامها كل شىء .

ووصل اللواء الى مدينة الاسماعيلية . وبينما هو يلملم وحداته ويجمع شتاته ويحصى خسائره ظهر يوم ٧ يونيه ، واستكمالا للنموذج الفريد الذى كانت تدار به الحرب ، استدعى قائد الجبهة الشرقية قائد اللواء وقابله بثورة عارمة منكرا صدور اى أوامر بالانسحاب ـ وهذا لم يكن حقيقيا ـ وأمره بالعودة مع لوائه الى سيناء فورا رغم كل الظروف ورغم المذبحة التى كانت دائرة فى ذلك الوقت على صفحة الصحراء . إن هذا التخبط فى التعليمات والأوامر كان يزيد الموقف سوءا . وعودة اللواء الى سيناء فى ظل هذه الظروف كان عملا انتحاريا لامبرر له . ولم يكن الهدف من إعادة اللواء الى سيناء هو وقف تقدم العدو لاستحالة تنفيذ هذه المهمة من الناحية العملية ومع وجود سيطرة جوية كاملة للعدو فوق سيناء .. ولكنه كان اساسا من أجل تغطية موقف قيادة الجبهة الشرقية التى فشلت فى تنفيذ الأوامر التى صدرت بوقف الانسحاب ، بعد أن قطعت صلتها بكل الوحدات وتركت الجبهة وعادت الى مقرها فى الاسماعيلية بعد غروب شمس يوم ٦ يونيه .

فقد شاهدت ليلة ٦/٧ يونيه صراعا عنيفا مصحوبا بارتباك شديد سواء فى القيادة العامة بالقاهرة او فى القيادة الشرقية التى انسحبت من سيناء بعد اصدار اوامر الانسحاب العشوائية وتركت قواتها لمصيرها المحتوم . لذلك عندما صدرت الأوامر بوقف انسحاب الفرقة الرابعة خشيت القيادة الشرقية ابلاغ القيادة العامة بحقيقة الموقف .. وبأنها لم تتمكن من السيطرة على تحركات القوات أو توصيل اى اوامر جديدة اليها سوى الأوامر الصريحة الخاصة بالانسحاب الكامل الى غرب القناة . وكان معنى اصدار التعليمات للفرقة الرابعة المدرعة بالتوقف فى المضايق حتى ظهر يوم ٧ يونيه فقط ، أن القيادة قدرت المدة اللازمة لاخلاء سيناء من هذا الحجم الهائل من القوات تحت ضغط اعمال القتال ، بعشرين ساعة فقط ، وهى القوات التى تم حشدها فى سيناء دون تدخل من العدو خلال عشرين يوما .. فكيف يمكن أن يحدث ذلك وهناك استحالة عملية لتنفيذه؟ وماذا ينتظر أن يحدث لهذه القوات فى ظل التعليمات سوى ان يتحول الانسحاب حتما الى تقهقر غير منظم واندحار لقوات لم تحارب ، ولكن دفعتها قياداتها دفعا للتعرض لهذه المذبحة الجوية البشعة .

وهكذا ارادت القيادة الشرقية ان تغطي موقفها فاضطرت الى دفع كل وحدات الفرقة الرابعة الى سيناء مرة اخرى بغض النظر عن اى نتائج . وهى تعلم تماما أن السيطرة الجوية الكاملة كانت للقوات الجوية المعادية .. كما تعلم مدى ما تتعرض له القوات المنسحبة من خسائر جسيمة على أرض سيناء والتى تتحرك كالسيل الجارف فى اتجاه عكسى للوحدات العائدة الى سيناء مرة أخرى !! ولذلك لم يتمكن اللواء الثالث من التحرك داخل سيناء سوى قبل غروب يوم ٧ يونيه وبعد ان بدأ إندفاع القوات المنسحبة غربا يهدأ نوعا .

استعد اللواء لتنفيذ مهمته الانتحارية وانحصرت طلباته فى امرين . الأول توفير بعض الحماية الجوية لتحركه شرقا حتى اخر ضوء يوم ٧ ، حيث لم يكن بحوزة اللواء وسائل دفاع جوى فعالة . وكان المطلب الثانى الهام هو توفير جهاز لاسلكى لتحقيق اتصال مباشر بين اللواء والقيادة الشرقية ، حيث كان اللواء منفصلا عن الفرقة الرابعة التى انتشرت جنوبا بين ممر متلا ومضيق الجدى . وقد وعد رئيس اركان المنطقة الشرقية وعدا قاطعا بتلبية المطلبين عندما يبدأ تحرك اللواء .

وتحرك اللواء شرقا عبر القناة دون أن يتحقق اى من المطلبين ، فلم توفر له القيادة الشرقية اى نوع من الاتصال حتى نهاية الحرب . كما لم تظلل اللواء اى طائرة تحميه من تدخل طائرات العدو .. ورغم ذلك اندفع اللواء الى قلب سيناء مرة أخرى .. بعد ان ظل متحركا لمدة ١٦ ساعة متصلة ، عاد يتحرك مرة أخرى من بعد ظهر يوم ٧ يونيه وطوال ليلة ٧/٨ يونيه على الطريق الأوسط متجها نحو منطقة مضيق أم مرجم وتحسبا لما كان ينتظر اللواء من ضرب جوى كثيف ترك اللواء فى الاسماعيلية كل مركباته الخفيفة وعرباته غير المدرعة حتى لاتتعرض للتدمير .

وقبيل فجر يوم ٨ يونيه كان اللواء قد قطع ٦٥ كيلومترا على الطريق شرقا دون أن يصطدم بقوات العدو .. ومع الفجر حدث أول تصادم بين العناصر الامامية للواء وقوة اسرائيلية مدرعة مكونة من كتيبة دبابات من لواء مدرع كان يقوده كولونيل مناحم افيرام التابع للفرقة المدرعة الاسرائيلية التى يقودها اسرائيل تال ـ وكانت الكتيبة تحتل موقعا دفاعيا يسد طريق التقدم . واشتبكت العناصر الامامية للواء مع كتيبة الدبابات المعادية . وتم تدمير ثلاث دبابات وثمانى مركبات مدرعة اسرائيلية (وفقا للمصادر الاسرائيلية) مما أجبر القوة الاسرائيلية على الانسحاب السريع تجاه الشرق وقطع اتصالها بقواته المتقدمة . وبعد هذا الاشتباك بدأ اللواء يستعد للدخول فى معركة رئيسية متوقعة فى الصباح .

وحدث ماتوقعناه فعلا ، فما إن ظهر ضوء النهار حتى بدأت الطائرات الاسرائيلية تنقض على العناصر الأمامية للواء فى غارة جوية مبكرة استهدفت اساسا تدمير الوسائل والأسلحة المضادة للطائرات المصاحبة للواء . وتمكنت فعلا من تدمير أو إصابة معظمها حيث هوجم كل مدفع مضاد للطائرات بطائرتين اسرائيليتين فى وقت واحد .. واحدة من أمامه والأخرى من خلفه .. كما اصيب

عدد محدود من الدبابات .. وأعقب هذه الغارة مباشرة قصف كثيف من المدفعية الثقيلة الاسرائيلية . وكان هذا القصف ايذانا باقتراب لوائنا من القوات الاسرائيلية الرئيسية . واستعدت الكتائب الأمامية لهذه المواجهة المتوقعة .

كانت القوات الاسرائيلية المهاجمة مكونة من لواءين مدرعين تحت قيادة كل من كولونيل جونين وكولونيل افيرايم .. واحتل اللواء الثالث فورا مواقع لصد هذا الجوم واشتبك مع دبابات العدو المتقدمة وتمكن من وقفها بعد أن دمر عددا منها واضطرها للانسحاب خلف ستارة كثيفة من الدخان .. وسرعان ماعادت الطائرات مرة أخرى لتمتلك ناصية الجو وتقصف قواتنا من جديد . ثم اعقب ذلك تمهيد بالمدفعية للهجوم الثانى . وفى هذه المرة حاولت القوات الاسرائيلية القيام بحركة تطويق للجانب الايسر للواء .. وللمرة الثانية . ينجح اللواء فى احباط الهجوم الاسرائيلى والتصدى لحركة الالتفاف وافشالها بعد تدمير أو إصابة عدد آخر من الدبابات . واضطرت القوات الاسرائيلية الى الانسحاب للمرة الثانية خلف ستارة الدخان الكثيفة ، وكان ذلك حوالى الساعة السابعة صباح يوم ٨ يونيه .

ومنذ هذه اللحظة لم تظهر فى الأفق اى قوات برية اسرائيلية .. فقد قرر قائد الجبهة جنرال جافيتس أن يستفيد لاقصى حد من سيطرة قواته الجوية على سماء سيناء وألا يعرض قواته البرية لمزيد من الخسائر وأن يترك مهمة تدمير اللواء الثالث المدرع للطائرات الاسرائيلية . وكان هذا هو الأسلوب الذى فضلته القيادة الاسرائيلية فى التعامل مع قواتنا البرية التى تبدى مقاومة وعنادا فى الدفاع والمحرومة من أى حماية جوية ، وبذلك تحقق افضل النتائج بأقل الخسائر أو بدونها .

وفى هذا اليوم ركزت اسرائيل المجهود الرئيسى لقواتها الجوية ضد المحور الأوسط بمهمة وقف تقدم اللواء الثالث المدرع وتدميره على الطريق المكشوف باعتباره كان يمثل اخطر التهديدات الموجهة للقوات الاسرائيلية فى سيناء فى هذا اليوم . وقد استمرت الغارات الجوية على اللواء اثنتى عشرة ساعة متصلة من السابعة صباحا حتى غروب الشمس فى السابعة مساء يوم ٨ يونيه ..تعرض اللواء خلالها لخسائر جسيمة فى الدبابات والأرواح خاصة وان الطائرات كان لها الحرية المطلقة فى استخدام اسلحة الدمار التى تحملها من صواريخ جو/أرض وقنابل شديدة الانفجار .. الى مستودعات النابالم الحارقة والرشاشات الثقيلة .. بينما لم يكن اللواء يمتلك اى اسلحة مضادة للطائرات .. ولم تكن الدبابات ت ٥٤ و ت ٥٥ تحمل فى ذلك الوقت الرشاشات المضادة للطائرات .

وهكذا تحولت دبابات اللواء فوق الأرض المنبسطة الى اهداف ممتازة للطيارين الذين استخدموا اسلحتهم بحرية ضد اهداف من المؤكد اصابتها . واستمرت ساعات النهار تمر ببطء واللواء صامد رغم الخسائر المستمرة .. أما القيادة فى

الاسماعيلية فلم تكن تعلم شيئا عن اللواء منذ غادر الاسماعيلية بعد ظهر اليوم السابق . ولم ترسل جهاز الاتصال او تحاول متابعة موقف اللواء باى وسيلة . مما اضطر قائد اللواء (المرحوم العميد امين ماهر) . الى ارسال اكثر من ضابط اتصال لابلاغ الموقف والعودة بالتعليمات .

وبدأت معدات اللواء تتناقص بشكل رهيب والخسائر بين القادة والضباط والجنود تتزايد واضطر اللواء الى الانسحاب ببطء تحت ضغط العدو الجوى وتحت وطأة الخسائر تجاه الاسماعيلية .. وكان بعد مضى ٢٤ ساعة على تحركه مازال على مسافة ٥٠ كيلومترا من القناة .. كما انه فى نهاية اليوم كان قد انسحب مسافة ٣٠ كيلومترا خلال اثنتى عشرة ساعة .. **وعندما وصله احد ضباط الاتصال من القيادة العامة يحمل اوامر الانسحاب الى غرب القناة ، كانت الساعة قد بلغت العاشرة ليلة ٨ / ٩ يونية وكان اللواء قد توقف بعد آخر ضوء على مسافة ٣٥ كيلو مترا من القناة واحتل ببقاياه موقعا دفاعيا فى انتظار أى اوامر تصله . أما خسائره فى الدبابات فقد بلغت حوالى ٧٥ ٪ وعندما عبرت آخر عناصر اللواء قناة السويس الى الضفة الغربية عند الاسماعيلية كانت الساعة تشير الى الواحدة صباح يوم الجمعة ٩ يونيه ١٩٦٧ وكان الكوبرى العسكرى بالاسماعيلية ـ الكوبرى الذى عبر عليه اللواء ـ هو آخر الكبارى التى نسفت بعد إتمام الانسحاب . وعندما عادت بقايا اللواء الى الضفة الغربية للقناة فى هذه الليلة كان اللواء الثالث قد امضى خمسا وخمسين ساعة كاملة ومتصلة أما متحركا على الطرق أو مشتبكا فى قتال أو معرضا لهجوم جوى .**

★ ★ ★

وقبل أن أختتم حديثى عن اللواء الثالث المدرع والفرقة الرابعة المدرعة هناك واقعة اجد من واجبى ان أرويها للتاريخ ولتأكيد ظواهر معينة اتسم بها اسلوب القيادة فى هذه الحرب وكانت دون شك أحد اسباب النكسة ضمن اسباب كثيرة اخرى تعرضنا لها من قبل . واذا كانت الوقائع التى ذكرتها قد أوضحت بشكل صارخ كيف اديرت الحرب ، فإننى هنا أؤكد أن الفوضى التى أصابت جبهة القتال كانت انعكاسا طبيعيا لفوضى القرارات والارتجال والخوف من تحمل المسئولية .

★ ★ ★

فعندما ساءت أحوال اللواء الثالث بعد ظهر يوم ٨ يونيه دون وجود أى إتصال مع قيادة الفرقة الرابعة أو مع قيادة الجبهة رغم مضى ٢٤ ساعة على مغادرة اللواء للاسماعيلية دون أن يعرف احد موقفه او يتلقى اى دعم او تعليمات .. اضطر قائد اللواء فى الساعة الرابعة بعد ظهر يوم ٨ يونيه الى تكليفى بالتوجه الى قيادة الجبهة فى الاسماعيلية لاطلاعها على حقيقة الموقف كاملا ومفصلا وابلاغها بحجم الخسائر حتى ذلك الوقت ومعرفة آخر التعليمات والأوامر .

وبعد رحلة شاقة ومناورات مع طائرات العدو التى كانت تملأ السماء .. وصلت الى معسكر الجلاء فى الاسماعيلية وتوجهت فورا الى مكتب قائد القيادة الشرقية .. ووجدت داخل غرفة المكتب عددا كبيرا من كبار قادة القوات المسلحة . حيث وقفت أمام خريطة صغيرة معلقة على الحائط اشرح لهم موقف اللواء الثالث المدرع والأحداث التى مر بها وواجهها طوال الأربع والعشرين ساعة الماضية وخسائره التى بلغت حوالى ٦٠ ٪ من دباباته عند مغادرتى لميدان القتال دمرتها صواريخ الطائرات أو أحرقتها مستودعات النابالم . والغريب اننى لاحظت ان الموقف الذى شرحته كان مفاجأة تامة لكبار الضباط رغم وصول أكثر من ضابط اتصال يحمل تفاصيل الموقف قبل وصولى بساعات .

وما أن انتهيت من إبلاغ تقريرى عن الموقف حتى دق جرس التليفون وفهمت أن المتحدث هو المشير عبدالحكيم عامر يتحدث من القاهرة ويسأل عن آخر معلومات عن الموقف . وفى هذه اللحظة حدث شىء غريب كان آخر ما اتوقعه فقد أحجم جميع كبار الضباط من رتبتى الفريق واللواء عن تحمل مسئولية ابلاغ المشير بالموقف المتدهور . واشار الى احدهم – وكنت برتبة عقيد فى ذلك الوقت – ان اتحدث انا الى المشير وابلغه بموقف اللواء . وقد كان . وابلغت المشير فى التليفون بنفس التقرير الذى ذكرته من قبل . وبعد ان استفسر عن بعض المعلومات الاضافية طلب أن يتحدث لأحد كبار القادة . ولكن حدث أثناء حديثى معه ان دخل الغرفة قائد الفرقة الرابعة المدرعة اللواء صدقى الغول قادما من سيناء .. وما ان انهيت حديثى حتى كلفونى مرة أخرى بابلاغ المشير عامر بأن قائد الفرقة الرابعة قد وصل وسوف يبلغه بموقف الفرقة وقد حدث ذلك فعلا . بعد هذه المحادثات التليفونية وفى هذه اللحظة اصدر المشير عامر اوامره الأخيرة لقائد الجبهة بسحب باقى القوات من سيناء والتحول للدفاع غرب قناة السويس . وكانت الساعة تشير فى ذلك الوقت الى السادسة مساء الخميس ٨ يونيه ١٩٦٧ .

لعل فى هذه القصة التى عشتها دليلا واضحا على طبيعة العلاقة بين كبار قادة القوات المسلحة فى ذلك الوقت ونائب القائد الاعلى وتحاشيهم لمواجهته بالحقائق الصعبة والمواقف السيئة .. كما تبين كيف كانت القرارات تتخذ ؟ أن قصة اللواء الثالث المدرع هى مثال لما تعرضت له وحدات الفرقة الرابعة المدرعة وغيرها من الوحدات وماتحمله رجال هذه الوحدات من معاناة وشقاء .. حتى قائد الفرقة اللواء صدقى عوض الغول ذهب كبش فداء لأخطاء الآخرين فقدم للمحكمة العسكرية .

★ ★ ★

قبل أن انهى قصة الفرقة الرابعة المدرعة اشعر أنه من واجبى هنا أن أشير الى بعض العبارات التى كثر ترديدها من كتاب مصريين .. فى مجال نقدهم الموجه الى القيادة السياسية والعسكرية المصرية ابان النكسة ، وماذكر من مبالغات لفظية فى

سرد الأحداث وتلوين الصورة ، قد تخرج احيانا عن إطار الحقيقة وتسىء الى القوات المسلحة ربما عن غير قصد . ففى خضم الاتجاه الجامح نحو النقد قد يتطاير بعض الشرر الذى اخشى ان يصيب كرامة الجندية المصرية .. ويتناثر رذاذ النكسة فيكاد يشوه الصفحات الناصعة للقوات المسلحة وتشكيلاتها المقاتلة ورجالها الذين تحملوا اعباء النكسة ظلما الى أن أمدهم الله بنصر من عنده .

لقد وصف الاسرائيليون حرب ١٩٦٧ بانها «حرب الأيام الستة » أما نحن فقد كنا ملكيين أكثر من الملك ، فوصفناها بأنها استمرت «نظريا» أربعة أيام إلا أنها عمليا لم تستمر سوى بضع ساعات . وهو قول فيه ظلم كبير .. كما أن فيه مبالغة قد يمكن قبولها فى مجال المعالجات الصحفية لبعض القضايا اليومية .. ولكنه بلا شك اسلوب يصعب قبوله فى مجال يمس كرامة الوطن وتاريخه ، كما يمس اداء قواته المسلحة .. وهو مجال يجب ان يتميز بالجدية فى المعالجة والموضوعية فى التناول والحرص فى اختيار اللفظ .. حفاظا لعزة هذا الوطن واحتراما لالاف الشهداء من رجاله الذين جادوا بأرواحهم دفاعا عنه ، والالاف الآخرين من الذين أصيبوا أثناء الحرب ومنهم كثيرون من المعوقين ممن مازالوا يجترون آلامهم حتى يومنا هذا . من ناحية أخرى فإن من الأقوال التى ذكرت ماينم عن استهانة بما دار من قتال خلال هذه الحرب وينكر على العديد من وحداتنا الباسلة ماخاضته من معارك ـ خارج نطاق الساعات العملية التى اشرت اليها ـ فى أيام ٦ ، ٧ ، ٨ يونيه ١٩٦٧ .

إن القول بأن الحرب لم تستغرق سوى عدة ساعات ، قد يكون هدفه المبالغة فى تصوير سرعة انهيار الجبهة ، إلا أنه بالقطع لايمثل الحقيقة . فليس هناك حرب نظرية واخرى عملية .. تماما كما أنه ليس هناك وحدات تكون قد قاتلت فعلا خلال هذه الأيام قتالا «نظريا» او ان هناك شهداء استشهدوا اثناء هذه المعارك استشهادا «نظريا» !! اعتقد أن مثل هذه الأمور الجادة والتى تمس مشاعر ابناء شعبنا ورجال قواتنا المسلحة تتطلب ان نكون أكثر حرصا والتزاما بالموضوعية .. والا نلجأ الى الاوصاف المبالغ فيها والأحكام المطلقة وتعميمها ببساطة قد تصيب كرامة رجال اخلصوا لوطنهم وضحوا من أجله .

ومن الأمور التى ذكرت فى هذا المجال وتحتاج الى تصحيح لبعدها عن الحقيقة بعض ماذكر حول الفرقة الرابعة المدرعة بالنسبة لظروف القتال التى مرت بها فى يونيه ١٩٦٧ .. ومن أغرب ماقيل بعيدا عن الحقيقة : « ان الفرقة المكونة من ٢٠٠ دبابة لم تفقد فى الحرب سوى ١٢ دبابة أما الـ ١٨٨ دبابة الأخرى فقد تركها افرادها للعدو وعادوا الى القناة تنفيذا لأوامر القيادة العليا بالانسحاب بالسلاح الشخصى فقط » **ويؤسفنى القول بان كل ماجاء فى هذه العبارة السابقة لايدخل فى مجال المبالغة فحسب ولكنه يدخل فى مجال الافتراء والبعد عن الحقيقة جملة وتفصيلا فليس حقيقيا صدور الأمر للقوات بالانسحاب مع ترك الاسلحة والمعدات الثقيلة او الخفيفة . ولم يحدث ان هجر افراد الفرقة**

المدرعة دباباتهم وعادوا الى القناة بدونها ما لم تكن الدبابة قد دمرت او احترقت ونجا طاقمها وهو أمر ندر حدوثه . أو انها اصيبت اصابة عطلتها عن الحركة .

لقد قصدت أن اشير الى هذه الأقوال بعد أن انتهى من سرد قصة الفرقة الرابعة المدرعة اثناء هذه الحرب ، وليس قبل ذلك لكى يستبين القارىء حقيقة ما تحملته الوحدات والتشكيلات من متاعب ، وطبيعة ماتعرضت له من كوارث نتيجة لاخطاء كانت هى ضحيتها وكيف كانت الصواريخ والقنابل وعبوات النابالم تنهمر على الدبابات فوق ارض الصحراء ، بعد أن جردت من كل وسائل الدفاع الجوى . وكم من دبابات دمرت او احترقت باطقمها كاملة واستشهد الرجال بداخلها . ان مثل هذه الصورة المأساوية .. لهذه الايام الصعبة المحفورة فى ذاكرة الزمن ، كما هى محفورة فى ذاكرة من عاشوها ، والتى لايمكن ان تكون ايام «نظرية» !! صورة لاتحتمل اى مزيد من التلوين المبالغ فيه فما بالنا بالافتراء .

اننى هنا لاأحاول أن ادافع عن الأخطاء التى ارتكبت ، وقد تناولتها من قبل بالنقد والتحليل ، ولكن فقط اريد ان اخفف من وقع ما اصاب الحقائق من تشويه .. داعيا بأمانة ألا نجعل من قواتنا المسلحة ـ التى هى اداتنا فى حراسة هذا الوطن والدفاع عن ترابه ـ اداة للنيل من عهد من العهود او لتصفية حسابات قديمة كما اعتاد البعض أن يفعل فإن هذه القوات بما تحمله من مهام تبلغ حد القدسية يجب ان تبقى دائما فى وضع يرتقى الى مستوى هذه المهام باعتبارها درعا لهذا الوطن ورمزا لكرامته وقوته ومثالا لاعتداده برجاله .. وعلينا الا ننسى ان هؤلاء الرجال الذين تحملوا المأساة فى عام ١٩٦٧ بصبر طويل . هم أنفسهم الذين ازالوا الوصمة وحرروا الأرض واستردوا الكرامة فى اكتوبر ١٩٧٣ .

وفى النهاية فقد كانت احداث ونتائج حرب يونيه ١٩٦٧ هى محصلة طبيعية لسلسلة متصلة من الاخطاء السياسية والعسكرية والتراكمات المتعاقبة من تطورات الاحداث الداخلية والخارجية .. والتى امتدت جذورها لسنوات طويلة قبل وقوع النكسة .. كانت أشبه بجبل الجليد .. بدأ ينهار من قمته فتداعت باقى اجزائه بالتبعية حتى وصل الانهيار الى قاعدته وبعد أن صنعنا الهزيمة بأيدينا وكان علينا لكى نعى الدرس ونستوعبه ان نعرى تلك الأخطاء ونكشف عن التراكمات التى قادتنا الى هذه المأساة .. حتى لاتتكرر الأخطاء ولاتقع مآسٍ اخرى .

كيف صنعنا الهزيمة بأيدينا ؟

تمكنت اسرائيل فى جولتها العدوانية الثالثة عام ١٩٦٧ ، من الحصول على نصر عسكرى سهل وكبير فى نفس الوقت . غير ان هذا النصر لم يكن كافيا لتحقيق

السلام الاسرائيلى . فإذا كانت الحرب قد أمكن فرضها من جانب واحد على الجانب الآخر ، فإن السلام لايمكن تحقيقه دون اتفاق الجانبين أو خضوع احدهما للطرف الآخر ، الذى نجح فى تحطيم ارادة خصمه . ولما كانت «الارادة» هى التعبير اللفظى عن القدرات المعنوية والامكانات المادية ، ولما كان العرب ـ رغم احداث حرب ١٩٦٧ ونتائجها المريرة ـ قد حافظوا على رباطة جأشهم ، ونجحوا فى امتصاص صدمة الهزيمة والتحول الى صحوة العمل من أجل ازالة اثار العدوان ، مستفيدين من قدرات معنوية عريقة وامكانات مادية كبيرة ومتعددة .. لذلك كله فشلت اسرائيل فى تحقيق النصر السياسى الذى اشعلت الحرب من اجله .. فلم تنجح فى اخضاع الارادة العربية لارادتها ولم تنجح فى تحقيق السلام الاسرائيلى .. القائم على فرض الاستسلام والتوسع .

ومن المعروف فى التاريخ الانسانى ان هدف اى حرب لم يكن يوما مقصورا على تحقيق النصر العسكرى فى حد ذاته ، ولكن هدفها الحقيقى فى الواقع هو مايترتب على هذا النصر العسكرى من قدرة على فرض الارادة ، وحل المشاكل التى فشلت الاساليب السياسية فى حلها أو على الأقل فتح الطريق امام حلها ، لذلك فحينما نقول ان اسرائيل لم تكسب حرب ١٩٦٧ ، فإننا لانحاول ان نستهين بالنصر العسكرى ، ولكننا فى نفس الوقت نؤكد انها قد فشلت فى فرض ارادتها على العرب وبالتالى لم تحقق حلا جذريا لمشاكلها الناجمة عن وجودها فى قلب المنطقة العربية او تضيف مزيدا لضمانات امنها وسلامتها على المدى البعيد .

ذلك لان السلام الحقيقى اذا تحقق ، يجب ان يكون ترجمة دقيقة وتعبيرا أمينا عن موازين القوى الحقيقية بين طرفى اى نزاع ، وهذه القوى ليست مقصورة على القوى العسكرية فحسب ، أو انها تتضمن أو تتوقف على جزئيات القوى التى كانت متاحة فى لحظة تاريخية معينة ، وتحت ظرف من الظروف المحلية او الاقليمية او الدولية .. ولكنها تتضمن كل أنواع القوى الاصيلة المستمرة والمستمدة من الأوضاع الجغرافية والجذور التاريخية ، وما لها من أبعاد سياسية واقتصادية ومعنوية وحضارية . لذلك كله وعلى هذا القياس ، فإن النتائج العسكرية لجولة يونيه ١٩٦٧ لم تكن تمثل أو تعكس تعبيرا أمينا أو سليما عن طبيعة موازين القوى بين العرب واسرائيل . وفى ضوء هذه الحقيقة فان المحصلة النهائية لنتائج الحرب جاءت سلبية من جانب اسرائيل ، كتعبير واقعى يتماشى مع جوهر هذه الحقيقة ومع اتجاه التاريخ .. من ناحية اخرى فان المحصلة العسكرية لهذه الحرب ، جاءت نتاج السلبيات العربية ، وليست الايجابيات الاسرائيلية ، التى أن وجدت ، فهى ليست من العوامل الاصيلة المؤثرة بل هى فقط من العوامل التى ساعدت على الوصول الى هذه النتيجة العسكرية البراقة .

★ ★ ★

وتأكيدا لهذا القول نستعرض فيما يلى ظروف الموقف فى لحظة تاريخية محددة وتحت عوامل محلية واقليمية ودولية معينة كانت قائمة قبل نشوب الحرب :

● كانت العلاقات العربية فى عام ١٩٦٧ فى اسوأ ظروفها .. ولم تكن الدول العربية قد التزمت أو نفذت ما تم الاتفاق عليه فى مؤتمرات القمة التى عقدت عامى ١٩٦٤ و ١٩٦٥ بشأن حشد امكاناتها وقواها .. بل حدث العكس ، اذ اصاب التصدع الصف العربى واشتدت الخلافات بين الدول العربية خاصة فى عام ١٩٦٦ ، فانعدمت فاعلية القيادة العسكرية العربية المشتركة وتلاشى التنسيق العسكرى الحقيقى والامين بين الدول العربية . وكان لذلك كله اسوأ الأثر على امكان القيام بأى عمل عربى موحد وحاسم .. وفى خضم هذه الخلافات العربية وعدم وجود حد أدنى من التفاهم السياسى بين الدول العربية ، طُمست المعالم الحقيقية للأمن القومى العربى واختلت مفاهيمه ، وبالتالى عجزت القيادات العربية عن ادراك المخاطر الداهمة المحيطة به .

● أما مصر ، فرغم انها كانت تمتلك اكبر قوة عربية فى شتى المجالات .. فقد كانت ظروفها الداخلية اسوأ بكثير مما بدا على السطح .. بل اسوأ مما قدره أعداؤها فى ذلك الوقت ، **اذ لم يقتصر الامر على اشتداد الخلافات العربية او على انشغال القيادة المصرية فى حرب اليمن وتسخير امكانات مصر لخدمة هذه الحرب فحسب .. بل كان الامر الأسوأ داخل مصر هو انشغال قيادتها عن واقع المخاطر المحيطة بأمن مصر المباشر ، وتهاونها فى حماية هذا الامن واتخاذ التدابير الفعالة لمواجهة التهديدات الاسرائيلية والغربية التى تهدد مصر تهديدا مباشرا .**

ولعل من أهم الأسباب التى أدت الى تردى الوضع الداخلى فى مصر - فضلا عن حرب اليمن - ذلك الصراع الناشب منذ سنوات بين جمال عبد الناصر وعبدالحكيم عامر .. الامر الذى أحدث مع الوقت انفصالا كاملا بين القيادة السياسية والقيادة العسكرية ادى الى عدم المام رئيس الجمهورية والقائد الاعلى للقوات المسلحة بالموقف الحقيقى لهذه القوات .. وبالتالى الى حدوث خلل خطير فى صناعة القرار السياسى المصرى . من ناحية اخرى فقد كانت القيادة العسكرية - ممثلة فى المشير عبدالحكيم عامر - هى فى الواقع قيادة سياسية امنية للقوات المسلحة لم تحترف العمل الحقيقى للقوات المسلحة ولم تركز على دورها الطبيعى وواجبها الاساسى فى حماية امن البلاد والدفاع عن اراضيها .. بالاضافة الى الافتقار للخبرة والمعرفة العسكرية اللازمتين لممارسة هذه المسئوليات الجسيمة بالكفاءة الواجبة .

فقد خاض المشير عبدالحكيم عامر الحرب فى يونيه ١٩٦٧ وقبلها حرب أكتوبر ١٩٥٦ . دون أن يمارس عملا من أعمال القيادة العسكرية الفعلية للقوات ، سواء فى الاشراف على التدريب أو المناورات أو المشاركة الفعالة فى وضع الخطط او حتى مراجعتها .. ورغم ذلك فقد شارك مع جمال عبدالناصر فى فرض تعديلات وتغييرات كثيرة وخطيرة حولت الخطة الدفاعية الى مسخ غير صالح للتنفيذ ، وادت الى دفع احجام كبيرة من قوات الاحتياط غير المدربة أو المجهزة الى مسرح

العمليات فى سيناء ، فى شكل مظاهرة عسكرية اضفت على الموقف كله إحساسا بعدم الجدية ، وانعكست آثارها الخطرة على كافة مستويات القيادة العسكرية .

ولعل من أسوأ صور الانفصال فى القيادات العليا للدولة أثناء الحرب .. انه فى اليوم التالى للحرب كان رئيس الدولة يتحدث عن إمكان الصمود فى سيناء ووقف الهجوم الاسرائيلى ، بينما كان نائبه يصدر ـ فى نفس اللحظة ـ الاوامر بالانسحاب الكامل لقواتنا من سيناء الى غرب قناة السويس .. وان يتم هذا الانسحاب خلال فترة زمنية خيالية تتراوح بين ١٦ ، ٢٠ ساعة .. مما ادى الى خلق حالة نادرة من الفوضى فى مسرح الحرب واصابة القوات بحالة من التفكك والتفسخ وسد الطرق المحدودة فى سيناء بالمعدات والأسلحة والعربات المكدسة بشكل لم تكن تحلم به اسرائيل او تتخيله ..

● فى مقابل هذا الموقف العربى الممزق ، والموقف المصرى الداخلى المتردى ، كانت اسرائيل قد وصلت الى قمة استعدادها لشن الحرب .. بل انها اتمت هذا الاستعداد منذ فترة طويلة سبقت قيامها بالعدوان على مصر ، حيث بدأت تخطط لهذا العدوان منذ أن نفضت يدها من عدوانها السابق فى عام ١٩٥٦ وانسحابها من سيناء فى عام ١٩٥٧ .. ولم يؤخر اسرائيل عن شن هذا العدوان سوى عاملين هامين : الأول انتظار الفرصة السياسية والعسكرية المناسبة والثانى ضمان تأييد الولايات المتحدة لها تأييدا كاملا ومشاركتها فى الاعداد لهذه الحرب .. وقد سبق ان أشرنا الى المباحثات الختامية التى اجراها ابا ايبان ومعه مدير المخابرات الحربيّة فى واشنطن فى الاسبوع الأخير من شهر مايو ١٩٦٧ .. والتى طرحت خلالها الخطوط الرئيسية للخطة الاسرائيلية الخاصة بالعدوان على مصر والاردن وسوريا .. وانتهت بالاتفاق على ان تبدأ الحرب ضد مصر فى بداية الشهر التالى مباشرة .

ويقودنا هذا الحديث الى تناول الدور الامريكى واثره على الحرب .. فقد لعبت الولايات المتحدة بخبث دورا اساسيا فى عدوان اسرائيل على مصر والاردن وسوريا . ولم يقتصر دورها على الدعم السياسى المطلق أو تزويد اسرائيل بكل ماتحتاج اليه من اسلحة ومعدات حديثة .. بل انها ساهمت مساهمة مباشرة فى التأثير على مسار الحرب بما قدمته لاسرائيل ولجيشها من ادق واحدث المعلومات العسكرية عن جيوش الدول العربية ، والتى حصلت عليها بواسطة طائرات الاستطلاع واقمار التجسس الامريكية وغيرها من وسائل جمع المعلومات . لقد وفرت الولايات المتحدة لاسرائيل ادق المعلومات الخاصة بالاوضاع العسكرية على الجبهات العربية الثلاث . بل انها ساهمت فى خداع مصر لتوفير عنصر المفاجأة الكاملة لاسرائيل وفى نفس الوقت منع مصر من السبق بأى تحرك عسكرى مضاد .. وذلك من خلال التأكيدات العديدة التى وصلت فى شكل رسائل من الرئيس جونسون حول وقوفها ضد اى عدوان ومعارضتها الصارمة له . كان ذلك يحدث بينما ابا ايبان فى واشنطن يضع اللمسات الاخيرة مع جونسون ومساعديه من

المدنيين والعسكريين ويتلقى اشارة الضوء الاخضر لبدء الحرب . وقد غادر جونسون اجتماعه مع إيبان وهو يردد عبارة « إن اسرائيل سوف تضربهم » .

● وأخيرا فلا يمكننا ونحن نتعرض للظروف والعوامل التى ادت الى وقوع النكسة العسكرية ، دون تناول موقف الاتحاد السوفييتى .. فليس ثمة شك فى ان الاتحاد السوفييتى قد ساهم بطريقة او بأخرى فى وقوع نكسة يونيه .. فهو الجانب الذى اكد لمصر رسميا وجود الحشود الاسرائيلية على حدود سوريا .. كما ابلغ مصر رسميا فى رسالة من بريجنيف الى الرئيس عبدالناصر - الا تكون مصر هى البادئة بالعدوان .. وان الرئيس الامريكى قد ابلغ الكرملين بأن مصر ستقوم بالهجوم على اسرائيل .. وهكذا لم تكتف الولايات المتحدة بما قدمته من خدمات لاسرائيل بل - اذا صدق هذا القول - تكون قد دفعت الاتحاد السوفييتى الى المساهمة بطريق غير مباشر فى عملية خداع مصر وتهدئتها لكى توجه اسرائيل ضربتها فى افضل الظروف التى تؤكد نجاحها .

★ ★ ★

وفى تحليلنا النهائى لاسباب النكسة يمكن ان نحصر اسبابها السياسية والعسكرية المباشرة فى عدة نقاط اساسية ..

ففى مثل هذه المواقف الحاسمة ، وعندما تتخذ قرارات تاريخية ، لابد من أن تستند هذه القرارات الى القوى السياسية والعسكرية الكافية والضرورية لتوفير الدعم ، والمساندة والحماية .. خاصة عندما تكون الترجمة الواقعية لهذه القرارات السياسية تحمل الطابع العسكرى وبالتالى تحتاج الى قدرة عسكرية لحمايتها وتثبيتها . ولااعتقد - بعد كل ماعرضناه من ملابسات وظروف وتحليلات - أن القيادة السياسية المصرية ، عندما أصدرت قراراتها ، قد وضعت فى اعتبارها كل العوامل المؤثرة والعواقب المحتملة .. بل يبدو - من ملاحظتنا لتطورات الأحداث السياسية وتصعيدها المتتالى فى مايو ١٩٦٧ - أن القيادة المصرية كانت مطمئنة تماما الى قدراتها السياسية والعسكرية ، ولكن دون الاستناد الى المعلومات والتقديرات الاستراتيجية السليمة ، سواء بجانبها السياسى أو جانبها العسكرى . وفى الواقع فإن البحث لم يظهر وجود اى وثائق او تقديرات سياسية أو عسكرية استندت اليها القيادة السياسية وكانت عاملا مشجعا يدفعها الى الدخول فى هذه المخاطرة ، مالم تكن مثل هذه الأمور الحيوية قد طرحت او عرضت باسلوب سطحى ، أو من خلال أحاديث شبه خاصة أو انها نوقشت بشكل جزافى يفتقد تماما للدقة ويميل كثيرا نحو العشوائية .

من ناحية أخرى لم يكن لدى القوات المسلحة المصرية استراتيجية عسكرية واضحة المعالم محددة الأهداف ، تستند الى استراتيجية الدولة أو «الاستراتيجية الشاملة » التى تحدد أدوار أجهزة الدولة وقواها الفاعلة بما فيها القوات المسلحة من اجل تحقيق اهدافها السياسية العليا دفعا للامكانات والقدرات المتاحة لها .

فإذا تناولنا الناحية الاستراتيجية العسكرية ، فسوف نجد أن هناك تقديرات استراتيجية عسكرية وضعت على أساسها الخطة الدفاعية عن شبه جزيرة سيناء وكافة اراضى الجمهورية .. ولكنها لم تكن نابعة من او مستندة الى استراتيجية شاملة متعددة الأدوات . ورغم ذلك فقد اوضحت هذه التقديرات العسكرية الصعوبات التى يمكن ان تواجهها محاولة القيام بأى عمل تعرضى أو هجومى فى ظل الظروف العسكرية التى كانت تواجهها مصر فى ذلك الوقت والتزاماتها الكبيرة تجاه مسرح العمليات الحربية فى اليمن .. وماعكسه هذا المسرح من اثار سلبية على تدريب القوات وكفاءتها القتالية .. ومع ذلك كله نجد ان القيادة السياسية العسكرية قد اهملت هذه الخطة الموضوعة المدروسة أو شوهتها تماما بتعديلات وتغييرات لاحصر لها ادخلت عليها .. وكان ذلك كله لأسباب سياسية لم تكن تتفق ومعطيات الموقف العسكرى فى ذلك الوقت .. ولعل الأمر الأكثر إثارة أن يتم استبعاد هذه الخطة أو إهدار معالمها والمقومات الاساسية التى قامت عليها . دون وضع اى خطط بديلة مناسبة ومتوازنة يمكن أن تحل محلها .. ودون تكليف هذه القوات الضخمة التى احتشدت فى سيناء بأى مهام محددة .

فضلا عما تقدم فإن التعديلات الاساسية التى أدخلت على الخطوط الدفاعية فى المناطق الامامية كانت بمثابة اضاعة لكل الجهود السابقة التى بذلتها الوحدات المكلفة بالدفاع عن سيناء أصلا ، ودراسات الأرض والتدريب على مهام العمليات ، بالاضافة الى اكتساب المهارة الميدانية العالية على مدى عشرة اشهر كاملة ظلت الوحدات خلالها تداوم على التدريب على ادارة المعركة الدفاعية حول العريش وفى منطقة ابو عجيلة وغيرها من المناطق الحيوية بجدية وواقعية .

وهكذا اصبحت قوات الجبهة تعانى من اضرار الافراط فى الاحتمالات والتغييرات حتى بلغ الاجهاد الذى أصاب الوحدات درجة خطيرة من كثرة تعديل أماكن التمركز بل وتعديل التركيب التنظيمى للتشكيلات وتفتيت الوحدات وتغيير كبار القادة قبل بدء الحرب بأيام معدودة ، بالاضافة الى عدم وضوح الابعاد الحقيقية لما يراد بالقوات التى تملأ مسرح العمليات . فتأرجحت الظنون بين كون الأمر ليس سوى مظاهرة عسكرية سياسية أو مجرد مناورة لتخفيف الضغط عن الجبهة السورية أو أن تكون هى الحرب الفعلية أو الا تكون هناك حرب البته . **ولعل الخطأ الاساسى من وجهة النظر العسكرية ، هو محاولة تلبية المطالب العسكرية التى ترتبت على قرارات سياسية غير مدروسة ، رغم تجاوز هذه المطالب للقدرات الحقيقية المتاحة للقوات المسلحة فى ذلك الوقت وفى ظل الظروف العربية والدولية التى كانت قائمة وقتئذ .**

وكانت خلاصة ذلك كله فقدان الاتزان الاستراتيجى الكامل للجبهة ككل وتمزيق البناء الدفاعى فى شبه جزيرة سيناء شر ممزق .. وبالتالى اعطاء اسرائيل اثمن فرصة يمكن أن تتاح لها وتهيىء انسب الظروف الملائمة لتنفيذ

مخططاتها العدوانية التوسعية وتوجيه ضربتها ضد ثلاث دول عربية والتى دفعت نتائجها المذهلة خبيرا عسكريا فرنسيا مثل جنرال اندريه بوفر الى توقع ان يحتاج العرب الى جيل كامل حتى يستعيدوا مافقدوه !

عوامل أخرى فى صالح اسرائيل :

ولكى تصبح دراستنا موضوعية ، ولكى تتحقق الفائدة العلمية منها لابد لنا من أن نتناول بالتحليل الجوانب الايجابية الاسرائيلية التى ساهمت فى نصر اسرائيل .

فلاشك فى أن من أسباب مابدا من تفوق اسرائيل كان فى ديناميكية القيادة على كل المستويات والتمسك بعقيدة عسكرية واضحة ومناسبة لهم وللظروف التى يقاتلون فيها . ولاننسى هنا الأهمية الكبرى للمعونات الغربية التى تلقتها اسرائيل خاصة من الولايات المتحدة وفرنسا والخبرات العسكرية التى شاركت فى بناء قواتها فضلا عما زودها به الغرب من معدات ذات تكنولوجيا متقدمة خاصة فى مجال القوات الجوية . وقد عملت القوات الاسرائيلية وفقا لخطة عمليات محددة لتحقيق اهداف ثابتة ومعروفة وتنفيذ مهام واضحة للتشكيلات والوحدات .

من ناحية اخرى فإن اسرائيل فى تحقيق المفاجأة للهجوم الجوى والبرى غير المتوقع ضد الاهداف الارضية ، أحدث من التمزق فى القيادة المصرية ، ما افقد القوات المصرية قدرتها على رد الفعل المؤثر ، مما اعطى القوات الاسرائيلية ميزة ضخمة منذ اللحظة الأولى لبدء الحرب ، واستمرت هذه الميزة قائمة طوال فترة الحرب حيث كان من الصعب ، فى ظل الظروف التى كانت تعانى منها القوات المصرية أن تنتزع ماحققته اسرائيل من مزايا فى بداية الحرب . وان كانت المفاجأة قد مثلت أهم العوامل التى اثرت فى سير الحرب ، فإن التفوق الجوى الاسرائيلى الكامل كان عاملا اخر لايقل اهمية .. وقد جاء هذا التفوق بما حققته الضربة الجوية المفاجئة من نتائج .. وهى الضربة التى اعتمدت على وجود طائرات حديثة وقوية بالاضافة الى التخطيط الدقيق والتنفيذ الجيد .. وقد ادى وجود سيطرة جوية اسرائيلية على سماء المعركة الى نتائج حاسمة ، أولاها اعطاء حرية العمل الكاملة وحرية الحركة للقوات البرية الاسرائيلية دون ادنى خوف من تعرضها للهجمات الجوية فى الصحراء المكشوفة ، بينما كانت القوات المصرية محرومة تماما من اى حماية جوية وبالتالى من القدرة على الحركة والمناورة . ان الاهمية الكبيرة لهذه السيطرة الجوية واثرها على المعارك البرية جاءا نتيجة للهجمات الجوية ضد القوات المصرية التى فقدت الحماية .

وقد حاولت اسرائيل ان تقلل من أهمية هذا العامل الحاسم فى سير القتال البرى فى سيناء بالادعاء بان قواتها البرية قد خاضت معارك رهيبة وامكنها مع ذلك هزيمة القوات البرية المصرية ، وهو ادعاء لايستند الى الواقع ولا الى طبيعة

المعارك التى ادارتها اسرائيل فى سيناء والتى اعتمدت اعتمادا كليا الى أسناد مهمة حسمها للقوات الجوية الاسرائيلية وقد وضح هذا الاسلوب تماما منذ اليوم الثانى للقتال .. حيث اصبحت الطائرات الاسرائيلية هى الاداة الاساسية التى اعتمد عليها الاسرائيليون فى كسر اى مقاومة مصرية برية تعوق تقدم قواتهم البرية . وكثيرا ماحدث عندما تتوقف قوات اسرائيل امام مقاومة مصرية ، ان تنسحب هذه القوة البرية عندما تبدأ فى تحمل الخسائر ، وتترك الميدان للقوات الجوية لتقوم بمهمة تدمير هذه المقاومة المصرية وضرب الدفاعات والقوات المصرية وهى مطمئنة لعدم وجود وسائل دفاع جوى عن هذه القوات .. وقد حدث ذلك فى جميع المعارك التى دارت مع القوات المدرعة المصرية ايام ٦ و ٧ و ٨ يونيه خاصة على المحور الاوسط ومحور الجدى .

لقد رفض الاسرائيليون الاعتراف بأنه بدون التأثير المادى والمعنوى الذى تركه اختفاء القوات الجوية المصرية وتوافر السيطرة الجوية الكاملة لاسرائيل ، لما أمكنهم ابدا تحقيق مثل هذا النجاح السهل ، ان هذه النتيجة قد توصل اليها وتحدث عنها باسهاب الكثير من المحللين العسكريين العالميين ومن بينهم عدد كبير من الغربيين .. من ناحية اخرى فقد لجأ الاسرائيليون الى المبالغات الضخمة فى وصف اعمال القتال الخاصة بوحداتهم المدرعة متناسين تماما الاهمية الكبيرة لتأثير المفاجأة ولسيطرتهم الجوية الكاملة على سماء المسرح .. حتى أنهم فى السنوات التالية لحرب ١٩٦٧ اهملوا تطوير وحدات المشاة والمدفعية وركزوا تركيزا تاما على القوات المدرعة ، كما انهم تجاهلوا تماما ـ حتى صدقوا أنفسهم ـ ان مهمتهم فى سيناء قد تحولت الى رحلة سهلة بعد صدور الأوامر المفاجئة بالانسحاب الكامل للقوات المصرية من سيناء مساء يوم ٦ يونيه اى بعد مرور اقل من ٣٦ ساعة على بدء القتال صباح يوم ٥ يونيه .

وليس هناك خلاف بين كل المحللين العسكريين سواء المحايدين أو غيرهم .. أن هذا الأمر المفاجىء كان له اسوأ الأثر على اداء القوات المصرية وعلى معنوياتها . فاولا وفى المقام الأول انه بعد يوم ٦ يونيه كانت اعمال القتال المصرية مقصورة على الأعمال التعطيلية وليس الدفاعية .. بغرض تأخير وتعطيل تقدم القوات الاسرائيلية لحين اتمام انسحاب القوات من سيناء . وثانيا ان الانسحاب غير المنظم أو المنسق ادى الى ردود فعل نفسية عنيفة على القوات لاشك فى انها قد خفضت من فاعلية الأعمال التعطيلية ـ ومن الاخطاء الاخرى التى ارتكبتها اسرائيل ورتبت على اساسها موضوعات تنظيم واساليب اداء تكتيكية واعتبرتها كخبرة حرب ـ غير حقيقية ـ من حربى ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ .. هى تأكيد تقديرهم الخاطىء حول عدم قدرة الجندى المصرى على الاداء المتميز سواء فى الدفاع الصلد العنيد او الهجوم القوى الكاسح .

ان هذه الأمور التى اساءت اسرائيل فهمها وتقديرها وهى غارقة عقب نصر ١٩٦٧ فى خضم البهجة والغرور ، ادت الى الخروج باستنتاجات مبالغ فيها

وغير سليمة حول تقييم قدراتها العسكرية عموما وقدرتها الجوية والمدرعة على وجه الخصوص ، وانطلقت فى ذلك الوقت التعبيرات المعروفة حول «الجيش المعجزة» والجندى الاسرائيلى «الذى لا يقهر» ومن فرط المبالغة ذكروا فى تسجيلهم لتاريخ الجيش الاسرائيلى ان التكتيكات التى اتبعتها وحدات الدبابات الاسرائيلية فى حرب ١٩٦٧ كانت بمثابة نقطة تحول ادت الى تجديد وتغيير اساسى فى التكتيكات الكبرى التى برزت وتطورت اثناء الحرب العالمية الثانية حول استخدام القوات المدرعة وانها تمثل مرحلة جديدة من مراحل حروب المدرعات . وهكذا اقنع الاسرائيليون انفسهم بمثل هذه الاخطاء التى دفعوا ثمنها فادحا فى حرب ١٩٧٣ .. حين نجحت القوات المسلحة المصرية فى تدمير كل النظريات العسكرية التى اعتنقتها اسرائيل عقب نجاحها الرخيص ونصرها السهل فى عام ١٩٦٧ ، والذى دفعها الى الشطط فى التفكير والتقدير والى طابع الغرور الذى سادها فى السنوات التالية الى ان تكسر هذا الغرور وتناثرت اشلاؤه اما هجوم القوات المسلحة المصرية عندما عبرت القناة واقتحمت خط بارليف يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ .

●

الفصل السابع

مابعد الهزيمة

نظرة فاحصة :

قبل أن نستطرد الحديث عن تطورات مابعد الهزيمة وصولا الى أحداث حرب أكتوبر ٧٣ .. من المفضل ان نلقى ـ ونحن نقترب من نهاية حديثنا عن كارثة ١٩٦٧ ـ نظرة فاحصة مختصرة ، قد تضيف مزيدا من الضوء على حقيقة ماحدث وطبيعة أسبابه .. وسوف نجد من خلال هذه النظرة مايؤكد لنا افتقار العرب الشديد للجدية والأمانة المطلقة فى معالجة قضية قومية مصيرية وصراعا حضاريا يمكن ان يهز الكيان العربى كله .. وسوف نلمس بوضوح انه بقدر ماأعدت اسرائيل مخططها ، وجهزت لتنفيذه بجدية كاملة ، والتزمت بأسس ومبادىء العلوم العسكرية فى خوض غمار حروبها المرسومة ضد العرب فى كل الجولات السابقة .. بقدر هذا كله كان تهاون العرب فى استيعاب ابعاد القضية المصيرية ، وفى الاعداد والتجهيز العلمى السليم اللازم لحماية مقدراتهم وكيانهم .. وكان أن انحرفوا كثيرا عن جادة الصواب . كذا سيبدو لنا أنه بقدر ماحشدت اسرائيل وعبأت قدراتها المادية والمعنوية المحسوبة .. وقواها السياسية والدبلوماسية للحصول على تأييد عالمى قوى ومنظم .. برع العرب فى تفتيت قوتهم الكبيرة وتشتيت قدرتهم المتاحة ، وكسب الاعداء لقضيتهم أو فقد الاصدقاء رغم عدالة هذه القضية . ورغم أن الحق كان ومازال فى جانبهم ، فقد فشلوا دائما فى توصيل صوتهم الى المجتمع الدولى ، وأن وصل هذا الصوت فانه يصل خافتا ضعيفا واهنا لايكاد يحس به احد ، نتيجة لتفرق كلمتهم وتشتت جهودهم .

ان النظرة الفاحصة تظهر أيضا أن صراع العرب المسلح ضد اسرائيل ، على مدى العشرين عاما التى تلت قيام الدولة اليهودية ، كان يحكمه ويقيده ويكبل انطلاقاته العربية ذلك الأفق السياسى الضيق الذى تميز به بعض الحكام العرب ، والذين غلبوا الاهداف الذاتية والاعتبارات السياسية المحلية المحدودة ، على المصالح القومية . وتبعا لهذه النظرة الضيقة العربية ، كثيرا ما اختنقت الجهود

المخلصة وتعثرت القدرات المسلحة العربية .. وكانت اسرائيل تدرك دائما خطورة هذه النظرة الضيقة وتأثيرها على العمل العربى الموحد .. وتعمل على تعميقها وتوسيع نطاقها .. وتستغلها بمهارة فائقة فى تهيئة افضل الظروف الاستراتيجية لقدراتها فى مسارح العمليات المختلفة .

حدث هذا دائما رغم أن المقارنة بين قدرات الخصمين المتصارعين ـ العرب واسرائيل ـ فى قضية مصيرية كهذه ، لاتعكس بأى حال من الأحوال تلك الصورة الغريبة التى انتهت اليها جولات هذا الصراع بين العرب واسرائيل حتى نهاية الجولة الثالثة عام ١٩٦٧ .

من خلال النظرة الفاحصة كذلك سوف يتضح لنا كيف قضت اسرائيل السنوات العشر التى اعقبت إنسحابها من سيناء عام ١٩٥٧ ، وهى منهمكة انهماكا كليا فى وضع وتنفيذ مخططات الاعداد للحرب القادمة .. واستمرت طوال هذه الفترة فى العمل الجاد المتواصل ـ باعتبار أن قضيتها مع العرب هى قضية حياة وبقاء ومصير .. أما «الاشقاء» العرب فقد انصرفوا الى الجدل العقيم .. وتفننوا فى خلق النزاعات فيما بينهم وبذر بذور الشقاق والتفتت .. وتبادل الاتهامات بخيانة القضية القومية .. وتدبير المؤامرات وعلى رأسها مؤامرة انفصال الوحدة المصرية السورية عام ١٩٦١ ثم المؤامرات التى دبرت ضد الثورة اليمنية والوجود المصرى الذى دعم هذه الثورة بكل قواه فيما بين عامى ١٩٦٢ ـ ١٩٦٧ .. وهكذا كان الشقاق العميق هو السائد فى العلاقات العربية .. بينما تعقد مؤتمرات القمة العربية بمظهريتها الخادعة .. وتصدر قراراتها العنترية التى لاترى النور ، بينما تستغل هذه القرارات لدى الغرب واسرائيل فى إتخاذ مواقف مضادة للمصالح العربية نتيجة لهذه القرارات المعلنة .

أما اسرائيل فكانت تعرف طريقها تماما ، وتؤكد مخططاتها للبقاء والتوسع وتتمسك بالمبادىء التى وضعتها الصهيونية .. وهى تدرك وتعى ان حركة التاريخ تسيرها القيادات الواعية ويوجهها العمل المنظم المتكامل .. وليست القيادات المنشقة اقليميا ومحليا والأجهزة المفككة المتنافرة . إن الانجازات التى خلدها التاريخ البشرى حققتها الجموع المتساندة والقيادات المخلصة المترابطة .. أما التنافر والتطاحن والطعنات الخفية من وراء الظهر والمتاجرة بقضايا الشعوب فهى لاتحقق سوى الخزى والاندحار والفشل .

ولعل من أغرب مظاهر هذا السلوك العربى المعوج أن يظل سنوات طويلة متصلة .. بينما العرب جميعا يتحدثون بحماس عن التضامن العربى وأهميته لهم ، وعن مدى حاجتهم الى جمع الكلمة ، متناسين أن ذلك لن يتحقق سوى بحشد الامكانات وجدية الاعداد القائم على المصالح العربية الحقيقية والحسابات الواقعية والمقارنات الصحيحة للقوى المتضادة والعمل على استغلال القدرات المتاحة على أكمل وجه .. ووضع الخطط السليمة المتكاملة .. والاعتماد على

واقعية التحليل لمختلف العواقب والاحتمالات وردود الفعل المنتظرة لأى عمل يقدمون عليه .

ولكن تمر الأيام وتتعاقب الأعوام والعرب مازالوا يتحدثون ويتكلمون ولايعملون .. أو يعلمون كيف يفرقون بين عدم الاعتراف باسرائيل .. وعدم المعرفة بها وبخططها وأهدافها وطبيعة مجتمعها وتفكير قادتها . وقد اعترف الكثير من العرب بعد حرب ١٩٦٧ ، بانهم كانوا شديدى الميل نحو «خداع النفس» .. وكان هذا الاعتراف هو بداية لاتجاه يبشر بالواقعية فى التفكير والموضوعية فى العمل . وكانت مصر هى الرائدة فى مجال التعامل مع الواقع ، وعلى اساسه رسمت سياستها الخارجية وحددت التزاماتها العسكرية وبدأت مرحلة جديدة تماما عقب النكسة مباشرة .. قادتها نحو الطريق السليم مستعينة بكثير من الدراسات العلمية المتعمقة حول كل الظروف التى أحاطت بهزيمة يونية ١٩٦٧ ، وحول اسرائيل وسياستها الخارجية ونظرياتها الأمنية والعسكرية والجوانب النفسية والمعنوية بجذورها التاريخية . فوضعت بذلك قدمها على أول الطريق السليم .. ذلك الطريق الذى قادها بالعرق والجهد والدم الى نصر أكتوبر العظيم ..

من هنا يمكن القول أن حرب أكتوبر التى بدأت فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، كانت بدايتها الحقيقية قبل ذلك بكثير . كما ان النصر الذى حققته القوات المسلحة المصرية لم يكن وليد هذا اليوم وحده ، بل أن البداية قد سبقت هذا اليوم بحوالى ست سنوات .. أى منذ نهاية احداث النكسة فى ١٠ يونية ١٩٦٧ . ان هذا النصر لم يأت مصادفة او نتيجة لضربة حظ عارضة .. بل انتزعناه بالجهد والعرق والدم وعلى طريق طويل للنضال .. طريق قطعته العسكرية المصرية فى ست سنوات .

ففى يونية ١٩٦٧ وجدت القوات المسلحة المصرية نفسها متورطة فى حرب غير متكافئة لم تستعد لها وصراع فرض عليها دون ان تتاح لها فرصة حقيقية للقتال .. هكذا هزمنا أنفسنا وسلمنا عدونا نصرا لايستحقه وفخرا نحن صنّاعه .. انها قصة النكسة التى تتبعنا آثارها وأبعادها العميقة خاصة على قواتنا المسلحة .. ولعل أبرز هذه المعالم تصميم الرجال على أن يستوعبوا الدرس والعبرة وقسمهم على الا تتكرر المأساة مرة أخرى .

ولذلك فقد عمرت الفترة من يونية ١٩٦٧ حتى أكتوبر ١٩٧٣ بالجهود المخلصة المضنية اذ كان عليها أن تجتاز بكل الوسائل تلك المرحلة الصعبة فتتجاوز ليل الهزيمة البهيم الى فجر الامل الساطع ، ومنه الى النصر المضيىء حين تتوج تلك الجهود بعبور قناة السويس من الغرب الى الشرق حيث تقع أرض سيناء فيتحقق الحلم ونسترد الكرامة ونغسل آثار الهزيمة .

ولهذا نجد أن هذه الفترة الهامة والمحدودة فى عمر القوات المسلحة المصرية قد امتلأت بالأحداث الجسيمة والأعمال العظيمة .. كما اشتملت على كثير من التضحيات والبطولات .. وبرز خلالها العديد من النماذج البشرية المصرية

المشرفة .. نماذج رائعة للبذل والعطاء والفداء والعمل الصامت .

وقبل أن نخوض فى تفصيلات ومراحل هذه الفترة الحيوية .. ولكى تتضح لنا الابعاد الحقيقية لمواقف الأطراف وأهدافها على خط البداية التى انطلقت منه عقب الحرب .. نستعرض فيما تبقى من هذا الفصل المواقف السياسية للأطراف المتصارعة .. فى ضوء النتائج التى ترتبت عن حرب ١٩٦٧ .

ليس ثمة شك فى أن الهزائم العسكرية المتكررة ، قد تركت على الموقف العربى اثارا سياسية وعسكرية ومعنوية بعيدة المدى .. وكان من أبرز هذه التغيرات المباشرة وأشدها اثرا هو ان أصبح لاسرائيل المبادأة الكاملة فى المنطقة ، وصارت تتصرف من « مركز القوة » .

ورغم ذلك فقد فرض الموقف على الدول العربية أن تظل فى هذه المرحلة الحرجة متماسكة .. وأن تحتفظ بقدرتها على المقاومة ومواجهة التعنت الاسرائيلى فى تمسكه باحتلال الأرض .

ولقد ظنت إسرائيل أن الثمار السياسية لهذا النصر قد اصبحت دانية .. غير أن مسار الأحداث السياسية والعسكرية التى وقعت فى اعقاب الحرب – عربيا ودوليا – كان لها أثرها المباشر على الموقف فى المنطقة .. وبالتالى على السياسات المتبعة خاصة سياستى الولايات المتحدة وإسرائيل .

وإن كانت إسرائيل قد أخطأت فى تقدير النتائج السياسية للحرب وهى تخطط لها ، فانها استمرت متمسكة بهذا الخطأ بعد أن انتصرت .. ذلك لأن صدمة النصر لم تكن اقل عنفا فى اسرائيل من صدمة الهزيمة فى البلدان العربية .. ولذلك فقد اخطأ قادة اسرائيل فى الحساب وتصوروا انه لامفر أمام العرب سوى الرضوخ وقبول التفاوض ولكن ذلك لم يحدث ، وأعلن العرب قرارهم «لا تفاوض مع اسرائيل » وفى الواقع فان هذا الفشل الاسرائيلى هو المحصلة الطبيعية لما ابداه العرب من قدرة على الصمود وبعد أن اتخذ النضال العربى ابعادا جديدة على الصعيدين الوطنى والقومى . لقد حاولت اسرائيل ان تقلل من قيمة ظاهرة الصمود العربى طوال سنوات مابعد النكسة بمنطقها القائم دائما على القوة العسكرية فحسب .. فاتبعت سياسة عسكرية اعتمدت على مبدأ يغطى فشلها السياسى وكان هذا المبدأ هو : « ردع ما فشلت فى ردعه عام ١٩٦٧ » .. حتى يتحقق لها ماتبغيه من أهداف وتفرض ماتريده من سلام يناسب اهدافها واطماعها .

ولذلك .. ونتيجة لاصرار اسرائيل ومن يساندونها على جنى ثمار سياسية لنصرها العسكرى ، تحطمت كافة الجهود الدولية التى بذلت للوصول الى حل للأزمة تقبله كافة الأطراف .. خاصة أن المبادأة السياسية فى المنطقة كانت فى جانب اسرائيل .

* * *

أما على الصعيد العربى فقد ابرزت النكسة عدة دروس اساسية استخلصها العرب ، كان عليهم ان يدرسوها ويستوعبوها ويعملوا على الاستفادة منها .. وابرز هذه الدروس هى :

(١) انهم قداستهانوا بقدرة عدوهم استهانة بالغة .

(٢) أنهم قصروا تقصيرا معيبا فى وضع تخطيط مشترك حقيقى وجاد ، يرقى الى مستوى السياسة القومية الواضحة المعالم والابعاد ، يكون لها برنامج دقيق وأهداف محددة .

(٣) أنهم فشلوا فى أن يستجمعوا قواهم العديدة ليضعوها فى خدمة اهدافهم القومية المشروعة .. وأن يشكلوا كيانا عربيا مسئولا يتحمل عبء هذه المواجهة المصيرية

(٤) أنهم تركوا المجال لاسرائيل لتستقطب غالبية الرأى العام العالمى .. وتفوز بعطفه ومؤازرته قبل واثناء العدوان وبعده مباشرة .

ولو تأملنا هذه الدروس لوجدنا انها ليست جديدة على العرب ، حيث انها لن تخرج عن دروس الجولة الأولى عام ١٩٤٨ الا انهم لم يحاولوا الاستفادة منها طوال عشرين عاما من الصراع ، خاصة فى مجال المواجهة القومية الشاملة . وربما يعود ذلك الى قصور الادراك العربى ـ على الصعيد القومى ـ عن استيعاب حقيقة المخاطر الكامنة خلف الوجود الصهيونى لاسرائيل فى قلب منطقتهم . ولكن النكسة دقت اجراس الخطر ورفعت الغشاوة عن أعين العرب .. وان كانت هذه الغشاوة قد عادت الآن على اعين العرب أكثر مما كانت عام ١٩٦٧ ، إلا أنهم ـ فى ذلك الوقت وتحت ضغط الظروف ـ سلموا .. **أن الموقف القومى الموحد هو السبيل الوحيد لكى تظل الدول العربية محتفظة بكيانها وبقوتها قادرة على مواجهة العدوان الاسرائيلى ومقاومته ورفض سيطرته على الأراضى المحتلة .**

بداية الصمود العربى :

هكذا .. لم تقف عناصر الموقف العربى جامدة ، بل تحركت فى إطار مؤتمر القمة العربى الذى عقد فى الخرطوم فى أواخر اغسطس ١٩٦٧ ، حيث وضعت بعض الاسس العامة لاتجاهات السياسة العربية فى صراعها مع اسرائيل . وجميعها كانت اتجاهات رافضة وهى المعروفة باللاءات الأربعة :

لاصلح مع اسرائيل ، ولا اعتراف بها ، ولا تفاوض معها ، ولامساس بحقوق الشعب الفلسطينى فى وطنه .

وبعد ثلاثة أشهر من إجتماع القمة العربية نجح مجلس الأمن فى ظل العقبات العديدة التى وضعتها الولايات المتحدة ، فى التوصل الى قراره الشهير ٢٤٢ فى ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ . والذى تضمن لأول مرة منذ وقوع العدوان ، شجبا لاحتلال

اراضى الغير بالقوة .. وطالب بانسحاب القوات الاسرائيلية من الأراضى المحتلة . وأعلنت مصر قبولها لهذا القرار . على اساس انه يطالب اسرائيل بالانسحاب من جميع الأراضى العربية التى احتلتها نتيجة عدوانها على الدول العربية فى يونيه ١٩٦٧ .

ولاشك فى إن هذا التطور السياسى قد أضاف بعدا جديدا للصراع العربى الاسرائيلى . وخلق شكلا يعطى ملامح بدء مرحلة جديدة من مراحل الصراع .. تأتى فى اعقاب مرحلة سابقة استندت على مظاهر التفكك العربى وعدم الجدية حتى اصبحت طابعا تتسم به تصرفات الزعامات العربية .. مما دفع اسرائيل الى الاعتقاد بحتمية نجاح سياسة الضغط المعنوى على العرب والتى اتبعتها فى اعقاب العدوان . غير أن الصمود العربى قد أفسد كل التقديرات الاسرائيلية. ولمست اسرائيل مع مرور الوقت اصرارا عربيا ومصريا على استعادة مافقد من قوة ، والعمل على رفع القدرات العسكرية العربية الى مستوى افضل من الكفاءة وأصبح شعار هذه المرحلة هو حشد كل الطاقات والامكانات لازالة اثار العدوان .

ورغم هذه الاتجاهات العربية الايجابية فقد ظلت التقديرات الاسرائيلية الخاطئة مستمرة فى السيطرة على السياسة الاسرائيلية . تنتظر ماسوف يتداعى عن نصرها العسكرى من نتائج سياسية .. حتى ديان ظل جالسا ـ على حد قوله ـ «ينتظر رنين الهاتف ليحمل اليه اتصالا عربيا وعرضا بالصلح والاستسلام » .

وطال انتظار ديان وطال انتظار اسرائيل دون ان يحدث هذا الاتصال .. وهنا بدأت اسرائيل ـ وقد استشعرت الفشل ـ تدخل فى دوامة من التخبط السياسى والمحاولات الفاشلة لفرض ارادتها وتحقيق انهيار معنوى عربى .. ولكن ذلك هو الآخر لم يحدث .

فى الواقع أن هذا التخبط وتلك المحاولات الاسرائيلية يرجع سببها الى أن إسرائيل حينما أشعلت الحرب ـ بعد أن أعدت لها اعدادا كافيا ومحكما ـ اعتمدت اعتمادا كاملا على ان النصر العسكرى وحده كفيل بتحقيق كل الأهداف وفاتها أن تدرك ان الخطط العسكرية معها لم تعد كافية لاستقطاب ابعاد الصراع .
ولذلك جاءت ثمار نصرها العسكرى ثمارا فجة غير قابلة للسقوط خاصة أن النصر الذى هللت له كان نصرا زائفا يكاد أن يكون خاليا من أى مضمون .

أما موقف مصر فى هذه المرحلة «مرحلة الصمود » فقد استندت استراتيجيتها على حقائق ومعطيات الموقف فى ذلك الوقت وتلخصت فى الآتى :

(١) أن هناك ارضا عربية يحتلها العدو ويرفض التخلى عنها .
(٢) ان مصر ترفض الاستسلام وتصر على استرداد الأرض والحق .
(٣) أن مصر تؤمن بضرورة العمل على تجميع وحشد الطاقات العربية

ورفع الامكانات العسكرية للعرب حتى يستطيعوا ان يردعوا العدو عن عدوانه وأن يحققوا الفوز فى المعركة المقبلة .. وانصرفت مصر بكل قواها الى اعادة بناء قواتها المسلحة من القاعدة حتى القمة .

التطورات السياسية بعد يونية ١٩٦٧ :

بينما كانت الولايات المتحدة واسرائيل تنتظران سقوط الثمار السياسية لما تحقق من نصر عسكرى .. اتخذ مسار الأحداث فى المنطقة اتجاهات جديدة ، وتطورات سياسية وعسكرية هامة ، كان لها أثرها المباشر على الموقف العام فى المنطقة . وبالتالى على سياسة الولايات المتحدة واسرائيل .

ويمكن حصر أهم التطورات فيما يلى :

(١) بدأ الوجود العسكرى السوفييتى فى البحر المتوسط يأخذ شكلا جديدا .. إذ وسع الاسطول السوفييتى فى هذا البحر نشاطه . وقد ادى ازدياد الوجود العسكرى السوفييتى فى المنطقة فى السنوات التى اعقبت حرب ١٩٦٧ ، الى فرض قيود على حرية العمل التى كان يتمتع بها الاسطول السادس الامريكى فى البحر المتوسط .. وعلى طاقته فى أوقات الازمات المحلية .. كما أضعف من ضمانات الولايات المتحدة الخاصة بالمحافظة على بقاء اسرائيل ودعم وجودها فى المنطقة ، بعد أن اصبحت أكثر إحجاما عن التورط فى حرب عربية اسرائيلية قادمة .

(٢) من ناحية أخرى قام الاتحاد السوفييتى بتقديم المساعدات العسكرية اللازمة لاستعادة المقدرة العسكرية العربية .. وقد تطور هذا الدعم فى هذه المرحلة شكلا ونوعا وكما وفقا لتطورات الصراع فيما بعد ، خاصة فى مجال اعادة تنظيم ودعم جهاز الدفاع الجوى المصرى مما ترك أثره المباشر على الوضع الاستراتيجى بين مصر واسرائيل وزاد من قدرة مصر على التصدى للتفوق الجوى الاسرائيلى .

(٣) تطور الموقف السياسى والعسكرى فى الوطن العربى .. حيث ازداد التقارب بين أغلب الشعوب العربية ، وترسخ احساسها بمدى الخطر المتربص بها وتبلور ذلك فى قرارات مؤتمر القمة العربية فى الخرطوم الذى عقد فى اغسطس ١٩٦٧ .. ثم بدأ تصاعد الأعمال العسكرية على خطوط المواجهة .. خاصة فى جبهة قناة السويس ولتؤكد صمود مصر واصرارها على رفض اطماع اسرائيل والتصدى لها .

(٤) قيام فرنسا بحظر ارسال الأسلحة الى اسرائيل والذى بدأ فى اعقاب عدوان ١٩٦٧ بحظر بيع خمسين طائرة طراز «ميراج» لاسرائيل ، ثم اتسع نطاق الحظر حتى اشتمل على جميع أنواع الاسلحة والمعدات وذلك فى يناير ١٩٦٩ عقب اغارة اسرائيلية واسعة النطاق ضدمطار بيروت المدنى . وهكذا أصبح اعتماد اسرائيل على الأسلحة والمعدات الامريكية بكافة انواعها اعتمادا يكاد يكون كليا . وفى ضوء هذا الحظر الفرنسى اصبحت الولايات المتحدة خالصة لاسرائيل فقط تحميها وتدعمها وتصون بقاءها ، وإذا كان التزام الدفاع عن اسرائيل يحتل دائما أولوية كبيرة فى السياسة الامريكية الخاصة بالشرق الأوسط ، إلا أن هذا الالتزام كان يترجم قبل هذا التاريخ اساسا بوجود الأسطول السادس الامريكى فى البحر المتوسط ، وبالمعونات المالية والهبات العديدة وليس بتحويل اسرائيل الى ترسانة عسكرية مسلحة بالأسلحة الأمريكية .

إسرائيل والحدود الآمنة :

أدت نتائج حرب يونيه ١٩٦٧ الى كشف ابعاد الأطماع الاسرائيلية ومخططاتها الصهيونية التوسعية . واتضح ان هدف اسرائيل الاقصى عام ١٩٦٧ كان هو ضم معظم الأراضى العربية التى احتلتها اليها .. وعرض السلام الاسرائيلى كما يحلو لها على العرب . كان هذا هو رأى الجماعات السياسية المتطرفة التى تعتبر هذه الاراضى بمثابة «أرض محررة» استعادها «شعب اسرائيل بناء على حق تاريخى » .. ولقد كان هذا هو الرأى السائد بين زعماء اسرائيل فى فورة النصر .. حيث تسابق قادة اسرائيل فى اطلاق التصريحات عن الأراضى المحررة و «اسرائيل الكبرى» . غير ان تطورات الموقف العربى دفعت بعض المعتدلين فى اسرائيل للبحث عن الحلول الوسط والوصول الى صيغ تحفظ لها ماتراه حدا ادنى لمكاسبها يمكن قبوله . ويتضمن اقرار حدود أفضل من وجهة النظر الاستراتيجية الاسرائيلية بضم اجزاء كبيرة أو صغيرة من الأراضى العربية ، وبما يوفر لاسرائيل القدر المناسب من التأمين العسكرى فى إطار المفهوم الاسرائيلى للحدود الآمنة .

فما الحدود الآمنة التى تراها اسرائيل ؟ وما أبعاد المخططات الصهيونية تحت ستر «أمن الحدود » ؟

فى أواخر عام ١٩٦٨ حدد ايجال آلون نائب رئيس وزراء اسرائيل فى ذلك الوقت .. « المفهوم الاسرائيلى للحدود الآمنة » باعتبارها غطاء يستر اطماعها ويحجب نواياها ! قال الون فى المقالات التى نشرها بجريدة معاريف حول هذا الموضوع : **«إن الحدود الآمنة هى تلك الحدود السياسية التى ترتكز على عمق اقليمى .. وموانع طبيعية ، مثل المياه والجبال والصحراء والممرات الضيقة التى تحول دون تقدم جيوش برية مزودة بالمدرعات . وهى الحدود التى تمكن**

من اتخاذ وسائل الانذار الفعالة ضد اقتراب الطائرات المعادية من ناحية ، ومن ناحية أخرى .. فإنها الحدود التى يمكن ان تستخدم كقواعد مناسبة للقيام بهجوم مضاد » .

ان هذا التعريف الغريب الذى وضعه ايجال الون للحدود الآمنة .. ليس تعريفا سياسيا أو قانونيا .. أنه توصيف استراتيجي عسكرى .. يفصّل الحدود وفقا لأهواء اسرائيل واهدافها التوسعية . وهو يحمل بين سطوره جوهر العقيدة الصهيونية فى اتجاهين واضحين هما : التوسع والعدوان .

ويتبلور «الاتجاه التوسعى» الصارخ تلقائيا من خلال عناصر الأمن الثلاثة التى حددها الون وهى : العمق الاقليمى الاستراتيجي ، والحدود المرتكزة على موانع طبيعية ، والمجال الجوى الواسع الذى يوفر انذارا مبكرا لاسرائيل .. إن هذه العناصر الثلاثة تؤكد أن أمن الحدود من وجهة نظر اسرائيل لايتأتى الا بضم مساحات واسعة من الأراضى العربية الى اسرائيل وذلك كشرط ضرورى لهذه الحدود التى يجب أن ترتكز على موانع طبيعية وفى نفس الوقت تضم العمق الجغرافى والمجال الجوى الواسع .. وجميع هذه الشروط غير متوافرة فى الحدود الاسرائيلية المعروفة .

أما « الاتجاه العدوانى » فيعتبر أخطر البعدين ، لأنه يلقى الضوء على طبيعة السياسة الحربية الاسرائيلية ونواياها الخبيثة . فانه حتى اذا تحققت التسوية التى توفر لاسرائيل شروطها فى الحدود الآمنة .. فهى لاتكتفى بذلك .. اذ يضيف الون شرطا اخيرا يختتم به توصيفه للحدود فيقول انها الحدود الصالحة « لأن تستخدم كقواعد مناسبة للقيام بهجوم مضاد » .. ومعنى هذا الكلام أن أمن الحدود يكون لاسرائيل فحسب اما جيرانها فيجب أن يحرموا من هذا الأمن وان تبقى الحدود مصدر تهديد لها وقاعدة لعدوان اسرائيلى جديد أو توسعا مرحليا آخر ضد هذه الدول العربية .

إن مطامع اسرائيل التوسعية .. انما تثقل على أمنها بمفاهيم وأبعاد لاعلاقة لها بالمفهوم الحقيقى للأمن .. ذلك لأن الأمن كان وسيظل انسب ذرائعها لشن العدوان والتوسع فى الأراضى العربية ولهذا سوف يستمر « أمن اسرائيل » هو المحرك الأول لأزمتها ، مابقى هذا الأمن ستارا تخفى خلفه ابعاد مخططاتها التوسعية .

الولايات المتحدة تشجع العدوان الاسرائيلى :

فى أوائل الخمسينيات تعهدت الولايات المتحدة ومعها بريطانيا وفرنسا فى بيان شهير اصدرته الدول الثلاث وسمى « البيان الثلاثى » بضمان استقلال كافة دول منطقة الشرق الاوسط وسيادتها .. وقد اثبتت الأحداث ان الولايات المتحدة لم تكن

تعنى بهذا التعهد ، سوى حماية دولة واحدة فى الشرق الأوسط هى اسرائيل .. واذا كان ايزنهاور قد اضطر الى اتخاذ موقف خاص بالنسبة لعدوان اسرائيل على مصر عام ١٩٥٦ . فإن جونسون كان واضحا فى سياسته المؤيدة والمنحازة تماما لاسرائيل .. رغم المبادىء الخمسة التى أعلنها فى ٩ يونيه ١٩٦٧ عقب توقف القتال والتى تضمنت :

- حق كل دولة فى الحياة واحترام جيرانها لها .
- حل قضية اللاجئين حلا عادلا .
- احترام الحقوق السياسية والاقليمية لكل دولة فى المنطقة .
- وقف سباق التسلح فى الشرق الأوسط .
- احترام حرية الملاحة البحرية وحق المرور البرىء فى الممرات الدولية .

وبعد ذلك بأيام عاد جونسون ليؤكد أن الولايات المتحدة « تعارض بشدة العدوان بمختلف صوره فى المنطقة » ، وأضاف ان هذه السياسة «كانت هى السياسة التى انتهجها اربعة من رؤساء الولايات المتحدة هم الرئيس ترومان ، والرئيس ايزنهاور ، والرئيس كنيدى وانا » .

رغم كل هذه الأقوال الحماسية والمبادىء الدولية الطيبة التى نادى بها جونسون ، فإن سير الاحداث لم يتفق ابدا معها .. بل انه أكد بما لايقبل الجدل ، انه لم يكن يعنى ماأعلنه من قريب أو بعيد . فهو لم يصر على حرمان المعتدى من ثمرة عدوانه ، ولم يرفض مبدأ احتلال أرض الغير بالقوة المسلحة ، ولم يتعرض لانسحاب اسرائيل من الأراضى التى احتلتها فى يونيه ١٩٦٧ . بل كان على العكس من ذلك تماما . فقد اتخذت السياسة الامريكية موقفا شديد الانحياز لاسرائيل فى المحافل الدولية .. بعد أن قبلت ان تتحول الى المورد الأول للسلاح للدولة التى شنت الحرب ورفضت نداءات السلام .

كان هذا الموقف الامريكى هو مفتاح التعنت الاسرائيلى وسببا فى استمرار اسرائيل فى تمسكها برفض الانسحاب وتنفيذ قرار مجلس الامن ٢٤٢ القاضى بذلك . بل بلغ التبجح بمناحم بيجين ان صرح فى مايو ١٩٦٨ : أن الأرض العربية المحتلة هى ارض اسرائيلية حررتها اسرائيل من الحكم الأجنبى غير الشرعى !! وانها أرض الاجداد التى طرد منها الشعب اليهودى قبل ١٨٩٨ سنة !! وبعد ذلك لجأت اسرائيل - بدلا من السعى نحو السلام - الى تصعيد اعمال القتال فى جبهة قناة السويس .. وشن حرب جوية ضارية بالطائرات الامريكية التى كانت تتدفق عليها دون حساب .

وقد ايدت الولايات المتحدة وشجعت تزايد الضغط العسكرى والمعنوى ضد مصر أملا فى احداث تغيير فى قدرتها على الصمود ، لقد بذلت الولايات المتحدة منذ جولة يونية ١٩٦٧ قصارى جهدها لاحباط كافة المحاولات التى بذلت لتحقيق السلام العادل فى المنطقة بادانة العدوان الاسرائيلى وتحقيق انسحاب القوات

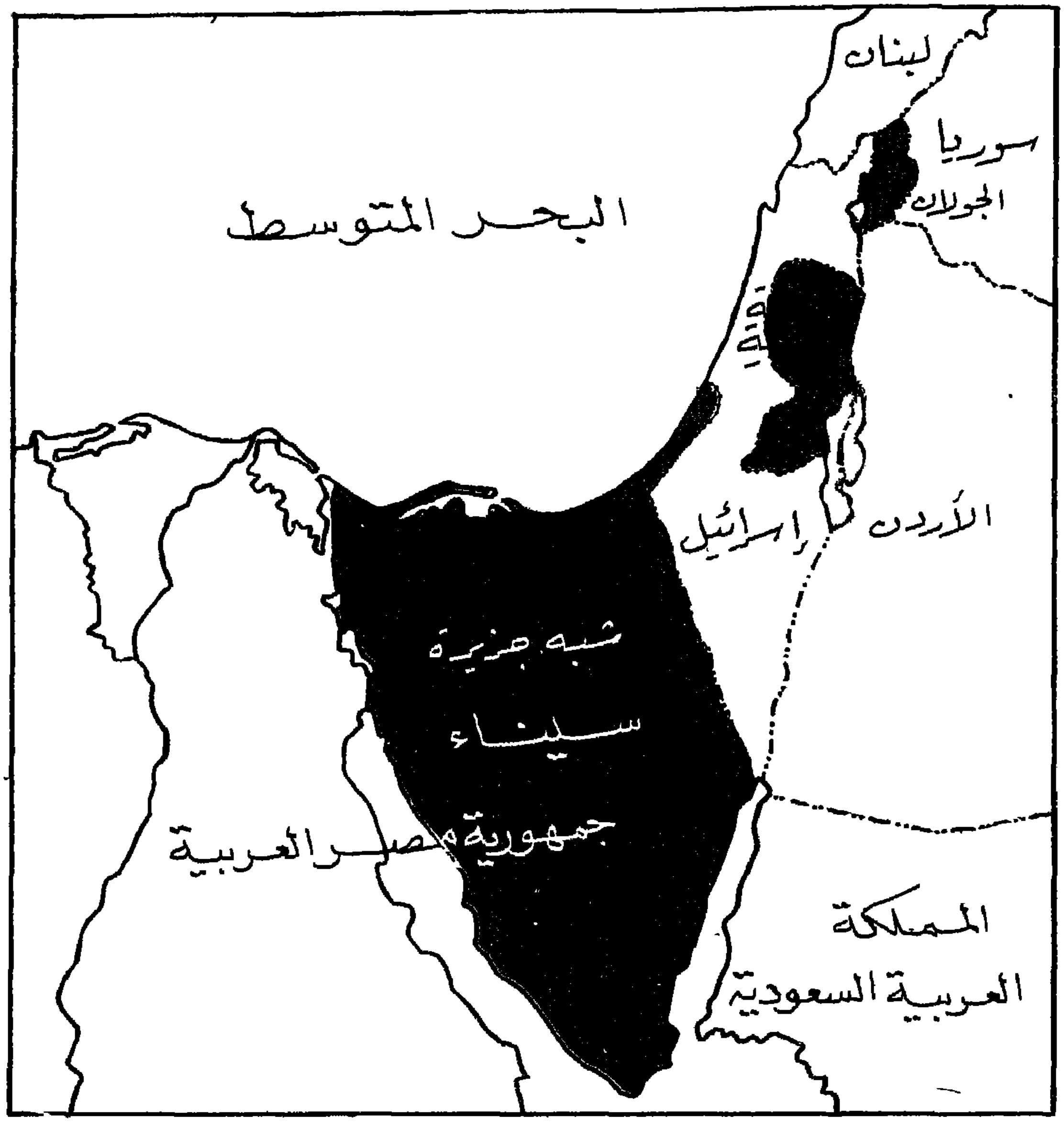

المرحلة الثالثة للتوسع الاسرائيلي - الأراضي التي احتلتها اسرائيل عقب عدوان ١٩٦٧

الاسرائيلية ، وظهر نشاطها المؤيد لاسرائيل واضحا فى ثلاثة مجالات هى · فى مجال الأمم المتحدة ، ومجال الامداد بالسلاح والمساعدات العسكرية والاقتصادية لاسرائيل ، وأخيرا فى مجال السياسة الدولية بالعمل على الاقلال من فاعلية مساندة الاتحاد السوفييتى للعرب فى نزاعهم مع اسرائيل .

ففى مجال الأمم المتحدة تكفلت الولايات المتحدة بوقف القرارات التى تصدرها الأمم المتحدة وتكون فى غير صالح إسرائيل التى لاتملك التأثير السياسى اللازم فى مثل هذه الأحوال . وقد تولت الولايات المتحدة القيام بهذا الدور الذى يعتبر عملا حيويا فى نظر اسرائيل كوسيلة مضمونة لتغطية طبيعة اعمالها العدوانية ، ولأن الولايات المتحدة تملك من وسائل الضغط السياسى والاقتصادى مايمكن أن يؤثر على مواقف الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة لمنع صدور اى قرار يدين اسرائيل أو يفرض عليها عقوبات ايا كان نوع العدوان الاسرائيلى أو حجمه او ابعاده . ولعل فى صدور قرار وقف اطلاق النار فى يونيه ١٩٦٧ - ولأول مرة فى مثل هذه الظروف ، دون اى اشارة الى انسحاب القوات المعتدية - خير دليل على الدور الهام المعادى للعرب الذى لعبته الولايات المتحدة فى هذا المجال .

أما فى مجال المساعدات العسكرية .. فرغم ان الأهداف المعلنة للولايات المتحدة وقتئذ بشأن وقف سباق التسلح فى المنطقة . فإن استراتيجيتها المنفذة فى المنطقة كانت بعكس ذلك تماما .. فهى لم تكن ترمى على الاطلاق الى تحقيق الاحتفاظ بمستوى القوى عند حد المساواة بين اطراف النزاع .. ولكنها كانت ترمى الى تحقيق وضمان التفوق العسكرى الكامل لاسرائيل على اى مجموعة من الدول العربية . كانت تلك هى سياسة الولايات المتحدة واستراتيجيتها التى تحققت اهدافها العسكرية فى يونيه ١٩٦٧ .

★ ★ ★

كان لمنطقة الشرق الأوسط ومازالت أهميتها الكبيرة فى استراتيجية القوة للولايات المتحدة القائمة اساسا على حماية المصالح الامريكية فى انحاء العالم .. لقد بدأ هذا الاهتمام منذ زمن بعيد ولأسباب كثيرة اقتصادية وسياسية وعسكرية .. لذلك تسعى الولايات المتحدة دائما للسيطرة عليها ومحاولة الاحتفاظ باكبر قدر من النفوذ فيها .. ولقد تطلب تحقيق هذا الهدف سلوك السياسة الأمريكية فى ذلك الوقت فى المنطقة لمسلكين اساسيين :

- الوقوف فى وجه حركات التحرر العربية لمنع أى «تلاحم استراتيجى» فعال يحدث فى العالم العربى .. حتى لايشكل هذا التلاحم قوة ضاغطة مؤثرة على الموقف الاستراتيجى العام فى منطقة الشرق الأوسط بالذات .

- محاولة احتواء اى وجود مادى للاتحاد السوفييتى داخل منطقة الشرق الأوسط أو على الاقل ايجاد حالة من التوازن الاستراتيجى العام بين الولايات

المتحدة والاتحاد السوفييتى فى المنطقة .

لقد وجدت الولايات المتحدة فى استراتيجية « الحرب المحدودة » بغيتها التى يمكن ان تحقق من خلالها اهداف السياسة الامريكية دون اقتراب من محاذير «التوازن النووى» . وليس ثمة شك فى أنه كان من الأفضل الا تشترك الولايات المتحدة اشتراكا مباشرا فى مثل هذه الحروب ، خاصة فى منطقة حساسة كمنطقة الشرق الأوسط . لذلك كان من مستلزمات هذه الاستراتيجية خلق قوى محلية موالية لها فى المناطق ذات الأهمية الحيوية .. والتى تقع فى مركز استراتيجى مناسب .. بحيث يمكن لهذه القوى ـ مع دعمها ، دعما مباشرا ـ أن تحقق اهداف السياسة الأمريكية فى هذه المناطق الحساسة .

وكانت ايران فى هذه المرحلة من مراحل الاستراتيجية الأمريكية هى الدولة الموالية للولايات المتحدة فى منطقة الخليج وحامية مصالحها . كما أصبحت اسرائيل ـ هى الدولة الوحيدة فى المنطقة العربية التى تتوافر فيها الشروط . فهى كيان دخيل ومعاد فى قلب المنطقة ، وهى موقع استراتيجى متميز من السهل ـ بعد تدعيمه ـ مد السيطرة من خلاله الى مناطق اخرى حيوية .. وهى الدولة الموالية التى تستمد وجودها اصلا من الغرب وخاصة الولايات المتحدة واخيرا فهى حركة سياسية عنصرية مضادة تتطابق اهدافها ومصالحها نسبيا مع اهداف ومصالح الولايات المتحدة فى المنطقة او هكذا اوحت قوى الصهيونية العالمية للولايات المتحدة بذلك . ولذلك فعندما وقعت الجولة الثالثة بين اسرائيل والعرب فى عام ١٩٦٧ .. وفى ضوء سياستها هذه اعتبرت الولايات المتحدة النصر الاسرائيلى نصرا للمصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط .

الاتحاد السوفييتى فى جانب العرب :

لاشك فى أن الاتحاد السوفييتى قام بدور اساسى وحاسم فى دعم القدرات الدفاعية العربية بعد يونيه ١٩٦٧ ، ومعاونة الدول العربية المتضررة معاونة فعالة فى اعادة بناء قواتها المسلحة وعلى رأس هذه الدول مصر . فقد ادرك الاتحاد السوفييتى أن ضرب النظم التحررية فى العالم العربى يعنى نجاح الولايات المتحدة فى فرض حصار يؤثر تأثيرا مباشرا عليه وقد يكون مقدمة لمواجهة محتملة بينه وبين الولايات المتحدة ولو بطريق غير مباشر فى أوربا ذاتها .

من ناحية أخرى فان تماسك الجبهة الداخلية المصرية ووقوفها خلف قيادتها واستمرار الوحدة الوطنية كل ذلك ادى الى تزايد التعاطف الدولى مع القضية العربية ، بذلك اتخذ الدعم السوفييتى شكلا منطقيا وعادلا ، فضلا عن ذلك فإن الصمود العربى الذى نبع من رفض العرب قبول الأمر الواقع المترتب على هزيمتهم عام ١٩٦٧ ، ومن احساسهم بالقدرة على تغييره ، قد وجد الدعم المادى الضرورى

لتكريس هذا الصمود فى المساعدات السريعة التى قدمها الاتحاد السوفييتى .. لقد قام الاتحاد السوفييتى بدوره كاملا فى تثبيت دعائم الصمود العربى فى وجه الصراع بما حول التهديد الاستعمارى المباشر أو غير المباشر ليصبح صراعا على المستوى الدولى .

أن موقف الاتحاد السوفييتى النابع اساسا من مصالحه الحيوية وصراعه المستمر مع الولايات المتحدة ، إنما يعود كذلك الى عدالة اهداف الصراع على الجانب العربى ، وحق هذا الجانب فى الدفاع عن نفسه واسترداد الأراضى التى اغتصبت عام ١٩٦٧ ، وعلى ذلك فقد تبلور الموقف السياسى السوفييتى فى ذلك الوقت تجاه الصراع العربى الاسرائيلى فى نقطتين :

● عدم السماح ـ تحت اى ظروف ـ بتعرض العرب لضغوط عسكرية تحد من امكاناتهم النامية أو تنال من قدرتهم على الصمود وتعرضهم لاحتمالات هزيمة عسكرية جديدة .

● تأييد العرب تأييدا سياسيا كاملا وتقديم الدعم العسكرى اللازم للدفاع عن حقهم المشروع والمحدد وهو «ازالة الآثار التى ترتبت على عدوان يونيه ١٩٦٧ » .

وليس ثمة شك فى أن هذا الموقف من الاتحاد السوفييتى قد فرض قيودا على حرية العمل الاسرائيلى ، وترك اثرا سيكولوجيا وماديا على اسرائيل وكان احد الأسباب الهامة لقبولها المبادرة الأمريكية فى اغسطس ١٩٧٠ .

وسوف نتناول الجانب العسكرى والاستراتيجى لمرحلة الصمود وماتتبعها من تطورات ومن أعمال القتال فى جبهة قناة السويس وهى الأعمال التى فتحت الطريق امام القوات المسلحة المصرية للتحرك نحو الهدف الاسمى .. هدف العبور وتحرير الأرض .

المرحلة الضرورية :

ان صدمة النصر لدى اسرائيل ـ كما سبق القول ـ لم تكن أقل من صدمة الهزيمة لدى العرب ، وإن اختلفت أسباب وآثار الصدمة ونتائجها لدى كل طرف . ومن آثار صدمة النصر لدى الاسرائيليين ، ماتملكهم من شعور قاتل بالغرور ، وماصبغ تناولهم للأزمة بصبغة من التعنت والصلف .. وهم لو أمعنوا النظر قليلا لما وجدوا مايبرر كل هذا الغرور وذلك التعنت .

ومن المؤكد ان موقف الولايات المتحدة عقب الحرب ، ذلك الموقف المساند للعدوان والمؤيد للاحتلال ، قد لعب دورا هاما فى تعميق هذه المشاعر المريضة لدى الاسرائيليين ، تلك المشاعر التى أدركت مصر أبعادها واستفادت منها بعد ذلك والى اقصى حد عند قيامها بالتخطيط لحرب أكتوبر ١٩٧٣ .

كما يلاحظ أيضا أنه بقدر ماصرفت صدمة النصر الاسرائيليين عن جادة الصواب .. بقدر مادفعت صدمة الهزيمة العرب فى الاتجاه الصحيح . فاستوعبوا الدرس .. وصححوا الأخطاء .. ولما كانت الدروس التى أفرزتها التجربة المريرة أمام العرب .. مترامية الابعاد متعددة الاتجاهات سياسيا وعسكريا ومعنويا .. لذلك أخذ استيعابها وقتا قد يبدو للبعض طويلا وقد يبدو للبعض الاخر قصيرا ، ولكنه وقتا ضروريا ذهب فى المراجعة وفى إعادة البناء على أسس جديدة تدريبية وتخطيطية ومعنوية سليمة .

وفى الحقيقة فان مرحلة هذه السنوات الست ، كانت مرحلة طويلة مليئة بالمعاناة فضلا عن الجهد والعرق والدم ولكنها كانت مرحلة ضرورية فلولاها لما امكننا تحقيق نصر أكتوبر . لذلك فمن الخطأ فى حق مصر وتاريخها الحديث ان نتجاوز أو نتغاضى عن هذه المرحلة الهامة .. أو أن نقفز فوقها من أجل سرعة الوصول الى احداث حرب أكتوبر ١٩٧٣ . كما ان اى محاولة للاقلال من أهميتها أو من آثرها على نصر أكتوبر ١٩٧٣ .. يهدم الاساس العسكرى والمعنوى الذى بنى عليه هذا النصر . لأنه لايمكن أن يكون قد جاء من فراغ .

من الضرورى اذن أن نتعرض لهذه المرحلة الصعبة وتطورات الاحداث فيها لكى ندرك كيف قضت القوات المسلحة الفترة مابين الهزيمة والنصر ، وكيف تخلصت من أسباب الهزيمة وارست قواعد النصر .. فأن مابذل خلال هذه الفترة أو المرحلة من جهد العاملين والمقاتلين فضلا عن دماء الشهداء ، وما نفذ فيها من حجم هائل من الأعمال سواء كانت أعمال قتال أو تجهيزات هندسية لصالح الدفاع ثم طورت لتصبح فى صالح الهجوم .. أو تدريبا شاقا مستمرا ومناورات عسكرية لم تتوقف لرفع مستوى الأداء القتالى للقوات .. وماحققته هذه الأعمال الكبيرة من نتائج حيوية كان لها تأثيرها الفعال والعميق على مسار الحرب ، يجعلنا نعتبر هذه المرحلة حربا اخرى وقعت بين الحربين ، حربا قائمة بذاتها .. كانت بمثابة جولة رابعة سبقت الجولة الخامسة التى وقعت فى أكتوبر ١٩٧٣ .. والتى يمكن أن نسميها « الحرب الانتقالية » خاصة فى فترتها التى عرفت بـ « حرب الاستنزاف » .

فما الذى حدث خلال تلك السنوات وكيف تطورت احداثها .. وكيف ساهمت الولايات المتحدة بموقفها المتحيز فى جعل الصراع العسكرى امرا حتميا لايمكن تجنبه ؟ ثم المراحل التى مرت بها الأحداث العسكرية من نهاية حرب يونيه حتى قيام حرب أكتوبر .. ذلك ماسنتناوله فيما بعد .

● ● ●

فى حديثنا عن حتمية المعركة اجدنى مدفوعا للعودة الى قرار الانسحاب العشوائى الذى اتخذ فى عام ١٩٦٧ . فلاشك أن القيادة العسكرية المصرية العليا عندما اتخذت قرار الانسحاب من سيناء مساء يوم ٦ يونيه ١٩٦٧ ، كانت تتخيل

خطأ امكان تكرار ماحدث فى عام ١٩٥٦ مرة أخرى ، سواء بالنسبة للانسحاب ذاته والذى تم وقتها بنجاح . أو بالنسبة لانسحاب اسرائيل من سيناء بعد ذلك بعدة اشهر فقط ، وجاء الخطأ الفادح نتيجة لعدم تقدير مدى التباين الشديد فى كل ظروف الموقف وملابساته السياسية والعسكرية فى الحالتين كما سبق القول .

وليس ثمة شك فى أن اختلاف موقف الولايات المتحدة فى عام ١٩٦٧ عن موقفها فى عام ١٩٥٦ كان هو العامل الجوهرى الذى اثر على تطور الاحداث السياسية فى اعقاب الحرب عام ١٩٦٧ . وفى الواقع فان موقف الولايات المتحدة المعارض لحرب ١٩٥٦ لم يكن هدفه الدفاع عن ثورة مصر أو الوقوف بجانب الشعب المصرى الذى تعرض لعدوان غاشم . ولكن كان بهدف اخر ، هو تأديب الشركاء المخالفين لسياسة الولايات المتحدة والحلفاء المتمردين على توجهاتها والخارجين عن طاعتها وهم : بريطانيا وفرنسا واسرائيل .. الذين تواطئوا معا من خلف ظهر الولايات المتحدة على غزو مصر واحتلال اراضيها . من ناحية اخرى فان موقف الرئيس الامريكى ايزنهاور عام ١٩٥٦ كان أكثر صدقا مع النفس وأكثر حرصا على المصالح الحقيقية للولايات المتحدة . بينما كان الرئيس جونسون فى عام ١٩٦٧ ، أكثر عداء لثورة مصر وحقدا عليها ، مع تحيز كامل الى جانب اسرائيل ، ورغبة شديدة فى الانتقام من مصر والقضاء على ثورتها الوطنية .

وكان الاسرائيليون قد استوعبوا اسباب الفشل الذى حدث لهم عام ١٩٥٦ ، واضطرارهم الى الانسحاب من سيناء بعد عدة شهور فقط نتيجة لضغوط سياسية عنيفة لم يكن للاسرائيليين القدرة على مواجهتها .. لذلك غيروا سياستهم تماما بعد عام ١٩٥٦ . واتجهوا بكل ثقلهم نحو العمل على استدراج الولايات المتحدة الى جانبهم ، وقد نجحوا خلال خمس سنوات (من عام ١٩٥٧ الى عام ١٩٦٢) فى تحقيق هدفهم ـ كما سبق أن أوضحنا ـ باستقطاب السياسة الامريكية لتكون فى جانبهم وفى جانب عدوانهم واحتلالهم لاراضى الغير .

ونلاحظ هنا انه ما أن انتهت الحرب حتى ظهر الموقف الامريكى مؤيدا تأييدا كاملا وسافرا للعدوان الاسرائيلى . فلم تقدم الولايات المتحدة على اية محاولة لدفع اسرائيل الى الانسحاب من الاراضى التى احتلتها بالقوة فى يونية ١٩٦٧ . بل لقد ساندت اسرائيل فى رفض الانسحاب بحجة ضرورة التوصل أولا الى اتفاق سلام نهائى بين دول المواجهة العربية واسرائيل . فى ظل ظروف الاحتلال الاسرائيلى .. وبالتالى تحقيق السلام بالاذعان للشروط الاسرائيلية .

لم تكتف الولايات المتحدة بهذا الدعم السياسى الكبير لاسرائيل وهو دعم بعيد عن الحق . فضلا عن المساعدات والمعونات والهبات المالية التى كانت تتدفق عليها بلا حدود .. بل انها تبنت فى نفس الوقت سياسة الدعم العسكري المباشر والكامل لها ، ففتحت ترسانتها الحربية لتأخذ اسرائيل منها ماتشاء . خاصة بعد

ان اعلنت فرنسا - فى عهد ديجول - فرض الحظر الكامل على ارسال الاسلحة والمعدات الحربية الى اسرائيل فى عام ١٩٦٩ فى اعقاب قيامها بالاغارة على مطار بيروت المدنى .. وقد حرصت الولايات المتحدة على ان تضمن لاسرائيل تفوقا عسكريا على اية مجموعة من الدول العربية مجتمعة .

هكذا أصبح واضحا لمصر ولدول المواجهة العربية أنهم يواجهون وضعا جديدا يؤكد أن أمامهم خيارين : إما الاذعان لشروط اسرائيل وهى تحتل اراضيهم . أو قبول الاحتلال الاسرائيلى لهذه الأراضى لسنين طويلة . ولم تقبل مصر أو العرب أيا من الخيارين . وكان الخيار الثالث والحتمى هو اعادة بناء القوة العسكرية العربية استعدادا لخوض المعركة من أجل استعادة الحقوق العربية المغتصبة .

★ ★ ★

لاشك فى أن هذا الموقف الأمريكي كان وراء التعنت الاسرائيلي والاصرار على استمرار العدوان على الأرض العربية ورفض اى حلول سلمية بشروط غير شروط اسرائيل . وكان طبيعيا ان يثير هذا العدوان الاسرائيلى على الأرض والشعوب العربية عداء العرب ، وان يعمق هذا العداء التجاهل الاسرائيلى المستمر للحقوق العربية فى النفوس العربية .

من ناحية أخرى فان النصر الكبير الذى حصلت عليه اسرائيل بثمن بخس ، قد اعمى بصيرتها ووسع من دوائر احلامها وطموحاتها ، فتعددت اخطاؤها وابتعدت تقديراتها عن الواقع حيث خالطها الغرور . فتحولت هذه الاخطاء الى مآزق صعبة واجهتها ومازالت تواجه معظمها حتى اليوم .. فاسرائيل تعتمد فى تنفيذ مخططها التوسعى على اسلوب استعمارى فى عصر انتهى فيه الاستعمار بكل صوره بما فيه الاستعمار الاستيطانى الذى يتم على حساب شعب عربى صاحب الأرض هو الشعب الفلسطينى باستخدام وسائل بشعة من القهر والتنكيل . يحدث ذلك من خلال فرضية خاطئة عن منطق القوة يحول تفوق عسكرى تظنه وقفا عليها أو أنه يمكن ان يستمر الى الابد وهم الأقلية المحدودة المتسلطة على اغلبية ساحقة كاسحة من العرب المحيطين بهم .. هذه الاقلية فرضت على نفسها العزلة .. واصبح وجودها فى اطار هذا السلوك الشاذ مرفوضا .. ولكنها تعتمد على ما سمته « الذراع الطويلة » أو سياسة « اليد العليا » ، فى عصر توافرت فيه الوسائل القادرة على بتر هذه الذراع الطويلة وشل تلك اليد العليا .. يصاحب ذلك كله اعتقاد خاطىء بان الالتصاق بقوة كبرى تستمد منها عناصر الحياة ومتطلبات البقاء ووسائل الحماية يمكن ان يؤمن كيانها حتى نهاية التاريخ .

أما نظرياتها الأمنية فهى نظريات خادعة تقوم على مفاهيم غير واقعية وتحاول ان تستمد الأمن من عناصر غير طبيعية لاتستقيم مع الواقع ولاتملك القدرة على البقاء فى المستقبل البعيد .. فهى نظريات تتستر تحت حجة «الأمن» وتضم اليها اراضى الغير وتحاول أن تطرد الشعوب من مواطنها .. وهى تطلق شعارات مضللة

مثل شعار « الدفاع عن النفس » وتستخدمه كوسيلة لقهر الشعب الفلسطينى واخراجه من دياره ومحاولات ابادته التى لم تتوقف حتى يومنا هذا .

واخيرا فان الاعتقاد بان فرقة العرب يمكن ان تستمر ضد اتجاه التاريخ وانها قد اصبحت سمة من سمات الامة العربية ، هو وهم كبير ، رغم كل المحاولات والوسائل المصطنعة والمسخرة لاستمرار هذه الفرقة والتشتت خدمة لاسرائيل وضمانا زائفا لاستمرار بقائها . فربما يعانى العرب من فترة خلخلة تاريخية يمرون بها . هى نتيجة حتمية لتحولهم الحضارى بعد عصور طويلة من الاستعمار والاستبداد .. ليصلوا الى الآفاق القومية الصحيحة التى سوف تقودهم ـ بحكم المصالح المشتركة والمصير الواحد ـ الى وحدة الكلمة والاصرار على مواجهة العدوان وحشد الطاقات والامكانات العربية الكبيرة من أجل التصدى له .

لقد اخطأت إسرائيل فى تصورها لسير الصراع ، عندما انتهت جولة يونيه ١٩٦٧ بنصر كبير حققته ماكانت تحلم به وهزيمة قاسية انزلها العرب بأنفسهم ، فظنت انها الحرب التى انهت كل الحروب .. وانه النصر الذى ازال كل المآزق ومحا كل الأخطاء .. وان العرب لم يبق امامهم سوى الاستسلام .. ولم يكن ذلك كله حقيقيا أو حتى قريبا من الحقيقة .

فقد رفض العرب الهزيمة كما رفضوا الاستسلام ، وأصروا على أن يواجهوا العدوان وأن يصمدوا أمام كل أنواع الضغوط العسكرية والسياسية والاقتصادية .. من أجل لحظة سوف تأتى يمكنهم فيها تحقيق اهدافهم واستعادة حقوقهم .. تلك كانت حقيقة الموقف العربى بعد هزيمة يونيه ١٩٦٧ .. وهى الحقيقة التى مثلت حجر الاساس فى سياسة مصر واستراتيجيتها التى بنتها خلال سنوات ما بعد النكسة .. ووضعت فيها خلاصة تجاربها الصعبة فكانت هى الطريق السليم نحو الصمود القوى والدفاع عن الحقوق والنصر الذى تحقق .

استراتيجية جديدة :

كان لزاما أن تواجه مصر قدرها وان تعدل أوضاعها وتضع الاسس والمبادىء السياسية والعسكرية السليمة التى ستقود مسيرتها الشاقة المقبلة عليها .. فبدأت ترسى قواعد جديدة لاستراتيجيتها نابعة من حقائق الموقفين السياسى والعسكرى اللذين برزا فى اعقاب الهزيمة .. وكانت ابرز حقائق هذين الموقفين ان اسرائيل قد احتلت الأرض العربية فى عدوان يونيه ١٩٦٧ لكى تبقى فيها ويمتد احتلالها لاعوام طويلة قادمة ، تساندها الولايات المتحدة سياسيا وتمدها بكل اسباب الحياة والبقاء وبكل أسباب القوة العسكرية بحيث تكون قادرة على الوقوف فى وجه العرب .. كل العرب .

وعلى هذا الاساس بدأت مرحلة جديدة من العمل ، مرحلة تتطلب عملا جادا أو اعدادا عربيا حقيقيا لمعركة عسكرية مقبلة ، لابد أن يخوضها العرب يوما ان ارادوا استعادة أرضهم وحقوقهم التى اغتصبتها اسرائيل . **ووضعت مصر المنطلقات الاساسية لبناء هذه الاستراتيجية الجديدة النابعة من ظروف الهزيمة ومواقف الأطراف المختلفة منها .. ويمكن تحديد هذه المنطلقات فى العناصر الثلاثة التالية :**

١ - ان القضية الفلسطينية قضية عربية فى المقام الأول . ومن ثم فهى مسئولية الأمة العربية كلها بلا استثناء . **فعلى هذه الأمة أن تحشد امكاناتها من أجل التصدى لمخططات اسرائيل التوسعية ، وعلى كل عضو فيها ان يساهم بقدر طاقته واستعداده وحسب قدراته الفعلية فى ازالة اثار الهزيمة التى لحقت بالامة العربية فى يونية ١٩٦٧ .**

٢ - ان وجود مصر القوية ضمن الأمة العربية وعلى ساحتها ، قد ادى الى تجمد المخططات التوسعية الصهيونية واعاق انطلاق المطامع الاسرائيلية فى الأرض العربية لسنوات طويلة بدأت مع قيام اسرائيل عام ١٩٤٨ واستمرت حتى وقوع الهزيمة فى عام ١٩٦٧ . وخلال هذه الفترة وقع عدوان ثلاثى غاشم على مصر فى عام ١٩٥٦ اى بعد ثمانى سنوات فقط من قيام اسرائيل وتحملته مصر وحدها وكان لصمودها اثره الكبير فى فشل هذا العدوان . ومع ذلك كله لم تحاول الأمة العربية - رغم امكاناتها الكبيرة - ان تستفيد من هذه الظروف أو تحاول بجدية استعادة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى .

وامتدادا لنفس الموقف ظلت مصر حريصة على التمسك بدورها القيادى العربى بالرغم من تداعيات الهزيمة والتى كان من شأنها ان تؤدى الى تقليص هذا الدور وفقدانه لأثره على وحدة العمل العربى ، **وعلى ذلك فقد استمرت مصر ، رغم هزيمتها فى حرصها على القيام بدورها القومى وبالتزاماتها العربية .. وفى جمع كلمة العرب وحشد امكاناتهم المتنوعة كاملة من اجل المعركة القادمة .**

٣ - ان احتمال التوصل الى حل سياسى فى هذه المرحلة ، اصبح امرا مستبعدا ففى ظل الموقف الامريكى المنحاز لاسرائيل والمساند لها سياسيا واقتصاديا وعسكريا .. وموقف اسرائيل الرافض المتعنت .. لم يكن يلوح فى الأفق وجود فرصة حقيقية للتوصل الى حل عادل يؤدى الى سلام دائم فى الشرق الأوسط .. **ولذلك اصبح من الضرورى اعادة البناء العسكرى العربى على اساس سليم نابع من تجربة النكسة ومن دروسها المستفادة**

● ● ●

كانت تلك هى العوامل السياسية التى ارست القواعد العامة لاستراتيجية مصر فى اعقاب نكسة يونية ١٩٦٧ والتى تبلورت فى النقاط الأربع التالية :

To: www.al-mostafa.com

١ ـ ان مصر وان كانت قد خسرت معركة الا انها لم تخسر حربا .. كما ان الشعب المصرى الذى يعتبر أن معركة يونيه ١٩٦٧ لاتمثل نهاية المطاف .. يرفض الاستسلام رفضا كاملا ويصر على استرداد كل مافقده .

٢ ـ ان واجب مصر ان تعمل بكل ماتملك من قوة لتحرير ارضها المحتلة .. على اساس مبدأ ان «ماأخذ بالقوة لايسترد بغير القوة » .. لذلك فمن الضرورى التركيز الكامل على اعادة تنظيم وبناء القوات المسلحة من القاعدة الى القمة .. وتحديد مهمتها الاساسية لتكون هى « التفرغ الكامل للدفاع عن تراب مصر وتحرير الأرض المحتلة والدفاع عن الحقوق القومية للعرب » .

٣ ـ ان الجبهة الداخلية فى مصر يجب أن تقوم بمهمتها فى حماية ظهر القوات المسلحة وتقديم الدعم المادى والمساندة المعنوية لها .. ويتم ذلك من خلال تعبئة هذه الجبهة فى شتى المجالات من أجل معركة تحرير الأرض وازالة اثار العدوان ، مع حشد كل طاقات الدولة لهذا الغرض .

٤ ـ لما كانت المعركة معركة عربية واحدة .. وكان هدف العدوان عام ١٩٦٧ هو ضرب القومية العربية لذلك تسقط مصر الشعارات التى تفرق بين نظم الحكم العربية من خلال توجهاتها السياسية .. وذلك من أجل تحقيق تضامن عربى قوى :

- يحمى الأمن القومى للأمة العربية .
- يحشد الطاقات المتاحة لكل بلد عربى ضد العدو المشترك .
- يساهم فى بناء الجيوش العربية ويحقق تنسيقا كاملا بين هذه الجيوش وبين اهدافها .
- يعبىء الشعوب العربية لصالح المعركة سياسياومعنويا وعسكريا .

إعـــادة البنـــاء :

فى واقع الأمر فان سنوات مابعد النكسة وان كانت فترة طويلة نوعا ، الا أنها كانت من أهم وأخطر المراحل الضرورية للتخلص التدريجى من اثار الهزيمة والانتقال الى افاق النصر . لذلك فان الوقت والجهد اللذين بذلا خلالها لم يذهبا هباء .. فإنها كانت فترة حافلة بالعمل المتصل والاستعداد العسكرى الجاد الذى لم يعرف الكلل .

فبعد يونية ١٩٦٧ ادرك شعب مصر وادركت قواته المسلحة ان ماحدث فى ذلك الوقت من هزيمة عسكرية وانتكاسة سياسية ، وماترتب على ذلك من اثار وعواقب بعيدة المدى ، كانت نتائج حتمية لسلبيات مصرية وعربية ترسبت خلال النصف الأول من حقبة الستينيات واخذت شكل « العجز السياسى » و «القصور العسكرى » . وكان لابد من العمل الجاد المستمر للتخلص من هذه السلبيات والقضاء على اثارها وازالة كل أسبابها السياسية والعسكرية والمعنوية .

ومنذ ذلك التاريخ وضعت مصر هذا الأمر نصب اعينها وجعلته هدفا قوميا يجب تحقيقه باى ثمن فى مقابل أن نستعيد مافقدناه من ارض وكرامة فى يونيه ١٩٦٧ .. بل وتجاوز هذه المرحلة الى مرحلة أكثر اشراقا وأمنا . وكانت الخطوة الأولى فى هذا الاتجاه هى تحديد افضل الوسائل اللازمة لانجاز الهدف .. واضعين فى الاعتبار اننا نواجه عدوا يتسم بالعناد والاصرار والخداع فضلا عن صلافة بلغت حد الغرور . لقد آمنت مصر وآمن جيشها ان «ما اخذ بالقوة لايسترد بغير القوة » .. والقوة هنا لم تكن تعنى القوة العسكرية فحسب ، بل القوة بكل انواعها ومظاهرها وادواتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والمعنوية بالاضافة طبعا للأداة العسكرية . هكذا ارست مصر ركائز خطتها لاعادة تنظيم وبناء قواتها المسلحة ، وحدد لها اتجاه محورى واضح المعالم محدد الاهداف والادوات .

وكان طبيعيا ان يكون الهدف لمصر فى اعقاب النكسة مباشرة . هو البدء الفورى فى اعادة بناء القوات المسلحة ومعالجة الشرخ المعنوى الذى اصاب القوات وهز تماسكها وثقتها .. خاصة بعد أن تحمل رجالها وحدهم ، وزر الهزيمة ظلما ، رغم انهم كانوا أول ضحاياها .. ولم يكونوا سببا فيها ، وبعد أن ادت قرارات سياسية عشوائية تبعتها تعليمات عسكرية غير مدروسة الى تمزيق القوات وتشتيت جهدها وارهاق تشكيلاتها ووحداتها قبل ان تبدأ الحرب ، فى ظل رؤية سياسية وعسكرية مفقودة أو مطموسة .. هكذا تحمل المقاتل المصرى فى القوات المسلحة معظم العبء المعنوى للهزيمة .

وليس ثمة شك فى ان عملية اعادة بناء القوات المسلحة واعادة تنظيمها وتسليحها كانت عملية شاقة ، ولكنها لم تكن اشق العمليات التى واجهت القوات المسلحة . بل كان البناء النفسى والمعنوى للرجال هو اشق الأعمال وأكثرها اهمية . فقد كانت القيادات التى تولت القيادة بعد انتهاء الحرب ، تؤمن ايمانا راسخا بأن قوة مصر تكمن فى اصالة شعبها ، وانه بالاصرار والروح المعنوية العالية يمكننا تعويض كل مافقدناه واضافة المزيد ، وبناء كل ماهدمته هذه الحرب من معنويات ونظم ووحدات .

لقد كان المقاتل المصرى فى ذلك الوقت يعانى اشد المعاناة بعد هزيمة يونية ١٩٦٧ . وقد صاحبته هذه المعاناة طوال السنوات الست الى ان خطا اولى خطواته فوق القناة لكى يقتحم خط بارليف يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ بكل مايحمل فى صدره من معاناة وعزم واصرار على ازالة وصمة الهزيمة .

كان من الضرورى العمل ولفترة طويلة على اعادة الثقة للمقاتل المصرى ورفع معنوياته ودعم ايمانه بحقه وقضيته .. مع ضرورة ان تتوافر لديه الثقة بنفسه وبسلاحه وبقادته . وحتى يتميز بدرجة عالية من الكفاءة تتيح له أفضل اشكال

الأداء فى الوقت المناسب . لقد ترسخ ايمان عميق لدى قيادات القوات المسلحة أن الرجل وليس السلاح هو الذى يحصل على النصر فى النهاية .. فالنصر تنشأ بذوره فى قلوب الرجال ثم يحققه الرجال بعد ذلك فى ساحة القتال .. ولذلك كان التركيز فى بناء المقاتل المصرى ايا كانت درجته أو رتبته على تحقيق هدفين اساسيين :

١ ـ أن يثق المقاتل فى نفسه اساسا ثم فى قادته وفى سلاحه .

٢ ـ أن يؤمن تماما بعدالة قضيته وحقه .. وان يتوج ذلك كله ايمان لايتزعزع بالله .

ان القضاء على اسباب النكسة واثارها داخل القوات المسلحة كان هو الهدف الأول . ولتحقيق هذا الهدف بكل ابعاده مضافا اليه الاستعداد الطويل للمعركة القادمة .. أمضت القوات المسلحة بكافة اجهزتها وتشكيلاتها ووحداتها .. السنوات الست بين عامى ١٩٦٧ ، ١٩٧٣ فى كفاح مرير لم ينقطع ، وجهد متصل لم يتوقف لازالة هموم الهزيمة والتغلب على اثارها .. ولما كانت القوات والتشكيلات على مستوى المسئولية تماما .. فلم يكن من الصعب ارساء القواعد الضرورية لقيام بنيان سليم متوازن للقوات المسلحة بكل تشكيلاتها البرية وافرعها الجوية والبحرية والدفاع الجوى .

ومن أهم هذه القواعد التى ادركتها القيادة السياسية العسكرية المصرية بعد النكسة ، هى حاجة القوات المسلحة الشديدة لتنظيم وتوزيع المسئوليات بدقة متناهية وعلى اسس ثابتة ومحددة .. حتى لاتتكرر المأساة القيادية التى وقعت فى يونيه ١٩٦٧ .. وكانت أولى الخطوات التى اتخذتها الدولة فى هذا الشأن هى تنظيم اعمال القيادة والسيطرة فى القوات المسلحة وعلى شئون الحرب عامة . وتحديد مسئوليات كل أجهزة الدولة كل فى حدود اختصاصه . كذلك التحديد السليم لمسئوليات واسلوب وضع واتخاذ القرارات السياسية والعسكرية .

وتحقيقا لهذا الهدف وقبل ان تبدأ عملية اعادة بناء القوات المسلحة وتحديد تركيبها التنظيمى من القاعدة الى القمة . صدر قانون تنظيم القيادة والسيطرة على شئون الدفاع عن الدولة والقوات المسلحة محددا مسئوليات ودور كل من المستوى السياسى والمستوى العسكرى بالنسبة لكل الموضوعات المتعلقة بالاعداد للصراع المسلح وادارته وعلى رأسها :

- اعداد اقتصاد الدولة للحرب .
- اعداد اراضى الدولة ومسرح العمليات للحرب .
- اعداد الشعب والقوات المسلحة للحرب .

كما نص هذا القانون على اختصاصات القيادة العامة للقوات المسلحة فيما يتعلق ببناء القوات المسلحة وتدريبها القتالى والمعنوى والتوزيع الاستراتيجى للقوات ، والتحضير للعمليات الحربية واسلوب ادارتها .

كانت هذه الخطوات التنظيمية غاية فى الاهمية . فبناء عليها تحقق وضوح المسئوليات الذى ادى الى وضوح المهام وتحديد ابعادها واطار التعاون بين قيادات واجهزة الدولة والقوات المسلحة من أجل تحقيق هدف قومى واحد على المستوى السياسى العسكرى .. وبهذا التنظيم الدقيق امكن تلافى ماحدث فى يونيه ١٩٦٧ من فوضى القيادات وتداخل المسئوليات وعدم قيام كل جهاز من أجهزة الدولة والقوات المسلحة بمهمته أو تحمل مسئولياته كاملة .

وبدأت القوات المسلحة تعاونها جميع أجهزة الدولة فى تنفيذ خطة متكاملة واسعة النطاق لاعداد الدولة والشعب والاقتصاد والقوات المسلحة لمواجهة حالة الحرب .. وكان ذلك هو الخطوة التخطيطية الأولى فى الاتجاه الصحيح لضمان الادارة الناجحة للصراع المسلح .

ثم جاءت الخطوة التنظيمية الثانية وكانت تستهدف رفع قدرات القوات المسلحة ووضعت لهذا الغرض « **خطة رفع الكفاءة القتالية** » للقوات المسلحة .. وقد استغرق تنفيذ هذه الخطة أكثر من ثلاث سنوات فيما بين عامى ١٩٦٩ حتى بداية الحرب فى أكتوبر ١٩٧٣ .. وكان الهدف من هذه الخطة الحيوية تحقيق التوازن الاستراتيجى والتعبوى فى حجم القوات المسلحة والافرع الرئيسية لها وبما يتماشى مع طبيعة مهام العمليات المنتظرة ، التى يؤديها كل فرع منها ، وبما يرفع من مستوى الانضباط العسكرى والروح المعنوية للقوات .

كما وضعت فى نفس الوقت التوجيهات الخاصة بتحقيق «**الاستعداد القتالى العالى للقوات البرية والجوية وقوات الدفاع الجوى**» . ويعتبر الاستعداد العالى القتالى هو احد المكونات الاساسية لرفع الكفاءة القتالية للقوات . وقد أمكن الوصول بالقوات الى مستوى رفيع من الاستعداد القتالى ظهرت آثاره واضحة على أداء القوات عندما بدأت الحرب فى أكتوبر ١٩٧٣ ، وكان هذا الأداء هو احدى المفاجآت الكبيرة التى فاجأت القوات الاسرائيلية .

● ● ●

لقد شكلت الجهود العديدة التى شاركت فى اعادة بناء القوات المسلحة واعدادها للمعركة معزوفة رائعة استمرت كل هذه السنوات وشاركت فيها بكل الصدق والاخلاص كل اجهزة القيادة العامة للقوات المسلحة ومختلف الاسلحة والخدمات ، والتى لم تدخر جهدا لتحقيق سرعة بناء القوات المسلحة فى روح عالية وتعاون وثيق وانكار للذات .

وبفضل الله ثم بجهد العاملين بدأت القوات المسلحة تستعيد اتزانها وقدراتها وتقف على اقدامها بسرعة لم يتوقعها اكثر الناس تفاؤلا ، وفى نفس الوقت واصلت القوات تدريبها الشاق وتخطيطها الجاد للدفاع ثم لخوض معركة المصير بعد ذلك .

لقد نجحت القوات المسلحة المصرية بجهدها وعرقها بل وبدماء شهدائها ان

تنهى مرحلة الاستعداد بعد ست سنوات صعبة مليئة بالعمل الشاق ، فى حين كان خبراء الحرب العالميون ومنهم الجنرال الفرنسى اندريه بوفر يقدرها بما لاتقل عن جيل من الزمان .. أما موشى ديان فقد راح يؤكد ان العرب فى حاجة الى جيلين على الأقل !! قبل ان تقوم لهم قائمة او تكتمل لهم قوة حربية يعتد بها .

أن تلك السنوات الطويلة ومادار فيها من اعمال قتال متعددة الجوانب والأبعاد .. قد شكلت ـ من وجهة النظر العسكرية المصرية ـ بوتقة للتجارب العسكرية المصرية ، ومنطلقا هاما لارساء قواعد الفكر العسكرى المصرى الذى خرج الى حيز التنفيذ فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣ . لقد حفلت الفترة من يونية ١٩٦٧ الى اكتوبر ١٩٧٣ والتى تزيد على خمسة وسبعين شهرا ، بالجهود المضنية للعبور بقواتنا المسلحة من يأس الهزيمة الى أمل النصر . فامتلأت بكثير من الأحداث والتضحيات والعمل الصامت الدءوب ، من أجل اعادة بناء القوات من الاساس نفسيا ومعنويا وماديا .. وخلقها من جديد لتصبح تلك القوات التى اذهلت العالم بخططها المحكمة وادائها الرائع يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ .

●

الفصل الثامن

استراتيجية الصراع الطويل الأمد

شهدت فترة الاعداد الكثير من الأحداث والتطورات الهامة فى بناء وإعداد وتدريب القوات المسلحة ، وصبها فى قالب جديد من خلال عدة مراحل تدرجت من مرحلة الصمود الى الدفاع النشط ثم حرب الاستنزاف التى شكلت علامة هامة على الطريق الصعب نحو النصر .. والتى كانت بمثابة البوتقة لتجارب العسكرية المصرية .. ومنطلقا هاما لارساء قواعد الفكر العسكرى المصرى الذى خرج الى حيز الوجود يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ . صنفت تلك المراحل وفقا لطبيعة الأحداث التى مرت بها والأعمال التى وقعت خلالها . وقد تم هذا التقسيم لسنوات مابعد النكسة وقبل النصر من واقع التسجيل التاريخى والتطور الموضوعى للأحداث .. الى أربع مراحل رئيسية .. كان لكل مرحلة منها هدفها وسماتها وانجازاتها . وفيما يلى مراحل تطور الاحداث بين يونية ١٩٦٧ وأكتوبر ١٩٧٣ .

● **مرحلة الصمود - من يونيه ١٩٦٧ الى اغسطس ١٩٦٨ :**

وكان هدفها سرعة إعادة بناء القوات المسلحة والهيكل الدفاعى على الضفة الغربية لقناة السويس وتجهيزه بالأعمال الهندسية .. مع التزام الهدوء وضبط النفس على الجبهة لاتاحة الفرصة لاستكمال هذا البناء وتوفير القدرة الدفاعية للقوات المسلحة .

● **مرحلة الدفاع النشط - من سبتمبر ١٩٦٨ الى فبراير ١٩٦٩ :**

وكان هدفها هو تنشيط الجبهة وازعاج القوات الاسرائيلية الموجودة على الضفة الشرقية لقناة السويس وتقييد حريتها فى التحرك خاصة فى المناطق الامامية مع العمل على تكبيدها قدرا كبيرا من الخسائر فى المعدات والأرواح .

● **مرحلة حرب الاستنزاف ـ من مارس ١٩٦٩ الى اغسطس ١٩٧٠ :**

وكان هدفها اقناع اسرائيل بفداحة الثمن الذى ستدفعه مقابل استمرار بقائها على الضفة الشرقية للقناة .. وبفساد نظريات الأمن القائمة على احتلال اراضى الغير وزعزعة الاساطير التى أحاطت بالجيش الاسرائيلى .. فضلا عن التطعيم المعنوى والمادى للمقاتل المصرى للمعركة .

● **مرحلة التمهيد والاعداد لشن الحرب ـ من أغسطس ١٩٧٠ الى اكتوبر ١٩٧٣ :**

وكان هدفها وضع الخطط التفصيلية والتكميلية لشن الهجوم عبر قناة السويس واقتحام خط بارليف على الضفة الشرقية للقناة وتدميره .. وذلك بعد استكمال اعداد وتدريب وتسليح القوات المسلحة : برية وجوية وبحرية ودفاع جوى على تنفيذ مهامها فى المعركة المقبلة بكفاءة عالية واداء متميز .

الصمــــود :

صدر قرار مجلس الأمن الدولى رقم ٢٣٤ يوم ٨ يونيه ١٩٦٧ بوقف اطلاق النار فى منطقة الشرق الأوسط وقبل الطرفان القرار . ولم يكن صدور هذا القرار يعنى أن هذه الحرب قد انتهت ، أو أن ماحدث كان نهاية المطاف . كما أن ذلك لم يكن يعنى أن هناك حربا وشيكة الوقوع على ضفتى قناة السويس ، حيث لم تكن الظروف السياسية أو العسكرية تسمح باشتعال القتال مرة أخرى وبهذه السرعة . ولذلك كانت الفرصة متاحة أمام قيادة مصر لسرعة تصحيح الأخطاء والأوضاع العسكرية التى شاركت فى وقوع النكسة .. وخاصة سرعة بناء الدفاع على الضفة الغربية للقناة . وقد اوضحنا ـ من قبل ـ بعض الجوانب الهامة التى تناولها التغيير والتعديل ، خاصة مسألة تنظيم وتحديد المسئوليات على مستوى القيادة السياسية والعسكرية فيما يتعلق بأسلوب ادارة الصراع المسلح . ونضيف الآن بعض الجوانب العسكرية التى نفذت فى اعقاب وقف اطلاق النار :

فقد اجريت تغييرات اساسية وفورية فى قيادات القوات المسلحة سواء على مستوى القيادة العليا والقيادة العامة وقيادة الجبهة التى تولاها اللواء احمد اسماعيل على .. والتى بدأت تمارس مهامها الجديدة بكل الجدية والحزم . لقد كانت المسئوليات جسيمة والأعباء ثقيلة ومناخ الكآبة يسيطر على القوات والوحدات .. والانصراف الى العمل الصامت كان سمة هذه الفترة العصيبة التى أعقبت وقف اطلاق النار . اذ كان على القيادة الجديدة للجبهة أن تؤمن الدفاع فورا عن الضفة الغربية لقناة السويس بما كان تحت يدها من حجم محدود من الوحدات ، كانت كلها تمر بعمليات اعادة التنظيم وتجميع وتسليح واستكمال ماينقص هذه

الوحدات من افراد واسلحة ومعدات .

لذلك كانت الخطوة الهامة خلال هذه المرحلة هى تعويض القوات المسلحة عما فقدته من خسائر فى الأسلحة الاساسية والمعدات .. حيث قام الاتحاد السوفييتى من يوم ٩ يونيه ١٩٦٧ بانشاء جسر جوى وآخر بحرى لنقل الاسلحة والمعدات الى مصر بلغ اجماليه حوالى ٥٥٠ رحلة جوية لطائرات النقل ، ١٥ رحلة لسفن نقل ارسلت الى الاسكندرية .. وكان اجمالى الحمولات ٥٠ الف طن من الاسلحة والذخائر والمعدات . واعطيت الاسبقية الاولى لطائرات القتال واسلحة الدفاع الجوى ، بعد فقد معظم طائرات القوات الجوية وكانت الاسبقية التالية لذلك هى لقطع مدفعية الميدان والدبابات والمعدات اللازمة لتقوية الخط الدفاعى ومنع اى محاولات قد تحدث من جانب القوات الاسرائيلية لعبور قناة السويس .

كان التركيز فى ارسال الطائرات للقوات الجوية على طائرات القتال من طراز ميج ١٧ حيث وصلت اعداد كبيرة منها سواء من الاتحاد السوفييتى اساسا أو من الجزائر حتى أصبح ماتملكه القوات الجوية حوالى ٢٠٠ طائرة كان معظمها من طراز ميج ١٧ ، بينما كانت القوات الجوية الاسرائيلية تمتلك طائرات احدث من طراز « سوبر مستير » و « ميراج » الفرنسية اما قوات الدفاع الجوى فقد كانت خسائرها هى الأخرى فادحة اثناء حرب يونية ١٩٦٧ . وقد امكن بالتدريج تحسين موقفها بتحقيق اقصى استفادة ممكنة بما لديها من كتائب الصواريخ المضادة للطائرات من طراز سام وتخصيصها لحماية الأهداف الحيوية خاصة فى العمق ، وذلك بالتعاون مع اسراب من طائرات الميج ٢١ المقاتلة . واعتمدت قوات الجبهة فى حماية نفسها من الجو على الاسلحة التقليدية العادية المضادة للطائرات .

★ ★ ★

أما بالنسبة لبناء الدفاع غرب القناة فقد سارعت القيادة الجديدة للجبهة بتجميع القوات الموجودة غرب القناة بعد اتمام الانسحاب واعادت تنظيمها ووضعت خطة دفاعية عاجلة لتأمين الضفة الغربية للقناة بالقوات المتاحة والتى تمثل بقايا وشراذم من القوات المنسحبة .. ووزعت هذه القوات على المواقع المتناثرة على امتداد القناة فى محاولة لتشكيل هيكل دفاعى مناسب لخط الدفاع الأول فى الغرب بالاعتماد على وحدات المشاة المتيسرة مع تحقيق عمق دفاعى لهذا الخط من الوحدات المدرعة الموجودة فى منطقة القناة ومعظمها من الفرقة الرابعة المدرعة . واحتاج الامر الى فترة حوالى من ٤ إلى ٥ أسابيع والى كثير من الجهد لتجهيز هذه الخطوط الدفاعية وتنفيذ الحد الادنى من الأعمال الهندسية خاصة اعمال الحفر واقامة الموانع وحقول الالغام مع توفير عناصر الدعم الضرورية سواء من مدافع الضرب المباشر او من وحدات مدفعية الميدان بأعيرتها المختلفة - أما الوحدات المدرعة فقد أمكن استكمال تسليح ثلاثة ألوية مدرعة بنسبة عالية وزعت عليها مهام توجيه الضربات المضادة فيما بين منطقة القنطرة غرب (فى الشمال) حتى منطقة السويس (فى الجنوب) .. وكان هذا العبء كبيرا على الوحدات المدرعة

تطلب الكثير من الوقت والجهد فى اجراء الاستطلاعات اللازمة والتخطيط للهجمات المطلوبة والتدريب على تنفيذها لمواجهة اى احتمال لمحاولة عبور قوات اسرائيلية من الشرق الى الغرب . وبذلك أمكن اقامة نطاق دفاعى مناسب على امتداد قناة السويس بمواجهة بلغت حوالى ١٤٠ كيلومترا . واستغرق اعداد هذه الدفاعات كل مابقى من عام ١٩٦٧ .

كانت السمة الغالبة على هذه المرحلة ـ مرحلة الصمود ـ هى سمة الدفاع السلبى أو بمعنى أكثر دقة المحافظة على هدوء الجبهة .. كأمر ضرورى لعملية بناء الدفاع واعادة تنظيم واستكمال الوحدات المدافعة .. ولكن الأمر لم يخل من القيام ببعض الأعمال العسكرية البارزة والايجابية المضادة .. سواء فى البر أو الجو أو البحر .

ولاشك فى أن القوات المصرية قد امكنها فى هذه المرحلة تأمين الدفاع عن الضفة الغربية للقناة بقدر مناسب وفى زمن قياسى بالنظر الى الحالة التى كانت عليها الوحدات عقب الانسحاب ، سواء من حيث التنظيم أو التسليح ، والأهم من ذلك من حيث الشتات النفسى والتمزق المعنوى .. والذى تطلب جهدا كبيرا للتخفيف من وقع هذه الآثار على الجنود واعادة بناء الجبهة المعنوية للقوات بجانب الجبهة الدفاعية .

ورغم الهدوء الذى اتسمت به هذه المرحلة ـ كما سبق القول ـ كضرورة لاستكمال البناء الدفاعى عن غرب القناة وبالسرعة الواجبة .. فانها قد شهدت بعض الأعمال العسكرية التى تميزت بالبطولة وكانت رمزا مؤكدا لصلابة المقاتل المصرى ورفضه للهزيمة وصموده امام عدوه مهما كانت الاساطير التى تنسج حوله .

ومن ابرز هذه الأعمال «معركة رأس العش» التى دارت بعد ثلاثة اسابيع فحسب من كارثة الهزيمة ، ثم تلتها الهجمات التى شنتها عناصر من القوات الجوية ضد المواقع الاسرائيلية بعد اسبوعين من المعركة .. واخيرا اغراق المدمرة الاسرائيلية «ايلات» فى مياه بورسعيد ، ولاشك فى ان هذه الأعمال رغم قلتها كانت عملا ضروريا والى حد كبير لقواتنا حيث كانت هذه القوات فى أمس الحاجة الى مثل هذه الأعمال القتالية لكى تتنبه حواسها وتنتعش معنوياتها وتستعيد ثقتها بقدرتها وبنفسها .

★ ★ ★

لقد بدأت مرحلة الصمود فى ١٠ يونيه ١٩٦٧ عقب توقف القتال فى سيناء واستمرت حتى اغسطس ١٩٦٨ ، وكان من الضرورى ان تتسم هذه المرحلة بنوع من الهدوء يسمح بعملية اعادة البناء ورفع انقاض المعركة بأسرع مايمكن ، الى جانب تجهيز الدفاع عن الجبهة ، ورغم الالتزام بوقف اطلاق النار فإن هذه الفترة

لم تخل من بعض الأعمال البطولية التى أدارتها القوات المسلحة بما كان متيسرا لديها فى ذلك الوقت من اسلحة ، ومعدات سواء فى البر أو البحر أو الجو .. وقد تمت هذه الأعمال خلال فترة لم تتجاوز أربعة أشهر بعد وقف اطلاق النار .

وكانت معركة «**رأس العش** » هى باكورة هذه الأعمال وأول تلك البطولات .. وقد اتسمت بالمواجهة الحقيقية مع العدو .. وجرت المعركة بعد ثلاثة أسابيع من وقف اطلاق النار ، وتكشف المعركة عن المعدن الحقيقى للمقاتل المصرى عندما تتاح له فرصة القتال . ففى الساعات الأولى من صباح يوم أول يوليو ١٩٦٧ تقدمت قوة مدرعة اسرائيلية على امتداد الضفة الشرقية للقناة من القنطرة شرق فى اتجاه الشمال بغرض الوصول الى ضاحية بور فؤاد المواجهة لمدينة بورسعيد على الجانب الآخر للقناة واحتلالها .. وكانت القوة المصرية الموجودة فى ذلك الوقت فصيلة صاعقة لايزيد افرادها على ثلاثين مقاتلا مزودين بالاسلحة الخفيفة .. وانطلقت هذه الفصيلة جنوب بورفؤاد لملاقاة الرتل الاسرائيلى المدرع .. حيث اصطدمت به وفاجأته بمقاومة عنيفة وانزلت به خسائر كبيرة فى المعدات والافراد وتمكنت الفصيلة المصرية من وقف القوة الاسرائيلية واجبارها على التراجع جنوبا تجر اذيال الفشل .. ولم تحاول اسرائيل على امتداد ست سنوات ان تكرر محاولة احتلال بورفؤاد مرة أخرى ـ وهكذا ظلت مدينة بورسعيد وميناؤها بعيدين عن التهديد المباشر ، وظلت بورفؤاد فى ايدى القوات المصرية حتى قيام الحرب فى أكتوبر ١٩٧٣ .

لقد كانت معركة « رأس العش » المحدودة بعد هزيمة يونية ١٩٦٧ أول شمعة تضيئها القوات المسلحة لتبدد بعضا من ظلام الهزيمة وتفتح باب الأمل من جديد وتعطى جرعة ضرورية من الثقة كانت القوات فى حاجة اليها فى ظل الظروف الصعبة التى واجهتها فى سيناء .. كانت معركة رأس العش دليلا على أن ارادة المقاتل المصرى مازالت صامدة وقوية .. وانه قادر على التغلب على اثار الهزيمة وازالتها بل وتحقيق النصر عندما تتاح له الفرصة المتكافئة أو المناسبة للمواجهة .. وفى الحقيقة لم تكن الفرصة فى هذه المعركة متكافئة حيث تمكن الجندى المصرى بسلاحه الخفيف وأسلحته البسيطة المضادة للدبابات من مواجهة دبابات العدو والتصدى لهابشجاعة اثبتت ان الجندى الاسرائيلى ليس هو تلك الاسطورة التى رددتها عنه الدعايات الصهيونية عقب الحرب .

★ ★ ★

مع تزايد الأعمال الاستفزازية على الضفة الشرقية للقناة رأت القيادة العامة المصرية ان تضع حدا لمثل هذه الأعمال وأن تذكر الاسرائيليين بأنهم مازالوا فى حالة حرب وأن الحرب لم تنته بعد . وفى ١٤ يوليو ١٩٦٧ اى بعد اسبوعين فحسب من معركة رأس العش .. قامت مجموعات من قواتنا الجوية بشن عدة هجمات مركزة وخاطفة ضد القوات الاسرائيلية المدرعة والميكانيكية على الضفة الشرقية

للقناة .. وعندما تصدت لها طائرات العدو خاضت طائراتنا المقاتلة معركة جوية معها .

كانت تلك العملية الجوية مفاجأة تامة للاسرائيليين .. إذ كان الصلف قد أخذ بهم كل مأخذ اثر ضربتهم الجوية المركزة ، وكان قد مضى عليها اقل من ستة اسابيع فقط .. وذلك بعد أن أكدت ابواق الدعاية الاسرائيلية للعالم أن قوات مصر الجوية لن تقوم لها قائمة . لقد كان هذا الهجوم الجوى المصرى يوم ١٤ يوليو ١٩٦٧ مباغتا تماما للوحدات الاسرائيلية ، حتى ان جنودها قد فروا مذعورين الى الخلف وتركوا مواقعهم . كانت هذه الهجمات الجوية اضافة جديدة لدعم معنويات القوات المسلحة .

★ ★ ★

أما فى البحر فكانت الواقعة المشهورة الخاصة باغراق المدمرة الاسرائيلية إيلات - نصف قوة الاسطول الاسرائيلى من المدمرات فى ذلك الوقت - أمام سواحل بورسعيد يوم ٢١ اكتوبر ١٩٦٧ .. بمثابة عمل بطولى رائع كان له صدى عميق لدى كل أطراف الصراع بل وعلى المستوى العالمى .. وذلك حينما قامت زوارق الصواريخ المصرية المتمركزة فى ميناء بورسعيد باطلاق صاروخين على المدمرة لتحطمها وغرقها وذلك لمحاولتها انتهاك المياه الاقليمية المصرية ، وتحدى سيادة مصر فى المنطقة الواقعة شمال شرق بورسعيد .

لقد كانت هذه العملية البحرية المصرية الناجحة أولى معاركنا البحرية باستخدام الصواريخ .. كما كانت فى نفس الوقت أولى معارك الصواريخ البحرية فى التاريخ .. وقد ترتب عليها تغيير العديد من النظريات البحرية العالمية .

وبمناسبة الحديث عن اغراق ايلات فلست أدرى ما السبب الذى من أجله دارت حوله فى صحافتنا مناقشات واسعة وكتب حولها مقالات ومقالات من اطراف عديدة .. واعتقد ان هذه المحاولات لم تكن لتخدم قضيتنا الوطنية أو تتناول الجانب العلمى واسلوب الأداء وماتركه استخدام الصواريخ البحرية المصرية من آثار بعيدة على أعمال القتال البحرى فى العالم بل وعلى الاستراتيجيات البحرية . والغريب أن تخوض هذه المقالات فى تفاصيل صغيرة تاركة جوهر الموضوع لتتحدث عن شخصيات وعبارات اختلفت حولها الآراء ، حتى بدت هذه المناقشات وكأنما غرضها هو تشويه هذا العمل العظيم والنيل من أبعاده بشتى جوانبه السياسية والعسكرية والمعنوية .

وإن كانت هذه المساجلات قد تمت تحت ستار تحقيق التاريخ إلا انها فى الواقع لم تكن تخدم التاريخ العسكرى من قريب او بعيد .. اذا وضعنا فى الاعتبار أن الغرض من تسجيل التاريخ العسكرى وتحليله ليس مجرد الناحية التسجيلية فحسب ولكنه اساسا دراسة ضرورية لعوامل النجاح

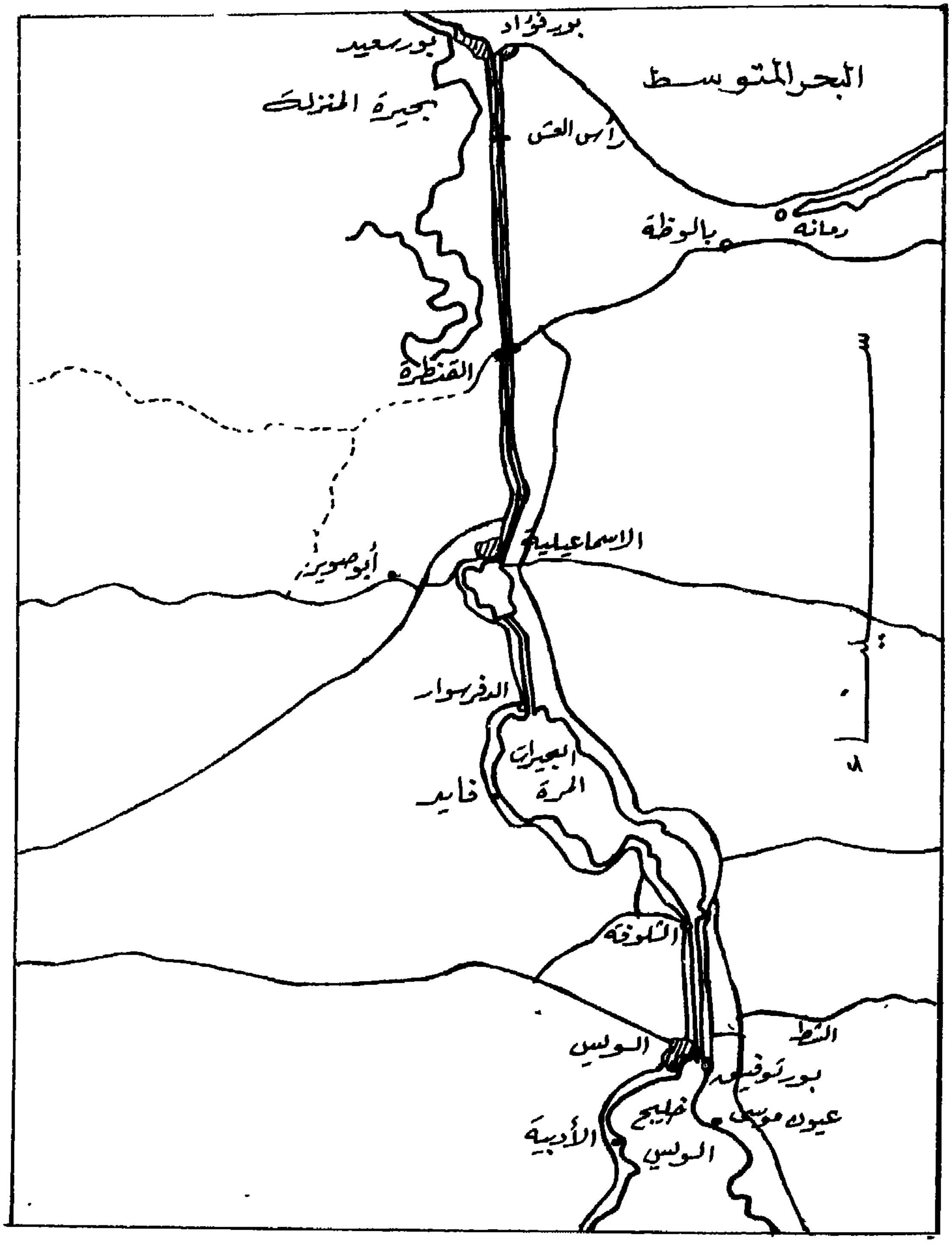

مصر تشن حرب الاستنزاف ضد القوات الاسرائيلية بالضفة الشرقية للقناة

واسباب الفشل وتناول جاد للايجابيات والسلبيات التى برزت أثناء هذه الحرب أو تلك المعركة .. والخروج منها بالعبر المفيدة والدروس المستفادة التى يمكن ان تخدم مستقبل الدراسات العسكرية وتضيف شيئا ليس فقط الى تاريخنا ولكن كذلك وهو الأهم الى خبرتنا وعلمنا . ولذلك فقد تعمدت هنا وأنا أتناول هذه المعركة أن اختصر الحديث عنها الى اقل حد ممكن وان يكون هذا الحديث موضوعيا بعيدا عن الاستطراد المخل او الاطالة التى لاطائل تحتها ..

بقيت كلمة أخيرة فى مرحلة الصمود حول هدف اسرائيل وسلوكها أثناء هذه المرحلة ، فقد استغلت اسرائيل هذه الفترة فى دعم دفاعاتها عن سيناء وباقل قوات ممكنة باتباع الاسلوب الذى نطلق عليه اسم «الدفاع المتحرك » أو «الدفاع الخفيف الحركة» والغرض منه توفير عناصر الدفاع باستخدام اقل حجم من القوات مع الاعتماد على سرعة تحرك هذه القوات وانتقالها من مكان الى اخر حسب احتياجات الدفاع . وقد لجأت اسرائيل لهذا الاسلوب حتى تخفف من آثار كثرة استدعاء الاحتياط لفترات طويلة ومايسببه ذلك من أضرار وسلبيات على الاقتصاد الاسرائيلى .. وفى هذه المرحلة مارست اسرائيل بعض وسائل الضغط العسكرى ضد مصر وخاصة فى مجال الرد على اى عمل عسكرى محدود من جانب مصر .. بأسلوب الرد الجسيم وبهدف ردع اى محاولات مصرية أخرى .. ولذلك فقد قامت بضرب وتهديد المناطق السكنية والمصانع القائمة بمدن قناة السويس .. وخلال هذه الفترة ضربت اسرائيل بالمدفعية مدن الاسماعيلية والقنطرة غرب والسويس ، كما ضربت مصانع البترول والميناء بمدينة السويس خاصة عقب اغراق المدمرة ايلات . ومن وجهة نظر مصر كان تركيزها فى هذه المرحلة على بناء هيكل متكامل للدفاع غرب القناة وعلى امتدادها فى العمق . وكان ذلك هو الوجه الايجابى لهذه المرحلة حيث أمكن بهذه الأعمال تحقيق هدف هام هو تأمين الضفة الغربية للقناة ضد خطر التهديد الاسرائيلى بمحاولة عبور قناة السويس .

الدفاع النشط

لقد كان من المستطاع ان يحقق القرار ٢٤٢ الصادر من مجلس الأمن فى ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ ، تسوية مقبولة لمشكلة الشرق الأوسط ، وأن يرسى دعائم سلام عادل فى المنطقة لو صدقت نوايا اسرائيل ، ولكن اسرائيل تساندها الولايات المتحدة عملت بكل مافى وسعها من الجهد على عرقلة تنفيذ القرار وتجميده . ولما قدم السفير جوناريارنج الممثل الخاص للسكرتير العام للأمم المتحدة ، الى المنطقة بهدف تشجيع الاتفاق والمساعدة بجهوده على التوصل الى تسوية سلمية مقبولة طبقا لمبادىء القرار ٢٤٢ اتضح ان اسرائيل قد اتخذت منذ الوهلة الأولى موقفا متعنتا يقوم على أن التوصل إلى حل للأزمة لايمكن أن يتم الا من خلال «المفاوضات المباشرة بين الأطراف المعنية » ، وأن قواتها المسلحة لن تنسحب ،

من الأراضى المحتلة قبل التوصل الى حل تقبله اسرائيل ، ورفضت اسرائيل اعطاء يارنج اى تأكيد حول استعدادها لتنفيذ قرار مجلس الأمن .

وبذلك اصبح من المؤكد لمصر أن اسرائيل تريد أن تفرض ارادتها على العرب ، وأنها تريد أن تفرضها وهى فى مركز قوة باحتلالها الأراضى العربية ، ولذلك فلا أمل فى تخليها طواعية عن هذه الأراضى أو عن أطماعها التوسعية عموما ، الا اذا ادركت ولمست ان ما تدفعه من ثمن لايتناسب مع ماتحتفظ به من مكاسب . ولم يكن الموقف العسكرى الاسرائيلى فى سيناء موقفا صلبا بل كان هناك الكثير من نقط الضعف الاساسية فى البناء الدفاعى الاسرائيلى يسمح للقوات المصرية بأن ترفع من تكاليف النصر العسكرى الاسرائيلى ، وتجعله عبئا ضخما على كاهل اسرائيل .

وهكذا تحول موقف مصر فى سبتمبر ١٩٦٨ من مرحلة الصمود الى مرحلة جديدة من المواجهة العسكرية اطلق عليها مرحلة «الدفاع النشط» .

كان الهدف الاساسى من هذا التحول الهام هو تقييد حرية اسرائيل فى التحرك العسكرى والمناورة والاستطلاع وتكبيدها خسائر فى الافراد والأسلحة والمعدات .. فضلا عن التأثير السياسى بالابقاء على القضية حية والموقف ساخنا .

. واعلنت مصر عن سياستها الحربية الجديدة التى عرفت باسم «الدفاع الوقائى » ثم اطلق عليها كمرحلة «الدفاع النشط» على اساس عدم السماح لاسرائيل بتحويل خطوط المواجهة الى خطوط للبقاء تقوم بتحصينها وحشد القوات عليها وتثبيت اقدامها فوقها . وكذا تحويل مزايا الاحتفاظ بالخطوط الطويلة ، الممتدة تحت وطأة ضربات المدفعية المصرية الى عبء مرهق يتزايد بمقدار تزايد النشاط المصرى المسلح على جبهة القناة وفى عمقها .

وكانت القوات المسلحة الموجودة على خط المواجهة على الضفة الغربية للقناة .. على اتصال مباشر «بالعدو» الموجود على الضفة الشرقية للقناة ، لايفصلها عنه سوى عرض الممر المائى الذى يبلغ حوالى ٢٠٠ متر . ومعنى الاتصال المباشر عسكريا ان يكون كلا الجانبين قادرا على الاشتباك مع الجانب الآخر بالأسلحة الخفيفة واسلحة الضرب المباشر . ومن هنا كان لزاما على قيادة الجبهة ان تعمل للحصول على أكبر قدر من المعلومات العسكرية عن أوضاع القوات الاسرائيلية خاصة فى عمق الدفاعات ، يساعد على زيادة عناصر الحماية لقواتنا واجراءات الوقاية من اى عمل مفاجىء من جانبها . وكانت الوسيلة الاساسية فى هذا الشأن استخدام الدوريات البرية المختلفة لمعرفة عمق الدفاعات وأوضاع القوات خلف خطوطها الامامية . من ناحية اخرى كانت طلعات الاستطلاع الجوى بواسطة طائرات الاستطلاع المجهزة لهذا الغرض تعتبر

مصدرا هاما لجمع المعلومات عن المناطق الخلفية الأكثر بعدا واتساعا والتقاط الصور الجوية التى تبين حقيقة أوضاع العدو ودفاعاته فى العمق .

ومن ناحية اخرى فقد كان ضروريا استخدام أعمال القتال ومواجهة العدو وجها لوجه كوسيلة عملية حيوية لدعم معنويات المقاتل المصرى وازالة عوامل الخوف التى نجمت عن هزيمة ١٩٦٧ ، خاصة مايتعلق منها بخرافة الجندى الاسرائيلى الذى لايقهر ، وذلك باستخدام بعض الأعمال التعرضية المحدودة فى شكل دوريات قتال ومجموعات قناصة وكمائن تعمل على الضفة الشرقية للقناة خاصة على الطرق الخلفية مع مراعاة عدم التورط فى قتال قد يطول امده أو يتسع نطاقه ..

★ ★ ★

ومن الوسائل الهامة التى استخدمتها القيادة المصرية فى ذلك الوقت نيرأن مدفعية الميدان والهاونات كوسيلة هامة من وسائل النشاط القتالى فى مرحلة الدفاع النشط . ولم تكن القيادة المصرية قد سبق لها استخدام نيران المدفعية قبل سبتمبر ١٩٦٨ استخداما فعالا سوى مرة واحدة حين اشتركت فى تقديم المعاونة بالنيران للقوة المصرية التى صدت قوات اسرائيل المتقدمة على الضفة الشرقية تجاه بورفؤاد والتى عرفت بمعركة رأس العش ونجحت قواتنا فى رد هذه القوات الاسرائيلية على اعقابها .

ومنذ أن بدأت مرحلة الدفاع النشط فى سبتمبر ١٩٦٨ اشتركت المدفعية بجميع أنواعها واعيرتها فى أعمال ضرب الاهداف الاسرائيلية على الجانب الآخر للقناة ضربا غير مباشر . باستخدام مدفعية الميدان والهاونات الثقيلة والقواذف الصاروخية والمدفعية المتوسطة والثقيلة من مرابضها فى عمق دفاعاتنا .. أو بالضرب المباشر على الاهداف الاسرائيلية المرئية الموجودة على الخط الامامى باستخدام المدافع المضادة لدبابات ذاتية الحركة والدبابات .

لقد كان الاستخدام المركز للمدفعية المصرية وقصفها الشديد مفاجأة كبيرة للقوات الاسرائيلية ، لذلك فقد أوقعت بها خسائر كبيرة وأدت الى تدمير أجزاء كثيرة من المواقع الدفاعية الاسرائيلية ، المقامة الى الضفة الشرقية للقناةوقد اعترفت القيادة الاسرائيلية بعنف القصف المصرى وتأثيره البالغ على الدفاعات الاسرائيلية ، حتى ان اسرائيل اضطرت ـ عندما اشتدت وطأة القصف ـ الى طلب وقف اطلاق النار وعقد اجتماع لمجلس الأمن لبحث هذا الموضوع . وفى نفس الوقت اصدرت القيادة العامة المصرية بيانا اعلنت فيه انها سوف تستمر فى سياستها الدفاعية الوقائية ضد القوات الاسرائيلية المعتدية على الأراضى المصرية .

★ ★ ★

فى هذه المرحلة حاولت اسرائيل ان تحول مدن قناة السويس بكثافتها السكانية

الى رهائن تحت يدها ، تطلق عليها النيران وتدمر مبانيها متى ارادت . ولكن الحكومة المصرية قامت باخلاء هذه المدن حتى لاتتعرض ارواح سكانها المدنيين لنيران المدافع الاسرائيلية دون تمييز .. وحتى تتاح للقوات المصرية حرية العمل ضد القوات الاسرائيلية شرق القناة . وكان ضرب المدنيين وتدمير المباني والمنازل والمنشآت المدنية هو الرد الذى اختارته اسرائيل للرد على ضربات المدفعية الموجهة ضد القوات الاسرائيلية وعلى خسائرها المتزايدة على جبهة قناة السويس .

وقد تعرضت مدن محافظات القناة الثلاث السويس والاسماعيلية وبورسعيد لقصف عنيف من المدفعية الاسرائيلية خاصة مدينة السويس التى تعرضت لدمار شديد .. وقد اصاب الدمار الكثير من المبانى والمنشآت والمشروعات الصناعية . وكان من الضرورى مواجهة هذا الأمر وعدم ترك السكان المدنيين رهينة للتهديدات الاسرائيلية اهدافا سهلة للمدفعية الاسرائيلية تحاول أن تستغلها اسرائيل للضغط على مصر واجبارها على وقف القصف المدفعى العنيف الموجه الى اهداف اسرائيل العسكرية عبر قناة السويس . ولذلك بادرت الحكومة المصرية الى اخلاء مدن القناة من السكان المدنيين ، كعلامة تدل على اصرار مصر على مواجهة التحدى ومواصلة النضال ضد الاحتلال ..

★ ★ ★

وامام استمرار تصاعد الاعمال العسكرية المصرية .. سارعت الولايات المتحدة الى اثبات مساندتها الكاملة لاسرائيل فاعلنت فى ديسمبر ١٩٦٨ موافقتها على تزويد اسرائيل ولأول مرة بخمسين طائرة من طراز « فانتوم ف ـ ٤ » أما عن اسرائيل فقد واجهت احد خيارين لترد على هذه الأعمال أو لتوقفها . وكان الخياران كالآتى :

أولا : ان تلجأ الى شن حرب شاملة جديدة ضد مصر لكى تحتفظ بتفوقها العسكرى وتحسم مافشلت جولة صيف ١٩٦٧ فى ان تحسمه .

ثانيا : أن تستمر فى سيطرتها على الأراضى العربية المحتلة وتتحمل التكاليف الباهظة للاحتفاظ بقوة عسكرية كبيرة لمدة طويلة ، وفى نفس الوقت تعمل على وقف تصاعد الأعمال العسكرية المصرية باسلوب «الردع» مع القيام بأعمال عسكرية ومركز يكون لها تأثير نفسى ومعنوى ومادى كبير .

وكان طبيعيا ان تستبعد اسرائيل فكرة شن الحرب الشاملة لصعوبة تنفيذها سياسيا وعسكريا ولأنها لم تكن حتى ذلك الوقت قد استوعبت مكاسب حرب ١٩٦٧ أو احتوتها . ولذلك لجأت الى اسلوبها التقليدى القديم بالعودة الى اعمال «الردع العسكرى» ،ولكن فى صور جديدة من حيث اختيار اهداف ذات نوعية معينة لها ثقل معنوى وتأثير سياسى داخلى وخارجى .. على أن تنفذ بأقل حجم من القوات ، وبأقل خسائر فى الأرواح وذلك بالابتعاد عن أماكن وجود القوات المصرية الكثيفة

والقيام بهذه الاعمال ضد مناطق منعزلة باستخدام قوات الكوماندوز .

وكان اختيار منطقة نجع حمادى مطابقا لهذه الشروط .. ففى أول نوفمبر ١٩٦٨ شنت اسرائيل إغارتها ضد نجع حمادى كبداية لهذا النوع من العمليات وكنموذج للعمليات الانتقامية التى اختارتها اسرائيل وقتئذ . وكانت هذه العمليات فى معظمها ردا اسرائيليا على المبادرات العسكرية المصرية فى منطقة الجبهة . وكان ذلك يعنى أن اسرائيل كانت فى هذه المرحلة قد بدأت تفقد المبادأة العسكرية .. واصبحت اعمالها لأول مرة منذ نشأتها ردود فعل مباشرة للرد على سياسة الدفاع الوقائى النشط المصرية وعمليات القصف المدفعى ضد دفاعتها على الضفة الشرقية للقناة . كذلك كانت المحاولة الفاشلة لتدمير احدى القناطر على النيل فى الوجه القبلى ردا على التصعيد الناجح للعمليات المصرية الخاصة والمحدودة عبر قناة السويس .. ويلاحظ ان اسرائيل قد راعت فى هذه المرحلة عدم الانزلاق الى محاذير عسكرية أو سياسية غير محسوبة حيث كانت خطط الاغارات تعرض بتفاصيلها على « مجلس الحرب » الاسرائيلى الذى يرأسه رئيس الوزراء للموافقة على الخطة قبل تنفيذها .

★ ★ ★

وخلاصة القول بالنسبة لهذه المرحلة .. أن القوات المصرية أمكنها أن تستكمل خلالها قدرتها الدفاعية خاصة فى جبهة قناة السويس واتخذت كذلك بعض الترتيبات الخاصة بحماية الأهداف الحيوية فى العمق وتأمين ساحل خليج السويس والبحر الأحمر .. وفى نفس الوقت الرد على اعمال اسرائيل الاستفزازية ومحاولة اقناعها بقدرتنا على التحدى وعلى انزال الخسائر بقواتها وعلى دفع ثمن احتلالها للأراضى المصرية .

من ناحية أخرى فقد حققت قواتنا فى هذه المرحلة عدة اهداف هامة ، ومنها مساهمة اعمال القتال المختلفة فى دعم معنويات المقاتل المصرى وازالة اى آثار نفسية نجمت عن هزيمة ١٩٦٧ خاصة مايتعلق منها بالمواجهة المباشرة مع الجندى الاسرائيلى . بالاضافة لذلك فان استمرار النشاط القتالى على الجبهة قد حافظ على حيوية هذه الجبهة وبقائها مشتعلة ومايعكسه هذا الوضع من اثار على الموقف السياسى وعلى الجهود المبذولة فى هذا المجال .

أما اسرائيل فقد حاولت فى هذه المرحلة أن تشتت جهود القوات المصرية فتهدد عمق البلاد بتنفيذ بعض أعمال فى وادى النيل بواسطة قوات الكوماندوز بغرض تخفيف الضغط المصرى عن جبهة القناة حتى اصبحت المشكلة امام اسرائيل هى كيفية ارغام مصر على وقف القصف المدفعى المستمر لكى تتمكن من انشاء التحصينات اللازمة لحماية قواتها ولاقامة خط دفاعى على امتداد الضفة الشرقية للقناة . وكانت الوسيلة التى لجأت اليها اسرائيل للضغط على مصر فى هذه المرحلة القيام باغارات فى عمق مصر بقوات الكوماندوز وباستخدام طائرات

الهليكوبتر .. ضد بعض الاهداف الحيوية الموجودة فى صعيد مصر .. لاثبات ان اهداف مصر الحيوية مكشوفة أمام الاغارات الاسرائيلية .. وحاولت اسرائيل انشاء خط تحصينات سريع من الملاجيء والدشم وكان هذا الخط هو الهيكل الذى قام عليه خط بارليف الدفاعى بعد ذلك .

استمر هذا الوضع القتالى حتى شهر مارس ١٩٦٩ حين قررت مصر ضرورة تدمير خط الدفاعات الذى اقامته اسرائيل على الضفة الشرقية للقناة ، وبدء مرحلة جديدة من أعمال القتال الكثيفة استمرت اكثر من خمسة عشر شهرا .. وقد عرفت هذه المرحلة بـ « حرب الاستنزاف »

استراتيجية الصراع الطويل الأمد :

ان الحديث عن هذه المرحلة من مراحل التطور لسنوات مابعد الهزيمة .. والتى عرفت باسم «حرب الاستنزاف» War ofattrition . حديث له أهمية خاصة .. ذلك لأنه يحدد العلاقة المباشرة والأثر الكبير لهذه الحرب .. سواء على تحضيرات الخطط أو اعداد وتدريب القوات المخصصة للعملية الهجومية الشاملة التى شنتها مصر ضد اسرائيل فى اكتوبر ١٩٧٣ .

من ناحية أخرى فقد لوحظ وجود اختلاف كبير فى آراء الكتاب والمحللين الذين تناولوا هذه المرحلة الحيوية بالتحليل والتقويم ، ووصفوها باوصاف عديدة مختلفة . فالبعض اعتبرها كانت استنزافا لقدرات مصر ولم تكن استنزافا لقدرات اسرائيل ! بينما وصفها بعض الكتاب بأنها كانت فى بعض مراحلها مستنقعا خاضت فيه القوات المسلحة المصرية .

وقد يكون هذا الوصف الأخير ليس بعيدا عن الحقيقة باعتبار أن الحروب عموما بكل أنواعها وأبعادها ما هى الا مستنقع تخوض فيه الشعوب المتحاربة ، وسواء انتصرت أو لم تنتصر فهى مستنقع يؤدى الى ازهاق الأرواح واهدار الدماء وتخريب العمران وتدمير الحياة ذاتها .. ولذلك تعمل الدول على تجنب الخوض فيه ، وإذا خاضته فهى تخوضه وهى مضطرة ولتحقيق اهداف ضرورية لصالح امنها القومى سواء على المدى القريب أو البعيد .. وفى نفس الوقت فهى تعمل على سرعة الخروج منه بكل الوسائل وأقربها الى الأمن والسلامة .

★ ★ ★

ان استراتيجية حرب الاستنزاف ليست بدعة بين الاستراتيجيات العسكرية ، فهى من الاستراتيجيات المعروفة والمعترف به فى العلم العسكرى ، ففى بعض الظروف السياسية والاستراتيجية ، عندما لاتتوافر القدرة على الحركة السريعة أو يتأخر توافرها .. مع وجود عوامل أخرى قد تسبب تأخير العمل العسكرى المباشر

والحاسم ، سواء كانت هذه العوامل سياسية ، كانتظار الظروف المواتية ، أو عسكريا كاستكمال الاستعداد الضرورى لضمان نجاح العمل المباشر .. تصبح استراتيجية «الصراع الطويل الأمد » ¨ protracted Struggle Stratigy^ هى أنسب الاستراتيجيات الملائمة فى ظل مثل هذه الظروف .

والواقع أن هذا النوع من الاستراتيجيات ـ بعكس ماقد تبدو ـ يعتبر من الاستراتيجيات الفعالة القادرة على تحقيق نتائج حاسمة . من خلال اقناع الطرف المعادى بعدم جدوى عدوانه ، وعدم قدرته على مواصلة التصدى للقوى المسلحة بالعزم والاصرار ، المدعمة بالحق والايمان بهذا الحق . كذلك فان تنفيذ استراتيجية «الصراع الطويل الامد» ، ولو لفترة محدودة كمرحلة تمهيدية كانت من أشد أنواع الاستراتيجيات تعقيدا لاعتمادها أولا على الصفات القومية لجماهير الشعب وقدراته على الصمود والمواجهة ، وثانيا على النظرة الثاقبة والدراسة الواسعة والقدرة العالية على التحكم فى ايقاع الأحداث وتوجيه مسيرتها عند الضرورة .

هذا النوع من الصراع الطويل الأمد لم يكن يتطلب بالضرورة عمليات عسكرية ذات كثافة كبيرة ، ولكنه يتطلب دون شك فهما دقيقا للموقف السياسى والعسكرى والمعنوى وتطوراته ومقدرة عالية على التحمل واستعدادا كاملا للصمود وادراكا شاملا لدى الجماهير لحقيقة وطبيعة الصراع الدائر . إن المطلب الاساسى للصراع الطويل الأمد هو توفر الصلابة الوطنية فى اعلى صورها وأفضل أشكالها . وليس ثمة شك فى أن غاية الصراع ذاته تعتبر هدفا ساميا وواجبا مقدسا يستحق من الشعب كل تضحية وبذل وقدرة على الصمود ، وتحمل لأعباء الحرب لفترة طويلة .

إن استراتيجية الاستنزاف .. هى استراتيجية الصراع الطويل الأمد ، الذى يجبر العدو على تبديد طاقاته واستهلاك موارده فى سبيل المحافظة على مكاسب اغتصبها ، وخلق إقتناع مؤكد لديه بأن ثمن اصراره على العدوان ، هو ثمن فادح لايحتمله ، واشعاره بمدى خطأه الفاحش عندما رسم لنفسه دورا أكبر من حقيقته وحاول الظهور بمظهر لايتناسب مع واقع امكاناته ، متجاهلا قوانين التاريخ وحتمياته ، وأن النصر دائما فى جانب من يمتلك الموارد الأكبر التى لاتقتصر على النواحى المادية أو البشرية فحسب ، بل تمتد كذلك الى الاصالة التاريخية والطاقات المعنوية المدعمة بالحق والاستعداد للتضحية والفداء .

وعلى هذه الأسس يمكن تحديد الهدف العام من حرب الاستنزاف بأنه تأكيد حرية العمل فى سبيل استرداد الحق المغتصب والعمل فى نفس الوقت على شل قدرة العدو وردعه بشكل متصاعد ، وليس بالضرورة أن يكون الردع مقصورا على العمل العسكرى أو الخسارة المادية ، اذ أن مجال الاستنزاف يجب ان يتضمن

جميع مجالات النشاط القومى باضعاف العدو سياسيا ودبلوماسيا واقتصاديا ونفسيا فضلا عن انهاكه عسكريا .

ومن أهم عناصر النجاح فى حرب الاستنزاف هو تنمية القوة الرادعة فى المجالات التى تعبق قدرات العدو المتفوقة وتحد من حريته فى استخدامها . ومن المعروف ان قوة الردع الاسرائيلى كانت تعتمد دائما على التفوق الجوى .. وكان الواجب أن تعمل مصر على حرمان اسرائيل من هذا التفوق أو الاقلال من قيمته وفى نفس الوقت تأكيد قدرتها على الصمود والاحتمال . ومن عناصر النجاح أهمية وجود خط سياسى واضح ومحدد ترتبط به كافة الانشطة فى المجالات المختلفة .. بحيث تتحرك بطريقة منسقة وضمن اطار واحد نابع من التقدير السليم للموقف وتطورات الأحداث السياسية المحلية والدولية وغيرها من العوامل المؤثرة .

★ ★ ★

تلك هى نظرية حرب الاستنزاف التى أطلق عليها الخبير العسكرى الفرنسى جنرال أندريه بوفر «نظرية التعرية أو التآكل » Erosions theory ، ويقول بوفر أنه ليس لزاما للصراع الذى يدور فى نطاق هذه النظرية أن يكون هدفه تحقيق انتصارات عسكرية مدوية .. ولكنه يتحقق بالنجاح فى المحافظة على استمرار الصراع وتصاعده المنظم الذى يتزايد ثقله واعباؤه على العدو شيئا فشيئا . ويعتمد على دفع العدو نحو قبول ظروف شديدة القسوة بينما لايستخدم ضده سوى وسائل محدودة ولكن بأساليب تتسم بالمهارة والمرونة ، مع استمرار العمل وتزايد ضغوطه المعنوية التى تؤثر على عناصر القوة العسكرية .

ولهذا السبب تلاحظ أن النشاط خلال هذا الصراع الطويل الأمد قد اتجه الى مجالين : الأول مادى والثانى نفسى . ويعتمد الجانب المادى على توفر القدرة على الاحتمال والمتابعة .. وان كان هذا الاعتبار هاما بالنسبة لكافة انماط الاستراتيجية الا أنه ضرورى وحيوى بالنسبة للاستراتيجية الطويلة الأمد التى تعتمد على الانهاك والازعاج . ولذلك يعتمد الطابع العسكرى على العمليات الخاصة المحدودة على مستوى القوات المسلحة وعمليات العصابات على مستوى قوات المقاومة غير النظامية . أما الجانب النفسى فيعتمد على القدرة على الصمود والتماسك .. بمعنى ضرورة الاحتفاظ دائما بمستوى معنوى عال بين المقاتلين والمدنيين على السواء . ويعتبر العمل النفسى فى حد ذاته عملا معقدا لأنه يستهدف البشر سواء فى ميدان القتال أو فى عمق الدولة عسكريين ومدنيين .

وبالنسبة للصراع العربى الاسرائيلى .. فان تحقيق الاقتناع الذهنى لدى الاسرائيليين بعواقب العدوان وحقيقة مصيره ، كانت تشكل ركنا اساسيا فى مجال الصراع النفسى المحتدم فى ذلك الوقت .. فان العداء العربى لم يكن موجها ضد شعب اومجموعة من الجماهير . واذا كان شعب اسرائيل قد عاش يفتقد احساسه بالأمان ، فذلك لكونه قد اعتنق مبادىء سياسية تتعارض مع وجود الأمة العربية

وتهدد كيانها .. تلك المبادىء التى لقنتها له الصهيونية بمراميها العدائية واتجاهاتها التوسعية وعداءها السافر للعرب .

★ ★ ★

فى ضوء ماتقدم فإن تعرضنا لحرب الاستنزاف يعتبر ضرورة حيوية ، لارتباطها الكامل بإحدى المراحل الخطيرة للصراع بين العرب واسرائيل وهى مرحلة تاريخية مازالت آثارها العميقة قائمة حتى يومنا هذا . وسوف نجد ، عندما نتناول هذه الحرب تناولا موضوعيا على المستوى الاستراتيجى والتعبوى ، أن أهميتها لاتكمن فقط فى وقائعها واحداثها أو فى نتائجها المباشرة ، ولكنها فى واقع الأمر تكمن بدرجة أكبر واهم فى الآثار البعيدة التى تركتها خاصة على أسلوب الاعداد والتخطيط لحرب أكتوبر ١٩٧٣ وعلى الأداء المتقن لقواتنا المسلحة والذى كان من سماتها البارزة .

لذلك فبالرغم من أن بعض الآراء التى طرحت قد اعتبرت هذه الحرب ـ من خلال نظرة سريعة وأحيانا غير موضوعية ـ فى مجملها عملا ضارا لم يحقق اى فائدة ! إلا أننا نرى أن هذه الحرب كانت ذات فائدة عظيمة ، وأن وقوعها كان هو التمهيد العملى الوحيد والضرورى الذى ساعد على أن يصبح اتخاذ قرار شن الحرب فى أكتوبر ١٩٧٣ .. أمرا ممكنا . وإذا كانت النتيجة الوحيدة لحرب الاستنزاف هى فى استرداد الجندى المصرى لثقته بنفسه وسلاحه .. لكانت هذه النتيجة كافية تستحق التضحية .. لأنها اضافت لحرب أكتوبر عنصرا هاما وحاسما فى سير القتال واسلوب اداء القوات ، كان واضحا تماما الى الحد الذى اذهل العالم .

ومن هنا يمكننا أن نعتبر حرب الاستنزاف بمثابة مرحلة « البحث عن الذات » بالنسبة للمخطط والمقاتل المصرى وللجندية المصرية عامة .. ومن خلالها وجد هذا المقاتل نفسه واستمد الكثير من عناصر الثقة والايمان التى ساعدته كثيرا وهو يواجه اشق الظروف وأصعب المواقف حين اتيحت له فرصة مواجهة عدوه وقتاله فى ظروف مناسبة نوعا لأول مرة . لقد اثبتت حرب الاستنزاف ان قوة صمود مصر وعدم تزعزع ارادتها وتمسكها بهدفها الأسمى وهو تحرير الأرض .. كانت من العناصر الاساسية لاستعادة الثقة بعد أن كادت هزيمة يونية ١٩٦٧ تقضى عليها وبعد أن تحملت وحدها عبء هذه الهزيمة ثم عبء الضغوط السياسية والعسكرية التى أعقبتها والتى حاولت اثناءها عن عزمها واجبارها عبثا على الرجوع عن هدفها الاسمى .

مصر تبدأ حرب الاستنزاف :

فى أواخر عام ١٩٦٨ تابعت القيادة المصرية ، الجهود المكثفة التى وجهتها إسرائيل نحو إقامة الملاجىء والدشم والتحصينات على امتداد الضفة الشرقية للقناة ، الأمر الذى يحدث لأول مرة من أجل حماية القوات الاسرائيلية المرابطة

على الضفة الشرقية للقناة من قصف المدفعية المصرية الذى أصاب قواتها بخسائر كبيرة .

وقررت القيادة المصرية ضرورة العمل على تدمير هذه التحصينات وعدم السماح لاسرائيل بتثبيت اقدامها على ضفة القناة . ولكنْ إتضح أن أسلوب الدفاع النشط الذى كان متبعا حتى ذلك الوقت ، لم يعد مناسبا للتعامل مع هذه التحصينات أو لتحقيق الأهداف الأخرى المنشودة ، وأصبح الأمر فى حاجة إلى خطة جديدة ، هدفها العسكرى المباشر هو تدمير هذه الدفاعات من خلال عمليات قتال مركزة ومتنوعة تستهدف تعطيل هذه الدفاعات واستنزاف قدرات القوات المدافعة عنها شرق القناة وعلى امتدادها .. كما كان للخطة أهدافا أخرى لا تقل اهمية سوف نتعرض لها فيما بعد .

وفى ٨ مارس ١٩٦٩ بدأت القوات المسلحة المصرية تنفيذ خطة الأعمال العسكرية الكثيفة واعتمدت مرحلتها الأولى على استخدام النيران الثقيلة للمدفعية المصرية فى حشود كبيرة ضد تحصينات أول خط دفاعى أنشأه حاييم بارليف رئيس الأركان الاسرائيلى وقتئذ على الضفة الشرقية للقناة .

وقياسا على ما قدمناه فإن خطة عمليات الاستنزاف التى شنتها القوات المسلحة المصرية ضد القوات والمواقع الاسرائيلية فى الفترة من مارس ١٩٦٩ حتى اوائل اغسطس ١٩٧٠ ، تعتبر مرحلة بارزة فى سلم التصاعد العسكرى التدريجى الذى مهد عمليا للعمليات العسكرية المباشرة وحربا حقيقية بكل ابعادها . ولم يكن من المنتظر أبدا عندما شنت مصر حرب استنزاف كثيفة ضد إسرائيل ان تقف الأخيرة مكتوفة الأيدى ، خاصة إذا وضعنا فى الاعتبار أسس السياسة الحربية الاسرائيلية القائمة على عنصر الردع ، كركن اساسى من أركان "نظرية الأمن الاسرائيلية" .. ولذلك فإن ما ارتبط بحرب الاستنزاف المصرية من عمليات استنزاف مضادة وعنيفة من جانب إسرائيل ، لا يقلل من قيمة هذه الحرب أو من آثارها العديدة ونتائجها العسكرية والسياسية الملموسة ، خاصة أن إسرائيل قد شنت استنزافها المضاد بغرض أساسى ، ليس مجرد الانتقام من عمليات الاستنزاف المصرية ، أو الرد عليها ، ولكنه كان بغرض إجبار مصر على ايقاف هذه الحرب نهائيا واحباط اى تحضيرات لعمل إيجابى واسع النطاق قد تفكر مصر فى القيام به ضد إسرائيل .. فضلا عن ذلك فقد كانت هذه العمليات مثارا للازعاج والتوتر الشديد بين صفوف القوات المسلحة الاسرائيلية والشعب الاسرائيلى كله ، هذا بالاضافة الى الخسائر الكبيرة التى سببتها لاسرائيل سواء فى الأرواح أو المعدات .

وليس من شك فى أن مصر قد تحملت خسائر كبيرة هى الأخرى .. ومن الخسائر الجسيمة المبكرة التى تحملتها مصر فى الأيام الأولى لحرب الاستنزاف ما حدث فى يوم ٩ مارس ١٩٦٩ حينما استشهد فى الخطوط الأمامية الفريق عبد المنعم رياض ، اثناء قيامه بجولة تفقدية لسير خطة الاستنزاف الموجهة للدفاعات

الاسرائيلية فى منطقة الاسماعيلية عند الموقع رقم ٦ بقطاع الجيش الثانى الميدانى . ولا شك أيضا فى أن فقد رئيس أركان حرب القوات المسلحة كان خسارة كبرى لمصر . ولكنها ضريبة الدم التى يدفعها رجالات مصر من أجل مصر حتى وهم فى أعلى مراكز القيادة العسكرية .

* * *

لقد بدأت مصر تنفيذ خطتها لاستنزاف المواقع الاسرائيلية الدفاعية بتصاعد تدريجى فى الوسائل المستخدمة ، وذلك بغرض إيقاع الخسائر المؤلمة بمعدل متزايد بالقوات الاسرائيلية ، والتى يصعب عليها استعواضها ، فضلا عن التأثير المعنوى العميق الذى يمكن أن تتركه مثل هذه الخسائر على الشعب الاسرائيلى عموما . ونظرا لأهمية النتائج وردود الفعل المنتظرة والتى يمكن أن تترتب على تنفيذ هذه الخطة فقد وضعت تفاصيلها بعناية كاملة وروجعت جوانبها بواسطة أعلى مستويات القيادة العسكرية المصرية .. إذ كانت تحمل ابعادا سياسية فضلا عن الاحتمالات العسكرية التى تتعلق بأعمال إسرائيل الانتقامية المنتظرة وكيفية مقابلتها وإحباطها .

وعلى ذلك فقد كان الهدف العسكرى المباشر والمبدئى لحرب الاستنزاف هو :

"إصابة آلة الحرب الاسرائيلية فى سيناء بقدر مؤثر من الدمار فى الأسلحة والمعدات والتحصينات فضلا عن خسائر الأفراد .. يكون كافيا لاقناع إسرائيل بأن بقاءها فى الأرض العربية المحتلة سوف يكلفها ثمنا غاليا ، ليس فقط فى حجم الخسائر التى ستتكبدها ، وما لذلك من آثار نفسية سيئة على القوات المسلحة الاسرائيلية وعلى الشعب الاسرائيلى ، ولكن كذلك فى حجم القوات التى ستضطر الى الاحتفاظ بها فى سيناء ، وما يتطلبه ذلك من استمرار التعبئة لفترات طويلة سوف تعكس بالضرورة اثارا اقتصادية ضارة على المجتمع الاسرائيلى .

أما عن الهدف المعنوى المباشر والذى كان يمثل أحد الأركان الأساسية فى فلسفة حرب الاستنزاف ، فهو إعادة الثقة للمقاتل المصرى فى نفسه وسلاحه وقيادته فضلا عن تحسين قدراته القتالية ورفع مستوى ادائه الميدانى بمواجهة "عدوه الذى لا يقهر" ومقاتلته وقهره فعلا .

أما عن الجانب السياسى المعنوى فقد كان شعب مصر وكذا الشعوب العربية الأخرى فى حاجة الى عمل يرد اليها ثقتها ـ التى فقدت بسبب هزيمة يونية ١٩٦٧ ـ فى إمكان حشد الجهود والقوى العربية من أجل إستعادة الأراضى المفقودة .. من ناحية أخرى فقد كان من المنتظر أن يؤدى اشتعال حرب الاستنزاف الى تشجيع منظمات المقاومة العربية وتنشيط اعمالها فى المناطق المحتلة وداخل إسرائيل .

لقد كانت حرب الاستنزاف مع امتدادها لفترة طويلة بمثابة رسالة حية مستمرة إلى شعوب العالم ان مصر ودول المواجهة العربية لم تنس أراضيها المحتلة .. وأن الاصرار والعزم على مواصلة النضال ومواجهة كل المصاعب وفرض إرادتها الحرة يملأ وجدانها .. وأنها ستعمل بكل الوسائل على تحرير أراضيها إن لم يكن بالأساليب السياسية والسلمية فبقوة السلاح .

كان العنصر الأساسى فى عمليات الاستنزاف من جانب القوات المصرية هو الاستخدام الكثيف لوسائل النيران البرية .. وذلك فى شكل ضربات مدفعية بمختلف اعيرتها وأنواعها سواء من أسلحة الضرب المباشر ، بما فى ذلك مدافع الدبابات ضد التحصينات الدفاعية الأمامية والأسلحة والمعدات المكشوفة أو المنظورة على الجانب الشرقى للقناة ، أو أسلحة الضرب غير المباشر باستخدام وحدات مدفعية الميدان والمدفعية المتوسطة والثقيلة لاسكات وتدمير المواقع الدفاعية المعادية الموجودة فى عمق ومدى نيران المدفعية . وقد صاحب ذلك تنفيذ العديد من الاغارات البرية والعمليات الخاصة بواسطة عناصر مدربة من قوات الصاعقة والمشاة المدعمة بالمهندسين وعناصر أخرى متخصصة .. تتم عبر قناة السويس ليلا أو نهارا وتهاجم النقط القوية والتحصينات والدوريات والأهداف العسكرية بصفة عامة وتدميرها ثم العودة الى الضفة الغربية .

أما فى المجال البحرى فقد استخدمت عناصر مدربة من الصاعقة والضفادع البحرية ضد ميناء إيلات الاسرائيلى فى خليج العقبة فضلا عن قصف بحرى بمدفعية الاسطول ضد العديد من الأهداف الواقعة على الساحل فى البحر المتوسط والبحر الأحمر . هذا وقد استخدمت القوات الجوية فى مرحلة تالية فى شن الهجمات الجوية ضد المواقع الدفاعية الاسرائيلية على طول خط المواجهة وفى عمق سيناء .

سمات المرحلة الأولى للاستنزاف :

استمرت هذه المرحلة فترة أقل من خمسة أشهر من مارس إلى يونيو ١٩٦٩ .. وقد إمتدت جبهة القتال لمسافات كبيرة ، فلم تعد مقصورة على جبهة قناة السويس الممتدة لمسافة حوالى ١٨٠ كيلو مترا فيما بين بورسعيد وجنوب السويس .. بل امتدت جنوبا على طول الساحل الغربى لخليج السويس وجزء من ساحل البحر الأحمر .. حتى بلغ طول الجبهة اكثر من ٦٥٠ كيلو مترا . وكان الغرض الأساسى الذى رمت اليه اسرائيل من ذلك هو تشتيت جهد القوات المصرية واجبارها على الانتشار على امتداد مسافات كبيرة ومساحات شاسعة .

ولقد تصاعدت أعمال القتال على طول هذه المواجهة تصاعدا خطيرا ومرت بعدة مراحل بلغت اربع مراحل اختلفت فى شدتها وفى نوعية الأسلحة المستخدمة وفى نوعية أعمال القتال وطبيعة الأهداف المختارة والنتائج التى إنتهت اليها كل مرحلة

من هذه المراحل . فقد اشتعلت معارك المدفعية والتبادل الكثيف لاطلاق النار على جانبى قناة السويس .. وأدى قصف المدفعية المصرية العنيف والدقيق إلى إحداث خسائر فادحة بالمواقع الدفاعية والقوات الاسرائيلية المتمركزة على الضفة الشرقية للقناة وفى عمق الدفاع .. الأمر الذى أرغم اسرائيل - مع إصرارها على البقاء فى الأرض المحتلة - إلى سرعة إعادة تحصين الخطوط الدفاعية الامامية ولكن بناء على خطة متكاملة لانشاء خط قوى من النقط القوية والتحصينات المتنوعة .. وهو الخط الذى عرف بعد ذلك باسم "خط بارليف" نسبة إلى حاييم بارليف رئيس الأركان الاسرائيلى وصاحب الفكرة .

ولزيادة فاعلية الضربات المصرية وتنمية الروح الهجومية فى القوات المصرية وتدريبها على اعمال العبور .. طورت القيادة المصرية من أساليبها ، فلم تعد أعمالها مقصورة على القصف بالمدفعية ، بل بدأت فى شهر يونيه ١٩٦٩ فى القيام بأعمال نشطة فى شكل إغارات برية مركزة عبر قناة السويس وعلى امتدادها بغرض استكمال ما بدأته المدفعية المصرية من تدمير فى التحصينات القائمة شرق القناة بإقتحامها المباشر بواسطة القوات المصرية الخاصة ووحدات المشاة المدعمة بالمهندسين وبعناصر اخرى . وكانت هذه الاغارات تنفذ ليلا ثم طورت خلال شهر يوليو وأصبحت تنفذ نهارا تحت سمع وبصر القوات الاسرائيلية .

من ناحية اخرى فقد تدرج حجم القوات المخصصة لشن هذه الاغارات والتى بدأت بمجموعات صغيرة من الأفراد إلى مجموعات أكبر حتى وصلت لاكثر من سرية من المشاة أو القوات الخاصة المدعمة بالعناصر المعاونة اللازمة .. تؤازرها نيران المدفعية المصرية - الموجودة على الضفة الغربية - فى أعمال القتال وتستر انسحابها وعودتها الى قواعدها عبر القناة مرة أخرى . وقد بلغت عمليات العبور هذه ذروتها يوم ١٠ يوليو ١٩٦٩ حينما اقتحمت قوة مصرية فى وضح النهار موقعا إسرائيليا حصينا فى لسان بور توفيق بمنطقة السويس ودمرته تماما وكبدت الاسرائيليين خسائر فادحة فى الأرواح .

وكما اتسمت ضربات المدفعية المصرية بالشدة والتركيز ، كذلك اتسمت الاغارات البرية المصرية ضد القوات الاسرائيلية بالعنف والتنوع والتعدد .. حيث نجحت قواتنا مرات كثيرة فى عبور قناة السويس دون عناء واقتحام المعاقل الاسرائيلية بنجاح .. بينما لم تحقق الاغارات الاسرائيلية المحدودة ضد الأهداف المدنية المصرية الغرض الذى شنت من أجله . وكان للنجاح الكبير الذى حققته القوات المصرية وللخسائر المتزايدة فى القوات الاسرائيلية سواء فى المعدات أو الأفراد نتيجة لسيل نيران المدفعية المصرية الذى لم يتوقف واستمرار عمليات العبور ومهاجمة المواقع الاسرائيلية ، أثره الكبير فى دفع إسرائيل فى يونيه ١٩٦٩ إلى إعادة النظر فى سياستها الحربية وتعديلها تعديلا جذريا بأحداث تصعيد خطير فى مسار حرب الاستنزاف وذلك عندما زجت بقواتها الجوية وبكثافة عالية الى معركة الاستنزاف لأول مرة منذ يونية ١٩٦٧ . وبدأت فى ممارسة سياسة "الاستنزاف المضاد" ضد مصر وقواتها وأهدافها العسكرية والمدنية .

الفصل التاسع

الاستنزاف والاستنزاف المضاد

إسرائيل تتحرك نحو الاستنزاف المضاد :

أحدثت أعمال القتال المصرية ردود فعل عنيفة لدى إسرائيل ، واعتبرتها نقطة تحول هامة فى القدرات المسلحة المصرية ، وكان من الطبيعى أن تحدث هذه العمليات تأثيرها المباشر على السياسة العسكرية الإسرائيلية وأن تجبر إسرائيل على إعادة النظر فى هذه السياسة وفى أهدافها الاستراتيجية فى ضوء ثلاثة عوامل رئيسية أثرت على الموقف الاستراتيجى العام :

١ ـ أثر السياسة الفرنسية التى فرضها جنرال ديجول الخاصة بحظر إرسال أى أسلحة أو معدات أو طائرات إلى إسرائيل ، على الموقف الجوى الإسرائيلى ، مما دفع إسرائيل فى ذلك الوقت إلى الحرص فى استخدام طائراتها والعمل على الحد من استهلاكها السريع بقدر المستطاع .

٢ ـ ضرورة السعى والبحث عن الوسائل الضرورية لتخفيض حجم الخسائر التى ارتفع معدلها فى جبهة القتال بشكل بدأ يثير المشكلات العديدة فى المجتمع الإسرائيلى وقتئذ .

٣ ـ الحرص على تجنب استدعاء المزيد من القوات الاحتياطية لمهام العمليات فى غير نطاق الدورات التدريبية ، ومحاولة عدم تخطى النسب المحددة للاستدعاء تجنبا لكثير من المضار الاقتصادية .

وقد مر تصاعد وتنوع رد الفعل الإسرائيلى أثناء حرب الاستنزاف بعدة مراحل ، وتطور تبعا لاشتداد وطأة الحرب من جانب مصر واستمرارها دون توقف وكذلك فى ضوء الموقف السياسى الدولى وخاصة الدور السوفييتى فى المنطقة وأثره على مسار الصراع المسلح .. ونلاحظ هنا أن النشاط العسكرى الإسرائيلى المضاد حتى هذه المرحلة من حرب الاستنزاف كان يتجه إلى الاكتفاء بالرد على الأعمال العسكرية المصرية .. وأن يكون الرد بصورة غير مباشرة أى ضد أهداف مدنية بعيدة عن خط المواجهة ، وأماكن تمركز القوات المسلحة المصرية ، لماذا اختارت إسرائيل هذه النوعية من الأهداف ؟ .

فى الحقيقة لم يكن هذا الاختيار لمجرد تحقيق المفاجأة فى أماكن خالية من القوات ، بل كان السبب الأساسى هو تجنب توريط القوات الإسرائيلية فى عمليات عسكرية مباشرة وضد قوات عسكرية مصرية فى جبهة قناة السويس القوية ، الأمر الذى قد يؤدى إلى وقوع خسائر جسيمة بين الجنود الإسرائيليين بينما تحتم حساسية الموقف البشرى فى إسرائيل السعى لتخفيض حجم الخسائر كما سبق أن أشرنا .. من ناحية أخرى فإن اختيار الأهداف المدنية سوف يترك أثارا معنوية لدى الشعب المصرى .

ولما بدأت إسرائيل تناقش السياسة التى يجب اتباعها لمواجهة حرب الاستنزاف كان تفادى الخسائر الكبيرة كذلك هو العامل الحاكم فى هذه المناقشات ، حتى أن النقاش انتقل إلى صفحات الجرائد التى تناولت الموضوع فى مقالاتها العديدة ، ومنها ماجاء فى مقالة نشرتها صحيفة « ها آرتس » الإسرائيلية فى يونيه ١٩٦٩ قالت فيها :

« إن الذين ينادون بعمليات مبادرة على الجبهة المصرية ، ويذكرون أن هذا الأمر سوف يقلل من خسائرنا الناجمة عن استمرار القصف المصرى على طول القناة ، قد أخطأوا السبيل .. إنهم مضللون .. فنحن نعتقد أن الانقضاض على المواقع المصرية لن يؤدى إلى وقف قصف المدفعية على امتداد قناة السويس فى المدى القريب .. فمن الخطأ أن نعتقد أن لدينا الخيار فى الإقلال من عدد ضحايا الجيش الإسرائيلى من جراء القصف المصرى على المواقع الإسرائيلية مقابل خسائر فى الاغارات التى ندبرها ضد الأرض المصرية ، إن هذين حسابان منفصلان ، فإذا بدأنا مرحلة جديدة فعلينا أن نتوقع مزيدا من الضحايا » .

* * *

لقد تبلورت عناصر الموقف من وجهة نظر إسرائيل ـ اعتبارا من شهر إبريل ١٩٦٩ فى عدة نقاط أساسية على جبهة قناة السويس بدأت معالمها تتضح منذ خريف ١٩٦٨ حين بدأت القوات المصرية أعمالها التعرضية عبر القناة خلال شهرى سبتمبر وأكتوبر ١٩٦٩ على وجه التحديد ، فقد أدركت إسرائيل أن القوات المصرية أصبحت تمتلك قوة تفوق قوتها السابقة عددا وعتادا ، وبذلك تبدد أمل إسرائيل فى قدرتها على فرض صلح قريب بشروطها ، بينما رجحت احتمالات صراع مسلح طويل الأجل . من ناحية أخرى فقد اضطرت إسرائيل تحت ضغط ماتعرضت له من خسائر فى الأرواح والمعدات إلى إنشاء خط التحصينات ثم إلى سحب قواتها الرئيسية بعيدا عن الضفة الشرقية للقناة ، وفى نفس الوقت فقد ظهر لإسرائيل أن التجاءها إلى شن إغارات برية فى عمق بعض المناطق المصرية بوادى النيل لم يؤد إلى الغرض المنشود ، وهو إضعاف الروح المعنوية للشعب المصرى ، بينما أعلنت مصر أن قرار وقف إطلاق النار أصبح غير ذى موضوع وأن حرب الاستنزاف ضد إسرائيل قد بدأت . وأخيرا فإن الإغارات البرية المصرية عبر قناة السويس ، التى وجهت أساسا لتحطيم خط التحصينات

الإسرائيلية قد امتد أثرها إلى ماهو أبعد من هذا المدى بكثير وهى الروح المعنوية داخل إسرائيل نتيجة للخسائر الكبيرة التى تكبدتها القوات الإسرائيلية .

وبذلك يكون الهدف المباشر من حرب الاستنزاف قد تحقق وفى نفس الوقت استعاد العالم العربى ثقته فى القوات المسلحة المصرية . ومن المعروف أن خسائر إسرائيل مهما كان حجمها فهى تعتبر كبيرة بالنسبة لبلد فى حجم إسرائيل وطبيعة مجتمعه .

إن استمرار هذا الموقف ـ من وجهة نظر إسرائيل ـ كان بمثابة نجاح مستمر من جانب واحد هو جانب مصر التى حققته لسببين هامين هما :

- **استرداد الثقة والهيبة العربية بخسائر قليلة فى مقابل ما وقع من خسائر كبيرة نسبيا فى القوات الإسرائيلية .**
- **إيجاد حالة من النشاط الساخن فوق خطوط المواجهة ومايستتبع ذلك من تأثير على الموقف السياسى والجهود الدبلوماسية المبذولة .**

* * *

وإزاء ما سبق كان من الضرورى أن تبدأ إسرائيل فى البحث عن الوسائل الفعالة التى يمكن أن تضع حدا لاستنزاف قواتها وفى نفس الوقت « تعرقل نمو القوات المصرية وتردعها وتحطم جرأتها المتزايدة وتستعيد كذلك المبادأة العسكرية التى فقدتها إلى جانبها مرة أخرى » .

ومع إزدياد حجم الخسائر ووطأة شعور القيادة العسكرية الإسرائيلية بعجزها عن إرغام مصر على وقف حرب الاستنزاف عن طريق القصف المدفعى الإسرائيلى المضاد وحده .. بدأت إسرائيل تعيد النظر فى سياستها الحربية وتستعرض مختلف طرق الحل الممكنة ، بما فى ذلك القيام بهجوم برى كبير ضد مصر ، ولكنها سرعان ما استبعدت هذا الاحتمال ، بعد أن استعرضت كل العوامل التى يمكن أن تعوق القيام بمثل هذا الهجوم فى ضوء التطور الكبير الذى استجد على القوات المسلحة المصرية منذ يونيه ١٩٦٧ ، وبعد أن بلغت حشودها على خط المواجهة فى قناة السويس حدا جعل من الصعب على اسرائيل اختراق هذه الجبهة أو التعرض لها بعمليات مباشرة واسعة النطاق .. وبعد أن أصبح واضحا أن نتائج أى عمليات برية تعبوية فى منطقة القناة لن تكون مضمونة رغم الخسائر الفادحة المنتظر حدوثها فى هذه الحال .

فى ضوء هذا الموقف اتجه التفكير الإسرائيلى نحو توجيه ردع غير مباشر للجبهة المصرية ، وذلك بمحاولة ردع جبهة عربية أخرى من خلال هجوم مباشر يشن ضدها ، ولكن مثل هذا العمل سوف تحيط به مخاطر جسيمة .. لأنه يعنى كشف الجبهة الأساسية أمام مصر ، وهى الجبهة التى تعانى من ضغوط متواصلة بواسطة قوات برية مصرية متفوقة ، فضلا عن امتداد خطوط المواصلات التى تحد

من قدرة القوات الاسرائيلية على الحركة السريعة أو المناورة السهلة بين الجبهات المختلفة .

الحل إذن هو شن الحرب الجوية ضد مصر ، هكذا اهتدى تفكير القيادة الاسرائيلية العسكرية الى أن انسب الوسائل المتاحة ، هو الاستمرار فى استخدام أسلوب الردع مع الانتقال من « الردع المحدود » الذى كان متبعا من قبل باستخدام الاغارات البرية المحدودة فى عمق الأرض المصرية وعلى امتداد جبهة القتال جنوبا ، إلى أسلوب « الردع الجسيم » وأن تكون أداة هذا الردع الجسيم « القوات الجوية » التى يمكن أن يحسم بها هذا الموقف ، والتى لم تستخدم منذ حرب يونيه ١٩٦٧ .

لقد دلت نتائج الاغارات الإسرائيلية البرية ضد مصر على فشل أسلوب « الردع المحدود » الذى مارسته إسرائيل من نوفمبر ١٩٦٨ حتى يونيه ١٩٦٩ .. سواء كان على الصعيد المحلى أو على الصعيد العالمى .. حيث أدينت بعض هذه الأعمال واستنكرتها الأوساط العالمية بشدة .. بينما استمر تصاعد الأعمال العسكرية المضادة على خطوط المواجهة وداخل الأراضى المحتلة ، وأصبح العبء ثقيلا على اسرائيل .. لذلك أصبح ضروريا تغيير هدف الردع ، الذى كان مقصورا على الاكتفاء بالرد على الأعمال العسكرية المصرية بأسلوب أكثر عنفا لاجبار مصر على وقف هذه العمليات .. وتحديد هدف استراتيجى جديد أوسع نطاقا وأبعد مدى .

وحددت القيادة الاسرائيلية « الهدف الاستراتيجى » بقسميه العسكرى والسياسى ليكون تعطيل وإرباك آلة الحرب المصرية وشل قدرتها على العمل الايجابى .. مع ممارسة ضغط معنوى على الشعب المصرى لاضعاف تماسكه وتحقيق انهياره من الداخل . واعتقدت القيادة الاسرائيلية أن مثل هذا الهدف المزدوج الذى يضع فى اعتباره ـ لأول مرة وبشكل صريح ـ ممارسة ضغوط موجهة للشعب المصرى مباشرة وليس لقواته المسلحة فحسب ، وهى ضغوط كانت تستهدف معنويات هذا الشعب .. يمكن أن يخلق اقتناعا لدى العرب ولدى القوى العالمية الكبرى بمدى تفوق اسرائيل وقدرتها على الحسم ، دون أى تدخل من هذه القوى .

بعد ذلك تفرغت القيادة الإسرائيلية لدراسة أسلوب وشكل استخدام قواتها الجوية من حيث نوعية الأهداف والوقت المناسب لاستخدامها ، وارتباط ذلك بمعدلات وصول الامدادات الأمريكية من طائرات القتال الحديثة إلى إسرائيل .. كذلك شكل الحرب الجوية التى اختارتها .. وهل هو الشكل الشامل الذى اتبع فى يونيه ١٩٦٧ والذى أخذ شكل ضربة أو ضربات جوية شاملة ؟ أم الأفضل هو استخدام أسلوب الغارات الجوية فى حرب جوية ممتدة تستمر فترة زمنية طويلة ؟

وأخيرا أسلوب الاغارات البرية المحدودة وهل يستمر بجانب الحرب الجوية مع تغيير نوعيتها ومجالاتها أم يكتفى بالنشاط الجوى ؟ .

* * *

فى ضوء العوامل السابقة ولتحقيق الهدف الاستراتيجى ، وبناء على نتائج الدراسات العديدة التى جرت .. اجتمع مجلس الحرب الإسرائيلى بناء على طلب موشى ديان وزير الدفاع وأصدر قرارا من أخطر القرارات العسكرية .. هو إدخال القوات الجوية الاسرائيلية فى حرب الاستنزاف بكل امكاناتها التدميرية . وقد أدى هذا القرار إلى إحداث تغيرات جذرية فى موازين القوى الاستراتيجية على جبهة القناة ، بدأت فى صالح إسرائيل ثم تحولت ضدها وأصبحت فى صالح مصر بعد مضى حوالى ستة أشهر على بداية هذه الحرب .

وقد اتخذ قرار استخدام القوات الجوية الإسرائيلية لأول مرة منذ انتهاء حرب يونيه ١٩٦٧ ، فى يوليو ١٩٦٩ ، أى بعد مرور أكثر من سنتين .. وقد راعت القيادة الإسرائيلية فى قرارها عدة عوامل كانت تتجاذب الموقف العام وتؤثر عليه فى ذلك الوقت ، ولعل أبرز العوامل التى حددت توقيت اتخاذ القرار كانت تنحصر فى الآتى :

● مادام الهدف الاستراتيجى هو شل آلة الحرب المصرية ، فمن الأفضل الإسراع فى توجيه الضربات المبكرة إليها قبل أن تبلغ حدا يصعب مواجهته ، أن الوقت فى هذه الحالة لن يكون فى صالح إسرائيل .

● كان هذا التوقيت هو أنسب التوقيتات لاستخدام القوات الجوية ضد مصر تحقيقا لهدف مزدوج : الأول هو رفع معنويات الإسرائيليين ، أما الثانى فكان هو إقناع العرب بأن قرارات الحظر الفرنسية لم تؤثر على قوة الردع الإسرائيلية من ناحية أخرى .

● أن استمرار وصول الطائرات الأمريكية الحديثة من طراز « سكاى هوك » واستيعابها فى القوات الجوية الإسرائيلية ، خلق حالة من الاطمئنان لدى إسرائيل وزاد من رسوخ هذا الاطمئنان قرب وصول باكورة صفقة طائرات « فانتوم » الأحدث .. إذ كان من المتفق عليه أن ترسل الولايات المتحدة ٤ طائرات منها كل شهر إلى إسرائيل اعتبارا من شهر سبتمبر ١٩٦٩ .

★★★

وقد استقر رأى القيادة العامة الإسرائيلية ، عند بحث مدى وأسلوب استخدام القوات الجوية ، أن يكون هذا الاستخدام فى شكل شامل بتوجيه ضربات جوية واسعة ، ولكن فى نطاق محدود ومثالى وعلى فترة طويلة ضد مجموعات من الأهداف المنتخبة .. وفى الواقع فإن إسرائيل فى ذلك الوقت لم يكن بمقدورها القيام بضربة جوية شاملة لأسباب كثيرة بعد أن تغيرت الظروف الاستراتيجية عما كانت عليه يوم ٥ يونيه ١٩٦٧ ، حينما كان المجال الجوى الإسرائيلى قويا بينما

كان المجال الجوى المصرى مكشوفا ومعرضا تماما فى ذلك الوقت . فما من شك أن قدرات القوات الجوية المصرية كانت قد تحسنت كثيرا وزاد عدد الطائرات وجودة أنواعها وارتفعت الكفاءة القتالية ، مع تكثيف فى وسائل الدفاع الجوى المصرية الايجابية بزيادة أسلحة الدفاع الجوى ووصول العديد من كتائب الصواريخ والأسلحة المضادة للطائرات ، والوسائل السلبية بتغيير انتشار وتمركز الطائرات وتحصين حظائرها وزيادة عدد القواعد الجوية والمطارات وأراضى الهبوط . وفى نفس الوقت كانت أعباء الدفاع الجوى الإسرائيلى قد زادت كثيرا بعد تضاعف المجال الجوى الذى هى مسئولة عنه والحاجة إلى تخصيص نسبة كافية من الطائرات لمهام الدفاع الجوى ، من ناحية أخرى فإن القدرة العربية على امتصاص مثل هذه الضربات الجوية ، كانت قد زادت سواء من الناحية المادية أو المعنوية .. مما تطلب اتباع أسلوب جديد لخلق تأثير مستمر ومتزايد لفترات زمنية طويلة .

وهكذا اختارت اسرائيل بديلا عن الهجوم الجوى الواسع النطاق .. « شن حرب جوية » ممتدة تستمر لفترة زمنية طويلة ، مع الابقاء على أسلوب الاغارات البرية المحدودة بعد تغيير نوعيتها ومجالاتها .

لقد أدى قرار إسرائيل باستخدام قواتها الجوية فى المعارك الدائرة ، ولأول مرة منذ انتهاء حرب يونيه ١٩٦٧ ، إلى انتقال حرب الاستنزاف لمرحلة خطيرة أطلق عليها الإسرائيليون « الاستنزاف المضاد » . وكان لدفع القوات الجوية الإسرائيلية بكل ثقلها مزودة بأحدث الطائرات الفرنسية والطائرات الأمريكية من طراز « سكاى هوك » و« فانتوم » ، لتصبح هى الأداة الرئيسية فى معركة الاستنزاف المحتدمة بدلا من المدفعية الإسرائيلية بعد أن ثبت عجزها .. أخطر النتائج .

وكانت أهم النتائج الاستراتيجية المباشرة لهذا التحول الهام فى سير حرب الاستنزاف نتيجتين هما :

- اتساع رقعة القتال التى أصبحت تغطيها حرب الاستنزاف المضاد لتشمل كل الأراضى المصرية ، وليس منطقة الجبهة فى القناة فحسب .
- انتقال ميزة المبادأة ولأول مرة منذ بداية حرب الاستنزاف من يد مصر إلى يد إسرائيل واستمرار هذا الوضع طوال هذه المرحلة من مراحل الاستنزاف .

الحرب الجوية ضد مصر :

ولاشك فى أن القيادة الاسرائيلية عندما اتخذت قرار دفع قواتها الجوية فى المعركة قد وضعت فى اعتبارها أوضاع قواتنا الجوية ونظام الدفاع الجوى المصرى ، وكانا رغم التحسن الكبير الذى طرأ عليهما فى الفترة من يونيه ١٩٦٧

حتى يوليو ١٩٦٩ ، مازالا فى مرحلة إعادة البناء خاصة نظام الدفاع الجوى . لذلك كانت الفرصة متاحة أمام اسرائيل لكى تفرض سيطرتها الجوية على الجبهة وفى عمق البلاد بما كانت تمتلكه وقتئذ من طائرات حديثة ، ومنها « السوبرمستير » و« الميراج » الفرنسية ولها قدرات قتالية عالية .. ثم بما زودتها به الولايات المتحدة من طائرات « سكاى هوك » حين قامت فى مارس ١٩٦٩ بتسليمها عدد ٤٨ طائرة من هذا الطراز ، وبما بدأت تمدها به من طائرات من طراز فانتوم A٤ الأحدث ، اعتبارا من سبتمبر ١٩٦٩ بواقع أربع طائرات فانتوم كل شهر .

أما الجانب المصرى فقد كان يعانى بشدة من قصور وضعف قواته الجوية وقوات الدفاع الجوى ، نتيجة للسياسة التى تبناها الاتحاد السوفييتى تجاه مصر عقب حرب يونيه ١٩٦٧ ، والتى كانت ترفض تزويد مصر بالأسلحة الحديثة وخاصة الأسلحة ذات الطبيعة الهجومية التى يمكن أن تحقق لها تفوقا على اسرائيل مما قد يدفع مصر إلى القيام بعمل عسكرى تعرضى كبير ضد إسرائيل بهدف استرداد أراضيها بقوة السلاح ، وكان الاتحاد السوفييتى يحاول بمثل هذه السياسة أن يتجنب أى تطورات قد تؤدى الى اشتعال الموقف فى الشرق الأوسط واحتمال أن تؤدى تداعياته إلى صدام مباشر بين القوتين العظميين .

لذلك يمكن القول إنه رغم الامدادات السوفييتية لتعويض مافقدته القوات الجوية المصرية من طائرات أثناء حرب يونيه ١٩٦٧ .. فقد استمر الفارق واسعا بين قدرات الطيران المصرى وقدرات الطيران الاسرائيلى سواء من حيث العدد أو من حيث النوعية .. فعلاوة على التفوق العددى الكبير للطائرات الاسرائيلية .

كانت هناك جوانب كثيرة للتفوق النوعى لايجعل هناك وجها للمقارنة بين خواص الطائرات المصرية القديمة وخواص الطائرات الاسرائيلية الحديثة ، إذ كانت الطائرات الفرنسية والأمريكية المملوكة لإسرائيل تحتوى على أحدث الأجهزة الالكترونية الخاصة بالتوجيه والاشتباك ، فضلا عن قدرتها الكبيرة بالنسبة لمدى العمل البعيد الذى يفوق ضعف مدى الطائرات السوفييتية الموجودة لدى مصر ، وكانت الطائرات الإسرائيلية قادرة على الوصول الى وادى النيل وتهديد الأهداف الحيوية فى عمق مصر ، بينما لم يكن لدى القوات الجوية المصرية طائرة مقاتلة قاذفة قادرة على الوصول من قواعدها غرب قناة السويس إلى الأراضى الاسرائيلية أو حتى تهديد المناطق الشرقية بشبه جزيرة سيناء مع بقائها فى الجو الفترة المناسبة واللازمة لقيامها بمهمتها . يضاف الى ذلك أن حمولة الطائرات الاسرائيلية من الذخائر والقنابل خاصة الطائرات الفانتوم كانت تتجاوز ثلاثة أضعاف ماتحمله الطائرة السوفييتية ميج ٢١ من ذخائر وقنابل .

وفى وجه هذا التفوق الكبير للطيران الإسرائيلى ، كان الدفاع الجوى المصرى يتحمل العبء الجسيم ويعمل دون كلل لاعادة بناء هيكله التنظيمى واستكمال قدراته القتالية اللازمة لحماية سماء مصر ، ففى منتصف عام ١٩٦٩ كانت قوات

الدفاع الجوى فى بداية عهدها كفرع من الأفرع الرئيسية للقوات المسلحة بعد وصول تدعيمات من كتائب الصواريخ « سام ٢ » المضادة للطائرات والأسلحة التقليدية والرادارات والأسلحة المضادة للطيران المنخفض .

ويتضح مما تقدم أن الحماية الجوية سواء لقوات الجبهة فى قناة السويس ، أو بالنسبة للأهداف الحيوية المنتشرة فى عمق مصر ، لم تكن متوافرة بالقدر الكافى والمناسب حيث كانت قوات الدفاع الجوى مازالت تمر بمرحلة حرجة من إعادة البناء .. وكانت مازالت فى حاجة إلى مزيد من الوقت لكى تتحقق الخطة الموضوعة لانشاء شبكة الدفاع الجوى ، وقد مثلت هذه النقطة نوعا من الخطورة عن تصعيد حرب الاستنزاف قبل أن تصل عناصر الدفاع الجوى إلى المستوى المناسب .. ومن المعروف عسكريا انه كان من الصعب الاستفادة من التفوق البرى المصرى فى منطقة القناة ومن تفوق نيران المدفعية المصرية مالم يتوافر دفاع جوى فوق ميدان القتال .. فضلا عن ذلك فان القوات الجوية لايمكنها أن تؤدى وظيفتها دون وجود جهاز أرضى كفء للكشف والتوجيه .. فإن تعرض مثل هذه الأجهزة الأرضية للتدمير يعوق تماما إمكان استخدام الطائرات فى الجو .

وكانت إسرائيل تأمل فى تحقيق مجموعتين من الأهداف العسكرية والسياسية من خلال حربها الجوية المركزة والواسعة النطاق ضد الأراضى المصرية فى الجبهة وفى العمق .. وذلك كالآتى :

الأهداف العسكرية :

توفير حرية العمل الكاملة للقوات الجوية الاسرائيلية وذلك بمنع اقامة نظام الدفاع الجوى المصرى أو استكماله .. خاصة فى منطقة الجبهة .. وضرب الانشاءات الهندسية لعناصر الدفاع الجوى الجديدة .. كذلك التركيز على هز ثقة الشعب والجيش بصفة مستمرة بقواته الجوية وذلك بالعمل على تكبيدها خسائر كبيرة والعمل على جذبها الى معارك جوية غير متكافئة فى ظروف وأوقات لاتناسبها .. كما تعمدت اسرائيل إبراز قوة ردعها وإثبات أن القوات الجوية الاسرائيلية مازالت تملك الذراع الطويلة القادرة على الوصول إلى أى هدف فى الأراضى المصرية ، مع التصدى لأى نشاط عسكرى مصرى مؤثر فى منطقة القناة والتغلب على نيران المدفعية المصرية باستخدام نيران القوات الجوية الكثيفة والمتفوقة ، وبالتالى إجبار مصر على وقف عمليات الاستنزاف من جانب مصر وذلك بالرد العنيف ومحاولة إيقاع أكبر قدر من الخسائر فى القطاع العسكرى وكذا القطاع المدنى .. وأخيرا محاولة إعاقة أى تخطيط لهجوم تنوى مصر شنه ضد اسرائيل والأراضى المحتلة ، والعمل على تفتيت كثافة القوات المصرية . وذلك بتوسيع نطاق العمليات الخاصة بمنطقة البحر الأحمر ووادى النيل واجبار مصر على تخصيص جزء كبير من قواتها وامكاناتها للدفاع عن هذه الأهداف .

الأهداف السياسية :

لعل أبرز هذه الأهداف هو نقل الاحساس بوطأة الحرب الى عمق مصر والشعب المصرى ومحاولة خلق تأثير نفسى عنيف ورأى عام مصرى قوى يعارض عمليات الاستنزاف أو يحدث ردود فعل عكسية تضعف من تماسك الجبهة الداخلية المصرية ، فتضطر الحكومة المصرية الى التراجع عن مواصلة القتال خوفا من تصدع الجبهة الداخلية كما كانت اسرائيل تريد أن تخلق اقتناعا لدى القوى الكبرى بأن تصوير الأزمة فى الشرق الأوسط « كبرميل البارود » القابل للانفجار ، هو تصوير غير حقيقى .. وبذلك تتفادى اسرائيل احتمال تعرضها لضغوط سياسية عالمية تفرض عليها حلا لاترضاه .

لقد نبعت الأهداف العسكرية الاسرائيلية للحرب الجوية أساسا من مفهوم الردع الإسرائيلى ومن رفض إسرائيل لقبول أى تحد عربى ومقابلته دائما بالرد المضاعف الجسيم ، وقد أعلن موشى ديان وقتئذ قوله « **ان الهجوم الجوى هو الرد الاسرائيلى على ما أعلنته مصر من حرب استنزاف فى شكل ضربات المدفعية وأعمال العبور ضد الجبهة الاسرائيلية شرق القناة** » .

وكان العمل التمهيدى الذى استهدفته الخطة الاسرائيلية لشل القدرة العسكرية المصرية ، هو تدمير جهاز الدفاع الجوى المصرى ، بما يشمله من رادارات وأسلحة وصواريخ ومدفعية ، وبذلك تتكشف الجبهة المصرية الأمامية جوا وأصبح الغارات الجوية ضد العمق فى مصر أمرا ممكنا .

★★★

ويمكن القول ان خطة الحرب الجوية الاسرائيلية ضد مصر قد نفذت على أساس نفس فكرة الهجوم الجوى على مصر صباح يوم ٥ يونيه ١٩٦٧ ، مع وجود فارقين هامين هما :

● اختلاف المدى الزمنى فى تنفيذ الخطة ، أى تنفيذها خلال عدة شهور بدلا من عدة ساعات وهذا هو أحد الفروق الأساسية بين استراتيجية الاستنزاف واستراتيجية العمل المباشر .

● تغيير ترتيب الأهداف فلم تبدأ بضرب القوات الجوية كما حدث فى ٥ يونيه ١٩٦٧ ولكنها بدأت بضرب الدفاع الجوى لكى تصل بعد ذلك الى القوات الجوية وكان ذلك سببه اختلاف وضع وقدرات الدفاع الجوى فى يوليه ١٩٦٩ عنهما قبل ذلك بسنتين ، فضلا عن اتخاذ الكثير من اجراءات الوقاية والتحصين والانتشار بالنسبة لطائرات القوات الجوية .

وبذلك تتلاءم الخطة مع اختلافات الموقفين العسكرى والسياسى ، فضلا عن مرونتها حيث يمكن وقفها أو تعديلها أو تبريرها حسب تطور هذه الاختلافات ، كما أنها تعطى شكل الرد على حرب الاستنزاف « التى بدأتها مصر » بنفس أسلوبها

البطىء والمتصاعد ، ولكن مع وجود هدف محدد هو استنزاف القدرة الجوية المصرية الدفاعية والهجومية ووضع جميع أنواع الأهداف المصرية العسكرية والمدنية تحت طائلة القوات الجوية الاسرائيلية .

لقد نفذت هذه الخطة الجوية الاسرائيلية على أربع مراحل واتصفت بثلاثة أبعاد :

- قبدأت مرحلتها الأولى فى يوليو ١٩٦٩ ضد منطقة القناة فقط ..
- ثم جاءت مرحلتها الثانية مع امتداد العمليات البرية الى ساحل خليج السويس فى سبتمبر ١٩٦٩ ..
- أما المرحلة الثالثة فقد بدأت فى يناير ١٩٧٠ بنقل الغارات الجوية الى وادى النيل ومنطقة القاهرة .
- وأخيرا المرحلة الرابعة بقصر الغارات الجوية مرة أخرى على منطقة القناة بعمق ٢٥ كيلومترا فحسب وذلك فى ابريل ١٩٧٠ ...

أما الأبعاد الثلاثة للخطة الجوية فكانت كالآتى :

● **الامتداد العرضى** بانتشار الضرب الجوى عرضيا فى اتجاه الجنوب على امتداد ساحل خليج السويس .

● **الامتداد الطولى** بشن غارات العمق وضرب بعض الأهداف المدنية .

● أما البعد الثالث فكان هو **الامتداد الزمنى** أى استمرار ضغط الغارات الجوية لفترة زمنية طويلة كفيلة بإحداث تأثير نفسى تراكمى يؤدى فى النهاية الى حدوث انفجار من الداخل ، وكان هذا الامتداد الزمنى للحرب الجوية هدفه خلق احساس بالعجز العربى ، خاصة بعد انتفاء صفة المفاجأة تماما ، وبالتالى فإنه قد يؤدى فى النهاية إلى حالة من اليأس والانهيار .

غير أن فقد ميزة « المفاجأة الاستراتيجية » - وهى أقوى عوامل النجاح فى يونيه ١٩٦٧ - قد شكل قصورا أساسيا فى الخطة ، وحاولت اسرائيل تعويضه بتحقيق « المفاجأة التكتيكية » من خلال توسيع المدى وتنويع اختيار الأهداف ولكن ذلك لم يكن كافيا لتحقيق شىء من آثار المفاجأة الاستراتيجية . وفى التحليل الأخير لخطة الحرب الجوية الاسرائيلية فإننا نجدها تفتقر إلى القدرة على تحقيق نتائج فورية ، وبالتالى إلى عنصر « الحسم » ، حيث كان الاعتماد والأساس هنا على أن يأتى الحسم من الداخل ، الأمر الذى لم يحدث ، ومن هنا كان فشل خطة الحرب الجوية الاسرائيلية التى نفذت ضد مصر من يوليو ١٩٦٩ حتى أغسطس ١٩٧٠ .

فى الواقع أن المراحل والأبعاد التى ميزت استراتيجية الحرب الجوية الاسرائيلية ضد مصر منذ بدأت إلى أن توقف القتال فى أغسطس ١٩٧٠ ، كانت تعديلات مختلفة اضطرت إسرائيل إلى إدخالها على خططها الجوية ثلاث مرات فى سبتمبر ١٩٦٩ وفى ديسمبر ١٩٦٩ ثم فى ابريل ١٩٧٠ تحت ضغط التطورات

العسكرية والسياسية التى حدثت خلال هذه الفترة فما هى حقيقة الأسباب التى دفعت إسرائيل إلى هذه التعديلات والتى تراوحت مابين التصعيد والحصر ؟

مصر ترد على إسرائيل

بدأت إسرائيل تنفيذ خطتها الجوية فى أوائل يوليو ١٩٦٩ .. بعد تغيير أسلوب وطبيعة وأبعاد الاغارات البرية .. لتبدو وكأنها تستهدف مواجهة القوات المسلحة المصرية ، بمهاجمة بعض نقاط حراسة السواحل الموجودة على امتداد الشاطىء الغربى لخليج السويس .. وخاصة فى منطقة الزعفرانة .. ثم تلتها إغارة من البحر على الجزيرة الخضراء ، وهى جزيرة صغيرة عند المدخل الجنوبى لقناة السويس بالقرب من ميناء السويس ، حين هاجمتها قوات الكوماندوز الاسرائيلية ليلة ١٩ / ٢٠ يوليو سنة ١٩٦٩ ، وتمثل هذه العملية قمة ما استطاعت إسرائيل أن تقدمه فى هذا المجال وقتئذ .. ولم تحقق هذه الاغارة النجاح الذى كانت تأمله إسرائيل حيث أصيبت القوات الاسرائيلية المهاجمة بخسائر كبيرة .

وكان هذا الفشل وكأنه اشارة لبدء المرحلة الأولى من الحرب الجوية الاسرائيلية الواسعة ضد جبهة قناة السويس ، وربما تصورت إسرائيل أن عمليتها ضد الجزيرة الخضراء سيكون لها تأثير كبير فتعقبها بالهجوم الجوى الكثيف فى صباح اليوم التالى مباشرة لتضاعف من هذا التأثير وتخلق رد فعل معنويا قويا فى صفوف القوات المسلحة المصرية .

فبعد ظهر يوم ٢٠ يوليو ١٩٦٩ انطلقت أسراب الطائرات الاسرائيلية من قواعدها لتشن غارات جوية كثيفة ومفاجئة ضد بعض الأهداف العسكرية المصرية فى القناة .. وكان واضحا أن هذه الغارات قد استهدفت ضرب وسائل الدفاع الجوى المصرية على وجه التحديد ، خاصة مواقع كتائب الصواريخ المضادة للطائرات ، وهكذا دفعت اسرائيل بقواتها الجوية لأول مرة كعنصر رئيسى فى القتال الدائر على ضفتى القناة .. وكانت خطتها فى هذه المرحلة تهدف الى كشف الغطاء الجوى عن قوات الجبهة المصرية وفتح الطريق أمام طائراتها الى عمق مصر ومطارات الداخل .

وكان لابد من مقابلة هذا التصعيد الإسرائيلى بتصعيد مقابل ، ولذلك قررت القيادة العسكرية المصرية شن سلسلة من الغارات الجوية الخاطفة ضد الأهداف العسكرية الاسرائيلية فى منطقة سيناء الشمالية .. وبدأت القوات الجوية المصرية تنفيذ هذه المهام وفى نفس اليوم لأول مرة .

ورغم استمرار الغارات الاسرائيلية الجوية خلال شهرى يوليو واغسطس ١٩٦٩ ضد الأهداف المصرية فى منطقة القناة - وخاصة مواقع بطاريات المدفعية وكتائب الصواريخ المضادة للطائرات ومحطات الرادار - فلم يحدث لهذه الغارات أثر

واضح على صياغة السياسة المصرية العسكرية ، بل واصلت مصر حربها لاستنزاف القوات الاسرائيلية ، فاستمرت الغارات الجوية كما استمرت عمليات العبور الى الضفة الشرقية للقناة دون توقف . وكان لاستمرار هذا الوضع أثره المباشر على الحالة المعنوية للاسرائيليين ، حتى أن مجلة « هاعولام هازيه » الاسرائيلية الأسبوعية كتبت فى ١٠ سبتمبر ١٩٦٩ مقالا يصور حالة سكان اسرائيل قالت فيه :

« لو وجدت آلة تصوير نفسية ، تستطيع طبع الحالة النفسية لشعب إسرائيل بأكمله لخرجت بالصورة التالية : ان الانسان الاسرائيلى يائس من السلام .. يائس من الحرب .. لم يعد يؤمن بأى حل ، لا بالطرق السلمية ولا بالوسائل الحربية » .

وليس ثمة شك فى أن الشعب المصرى والقوات المسلحة المصرية قد استطاعوا استيعاب الغارات الجوية والاغارات البرية الاسرائيلية ، بينما كان الشعب فى اسرائيل يعانى من حالة معنوية هابطة ، كان اليأس أبرز مظاهرها ، وهذا يؤكد أن الاستراتيجية المصرية لم تنجح فى زعزعة أركان الاستراتيجية الاسرائيلية فحسب ، بل أنها أصابت المجتمع الاسرائيلى ذاته بحالة من التدهور المعنوى الشديد .

ونتيجة لذلك سعت اسرائيل للمرة الثالثة خلال ستة أشهر إلى تغيير استراتيجيتها فلجأت فى سبتمبر ١٩٦٩ ، إلى توسيع جبهة القتال ، لتجذب أنظار القيادة العامة المصرية بعيدا عن الجبهة الرئيسية إلى منطقة خليج السويس الممتدة .. فركزت نشاطها الجوى ضد بعض مناطق الساحل الغربى للخليج .

كما قامت قواتها بتنفيذ بعض عمليات إبرار ليست بذات أهمية عسكرية مباشرة ، كان أبرزها تلك العملية التى جرت يوم ٩ سبتمبر ١٩٦٩ ، وأطلقت عليها اسرائيل أسما دعائيا فى بلاغاتها هو « غزو مصر » فقامت فى هذا اليوم بانزال قوة بر مائية مكونة من سرية كوماندوز مدعمة بتسع دبابات عند نقطة حدود الزعفرانة الواقعة على مسافة ١٠٠ كيلومتر جنوب السويس ، حيث قطعت الطريق الساحلى وخط التليفون ، ودمرت نقطة مراقبة جوية وبعض العربات التى كانت مارة على الطريق . وتعمدت اسرائيل ان تحيط هذه الاغارة بمظاهرة دعائية واعلامية ضخمة ، والتقطت فيلما لعملية نزول الدبابات على الساحل لكى تظهر للعالم وللشعب الاسرائيلى هذه العملية المظهرية المحدودة فى صورة « غزو مصر » .

كان واضحا أن الهدف الأول من هذا العمل ومن الأسلوب الذى نفذ به هو الحد من حالة التدهور المعنوى الذى بدأ يعانى منها شعب اسرائيل . كما كان هدفها أيضا وهدف ماتلاها من أعمال مشابهة ، جذب التفات القيادة المصرية العامة نحو هذه المنطقة الواسعة ، باعتبارها منطقة حيوية كمدخل مؤد إلى وادى النيل فى الوجه القبلى ، فتضطر القيادة المصرية إلى بعثرة قواتها ونشرها فوق مساحات

ممتدة من السواحل المكشوفة .. وبالتالى إلى تخفيف حشد القوات على خط المواجهة الرئيسى فى منطقة قناة السويس ، وبذلك يخف الضغط المصرى المتصاعد ضد القوات الاسرائيلية ومواقعها ، كما تحقق القيادة المصرية مزيدا من الأعباء باجبارها على نشر قواتها وتوزيعها فى أماكن بعيدة يصعب إعاشتها فيها .

وقد شرح حاييم هرتزوج - الرئيس الحالى لاسرائيل - والمعلق العسكرى للاذاعة الاسرائيلية فى ذلك الوقت - أهداف القيادة الاسرائيلية من أعمالها العسكرية فى منطقة خليج السويس بأنها لارغام القيادة المصرية على اعادة توزيع قواتها لحماية ساحل البحر الأحمر فى حد ذاته وحمايته كمدخل إلى صعيد مصر .. وأن ذلك سيكون على حساب القوات الموجودة فى مناطق أخرى .

الصراع يتسع نطاقه :

كان هدف إسرائيل من الزج بقواتها الجوية فى المعركة لأول مرة منذ يونيه ١٩٦٧ - باعتبارها أقوى ماتملكه إسرائيل من أدوات الحسم - هو ردع مصر واجبارها على وقف حرب الاستنزاف .. كما قامت اسرائيل فى نفس الوقت بمد عملياتها البرية والبرمائية الى ساحل خليج السويس فى عمليات استعراضية محدودة أطلقت على أحداها اسما دعائيا هو « غزو مصر » بهدف إحداث تأثير معنوى قوى لدى الشعب المصرى وتعميق احساسه بالعجز والاحباط ودفعه بالتالى الى الثورة على النظام الوطنى الحاكم ، وفى نفس الوقت إحباط أى محاولة لتنفيذ خطط هجومية مستقبلا بتشتيت جهود القوات المسلحة ، وبعثرتها على امتداد القناة وساحل خليج السويس لمسافة تزيد على ٥٠٠ كيلومتر .

ولكن مصر لم تقف مكتوفة الأيدى فى مواجهة هذا التصعيد الاستراتيجى الخطير .. ونجحت فى أن تثبت قدرتها على التصدى لهذه التحديات وتحمل نتائج ذلك رغم احتمال ثقل هذه النتائج .. فهل نجحت إسرائيل فى تحقيق أهدافها ؟ أم أن مصر هى التى تمكنت من أن تقلب موازين القوى لتصبح فى صالحها وضد إسرائيل مرة أخرى ؟ .

كان رد الفعل الطبيعى للقيادة المصرية فى مواجهة هذا التحدى الإسرائيلى العنيف هو الإصرار على مواصلة استراتيجيتها طويلة الأمد حتى تحقق أهدافها .. ومواصلة القوات المصرية فى شن عملياتها الخاصة المتتابعة والمتنوعة بل وتوسيع نطاقها . هكذا واصلت قواتنا الجوية غاراتها الجوية الخاطفة ضد الأهداف العسكرية الإسرائيلية شرق القناة وإنزال الخسائر بها .. بينما تعرضت المواقع الاسرائيلية فى شمال وجنوب سيناء للعديد من العمليات الخاصة فى مناطق لسان بورتوفيق والشط فى القناة ، وفى مصفق وبالوظة على ساحل شمال سيناء ، وفى رأس مسلة على الضفة الشرقية لخليج السويس ، وضربت معسكرات

القيادة الاسرائيلية فى العريش ومستعمرة مصفق على ساحل بحيرة البردويل ، ومطار الطور ، كما اشتركت طائرات الهليوكوبتر المصرية فى بعض هذه الأعمال لأول مرة .. وقامت مدفعية الأسطول بضرب أهداف برية من البحر منها معسكرات القوات الاسرائيلية فى رمانة وبالوظة ، ومن أبرز الأعمال الخاصة التى وجهت ضد اسرائيل فى هذه المرحلة ، ماقامت به القوات البحرية المصرية الخاصة ـ الضفادع البشرية ـ من توجيه عدة ضربات ناجحة ضد السفن الاسرائيلية الراسية فى ميناء « إيلات » نفذت أولاها يوم ١٦ نوفمبر ١٩٦٩ .

عكست هذه الضربات الفعالة وقعا شديدا ، ودلالة بعيدة عن إمكان الوصول بالضربات المصرية البرية والبحرية والجوية إلى أعمق الأهداف الاسرائيلية وأكثرها حيوية ، وكان لقيام القوات البحرية المصرية بعملية قصف مرّكز ضد أهداف اسرائيلية هامة على ساحل سيناء الشمالى ، وقيام عناصر مصرية خاصة بضرب مركز القيادة الاسرائيلية فى العريش ، تأثير لايقل أهمية خاصة من حيث نوعية العمليات المصرية .. إذ هى ذكرّت إسرائيل بضعف دفاعاتها البحرية وتعرض سواحلها الممتدة للخطر .

★★★

من ناحية أخرى كان لاشتراك القوات الجوية المصرية أثره الكبير على اسرائيل ، عبرت عنه صحيفة « ها آرتس » الاسرائيلية فى ذلك الوقت بقولها : « **إن غارات القوات الجوية المصرية أثبتت أن مصر لم تفقد جرأتها** » . وتأكدت إسرائيل من أن قواتها البرية فى سيناء باتت معرضة للغارات الجوية المصرية لأول مرة منذ جولة يونيه ١٩٦٧ ، كما أصبحت قواتها الجوية عرضة للتآكل والاستنزاف .. حتى أن مجلة « جويش أوبزفر » البريطانية علقت على ذلك قائلة : « تؤكد العمليات الجوية التى بدأت فى يوليو ١٩٦٩ ، أن مصر تخوض غمار حرب استنزاف ضد السلاح الجوى الاسرائيلى ، ان استمرار الصدام الجوى مع استمرار الغارات الجوية الاسرائيلية على الجبهة المصرية ، وتصدى وسائل الدفاع الجوى لها ، بما فيها الطائرات ، إنما يعنى أنه من الممكن القضاء على التفوق الجوى الاسرائيلى على المدى الطويل » .

وهكذا استغلت اسرائيل وجود الحظر الفرنسى على الأسلحة ، وخسائرها فى الطائرات لتتقدم إلى الولايات المتحدة فى أغسطس ١٩٦٩ أى بعد شهر من بدء حربها الجوية ، بطلب الحصول على صفقة من الطائرات المقاتلة القاذفة من طرازى « سكاى هوك » و« فانتوم » بلغ عددها ١٠٥ طائرة ، أضيف اليها بعد ذلك طلب بعدد ١٣٥ طائرة هليوكوبتر من طراز « سيكورسكى ٥٣ » ، وان كانت هذه الطلبات قد كشفت عن خسائر كبيرة تكبدتها إسرائيل ، فإنها فى نفس الوقت اعتبرت دليلا على أن اسرائيل سوف تمضى فى سياستها الحربية العدوانية القائمة على ما أسمته بـ « الردع الجسيم » سواء بأسلوب غارات الكوماندوز

المحمولة فى طائرات هليوكوبتر .. أو بواسطة الضربات الجوية .

من أجل دعم قواتها الجوية اضطرت اسرائيل لأول مرة ان تعتمد إعتمادا كليا على ترسانة السلاح الأمريكى .. وبذلك أصبحت الولايات المتحدة هى المورد الوحيد للسلاح لاسرائيل ، وان كانت إسرائيل قد سعت سعيا دائبا منذ بداية الستينيات لدفع الولايات المتحدة إلى قبول توريد السلاح لها ، فإن الظروف التى تحقق فيها ذلك لم تكن أفضل الظروف من وجهة نظر إسرائيل ، غير أن إسرائيل كانت فى حاجة إلى الطائرات الحديثة لمواصلة حربها الجوية ضد مصر ، كما أنها أرادت أن تطمئن إلى الالتزام الأمريكى بشأن امدادها بالطائرات أساسا بعد إنصراف فرنسا عنها ... فتقدمت بطلباتها هذه وألحت فى أخذ الموافقة الأمريكية عليها .

أما من ناحية القوات البحرية فقد أحست إسرائيل بمدى ضعفها فى المجال البحرى فى ذلك الوقت ، بعد إغراق المدمرة « إيلات » ثم بعد تعرض السواحل الشمالية لسيناء بل وميناء إيلات فى خليج العقبة للأعمال العسكرية المصرية ، ومن ناحية أخرى فإن اثارتها للنشاط العسكرى على سواحل السويس ، وازدياد الوجود المصرى هناك ، اضطرها الى أن توازن هذا الوجود بوجود بحرى مقابل .

ولما كانت قواتها البحرية تفتقر الى القطع المناسبة الكافية ، فقد أقدمت إسرائيل على أغرب سرقة دولية ، تقوم بها دولة ، حين قامت بسرقة وتهريب خمسة زوارق فرنسية مسلحة من ميناء شاربورج الفرنسى وكانت هذه الزوارق قد أخضعت للحظر الفرنسى بعد أن أعدت لإرسالها إلى إسرائيل . ولاشك فى أن ما أقدمت عليه إسرائيل فى هذا الشأن لدليل على مدى الجهود التى كانت تبذلها لتدعيم قواتها العسكرية عامة وقواتها البحرية خاصة ، حتى ولو اتبعت أساليب القرصنة التى تجعل منها دولة لا تحترم الأصول المرعية فى المعاملات الدولية .

شــارون .. المنقــذ :

ليس ثمة شك فى أن الاستراتيجية المصرية قد نجحت فى فرض وجودها وترك بصماتها على السياسة الحربية الاسرائيلية ، بل وكشفت عن نواحى الضعف فى الأوضاع الاستراتيجية الاسرائيلية عامة .. وبالتالى فقد أجبرت القيادة الاسرائيلية ولأكثر من مرة على السعى جاهدة لاستعادة الموازين المطلوبة أو لتحقيق الصمود أمام هذه الضغوط المصرية ، لتثبت فى النهاية انها مازالت محتفظة بالمبادأة . قادرة على ردع القوى العربية .

ولذلك أصبح لزاما على إسرائيل أن تغير من مفاهيمها العسكرية القديمة .. التى تقول إن طابع الجيش الاسرائيلى هو فى حركته وحيلته وفى استغلاله لعناصر المفاجأة وفى الابقاء على المبادأة فى يده فى كل لحظة وكل مكان .. غير أن الأمر

أصبح يحتم على الجيش الاسرائيلى أن يكيف نفسه وفقا للأوضاع الثابتة التى فرضت عليه وإن كانت غريبة بالنسبة لحقيقة طبيعته .. من ناحية أخرى فإن المشكلة الرئيسية التى كان يواجهها الجيش الاسرائيلى فى سيناء هى البحث المستمر عن الوسائل التى تؤدى إلى تخفيض حجم خسائره البشرية إلى الحد الأدنى وكسر شوكة حرب الاستنزاف التى يديرها المصريون .

ولتحقيق هذه المعادلة الصعبة قامت اسرائيل بدعم دفاعاتها على الضفة الشرقية للقناة ومحاولة ادارة الحرب بشكل يقلل كثيرا من عدد المصابين أكثر مما يؤدى إلى احراز مكاسب تقديرية وقتية وعابرة .. ومن هذا المنطلق جاء تكليف سلاح الطيران الاسرائيلى بالقيام بالدور الرئيسى فى الحرب ، وتنفيذ عمليات الاغارة البرية بحيث لاتؤدى إلى إلتحام مباشر مع القوات المصرية .. كل ذلك كان من الظواهر المميزة للسياسة الحربية الاسرائيلية .. ولكن ظلت مشكلة الجيش الاسرائيلى بشأن الخسائر البشرية واستمرار حرب الاستنزاف المصرية قائمة .

وقد عبرت صحيفة « معاريف » الاسرائيلية عن هذه الحالة فى مقال نشرته فى شهر سبتمبر ١٩٦٩ ذكرت فيه : « إننا ندعى إننا نستطيع الصمود أمام الاستراتيجية المصرية الجديدة ، ذلك لأنه ليس أمامنا مجال للاختيار ، لقد استطاعت القاهرة أن تمتص العديد من ضربات الكوماندوز الاسرائيلى ، وفى نفس الوقت فهى على استعداد لامتصاص أعمال القوات الجوية الأمر الذى يؤكد أنه ليس هناك حل سوى استمرار الحرب مع المصريين .. والوصول بهذه الأعمال إلى الذروة » .

ولتحقيق هذه الذروة فى سياستها العسكرية قامت اسرائيل فى ديسمبر ١٩٦٩ بإعفاء قائد الجبهة الجنوبية الذى قاد الحرب الاسرائيلية فى سيناء عام ١٩٦٧ « الوف جافيتش » وتعيين رجل العمليات والمهام الصعبة « أريل شارون » خلفا له .. وكانت مهمته الرئيسية هى تحقيق ما أخفق سلفه فى تحقيقه من هدف تخفيض الخسائر البشرية إلى أقل حد ممكن وردع حرب الاستنزاف المصرية أو كسر شوكتها .

ولما كانت معظم الخسائر الاسرائيلية فى القناة لم تحدث نتيجة لمعارك مواجهة ، ولكن بسبب أعمال الاغارة المصرية ونصب الكمائن وبث الألغام وعمليات قصف المدفعية والطيران . لذلك كان على شارون أن يستخدم وسائل أخرى أكثر فاعلية وبما يحقق المهمة المكلف بها فى إطار السياسة العسكرية الاسرائيلية .. وبتعيين أريل شارون قائدا للجبهة الجنوبية فى سيناء .. بدأت أخطر مراحل الاستنزاف المضاد الاسرائيلى وأكثرها أثرا على تطورات الموقف الاستراتيجى العسكرى بين إسرائيل ومصر خاصة فى مجال التخطيط المصرى لتحييد التفوق الجوى الاسرائيلى فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ .. وكانت الخطة الاسرائيلية الجديدة

فى هذه المرحلة ترتكز إرتكازا يكاد يكون كليا على الحرب الجوية .. وكانت تهدف إلى تحقيق ثلاثة أهداف متعاقبة :

- العمل على تحييد القوات الجوية المصرية أو التأثير على فاعليتها خاصة فوق الجبهة .
- تدمير شبكة الدفاع الجوى المصرى الموجودة فى الجبهة فى ذلك الوقت وبذلك يكتمل كشف سماء الجبهة وفتح الطريق إلى العمق .
- شن غارات جوية مكثفة ضد عمق مصر فى وادى النيل وحول العاصمة .

الصراع لحماية عمق مصر :

كانت أولى الحقائق الواضحة التى واجهت قوات الدفاع الجوى المصرية فى أعقاب حرب يونيه ١٩٦٧ التى كانت مازالت تعمل تحت اسم المدفعية والصواريخ المضادة للطائرات - هى التعامل مع قوات جوية اسرائيلية متفوقة ، تمتلك أحدث الطائرات الفرنسية والأمريكية وبأعداد كبيرة .. استغرق إعدادها وتدريبها فترة طويلة بلغت أحد عشر عاما (١٩٥٦ - ١٩٦٧) . وثانية الحقائق هى أن القوات الجوية الاسرائيلية قد اكتسبت ثقة كبيرة بعد جولة ١٩٦٧ ، عندما استطاعت خلال ساعات قليلة ، أن تقضى على معظم القوات الجوية المصرية وعلى وحدات الصواريخ القليلة التى كانت موجودة فى ذلك الوقت ، ثم تسيدت بعد ذلك سماء مسرح العمليات .

حدث ذلك فى يونيه ١٩٦٧ حينما كانت العناصر المضادة للطائرات المصرية تتألف من المدافع والرشاشات المضادة للطائرات ، تنقصها المعدات الحديثة ، مع عدد ضئيل من بطاريات الصواريخ المضادة للطائرات من طراز سام « ٢ » وقلة من أجهزة الرادار المتفرقة غير المتطورة والتى لاتشكل - بأى معيار - جهازا متكاملا للانذار الجوى .

وإذا كانت القوات الجوية الاسرائيلية قد إمتدت أمامها فسحة من الوقت بلغت عشر سنوات كانت كافية تماما للدراسة والاعداد منذ عام ١٩٥٧ ، حتى شنت ضربتها المركزة المفاجئة صباح الخامس من يونيه ١٩٦٧ ، فقد استمر تطويرها بنفس المعدل العالى بعد عام ١٩٦٧ دون أن تتأثر بالحظر الفرنسى على الأسلحة بعد أن فتحت أمامها الترسانة الأمريكية من طائرات القتال الحديثة لتأخذ منها ماتشاء .. بينما كانت قوات الدفاع الجوى المصرية مازالت فى منتصف الطريق نحو إعادة البناء عندما بدأت حرب الاستنزاف ضد اسرائيل فى مارس ١٩٦٩ .

وفى يوليو ١٩٦٩ قررت اسرائيل أن تشن حربا جوية ضد مصر ، وكان على وحدات الدفاع الجوى المصرى التصدى لطائرات إسرائيل عندما دفعت بقواتها فى معركة الاستنزاف المضاد . وراحت هذه الطائرات - وقد ملأتها الثقة - تغير يوميا على المواقع المصرية فى جبهة القناة ، واستلزم ذلك أن تقوم وحدات الدفاع

الجوى فى سنوات مابعد الهزيمة ، بجهد خارق ، وأن تتحمل تنفيذ مهام متداخلة شديدة التعقيد ، كان من الضرورى انجازها فى أوقات قياسية .. إذ كان عليها أن تبنى نفسها وتقيم شبكاتها القوية جنبا الى جنب وهى تنفذ مهام القتال القاسية وتحمى سماء مصر ضد الغارات الجوية الاسرائيلية الكثيفة .

وقد أثمر العزم والتصميم عن قيام جهاز جيد للدفاع الجوى عن الجبهة فى منتصف عام ١٩٦٩ ... وإن لم يكن كافيا من حيث الحجم ونوعية التسليح والمعدات لانجاز كل المهام الملقاة على عاتقه وقتئذ ، وفى نفس هذا التوقيت اضطرت القيادة العامة الاسرائيلية إلى دفع قواتها الجوية فى المعركة لمواجهة الارتفاع الشديد فى حجم الخسائر فى الأفراد والمعدات نتيجة قصف المدفعية والأعمال الخاصة للقوات المصرية . وتحقيقا للأهداف الموضوعة ، بدأت القوات الجوية الاسرائيلية تحاول استدراج مقاتلاتنا الى معارك جوية غير متكافئة لاستنزاف ما تم من إعادة بناء لهذه القوات ، ومنعها من الاشتراك فى القتال الدائر فوق الجبهة وركزت جهودها لتحقيق هذا الهدف باستخدام أساليب جديدة لكمائن جوية .. مما أثر على فاعلية القوات الجوية المصرية فوق الجبهة .

وعندما جاء شارون فى شهر ديسمبر ١٩٦٩ ، ركزت القيادة الاسرائيلية مجهودها الجوى الرئيسى ضد المواقع القديمة والمواقع الجديدة التى كان يجرى انشاؤها فى منطقة القناة الخاصة بكتائب الصواريخ المضادة للطائرات .. بهدف تجريد الجبهة من وسائل الدفاع الجوى وكشف سمائها وفتح الطريق نحو عمق مصر . ولتوفير مقومات النجاح لهذا العمل ، حصلت اسرائيل من القوات الجوية الأمريكية على خبرتها القتالية فى تعاملها مع الصواريخ المضادة للطائرات من طراز سام « ٢ » فى فيتنام ، كما ركزت وسائل حربها الالكترونية لشل فاعليتها ثم قصفها بتركيز شديد بغرض تدميرها ومنع إقامة أى مواقع جديدة .. وقد بلغ التركيز فى القصف الجوى حدا كبيرا من المبالغة فى تدمير المواقع ، وصل إلى استخدام وزن من المتفجرات يكفى لتدمير خمسة مواقع ضد موقع واحد ، فقد ألقيت على أحد هذه المواقع والذى لاتتجاوز أبعاده ٣٠٠ × ٢٠٠ متر حوالى ٥٠ قنبلة يتراوح وزنها بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ رطل ، أى ما يقرب من ١٥ طنا من المتفجرات بينما المعدل الكافى لتدمير مثل هذا الموقع لايتجاوز ٣ أطنان من المتفجرات .

وفى نهاية عام ١٩٦٩ ، كانت شبكة الدفاع الجوى المصرية فى الجبهة تعانى من خسائر كبيرة وأصبحت فى حاجة ماسة الى أجهزة رادار حديثة ترفع كفاءة شبكة الانذار الجوى خاصة على الارتفاعات المنخفضة ، والتى كانت تحتاج إلى أجهزة معينة .. كما كانت شبكة الصواريخ ذاتها تعتمد على صواريخ عتيقة بحاجة إلى تطوير كبير فى نوعياتها وكثافتها واستخدام صواريخ أحدث وأكثر تطورا وفاعلية فضلا عن ضرورة دعم أسراب المقاتلات وزيادتها حتى يمكنها المساهمة بجهد وافر فى مهمة الدفاع الجوى عن سماء مصر .

في هذه المرحلة الدقيقة من حرب الاستنزاف نلاحظ أن معظم التعليقات والتصريحات الصحفية الاسرائيلية كانت تدور فى أواخر عام ١٩٦٩ حول وطأة الخسائر التى تتحملها اسرائيل خاصة فى الأرواح ، باعتبارها نقطة شديدة الحساسية تؤثر على- معنويات الشعب الاسرائيلى ، وعلى مستوى الثقة الاسرائيلية بالنفس ، فضلا عن التأثير المادى المباشر لفقد الأرواح فى مجتمع يعانى أصلا من مشكلة نقص القوى البشرية .

ولما كان الهدف الاستراتيجى لاسرائيل قد استمر خلال عام ١٩٦٩ يرتكز أساسا على تحقيق « الاحتفاظ بالموقف الراهن بأقل خسائر ممكنة » ... هدفا يخالف الطبيعة الايجابية للعمل العسكرى الاسرائيلى ويفتقد التفكير الاستراتيجى بعيد النظر ، ولايتفق مع اتجاهات الفكر العسكرى والسياسى فى اسرائيل .. بل إن الجانب الايجابى من العمل الاسرائيلى وهو الغارات الجوية .. اثبت فشله فى تحقيق اى نتائج مؤثرة على الموقف المصرى .. لذلك فقد أدى هذا الاتجاه إلى فقد إسرائيل لقوتها الرادعة وبالتالى أشاع إحساسا بالعجز عن فرض الارادة الاسرائيلية .

وقد رسمت صحيفة التايمز البريطانية صورة الموقف فى اسرائيل فى ذلك الوقت بقولها : « إن الواقع أصبح مفهوما تماما .. فهو بعيد جدا عن تلك الأيام المليئة بالزهو والخيلاء عقب حرب الأيام الستة مباشرة .. حينما قال الجنرال ديان ببساطة واستعلاء إنه ينتظر اتصالا تليفونيا لعقد الصلح .. ولكن هذا الاتصال لم يحدث أبدا » .

ولما كانت القوات الجوية الاسرائيلية مازالت هى « الذراع اليمنى القوية لاسرائيل » .. والدرع الذى يمكن أن يرتفع وراءها جدار الثقة إلى درجة كبيرة .. كان طبيعيا أن ينبع الحل الاسرائيلى من نفس المصدر السابق وهو استمرار الاعتماد على القوات الجوية مع زيادة درجة هذا الاعتماد وإضافة أبعاد جديدة لمدى وأسلوب عملها . خاصة بعد بدء وصول صفقة طائرات الفانتوم الأمريكية منذ سبتمبر ١٩٦٩ بواقع أربع طائرات كل شهر ، وكان من الضرورى أن تكون هذه الأبعاد الجديدة أكثر فاعلية وأعمق أثرا .. قادرة على تحقيق نتائج استراتيجية أبعد حسما .

وعلى هذه الأسس قررت إسرائيل أن تمد غاراتها الجوية إلى وادى النيل وأن تشنها ضد عمق الأراضى المصرية وحتى مشارف القاهرة ، وضرب العديد من الأهداف العسكرية والمدنية الحيوية .. بحيث يمكن من خلالها تحقيق هدف استراتيجى وسياسى واضح .. وهو شل القدرة العسكرية المصرية تماما وتهديد الجبهة الداخلية تهديدا مباشرا .

وقد حظى هذا القرار الاسرائيلى بدعم وتأييد الولايات المتحدة ، التى كانت

تعتقد أن تزايد الضغط العسكرى والمعنوى ضد مصر سوف يؤدى فى النهاية إلى احداث تغيير فى قدرة الصمود العربى الشامل من خلال التأثير فى أقوى مراكزه ممثلا فى مصر .. ودفعها نحو حالة من الانهيار واليأس .. وبالتالى شل القدرة العربية على العمل والحركة ومتابعة الحشد لاسترداد الحق العربى . وبدافع من الرغبة فى تعجل هذه النتائج شجعت الولايات المتحدة وباركت المخطط الاسرائيلى الجديد والخاص بتوسيع نطاق الحرب الجوية ضد مصر وتعميق أبعادها بضرب الأهداف العسكرية والمدنية الحيوية فى عمق البلاد .

وقد حدد موشى ديان وزير الدفاع الاسرائيلى « **سياسة غارات العمق** » وأبعادها المعنوية والسياسية والعسكرية الداخلية والخارجية فى يناير ١٩٧٠ .. فتحدث بأسلوبه المتعالى عن عدم وجود أى خطر يمكن أن يوقف إسرائيل عن التوغل داخل مصر وإلى أبعد عمق تستطيع .. « حتى نحافظ على معنويات الشعب فى إسرائيل ونقوض الزعامة السياسية والعسكرية فى مصر » .. أما عسكريا فكان الهدف هو « منع مصر من بدء أى حرب شاملة أخرى وتمكين القوات الاسرائيلية من الصمود على طول جبهة قناة السويس » ..

وفى ٧ يناير ١٩٧٠ .. بدأت إسرائيل غاراتها المدمرة ضد الأهداف العسكرية والمدنية المصرية ودفعت بطائراتها سكاى هوك وفانتوم للقيام بهذه المهام وتوسيع نطاق الحرب بشكل لم تبلغه من قبل .. وتركزت الهجمات الاسرائيلية فى البداية ضد الأهداف العسكرية القريبة من القاهرة وبعض مدن الدلتا مستهدفة المعسكرات ومراكز القيادات والمستودعات بغرض إيقاع أكبر قدر من الخسائر فى آلة الحرب المصرية .

واتخذت الغارات الجوية الاسرائيلية فى عمق الأراضى المصرية طابعا تكتيكيا خاصا .. حيث تم اختيار الأهداف العسكرية بحيث تقع عادة بالقرب من القاهرة أو على مشارفها وتدخل فى نفس الوقت ضمن شبكة الدفاع الجوى المصرية ..مع تطعيم سلسلة الغارات بعدد آخر من الغارات ضد أهداف مدنية أو شبه عسكرية بالقرب من التجمعات السكانية . واتبعت إسرائيل أسلوب الاقتراب والهجوم على ارتفاع منخفض مع استخدام طائرات الفانتوم فى مجموعات من طائرتين بالاستفادة من قدرتها على الطيران المنخفض بسرعة عالية ولمدى طويل مع حمولة كبيرة من القنابل .. كما اتبعت أسلوب الهجوم الخاطف ومراعاة الحذر فى تكتيكات الكر والفر بحيث يمكن تحقيق أكبر قدر من الخسائر المادية والآثار المعنوية بأقل قدر من التضحيات ، ثم راحت إسرائيل تهدد بالمزيد من هذه الغارات واستمرارها إلى أن يقبل العرب وقف إطلاق النار فى المنطقة .. وانها سوف تصعد من هذه الغارات على ضوء استمرار الأعمال العسكرية المصرية وهى مقتنعة ـ مع تفوقها الجوى ـ ان باستطاعتها أن تضرب بنجاح أى هدف فى أى مكان من مصر .

هكذا دخلت اسرائيل مرحلة جديدة وخطيرة من حربها الجوية ضد مصر ..

فقامت بتوجيه هجماتها إلى عمق الأراضى المصرية فى غارات جوية مركزة وخاطفة بدأت ضد المنشآت والمراكز العسكرية فى مناطق التل الكبير وانشاص ودهشور بالقرب من القاهرة .. ثم استمرت بعد ذلك ضد الأهداف العسكرية والمدنية فى مناطق مختلفة من وادى النيل وشمال وشرق الدلتا .

واضطرت القيادة المصرية للاقلال من الخسائر التى قد تلحق بالقوات المسلحة ومنشآتها العسكرية إلى أدنى حد ممكن الى وضع وتنفيذ خطة حكيمة سميت « **خطة الانتشار** » وكان الهدف من هذه الخطة هو توزيع الوحدات العسكرية والمنشآت التعليمية على مناطق شاسعة داخل وخارج الجمهورية .

ولما كانت كل من السودان وليبيا ـ الدولتان العربيتان المجاورتان لمصر ـ تمثلان العمق الاستراتيجى الطبيعى لها فقد رأت القيادة المصرية إمكان الاستفادة من هذا العمق فى عملية توزيع وانتشار الوحدات المصرية فى مناطق بعيدة عن المدى الفعلى للطائرات الاسرائيلية خاصة طائرات الفانتوم .. وبموافقة الدولتين تم نقل الكلية الحربية من القاهرة إلى منطقة جبل الأولياء بالقرب من الخرطوم فى السودان .. وإلى ليبيا تمركزت الكلية البحرية فى طبرق والكلية الجوية فى مطار جمال عبدالناصر (مطار العظم فى ليبيا) ، كما تم توزيع القطع البحرية غير المطلوبة فى الموانىء المصرية على موانىء بنى غازى وسرت فى ليبيا وبورسودان فى السودان فضلا عن استخدام مراسى البحر الأحمر فى سفاجا والقصير ورأس بناس ، كما نشرت بعض الوحدات الأخرى فى الوجه القبلى ، فنقلت كلية الضباط الاحتياط من منطقة القناة إلى إسنا بمحافظة قنا .

★★★

لقد أرادت إسرائيل بأعمالها العدوانية الكثيفة التى بدأتها فى يناير ١٩٧٠ ، أن تتصدى بحسم للقدرة العسكرية المصرية النامية ، والتى كانت قد نجحت فى إسترداد ما فقدته فى عام ١٩٦٧ بل وتجاوزته بكثير فى العديد من الجوانب العسكرية التى واجهت تطورات حاسمة وتغيرات جذرية منذ نهاية حرب ١٩٦٧ ... وكانت إسرائيل متعجلة فى تنفيذ خطتها لكى تضرب هذه القدرات وهى مازالت فى مراحل نموها .. وقبل أن تكتمل هذه المراحل وتصبح المهمة عسيرة على إسرائيل .

وما من شك فى أن الولايات المتحدة قد لعبت فى ذلك الوقت دورا هاما فى تشجيع إسرائيل وتأييد عدوانها على مصر ودفعها إلى هذه الحرب الجوية العنيفة ، فى عمق أراضيها .. وكان ذلك بفضل الأسلحة الهجومية والمعدات الالكترونية الحديثة التى تدفقت عليها من الولايات المتحدة خاصة خلال عام ١٩٦٩ .

وكان لزاما أن تواجه مصر هذا التحدى وأن تسعى بكل السبل المتاحة أمامها إلى إحباط المخطط الإسرائيلى المزود بالدعم الأمريكى .. وأن تفوت على هذا

المخطط أى فرصة للحد من القدرة العسكرية المصرية النامية أو من التأثير فى معنويات شعب مصر أو فى وحدة جبهته الداخلية .

كان على مصر أن تواجه قوة الردع الإسرائيلية الرئيسية الممثلة فى قواتها الجوية المزودة بأحدث الطائرات والأسلحة الهجومية والمعدات الالكترونية التى تدفقت عليها من ترسانة الأسلحة الأمريكية بكل العزيمة والإصرار ، سواء فى المجال السياسى أو فى المجال العسكرى .

●

الفصل العاشر

نقطة التحوّل

لقاء القمة فى موسكو :

مع نهاية عام ١٩٦٩ كانت القوات المسلحة المصرية قد بدأت تعانى من متاعب الحرب الجوية الاسرائيلية خاصة بعد الأضرار التى لحقت بوحدات الدفاع الجوى فى جبهة القناة وبعد أن أصبح الطريق مفتوحا أمام الطائرات الاسرائيلية إلى عمق مصر .. حيث لم تكن القوات المصرية فى هذه الفترة تملك القدرة على مواجهة الهجمات الجوية الاسرائيلية المتعاقبة .. فلم تكن القوات الجوية قد استكملت مرحلة إعادة البناء كما لم تكن مزودة بالطائرات الحديثة القادرة على التصدى للطائرات الإسرائيلية بما تملكه من قدرات وامكانات .. أما شبكة الدفاع الجوى فقد أصبحت عاجزة عن مواجهة الموقف سواء من حيث حجم الأسلحة والمعدات الموجودة أو من حيث نوعيتها ومدى تطورها ، وفى هذا الوقت لم تكن القوات الجوية تمتلك أى طائرة قاذفة مقاتلة أو قاذفة قادرة على تهديد عمق إسرائيل أو أى هدف داخل الأراضى الاسرائيلية ذاتها أو حتى الوصول إلى عمق سيناء .. حتى يمكن ردعها أو اجبارها على وقف غاراتها الجوية ضد الأراضى المصرية .. لقد كانت إسرائيل تعرف هذه الحقائق وكانت مطمئنة إلى أن أراضيها ليست مهددة من جانب القوات الجوية المصرية على وجه التحديد .

من ناحية أخرى فقد أدركت القيادة المصرية فى ذلك الوقت أن تقديراتها بشأن موقف إسرائيل من حرب الاستنزاف كانت أكثر تفاؤلا .. وانها لم تضع فى حساباتها احتمال أن يكون رد إسرائيل هو القيام بشن حرب إستنزاف مضادة على هذا المستوى ، تزج فيها بما تمتلكه من إمكانات جوية كبيرة .. الأمر الذى شكل مفاجأة غير متوقعة للقيادة العامة المصرية .. والذى أدى إلى قلب الموازين والحسابات على المدى القصير ... أما على المدى البعيد فقد كان لهذا التصرف الإسرائيلى أثره الكبير فى إقامة حائط الصواريخ الضخم ، الذى لعب دورا حاسما فى حرب أكتوبر .. وكان أحد العوامل الأساسية التى ساعدت على تحقيق النصر بعد أن نجح فى شل قدرة القوات الجوية الاسرائيلية .

وليس ثمة شك فى أن الغارات الاسرائيلية قد سببت للقوات المصرية خسائر جسيمة سواء فى الأفراد أو فى الأسلحة والمعدات ... ولكن إسرائيل - رغم ذلك - قد فشلت فى إرغام مصر على وقف حرب الاستنزاف أو تخفيفها .. بل استمرت القيادة المصرية مصرة على مواصلة هذه الحرب ومقابلة التحديات الناجمة عن استمرارها .. مما دفع القيادة الاسرائيلية إلى اتخاذ قرارها الخطير بشن غارات العمق فى أول يناير ١٩٧٠ ، حتى ينقلوا ويلات الحرب وكوارثها إلى شعب مصر ليذيقوا المدنيين المزيد من المعاناة وإلى أن يجد النظام الوطنى الحاكم نفسه أمام أحد خيارين .. إما وقف حرب الاستنزاف أو سقوط النظام .

ولذلك فإن قرار إسرائيل بشن غارات العمق ضد مصر قد شكل نقطة تحول هامة حين أدى إلى قرار مضاد من الرئيس عبدالناصر بمواجهة هذا الموقف وإصراره على ضرورة إيجاد حل له مع الاتحاد السوفييتى .. وهكذا توجه الرئيس عبدالناصر فى ٢٢ يناير ١٩٧٠ إلى موسكو فى زيارته السرية المشهورة التى ادت نتائجها إلى قلب الأوضاع الاستراتيجية فى المنطقة .

★★★

ويمكن اعتبار لقاء القمة المصرى السوفييتى ، والذى عقد فى موسكو بين الرئيس جمال عبدالناصر والزعيم بريجنيف من أخطر لقاءات القمة المصرية السوفييتية إن لم يكن أخطرها جميعا وذلك نظرا للآثار الاستراتيجية والعسكرية الهامة التى ترتبت عليه سواء على المستوى المحلى أو المستوى الدولى ، وكان الهدف الأساسى من هذه الزيارة هو شرح حقائق الموقف العسكرى فى جبهة القناة والحصول على موافقة السوفييت على تزويد مصر بنظام متكامل ومتطور للدفاع الجوى عن مصر ، وحتى يمكن مواجهة التفوق الجوى النوعى والكمى لاسرائيل بفاعلية تمكنها من أن تلحق بالقوات الجوية الاسرائيلية من الخسائر مايرغمها على وقف غاراتها الجوية ضد عمق البلاد .. وتحرم هذه القوات من السيطرة الجوية التى فرضتها فوق جبهة القتال فى القناة . ولتحقيق مثل هذا الهدف الحيوى لمصر كان لابد من أن يتوافر لديها أجهزة الرادار المتطورة للانذار المبكر .

سواء على الارتفاعات العالية أو المنخفضة ، مع وجود طائرات مقاتلة إعتراضية حديثة قادرة على إعتراض الطائرات الاسرائيلية (الأمريكية الطراز) والاشتباك معها ومطاردتها بكفاءة وتتعاون هذه الطائرات مع شبكة حديثة متكاملة من الصواريخ أرض/جو للدفاع عن الأهداف العسكرية والمدنية الحيوية فى عمق مصر وفى جبهة القتال .. ويخدم ذلك كله نظام اليكترونى قادر على الكشف المبكر لاقتراب الطائرات المعادية ، وتوجيه طائراتنا نحو أهدافها مع توفير القدرة لها على الاشتباك المؤثر بالصواريخ جو/جو مع الطائرات الاسرائيلية وجو - أرض ضد الأهداف الأرضية .

وتحقيقا لذلك فقد طلبت مصر من الاتحاد السوفييتى توفير وحدات كاملة من الصواريخ أرض/جو من طراز أحدث هو سام ٣ بالاضافة إلى أسراب كاملة من المقاتلات الاعتراضية من طراز ميج ٢١ المعدلة وكذا أجهزة الرادار المتطورة اللازمة لشبكة الانذار ضد الارتفاعات العالية والمنخفضة وباقى الأجهزة الالكترونية الخاصة بالتتبع والتوجيه والاعاقة الالكترونية .. ولما كان عامل الوقت له أهمية كبرى فى مواجهة العدوان الجوى الاسرائيلى المتصاعد ووقفه .. بينما سيستغرق تدريب واعداد الأطقم المصرية اللازمة لتشغيل هذه الأسلحة والمعدات وقتا طويلا .. لذلك كان لابد من أن ترسل هذه الوحدات الكاملة من الدفاع الجوى والقوات الجوية بكامل أطقمها السوفييتية حيث لم يكن عنصر الوقت فى صالح الموقف المصرى وقتئذ .

هنا يمكن القول أن هذه الزيارة السرية التى قام بها الرئيس جمال عبدالناصر إلى الاتحاد السوفييتى فى ٢٢ يناير ١٩٧٠ ، تعتبر دون شك نقطة تحول حاسمة ، ليس فقط فى طبيعة الموقف العسكرى فى جبهة القتال ولكن كذلك فى مسار الصراع بين مصر واسرائيل بعد ذلك .. وقعت فى وقتها المناسب تماما ، حيث كانت مصر تواجه موقفا عسكريا حرجا فى مواجهة الحرب الجوية الاسرائيلية .. كما أنها جاءت كنتيجة للتغير الأساسى الذى طرأ على طبيعة المساعدات العسكرية السوفييتية لمصر سواء من حيث النوعية أو من حيث الحجم .. ولعل أكثر عناصر هذا التحول أهمية كان فى المساهمة العضوية لأطقم سوفييتية لأول مرة فى إقامة نظام قوى ومتكامل للدفاع الجوى عن مصر ، قادر على الوقوف فى وجه القوات الجوية الاسرائيلية التى تمثل لدى اسرائيل أقوى عناصر الحسم والردع الموجه ضد العرب .

الخطة والتنفيذ :

لم يكن التوصل إلى مثل هذا الاتفاق أمرا سهلا سواء بالنسبة لقبول مصر أوضاعا لم تكن قائمة من قبل ... أو بالنسبة لقبول الاتحاد السوفييتى مثل هذه المخاطرة وإن كانت مخاطرة محسوبة فى أبعادها ونتائجها .. وهدفها وهو هدف دفاعى أساسا يرمى الى حماية سماء مصر ضد الغارات الجوية الاسرائيلية ... ولكن تم التوصل إلى الاتفاق بعد مباحثات صعبة ولكنها كانت حاسمة .. فقد كان أمام مصر ثلاثة خيارات : أما قبول هذا الحل والسعى إلى تحقيقه أو مواجهة موقف سياسى عسكرى شديد الصعوبة والتعقيد .

أما الاتحاد السوفييتى فلم يكن أمامه من بديل آخر لقبول هذا الحل .. لذلك وافق الاتحاد السوفييتى على تزويد مصر بما تحتاج إليه من أسلحة ومعدات للدفاع الجوى اشتملت على : فرقة كاملة للدفاع الجوى بالصواريخ من الفرق السوفييتية (٣٢ كتيبة صواريخ سام ٣ بأجهزتها ومعداتها وأطقمها) وكذا ثلاثة

ألوية جوية كاملة (٨٤ طائرة ميج ٢١ معدلة بالطيارين والموجهين والفنيين) ومعها عناصرها الادارية ومعداتها الفنية ، واتفق على أن توضع هذه القوات تحت القيادة المصرية وتتولى المساهمة فى الدفاع الجوى عن العمق المصرى فحسب ، **وقد حرص الاتحاد السوفييتى على أن يأخذ اشتراكه فى حرب الاستنزاف بين مصر واسرائيل فى هذه المرحلة الدقيقة ... طابعا دفاعيا بحتا ، وذلك لمنع إثارة أى متاعب مع الولايات المتحدة أو استفزازها .. ولذلك كان اشتراكه مقصورا على العمق المصرى بعيدا عن جبهة قناة السويس .**

وقد تم الاتفاق على تجهيز المواقع اللازمة لبطاريات الصواريخ ، والعناصر الفنية اللازمة لخدمتها وكذا مواقع أجهزة الرادار ، خلال فترة لاتزيد على ٤٠ يوما .. كما اتفق كذلك على أن يتم تدريب أطقم مصرية كاملة تعادل ثلاثة ألوية صواريخ سام ٣ بضباطها وجنودها فى الاتحاد السوفييتى .

★ ★ ★

وقد بدأ العمل فورا فى بناء شبكة ضخمة من مواقع الدفاع الجوى على عدة انساق أو نطاقات ... وكان النطاق الأول هو النطاق اللازم للدفاع عن عمق الأراضى المصرية خاصة الأهداف الحيوية فى القاهرة والاسكندرية وأسوان ، وفى بداية هذا النشاط الكبير لم تدرك القيادة العسكرية الاسرائيلية الغرض من إقامة هذه المواقع وبناء كل تلك التحصينات ولكنها فى نفس الوقت قررت أن تواجهها وتدمرها بشن الغارات الجوية الكثيفة ضدها ، شهد شهر مارس ١٩٧٠ بداية هذه المرحلة الجديدة من الحرب الجوية الاسرائيلية ضد مصر والتى استندت أساسا على تركيز القصف ضد المواقع الجديدة الجارى بناؤها بشكل متواصل ومنتظم بهدف حيوى بالنسبة لاسرائيل هو منع اقتراب هذه المواقع الجديدة من منطقة قناة السويس .

ورغم محاولات القوات الجوية الاسرائيلية وإصرارها على التدخل ضد عملية انشاء مواقع الدفاع الجوى وتدميرها .. فقد نجحت مصر فى انشاء المواقع اللازمة خلال المدة المقررة بعد أن حشدت لذلك كل امكاناتها العسكرية والمدنية ، ورغم ضخامة العمل الذى كان من المطلوب انجازه ، فقد أمكن لهذا الحشد المادى والمعنوى من طاقات شعب مصر إتمام العمل فى موعده المحدد خلال شهرى فبراير ومارس ١٩٧٠ ، حيث اكتمل وصول عناصر الدفاع الجوى والعناصر الجوية السوفييتية بكامل معداتها وأسلحتها فى أواخر مارس ١٩٧٠ .

كانت المرحلة الأولى من هذه الخطة المتكاملة الواسعة النطاق .. هى تأمين مناطق العمق وخاصة الأهداف المدنية الحيوية ضد الغارات الاسرائيلية .. وعند استكمال هذه المرحلة تبدأ المرحلة التالية والأكثر خطورة ودقة وهى مرحلة التقدم بحائط الصواريخ نحو منطقة قناة السويس .. ولاشك فى أن من أهم الدراسات

وأكثرها إلحاحا تلك الدراسات التى قامت بها قوات الدفاع الجوى وأجهزة القيادة العامة والتى تركزت حول أسلوب عودة الصواريخ المضادة للطائرات إلى جبهة القتال . وتبلورت الآراء فى ذلك الوقت فى وجهتى نظر محددتين :

- أما القفز بمواقع الصواريخ إلى المواقع الأمامية بالجبهة مباشرة دون توفير حماية مسبقة لعملية إنشائها .. وهو حل له مخاطره الكثيرة .
- أو التقدم التدريجي فى وثبات تبدأ من العمق نحو جبهة القتال ، وهى وجهة النظر التى أخذ بها فى النهاية ، وكانت تقضى بانشاء تحصينات ومواقع الصواريخ على نظام الانساق بحيث يتم إنشاء كل نسق لتتمركز به بطاريات الصواريخ تحت حماية الانساق الخلفية .. أى أن يتحقق الوصول بحائط الصواريخ إلى منطقة القناة على نظام الوثبات .. وهو أسلوب عسكرى معروف فى تكتيكات الاقتراب الميدانية .

وهكذا انشئت الانساق الخلفية وتم احتلالها بالصواريخ .. وبدأ استغلال هذا النجاح فى إنشاء ثلاثة أنساق أخرى متتالية من مشارف شرق القاهرة (المنطقة العسكرية المركزية) وتمتد تدريجيا حتى تصل إلى منطقة القناة . وقد وضعت لهذا الغرض خطة دقيقة وطموحة تهدف إلى انشاء ٣٤ قاعدة صواريخ مضافا إليها المواقع والتحصينات التكميلية اللازمة للأعمال الفنية والادارية ومراكز القيادة والسيطرة الميدانية .

المرحلة الحرجة :

لاشك فى أن مرحلة غارات العمق ضد مصر والتى بدأت فى ٧ يناير وانتهت فى ١٨ إبريل ١٩٧٠ واستمرت حوالى مائة يوم .. كانت تمثل المرحلة الحرجة فى حرب الاستنزاف وأدقها وأهمها تأثيرا حيث بلغ الصراع خلالها أشد حالاته ، نتيجة لمحاولات إسرائيل المستميتة والتى بلغت ذروتها ، لارغام مصر على وقف هذه الحرب قبل استكمال وصول الوحدات السوفييتية وتوليها مؤقتا ممارسة أعمال الدفاع الجوى عن العمق ، ومنع مصر من استكمال شبكة الدفاع الجوى .. فأطلقت قواتها الجوية تعربد فى سماء مصر تطلق الصواريخ وتلقى القنابل .. بلا تمييز بين هدف عسكرى وهدف مدنى .. أو بين قاعدة صواريخ .. ومدرسة أطفال .

وخلال هذه الفترة لم تتوقف إسرائيل عن تركيز غاراتها الجوية ضد قواعد صواريخ الدفاع الجوى الجديدة أو التى كانت مازالت تحت الانشاء وبكثافة عالية ، وفى خضم هذه المعركة الشرسة ... وقعت ثلاثة أحداث هامة ، كان لها آثار ضخمة بعيدة المدى ، سواء على الموقف العسكرى فى مسرح العمليات أو على الموقف السياسى فى منطقة الشرق الأوسط فقد ارتكبت إسرائيل جريمتين بشعتين ، كان لهما صدى عنيف فى أنحاء العالم ، كانت الأولى هى ضرب مصنع مدنى فى منطقة أبوزعبل أما الثانية فهى ضرب مدرسة بحر البقر . واختتمت هذه المرحلة الحرجة بالحدث الثالث وهو الاشتباك الجوى المفاجىء الذى وقع بين الطائرات الاسرائيلية والمقاتلات السوفييتية .

ففى صباح يوم ١٢ فبراير ١٩٧٠ أغارت الطائرات الاسرائيلية من طراز فانتوم .. على مصنع الشركة الأهلية للمنتجات المعدنية فى أبوزعبل شرق القاهرة ، وقصفته بالصواريخ وأسفرت الغارة عن مصرع ٧٠ عاملاً واصابة ٧٠ آخرين بجراح ... وفى يوم ٨ أبريل ١٩٧٠ أغارت الطائرات الاسرائيلية من طراز فانتوم مرة أخرى على مدرسة بحر البقر الابتدائية بمنطقة الصالحية فى شرق الدلتا ، وأسفرت هذه الغارة الوحشية عن مصرع ٣١ طفلا وإصابة ٢٦ آخرين من أطفال المدرسة ، لذلك كان لهذا الحادث وقع عميق سيىء على الرأى العام على المستوى العالمى .

وفى ١٨ ابريل ١٩٧٠ وقع حادث أخذ أهمية خاصة .. وكان له أثره الهام على مجرى الغارات الجوية الاسرائيلية على عمق مصر ، بل فى مسار حرب الاستنزاف بأكملها . ففى هذا اليوم قام تشكيل جوى اسرائيلى باختراق المجال الجوى المصرى فى المنطقة الواقعة فوق الجزء الشمالى من خليج السويس ... فاندفعت لاعتراض هذا التشكيل مجموعة من المقاتلات السوفييتية من طائرات « ميج ٢١ » ، وجرى اشتباك جوى فوق منطقة جبل عتاقة وعين السخنة سقط خلاله عدد من الطائرات السوفييتية . وخلال الاشتباك التقطت الطائرات الاسرائيلية .. المحادثات اللاسلكية التى كانت تدور بين أفراد المجموعة وكانت باللغة الروسية . وكان لهذا الاشتباك أثره المباشر على الخطط الإسرائيلية دون شك ، ولكنه لم يكن ـ كما قيل ـ هو السبب فى اتخاذ إسرائيل لقرارها بوقف غاراتها الجوية ضد عمق مصر ، على أساس أنها خشيت أن يتسع نطاق اشتباكاتها مع الطيارين السوفييت .

وفى الحقيقة ـ فى ضوء المراجع الاسرائيلية ذاتها ـ ان اسرائيل كانت قد بدأت قبل هذا التاريخ بعدة أسابيع فى وضع استراتيجية جديدة تقوم على التراجع عن غارات العمق وقصر الغارات الجوية على منطقة القناة فقط .. بل ان القيادة الاسرائيلية كانت قد توصلت فعلا لقرار حول هذا الموضوع قبل وقوع الاشتباك الجوى ... ولكن يمكن القول ان هذا الحادث قد عجل بوضع هذه الاستراتيجية الجديدة موضع التنفيذ .. ففى ٤ ابريل ١٩٧٠ وقبل وقوع هذا الاشتباك بحوالى أسبوعين صرح موشى ديان وزير الدفاع الاسرائيلى ، أمام مؤتمر الاتحاد الوطنى للطلبة الاسرائيليين بقوله : « ان هدفنا هو التمسك بخطوط وقف إطلاق النار واستمرار قبضتنا على جبهة القناة .. وأرجو أن نميز بوضوح بين القاهرة والاسكندرية وأسوان وبين قناة السويس » .

ويتضح من حديث ديان أن فكرة التراجع عن ضرب العمق لم تكن وليدة حادث الاشتباك مع المقاتلات السوفييتية ، ولكنه كان وليد التغير الأساسى الذى طرأ على نظام الدفاع الجوى فى مصر ، وتولى السوفييت مسئولية الدفاع عن القاهرة والاسكندرية وأسوان .. وسوف نلاحظ مما سيرد من تفاصيل فيما بعد كيف ان هذا التراجع الاسرائيلى عن ضرب العمق قد بدت بوادره فى تصريحات عديدة

للمسئولين الاسرائيليين منذ شهر مارس ١٩٧٠ وكان الاشتباك الجوى هو الدافع العملى الذى أكد مخاوف الاسرائيليين فسارعوا بوضع قرارهم موضع التنفيذ . مع شن حملة دعائية واسعة النطاق ضد الوجود السوفييتى فى مصر .

ردود الفعل :

لقد أحدثت هذه الغارات الجوية ضد الأهداف المدنية المصرية ، ردود فعل عنيفة فى انحاء العالم وعلى الصعيد المحلى ، كما أحدثت تطورا جذريا هاما فى طبيعة الصراع بين العرب وإسرائيل .. وخاصة مع استمرار إسرائيل فى اتخاذ المواقف المتشددة والأكثر تعنتا فى مراحلها الأولى ، مع التهديد بمزيد من هذه الاغارات ومزيد من العنف مالم يقبل العرب وقف إطلاق النار فى المنطقة .. غير أن التطورات التى نجحت مصر فى فرضها على الموقفين العسكرى والسياسى أجبرت إسرائيل على التراجع وعلى ابتلاع تهديداتها المستمرة .

لقد كان واضحا منذ البداية أن هذه الغارات الاسرائيلية الوحشية لن تحقق أهدافها .. ذلك لأن شعب مصر قد أثبت قدرته على تحمل واستيعاب مثل هذه الضربات بل وتجاوز آثارها مهما بلغت ، كما أنه لم يكن من المنتظر أن تقف مصر مكتوفة اليدين إزاء هذا العدوان الصارخ على أراضيها وأرواح سكانها من المدنيين ، فاصرت على مواجهته واتخاذ المواقف الحاسمة لاحباط أهدافه .. وفى مارس ١٩٧٠ كتبت مجلة « الشرق الأوسط الجديد » تقول :

« إن إمعان إسرائيل فى شن غاراتها على مصر أتى برد فعل عكسى تماما لما أرادت ، فقد زاد تشبث الشعب المصرى بالصمود ضد عدوه ، فضلا عن التفافه حول زعيمه .. كما ضاعف السوفييت من تزويد مصر بأحدث الأسلحة المضادة للطائرات » .

بل لقد تنبأ بعض المفكرين العسكريين الغربيين المحايدين ، وفى مرحلة مبكرة وبعد دراستهم لمعطيات الموقف وحقائقه المادية والمعنوية بفشل هذه الغارات .. ومن بين هؤلاء الخبير العسكرى الفرنسى جنرال أندريه بوفر والذى كان مديرا للمعهد الفرنسى للدراسات الاستراتيجية فى ذلك الوقت ، حيث صرح فى يناير ١٩٧٠ بقوله : « إن هدف إسرائيل الأساسى من هذه العمليات هو هدف نفسى ولكن لن يكون لمثل هذه العمليات تأثير فى نفوس الجماهير المصرية » ، الأمر الذى حدث بالفعل .

فقد أصابت نتائج غارات العمق ضد الأهداف العسكرية والمدنية المصرية القيادة الاسرائيلية بالاحباط الشديد .. فهى لم تحرك شعب مصر للثورة ضد نظام الرئيس عبدالناصر .. وأن ماحدث كان عكس ذلك تماما .. إذ نجحت القيادة الوطنية فى الاستفادة من هذه الغارات الاسرائيلية لدعم الجبهة الداخلية وتعزيز الوحدة الوطنية وتحقيق المزيد من الترابط بين الشعب وزعامته .

أما بالنسبة للاتحاد السوفييتى فقد كان لموقفه الحاسم ومبادرته بشأن تطوير نظام الدفاع الجوى فى مصر وزيادة دعمه المباشر لها وتغيير طبيعته ، آثار بالغة على الصراع العربى الاسرائيلى ، وصدى بعيد على الصعيد العالمى ، لما ترتب عليها من نتائج عسكرية وسياسية ، حاولت اسرائيل استغلالها إلى أقصى حد فى شتى المجالات العسكرية والسياسية والدعائية .

وإزاء هذه التطورات الحادة التى ظهرت نتيجة للغارات الاسرائيلية ، كان من المحتم أن تتحرك الولايات المتحدة وأن تحدد موقفها من هذه الأحداث .. وجاءت بداية هذا التحرك الأمريكى فى ٢٣ مارس ١٩٧٠ حينما أعلنت الولايات المتحدة عن تأجيل البت فى صفقة الطائرات الضخمة التى سبق أن طلبتها إسرائيل فى أواخر عام ١٩٦٩ .. ولكن فى نفس الوقت تضمن التصريح الأمريكى كذلك ، تأكيدا بأن الرئيس نيكسون سوف « يتصرف فى الحال إذا تغير الموقف العسكرى والسياسى فى غير صالح إسرائيل » ، وان كان هذا القرار الأمريكى قد تأثر بردود الفعل الأولية التى أحدثتها غارات العمق بطائرات « فانتوم » الأمريكية الصنع ، فإنه استند أساسا على عامل آخر هام هو . اطمئنان الولايات المتحدة إلى تفوق إسرائيل الجوى واقتناعها بأنها ليست فى حاجة ماسة ـ وقتئذ ـ إلى مزيد من الطائرات ، وقد تضمن الإعلان الأمريكى الدعوة إلى بذل الجهود الدبلوماسية لتسوية الصراع سلميا ، وحث الجانبين على الالتزام بقرار وقف إطلاق النار ، والسعى للحد من توريد الأسلحة إلى المنطقة .

ورغم أن الاجراء الذى اتخذته مصر كان اجراء دفاعيا بحتا ، غرضه الأساسى حماية سماء مصر ووقف العدوان الاسرائيلى الجوى المتزايد على أراضيها وأرواح سكانها ، فإنه أحدث أثرا معنويا كبيرا فى إسرائيل ، أرجعه أبا ايبان وزير الخارجية الاسرائيلية إلى أهمية « الشعور بالقوة » لدى إسرائيل فى قوله : « إننا نعيش فى نطاق استراتيجية الردع التى يكون فيها الشعور بالقوة له نفس ما لتنفيذ الردع ذاته من تأثير على الموقف الداخلى » .

ولعل مما زاد من عمق هذا الشعور فى المجتمع الاسرائيلى ان مصر لم تهدأ أو تتوقف عقب وقف غارات العمق فى منتصف ابريل ١٩٧٠ .. فزادت من نشاطها الجوى بضرب المواقع الاسرائيلية فى سيناء خلال شهر ابريل وقد بلغ عدد الغارات الجوية يوم ٢٤ ابريل ١١ غارة ، وفى نفس الوقت انتهزت مصر الفرصة لتنفيذ مخططها الخاص بتحريك حائط الصواريخ تجاه منطقة القناة ذاتها .

ومن أبرز نتائج هذا التطور عندما اضطرت إسرائيل إلى وقف غارات العمق فى مصر .. هو تعرض حرب الاستنزاف لنقطة تحول خطيرة للمرة الثانية .. حين تمكنت مصر من استعادة المبادأة إلى جانبها ، بعد أن كانت قد فقدتها منذ تسعة أشهر عندما بدأت إسرائيل استنزافها المضاد بشن حربها الجوية ضد مصر فى يوليو ١٩٦٩ .. كما عادت حرب الاستنزاف مرة أخرى حيث

بدأت في منطقة قناة السويس لكى تنفذ إسرائيل مرحلة جديدة من استراتيجيتها بعيدا عن عمق مصر .

* * *

استمرت مرحلة غارات العمق فى الحرب الجوية التى شنتها إسرائيل ضد مصر كاستنزاف مضاد ، فترة مائة يوم فقط ، أمكن لمصر خلالها ـ بفضل ما اتخذته من إجراءات ـ أن تجبر إسرائيل على وقف غارات العمق فى منتصف ابريل ١٩٧٠ . وكانت هذه المرحلة هى أقسى المراحل وأكثرها حرجا فى مراحل حرب الاستنزاف بين مصر وإسرائيل .. كما كانت فى نفس الوقت أقوى هذه المراحل تأثيرا على مسار الصراع .. الذى بلغ ذروته فى ذلك الوقت حين حاولت إسرائيل باستماتة وبكل امكاناتها إرغام مصر على وقف هذه الحرب أو كسر شوكتها ومنعها من إقامة أى نظام قوى للدفاع الجوى ، لكى تظل سماء مصر مفتوحة أمام طائرات إسرائيل ، تضرب فى عمقها أهداف مثل مصنع أبوزعبل ومدرسة بحر البقر .. بينما كانت مصر تواجه هذه الهجمة الشرسة وتقبل التحدى وتتحمل التضحيات وتعمل بكل الجهد السياسى والعسكرى على إحباط المخطط الإسرائيلى المزود بالدعم الأمريكى .. والسعى إلى هزيمته وإجبار إسرائيل على أن تعدل من استراتيجيتها الجوية للمرة الرابعة منذ بداية حربها الجوية ، فتتحول مجبرة من استراتيجية « السماء المصرية المفتوحة إلى أبعد ماتستطيع إسرائيل » (٢٨ يناير ١٩٧٠) إلى استراتيجية « المناطق المغلقة على القوات الجوية الاسرائيلية » (٥ ابريل ١٩٧٠) والتعبيران مأخوذان من تصريحين لموشى ديان وزير الدفاع الاسرائيلى .. وكان الفارق الزمنى بينهما عشرة أسابيع فحسب .

ولذلك تعتبر هذه المرحلة نقطة تحول حاسمة فى مسار الصراع المسلح بين مصر وإسرائيل منذ انتهاء حرب يونيه ١٩٦٧ .. امتدت آثارها دون شك إلى حرب أكتوبر ١٩٧٣ حيث تركت بصماتها واضحة تماما على تطورات هذه الحرب .

★ ★ ★

وقد نجحت مصر بعد الرحلة الخاطفة والسرية التى قام بها الرئيس عبدالناصر إلى موسكو يوم ٢٢ يناير ١٩٧٠ ، فى إحباط المخطط العدوانى الاسرائيلى .. وتحويله إلى مغامرة فاشلة فادحة الثمن باهظة التكاليف بشكل لم تحتمله إسرائيل طويلا . فأقدمت مصر ـ بفضل المساعدات الفورية المتنوعة التى قدمها الاتحاد السوفييتى استجابة للضغوط المصرية ـ على انشاء أكبر شبكة للدفاع الجوى تشهدها المنطقة ، وتدعيمها بأحدث أنواع الأسلحة والمعدات الالكترونية والصواريخ الموجهة المضادة للطائرات من طراز سام .

كانت المرحلة الأولى العاجلة هى تأمين المناطق الحيوية فى عمق الأراضى

المصرية .. ثم الانتقال فى مراحل متعاقبة نحو جبهة القتال فى منطقة قناة السويس ، وهى الخطة التى عرفت بعد ذلك بـ « خطة بناء حائط الصواريخ » ولاشك فى أن هذا التطور الحاسم فى الموقف قد ترك أثرا معنويا وماديا قويا داخل اسرائيل .. وكما سبق القول ، فرغم أن الاجراء الذى أقدمت عليه مصر كان هدفه « دفاعيا » تماما فإنه قد خلق شعورا لدى اسرائيل ، بأن قوتها الرادعة قد فقدت جدواها .. وأحس قادة اسرائيل بخطورة سريان هذا الشعور أو تضخمه وأثر ذلك على معنويات الشعب .. فعادوا يقللون من مغالاتهم بشأن خطورة الأمر . وبعد أن أثاروا ضجة هائلة خلال شهرى فبراير ومارس ١٩٧٠ حول خطورة صواريخ سام ٣ التى حصلت عليها مصر لأول مرة .. عاد ديان فى نهاية شهر مارس ١٩٧٠ ليصرح بأن : « صواريخ سام ٣ ليست عصا سحرية ، قادرة على سلب القوات الجوية الاسرائيلية قوتها » .

ومن الواضح أن محاولة الاقلال من قيمة الصواريخ التى زودت بها شبكة الدفاع الجوى المصرية ، ومدى تأثيرها على قوة الردع الاسرائيلية ، كان يستهدف أساسا إزالة المخاوف التى انتشرت بين الاسرائيليين وظهرت على صفحات الصحف ، ودعم المعنويات بينهم .

أما على الجانب المصرى فقد حدث عكس ذلك .. فإن دعم نظام الدفاع الجوى المصرى وتطوير قدراته ، قد أفسد التأثير النفسى السلبى الذى حاولت اسرائيل أن تفرضه على شعب مصر . حيث كانت تعتبر أن نجاح طائراتها فى التوغل داخل عمق مصر ، ونقل أخطار الحرب إلى وادى النيل ، هو تطور حيوى لردع مصر لأنه « سيذكر المصريين بمدى قوة اسرائيل ويخلق شعورا راسخا بينهم بالعجز عن مواجهتها » .

أما عن التأثير المادى لما حدث ، فإن تطوير الدفاع الجوى المصرى قد عكس العديد من السلبيات على القدرات العسكرية لاسرائيل . ولعل أبرزها هو الحد من قدرة إسرائيل على تحقيق السيطرة الجوية على سماء مصر .. وبالتالى لن تتمكن من منع أو عرقلة أى استعدادات مصرية هجومية . بالاضافة لذلك ، فقد رأت إسرائيل أن جانبا إيجابيا شديد الأهمية قد أضيف إلى قدرات مصر ، وقد شرح إيجال آلون وجهة النظر هذه فى حديث له مع مجلة « تايم » الأمريكية يوم ٢٩ مارس ١٩٧٠ حين قال :

يجب ألا يقع المرء فى تصور أن صواريخ سام ٣ مجرد أسلحة دفاعية .. إنها فى الواقع قد أعطت مصر « قوة هجومية » إضافية . فإن مجرد إقامة قواعد هذه الصواريخ سيخلق فى مصر شعورا بالحرية لفعل ماتريد .. ولذلك لايصح أن نتخيل أن هذه الصواريخ مجرد أسلحة دفاعية .. كما يدعى المصريون » .

وفى الواقع فبقدر ماسلبت هذه المظلة الدفاعية من اسرائيل العديد من المزايا

الحيوية ، فإنها أضافت العديد من الايجابيات الهامة إلى جانب قدرة مصر العسكرية .. بعد أن وفرت الحماية المباشرة لأهداف مصر الحيوية العسكرية والمدنية .. كما أنها فى نفس الوقت قد حرمت إسرائيل من تنفيذ المبدأ الاستراتيجى الذى حرصت دائما على تنفيذه ونعنى به :

« إنزال أكبر قدر من الخسائر بالعدو ، بأقل قدر من الخسائر الاسرائيلية » . فقد أصبح نظام الدفاع الجوى المصرى قادرا على إنزال خسائر كبيرة بالطائرات الاسرائيلية المغيرة ، من ناحية أخرى فإن هذه الاضافة الهامة لقدرات الدفاع الجوى ، قد خفف من حجم المهام الدفاعية التى كانت ملقاة على عاتق المقاتلات المصرية ، مما أتاح الفرصة للعمل على زيادة فاعليتها الهجومية .

لقد درست إسرائيل كل هذه المعطيات التى أفرزها الموقف الجديد ، وأدركت كل العواقب والأبعاد التى يمكن أن تترتب عليها .. ولذلك كان تقديرها الاستراتيجى أن ما حدث من تطور هو فى صالح مصر ، بل هو فى الواقع « **إنقلاب فى موازين القوى العسكرية** » .. وبنت هذا التقدير الهام على أساس أن ماحدث ، وان كان لايمثل تهديدا ايجابيا مباشرا لاسرائيل ، فإنه قد أفسد استراتيجية الردع التى تعتنقها . ولما كانت هذه الاستراتيجية قائمة على التفوق فى موازين القوى ، فقد اعتبرت إسرائيل أن الحد من مقدرتها على الردع هو اختلال خطير فى ميزان القوى فى غير صالحها .

وعلى أساس هذه النظرية بنت إسرائيل كل تصرفاتها فى شتى المجالات السياسية والعسكرية والدعائية ، فنشطت فى تجسيم خطورة الموقف .. وفى طلب المزيد من الدعم العسكرى الأمريكى ! ! « **باعتبار أن كل قطعة سلاح تتلقاها مصر تغير ميزان القوى فى المنطقة .. أما الصواريخ فهى تقلبه ..** » بل ان إسرائيل إدعت أن دعم الدفاع الجوى فى مصر ، « سوف يخلق تهديدا بنشوب حرب شاملة ، تشنها مصر ضد إسرائيل بعد أن زادت قدرتها الهجومية فى ظل النظام الجديد - إلى حد كبير »

خطة الانكماش الاسرائيلى :

قبل أن تقوم مصر بتعزيز دفاعها الجوى وتعيد تنظيمه ، كان المسئولون البارزون من الاسرائيليين دبلوماسيين وعسكريين ، يتبارون فى إطلاق التصريحات والتأكيد على النجاح الساحق الذى حققته الغارات الجوية الاسرائيلية ضد عمق مصر .. وأن هذا النجاح قد بلغ حدا سوف يمنعها من أن تحاول شن أى هجوم لاستعادة سيناء لمدة قد تصل إلى عشر سنوات أخرى ! .

وفى الواقع فإن مسألة « شل القدرة العسكرية المصرية » كانت هى الشغل الشاغل للقيادة الاسرائيلية السياسية والعسكرية منذ منتصف عام ١٩٦٩ بعد أن بدأت مصر حرب الاستنزاف ضد اسرائيل ، وكان تحقيق هذا الهدف المباشر ، إنجاز حيوى بالنسبة لاسرائيل حتى تطمئن على استمرار بقائها على الضفة

الشرقية للقناة .. الأمر الذى لايتحقق إلا بشل القدرة العسكرية المصرية .

وخلال حرب الاستنزاف برزت مسألة أخرى كانت أكثر إلحاحا على القيادة العسكرية الاسرائيلية ، تلك هى التزايد المستمر فى الخسائر البشرية التى تسببها حرب الاستنزاف المصرية للمواقع الاسرائيلية شرق القناة .. الأمر الذى أدى إلى بروز هدف آخر لايقل أهمية هو « العمل على الحد من الخسائر المتزايدة فى الأرواح بكسر حدة حرب الاستنزاف » .

غير أن الاستراتيجية المصرية النشطة قد خيبت أمل اسرائيل وأفسدت كل محاولاتها لتحقيق أى من الهدفين ، سواء الهدف المباشر الخاص بشل القدرة العسكرية المصرية أو الهدف الملح الخاص بالحد من الخسائر البشرية بين صفوف القوات الاسرائيلية . أما الهدف الدائم الأساسى وهو استمرار التمسك بخطوط المواجهة على جبهة قناة السويس والمحافظة عليها هادئة .. فهو هدف لم يكن يتحقق إلا إذا نجحت إسرائيل فى فرض وقف غير محدود لاطلاق النار بشروطها ، ومن خلال شل القدرة المصرية عن القيام بأى عمل عسكرى ايجابى يهدف إلى استعادة المبادأة ، أو شن عمل تعرضى ضد إسرائيل ومنع تجميع أو حشد أى قوات مصرية جديدة فى منطقة القناة استعدادا لمرحلة جدية من الصراع . وكان أمل اسرائيل أن تحقق كل هذه الأهداف الطموحة عن طريق استمرار فرض السيطرة الجوية المطلقة على جبهة قناة السويس على أقل تقدير .

★★★

غير أن إقامة شبكة الدفاع الجوى المصرية .. قد أفسد الاستراتيجية الاسرائيلية وقلب كل موازين الحرب الجوية التى خططت لها اسرائيل وحددت أهدافها العسكرية والسياسية النهائية منذ يوليو ١٩٦٩ . كما جاء التحرك السياسى والعسكرى المصرى مفاجأة لاسرائيل أضعف أملها فى تحقيق هذه الأهداف إلى حد كبير ، وأصبح من الضرورى أن تعيد النظر فى استراتيجيتها وأن تدخل عليها تعديلات جذرية وحتمية .

وبدأ قادة إسرائيل خلال شهر مارس ١٩٧٠ ، فى التمهيد لهذا التغيير ، أو بمعنى أصح .. لهذا التراجع عن سياستها المرسومة والمعلنة . فمع بداية وصول الأسلحة والمعدات الجديدة إلى مصر ، توقفت لهجة التهديد الذى استمر شهورا طويلة باختراق « سماء مصر المفتوحة ، وضرب أهدافها الثمينة المكشوفة ، التى أصبحت فى متناول قوة الردع الاسرائيلية » .

وبقدر ماكان موشى ديان هو أبرز المتحدثين وأكثرهم تهديدا ، كان كذلك أبرز المتراجعين وأكثرهم تحديدا ، فكان ديان أول من عدل عن تحديه المعلن ، « بالتوغل داخل مصر إلى أبعد وأعمق ماتستطيعه إسرائيل دون أن يكون هناك أى

خطر يمنعها عن ذلك » . وبدأ يتحدث عن فقد إسرائيل لحريتها فى اختيار الأهداف ، التى تهاجمها فى مصر .. أما جولدا مائير فقد ابتلعت تهديداتها بإسقاط نظام الحكم فى مصر ، وأعلنت فى أوائل مارس ١٩٧٠ : « إن إسرائيل لم تستهدف من وراء غاراتها على مصر إسقاط نظام الحكم ، ولكنه تخفيف الضغط المصرى على قوات اسرائيل فى منطقة القناة » . وماكانت جولدا مائير لتتواضع وتعترف بوجود ضغط مصرى على قوات اسرائيل فى القناة ، مالم يكن هذا الضغط حقيقيا وقويا وفعالا .

أما إيجال ألون فقد صرح بأن : « غاراتنا على مصر مرتبطة فقط باعتبارات استراتيجية فحسب وإننا لم نضع الاعتبارات السياسية فى حساب هذه العمليات ، وإن كنا على استعداد لقبول النتائج السياسية المترتبة عليها » ! ! **وكان موشى ديان أكثر زعماء إسرائيل وضوحا وتحديدا لاستراتيجيتها المقبلة ، ففى ٤ مارس ١٩٧٠ أعلن الخطوط العريضة لسياسة إسرائيل تجاه مصر فى النقاط التالية .**

● إن تزويد مصر بالصواريخ الحديثة ، قد أفقد إسرائيل حريتها فى اختيار الأهداف التى تهاجمها فى مصر .

● إن المناطق الداخلية فى مصر ، لاتعتبر مناطق حيوية لأمن إسرائيل ، ولا ترغب القوات الجوية الاسرائيلية فى العمل ضدها ! .

● إن هدف إسرائيل أن تمنع محاولة وضع الصواريخ الجديدة فى مناطق تعتبر حيوية بالنسبة لموقفها العسكرى فى قناة السويس .

وانكمشت أهداف إسرائيل وتواضع مخططها العدوانى .. وتراجعت طموحاتها إلى حيث بدأت حربها الجوية ضد مصر فى يوليو ١٩٦٩ .. وفى ابريل ١٩٧٠ حدد موشى ديان أبعاد الاستراتيجية الاسرائيلية الجديدة ، موضحا التغيير الجذرى فى أسلوب إدارة الحرب الجوية والتخلى عن أهدافها السابقة السياسية والمعنوية الواسعة .

وقد لخص ديان الخطة الاسرائيلية بعد قرار وقف غارات العمق فيما يلى .

● إن الهدف هو التمسك بخطوط وقف إطلاق النار « إلى أن يتم استبدالها بحدود سلام » .

● لضمان التحكم فى خطوط وقف إطلاق النار ، لابد من فرض السيطرة الجوية على جبهة القناة والقيام بأعمال تعرضية داخل الأجواء المصرية .

● إستبعاد مناطق العمق المصرية كالقاهرة والاسكندرية وأسوان كمجال للنشاط الجوى الاسرائيلى واعتبارها « مناطق مغلقة » بالنسبة لنشاط القوات ا١ -ـوية الاسرائيلية .

● تركيز النشاط الجوى على « الأهداف العسكرية المصرية » الواقعة فى جبهة قناة السويس ، وعلى امتداد الضفة الغربية وفى شريحة أرضية يتراوح عرضها بين ٢٥ ، ٣٠ كيلومترا غربا .

● تدمير كل المواقع العسكرية المصرية داخل هذه المنطقة تدميرا شاملا ومنظما ، وفقا لأسبقيات محددة ، أولها منع إقامة نظام جديد للدفاع الجوى بالصواريخ المضادة للطائرات خاصة من طراز سام ٣ على الضفة الغربية للقناة

● عزل جبهة القناة فى هذه الشريحة الأرضية عن الداخل بضرب الطرق وتدمير الكبارى الرئيسية وقطع خطوط المواصلات وذلك لشل أى تحركات تهدف إلى تعزيز الجبهة أو حشد أى قوات جديدة بها .

هكذا تبلورت خطط إسرائيل فى ضوء الموقف الاستراتيجى العسكرى الجديد الذى نجحت مصر فى فرضه على إسرائيل . وكان هذا التحول بمثابة خطوة حيوية نحو إسقاط المخطط العدوانى الاسرائيلى كله وإفشال الاستراتيجية الاسرائيلية القائمة على شل قدرة مصر العسكرية .

وإذا كانت إسرائيل قد تراجعت عن ضرب عمق الأراضى المصرية مجبرة .. فإنها حتى هذه المرحلة التى تقررت فى منتصف ابريل ١٩٧٠ لم تتراجع عن هدف سحق كل المواقع والمنشآت العسكرية المصرية فى منطقة القناة وتدميرها تدميرا كاملا من خلال تركيز رهيب لغاراتها الجوية وكذا العمل على منع إقامة شبكة للدفاع الجوى فى جبهة القناة . فهل نجحت إسرائيل فى تنفيذ هذا المخطط الأخير ؟ إن ماتحقق فعلا هو نجاح مصر فى أن تجعل ثمن هذا المخطط ثمنا فادحا على إسرائيل . الأمر الذى اضطرها إلى التراجع الكامل عنه وقبول وقف إطلاق النار دون أى شروط مسبقة .

●

الفصل الحادى عشر

الصّراع يشتد وإسرائيل تتراجع

ذروة الصراع فى جبهة القناة :

كانت طبيعة ردود الفعل المصرية والعالمية التى أحدثتها غارات العمق الاسرائيلية ضد مصر ، والتى استمرت حوالى مائة يوم (من ٧ يناير إلى ١٨ إبريل ١٩٧٠) ، على غير ما توقعت الاستراتيجية الأمريكية والاسرائيلية ، فقد أتت هذه الهجمات الجوية الغاشمة بنتائج عكسية ، تختلف تماما عن التقديرات التى وضعت لها ، فبدلا من أن ينهار الصمود المصرى والعربى أو يتحول إلى عجز يائس .. أظهر شعب مصر مقدرة عالية على الصمود والتحدى وعلى امتصاص آثار الغارات الجوية الكثيفة ، رغم الخسائر الكبيرة التى أحدثتها هذه الغارات خاصة بين المدنيين ومن بينهم الكثير من الأطفال . فلم تنخفض معنويات الشعب بل ارتفعت وزاد إصراره على طرد المعتدين ، بينما ازدادت الجبهة الداخلية تماسكا وازداد الشعب إلتفافا حول قيادته .

لقد أدى النجاح الدبلوماسى والسياسى والعسكرى الذى حققته مصر بدفعها الاتحاد السوفييتى إلى اتخاذ موقف حاسم من دعمه العسكرى لمصر ، يتجاوز الإمداد بالأسلحة والمعدات الحديثة إلى إرسال وحدات كاملة من قوات الدفاع الجوى والقوات الجوية السوفييتية لتساهم فى الدفاع عن عمق الأراضى المصرية .. إلى انهيار كل الحسابات الغربية والإسرائيلية بل وإلى انقلاب فى الموازين الاستراتيجية والعسكرية والسياسية فى منطقة الشرق الأوسط .. نتج عنها ذلك التراجع العسكرى السريع من جانب إسرائيل وتخليها المعلن عن خططها العدوانية وأهدافها الاستراتيجية والسياسية الطموحة .. وحصر هذه الطموحات فى مكانها الطبيعى ـ التى كانت قد تجاوزته ـ وهو جبهة القتال على ضفتى قناة السويس .

وكانت الاستراتيجية الاسرائيلية الجديدة أكثر تواضعا وأقل طموحا .. حتى أنها حددت ولأول مرة مجال نشاطها الجوى غرب القناة بحيث لاتتجاوز ٣٠ كيلومترا فحسب .. واعتبرت باقى المناطق الأبعد من ذلك ، ما أطلقت عليه اسم

« المناطق المغلقة » . ولذلك يمكننا القول أن أحداث هذه الفترة الحرجة كانت بمثابة « بداية النهاية لحرب الاستنزاف عامة والاستنزاف الاسرائيلى المضاد على وجه التحديد » .

وقد بدأت هذه المرحلة الأخيرة من مراحل الصراع الحاسم بين قوى الدفاع الجوى المصرية والقوات الجوية الاسرائيلية فى بداية النصف الثانى من شهر ابريل ١٩٧٠ ، لوقف الهجمات الاسرائيلية الشرسة ، التى كانت تهدف إلى فرض وقف إطلاق النار على مصر بالشروط الاسرائيلية ، أى وسماء مصر مكشوفة ووضعها العسكرى أقرب إلى الاستسلام .. ولكن مصر تصدت للمخطط الاسرائيلى وقبلت التحدى .. وفى ضوء هذه الأوضاع المعقدة يمكن تلخيصَ أبعاد الصراع وتطوراته فى هذه المرحلة فيما يلى :

بالنسبة لاسرائيل : محاولة فرض سيطرتها الجوية الكاملة على الضفة الغربية للقناة وحشد كل امكاناتها لسحق وتدمير المعالم العسكرية للجبهة المصرية .

بالنسبة لمصر : النضال ضد المخطط العدوانى الاسرائيلى فى اتجاهين فى آن واحد وهما :

● الأول : الرد المكثف على عمليات إسرائيل بأعمال عسكرية برية متنوعة عبر قناة السويس وفى عمق المواقع الاسرائيلية وتحقيق أعلى نسبة خسائر فى الأفراد ضد الجانب الاسرائيلى .

● الثانى : العمل بكل الجهد والإصرار على استكمال بناء شبكة الدفاع الجوى ، ودفعها شرقا تجاه منطقة القناة مهما كلفها ذلك من تضحيات وفى وجه مقاومة اسرائيلية مستميتة .. وذلك حتى يمكن توفير الحماية الجوية الكاملة لجبهة القتال .

★ ★ ★

بدأت إسرائيل تنفيذ مخططها الجديد بعنف وتركيز واضحين ، وتعرضت جبهة القناة لسلسلة متصلة وكثيفة ومتصاعدة من الهجمات الجوية .. وبمعدلات عالية يوميا ، بلغ متوسطها خلال شهر يونيه حوالى ٧٠ طلعة طائرة فى اليوم .. بل لقد حدث فى أوائل نفس الشهر ولفترة محدودة أن بلغت عدد الطلعات فى اليوم الواحد ٢٠٠ طلعة طائرة .. ورغم كل هذا الجهد المكثف التى حشدته إسرائيل ضد مصر فى هذه المرحلة .. فقد فشلت فشلا كاملا فى تحقيق الأهداف التى وضعتها . فلم تنجح فى إسكات نيران المدفعية والأسلحة المصرية . أو وقف إغاراتها البرية عبر القناة ، بل زادت كثافة وعنفا .. حتى أن حاييم بارليف وكان رئيسا للأركان العامة الاسرائيلية فى ذلك الوقت ، علق على هذا الموقف فى حديث أذيع فى الأسبوع الأول من شهر مايو ١٩٧٠ بقوله : « رغم أن الغارات الاسرائيلية على المواقع المصرية ، تكبدهم الكثير من الاصابات ، فإنه ليس من الممكن وقف القصف المصرى بواسطة القصف المضاد فحسب (برا وجوا) .. وفى الحقيقة فإن حجم الجهد وكثافة القصف الاسرائيلى لم يحقق النتائج التى كانت تأملها إسرائيل » .

وفى مواجهة هذا الجهد الاسرائيلى المكثف ، كان نشاط القوات المصرية يتصاعد ، ولم يعد مقصورا على عمليات قصف المدفعية ، بل تضمن كذلك أعمال عبور القناة ومهاجمة الأهداف الاسرائيلية على الضفة الشرقية للقناة وفى عمقها ، ونصب الكمائن الناجحة للقضاء على الدوريات الاسرائيلية المدرعة التى تتحرك على إمتداد القناة ، ولذلك ورغم عنف الغارات الاسرائيلية ، ارتفعت نسبة الخسائر بين القوات الاسرائيلية ولم تنخفض كما توقع ديان .. الذى علق على هذا الموقف بقوله :

« رغم أعمالنا العسكرية طوال الأسابيع القليلة الماضية ، فقد إزداد عدد الضحايا من الاسرائيليين .. إن خسائرنا فى شهر ابريل بلغت ٩٠ رجلا ، وهو ضعف حجم الخسائر فى شهر مارس » .

وكانت أعمال الاستنزاف المصرية قد بلغت ذروة حدتها خلال شهر مايو ١٩٧٠ ، كما بلغت الخسائر الاسرائيلية أعلى معدلاتها .. وعلقت مجلة الطيران الأمريكية على خسائر إسرائيل فى هذه الفترة بقولها : « إنه ليس فى وسع إسرائيل أن تستمر فى تحمل هذا الحجم من الخسائر .. خاصة بعد أن أعادت مصر بناء قوة نيرانها على طول الجبهة » .

وكان ختام الهجمات العسكرية المصرية عبر القناة فى شهر مايو ، هى أنجح عمليات هذا الشهر بل هذه المرحلة وأوسعها نطاقا وأبعدها أثرا .. وذلك حين قامت عناصر من المشاة والقوات الخاصة المصرية بعبور القناة فى المنطقة الواقعة بين القنطرة ورأس العش ، فى وضح نهار يوم ٣٠ مايو ١٩٧٠ ، حيث قامت بنصب كمينا مزدوجا لدوريتين اسرائيليتين على الضفة الشرقية للقناة ، وتمكنت قوات الكمين المصرية من مباغتة الدوريتين الاسرائيليتين المدرعتين وتضم كل منهما عدد من العربات المدرعة ، ومهاجمتهما والقضاء على قواتهما ونسف مدرعاتهما وأسر من بقى حيا من أفرادها .. وعادت القوة المصرية سالمة إلى مواقعها فى الضفة الغربية .

أحدث هذا الهجوم المصرى الناجح والخسائر الفادحة التى حققها فى صفوف الاسرائيليين ، ردود فعل شديدة العنف داخل إسرائيل وبين أفراد قواتها المسلحة ، واضطرت القيادة الاسرائيلية العامة إلى الاعتراف بفداحة الخسائر ، وبمدى نجاح القوة المصرية فى آداء مهمتها . وجاء تعليق صحيفة « جويش كرونيكل » الصهيونية معبرا عن هذه الحقيقة بقولها :

« إن القوات المسلحة المصرية قد أحرزت أكبر انتصاراتها منذ حرب الأيام الستة .. إن السبب فى انتصار المصريين يرجع إلى الجرأة والتخطيط الممتاز والظروف الطبوغرافية التى وقفت إلى جانبهم » ! .

ولقد تعرض بعض الكتاب المصريين بالنقد الشديد لعملية ٣٠ مايو ١٩٧٠ ، لما جلبته من رد فعل عنيف فى القيادة الاسرائيلية .. وأدت إلى قيام إسرائيل بشن

غارات جوية شديدة العنف والتركيز فى أول يونيه ١٩٧٠ ولعدة أيام ضد القطاع الشمالى من الضفة الغربية للقناة المواجهة للمنطقة التى جرت فيها العملية - بين القنطرة وبورسعيد - وأمطرتها بوابل مستمر وكثيف من القنابل والنابالم نهارا وليلا .. وارتفع عدد الطلعات الجوية الاسرائيلية اليومية فى هذه الأيام حتى بلغ ٢٠٠ طائرة فى اليوم .

كما قيل أن الأعمال العسكرية المصرية كان هدفها هدفا دعائيا أمام الجماهير المصرية .. وفى الحقيقة فإن كل ماقيل حول هذا الموضوع كان فيه خطأ كبير .. كما أنه كان بعيدا عن التحليل الموضوعى لطبيعة الصراع الشرس الذى كان دائرا فى هذه الفترة بين مصر واسرائيل وهو صراع كان يعتمد أساسا على قدرة كل جانب على الصمود ماديا ومعنويا .. وأن الجانب الذى سينجح فى هذا الصراع هو الجانب الأكثر احتمالا وصمودا .

فقد كان الصراع مستمرا ومتصاعدا من جانب إسرائيل .. بعد أن حصرت نشاطها منذ منتصف ابريل ١٩٧٠ فوق جبهة القناة وقررت أن تهاجم جميع الأهداف العسكرية وتدمرها تدميرا منتظما بناء على خطة محددة الأهداف .. لذلك فإن ماحدث من تركيز جوى ضد القطاع الشمالى من الجبهة لم يخرج أبدا عن نطاق الخطة الاسرائيلية الموضوعة .. وكانت هذه الهجمات ستنفذ سواء حدث الهجوم المصرى أو لم يحدث والفارق الوحيد هو درجة تركيز الهجمات الجوية والتى ارتفع متوسطها اليومى فى هذه الفترة من ٧٠ طلعة طائرة إلى ٢٠٠ طلعة طائرة يوميا .

وفى الحقيقة فلم يكن أمام القيادة المصرية فى هذه المرحلة التى بلغ فيها الصراع ذروته ، سوى أحد خيارين : الأول ، أن تستسلم للعدوان الاسرائيلى وتطلب وقف إطلاق النار بشروط إسرائيل وهو الهدف التى سعت إسرائيل بكل جهدها إلى تحقيقه .. والثانى ، أن تصمد وتقبل التحدى وتقابل التصعيد بتصعيد مماثل متحملة الخسائر فى سبيل احباط المخطط العدوانى الاسرائيلى ووضع حد له .. بعد تحقيق ذلك يمكن قبول وقف القتال ولكن فى ظل ظروف أفضل .. ظروف من صنعنا نحن تحفظ لمصر كرامتها وحرية حركتها . وإذا كان رد الفعل الاسرائيلى ضد الهجوم المصرى جاء عنيفا ، فلم يكن ذلك جديدا بل كان أمرا متوقعا لأن عقيدة الانتقام العنيف جزء من العقيدة الصهيونية الراسخة لدى قادة إسرائيل .. فضلا عن أن هذا العنف كان متفقا مع طبيعة الصراع الدائر فى هذه المرحلة .. كما أنه كان سمة بارزة من سمات حرب الاستنزاف وهى حرب تتصف بالمدى الطويل والتصعيد المستمر .

إن عمليات مايو ١٩٧٠ ، كانت تمثل نقطة تحول هامة فى الموقف العسكرى بجبهة القتال فقد شكلت أحداث هذا الشهر بداية النهاية الفعلية لحرب الاستنزاف

المضادة التى شنتها إسرائيل ضد مصر منذ يوليو ١٩٦٩ .. والتى فشلت بكل مراحلها وتطوراتها فى تحقيق الأهداف التى رسمتها إسرائيل وخططت لتنفيذها . والحقيقة التى لايمكن انكارها ، والتى تحدثت عنها الصحافة الاسرائيلية والعالمية واعترف بها قادة إسرائيل ، أنه مع تزايد واستمرار الضغوط العسكرية المصرية خاصة خلال شهرى مايو ويونيه ١٩٧٠ .. اهتزت معنويات الشعب الاسرائيلى إلى حد كبير .. الأمر الذى انعكس على فكر القيادة الاسرائيلية ، التى بدأت تدرك مدى فشلها فى الحد من حجم الخسائر المتزايدة فى صفوف القوات الاسرائيلية وفشل كل الوسائل التى اتبعتها لهذا الغرض .. وتحولت إلى « الحل الوحيد » هو وضع حد لهذه الحرب و« العمل على وقف إطلاق النار بأى ثمن » .

الطائرات الإسرائيلية تتساقط :

كان الشق الثانى من الاستراتيجية المصرية فى هذه المرحلة ، هو الكفاح من أجل دفع حائط الصواريخ نحو الشرق واقتحام منطقة الجبهة التى اعتبرتها إسرائيل « منطقة محرمة على قوات الدفاع الجوى المصرى » . ومع أواخر يونيه ١٩٧٠ نجحت القوات المصرية فى ظل تضحيات كبيرة ، فى إقامة عدد من قواعد الصواريخ المضادة للطائرات فى جبهة القناة ، رغم كل الجهود التى بذلتها إسرائيل لمنع حدوث ذلك ، وبدأ تساقط الطائرات الاسرائيلية يتزايد فى شهر يونيه ١٩٧٠ إلى أن فوجئت القيادة الاسرائيلية فى الأسبوع الأول من يوليو ١٩٧٠ - عندما دفعت بطائراتها الفانتوم والسكاى هوك لتوجيه ضرباتها الجوية المعتادة ضد المواقع المصرية فى منطقة القناة .. بتساقط هذه الطائرات فوق المواقع المصرية بفعل الصواريخ المصرية وأسر عدد من طياريها .

لقد كان أسبوعا مشهودا فى تاريخ الدفاع الجوى المصرى .. وهو الأسبوع الذى أطلق عليه « اسبوع تساقط الطائرات » . وكانت الصدمة قاسية على إسرائيل ، إذ توالى إسقاط طائراتها فوق منطقة القناة حتى بلغ ما أسقط منها خلال شهرى يونيه ويوليو ١٦ طائرة بالاضافة إلى إصابة عدد آخر من الطائرات .. كما كان تأثير الاحساس الشديد بالخيبة عميقا بين الاسرائيليين .

وانهار أمل إسرائيل ، بل إنهارت ثقتها فى قدرتها على منع مصر من إقامة قواعد الصواريخ فى منطقة القناة .. « فقد أراد المصريون ذلك .. وتحملوا التضحيات من أجل أن يحققوا ما أرادوا تحقيقه ، فنجحوا وكان لهم ما أرادوا » . وهكذا أصبحت السيطرة الجوية الاسرائيلية فوق منطقة القناة والتى كانت تمثل الركيزة الأساسية لاستراتيجيتها فى هذه المرحلة - فى سبيلها إلى الاضمحلال والزوال .

وبذلك تكون إسرائيل قد حرمت من أهم المزايا التى كانت تتمتع بها وهى ميزة التفوق الجوى ومايترتب عليها من سيطرة جوية فوق الجبهة ، تلك كانت قوة الردع

الاسرائيلية الرئيسية .. والتى اعتقدت دائما أنها سوف تمكنها من منع أى محاولة مصرية للهجوم عبر القناة .

★★★

لقد كانت المرحلة الأخيرة لدخول قواعد الصواريخ المصرية إلى منطقة القناة أو المنطقة « المحظورة » من وجهة نظر إسرائيل ، والتى سبق أن حددتها كمجال مُفتوح لسيطرتها الجوية ، من أخطر المراحل وأهمها ، حيث كان تنفيذها يعنى استكمال تحييد السيطرة الجوية الاسرائيلية فوق جبهة القناة وحرمان إسرائيل منها فضلا عن توفير الحماية الجوية لقواتنا المحتشدة هناك .. وفى نفس الوقت فهى مرحلة ضرورية يتوقف على تنفيذها حماية عمليات الحشد المستقبلية ثم عمليات العبور إلى سيناء ، وهى أعمال يتوقف نجاحها على تنفيذها تحت مظلة قوية من الحماية الجوية .

وكانت قيادة قوات الدفاع الجوى قد بدأت ـ بعد استكمال مخططها للدفاع عن العمق بالتعاون مع السوفييت ـ فى دفع بعض كتائب الصواريخ المصرية من طراز سام ٢ لتعزيز الدفاع الجوى عن جبهة القناة .. ولم تكن قواعد الصواريخ الأحدث طرازا « سام ٣ » اللازمة للجبهة قد توافرت بعد ، حيث كان تدريب أطقمها المصرية مازال مستمرا سواء فى الاتحاد السوفييتى أو فى مصر .

وكان لزاما أن تنتظر قيادة الدفاع الجوى إتمام تدريب هذه القوات لكى تبدأ فى اتخاذ الإجراءات العملية لتنفيذ مخططها الكبير ، ومواجهة تحدياته .. وكان هذا المخطط يقضى بدفع كتائب النسق الأول لشبكة الصواريخ إلى أن تصل لمسافة ١٥ كيلومترا غرب القناة .. وهى أقرب مسافة من الضفة الغربية للقناة يمكن لقواعد الصواريخ المصرية التقدم إليها دون أن تقع داخل مرمى المدفعية الاسرائيلية بعيدة المدى ، وبذلك تكون هذه القواعد قادرة على تغطية مسافة تتراوح بين ١٥ ، ٢٠ كيلومترا شرق القناة .

لقد كان انجاز هذه المرحلة تحت القصف الجوى الاسرائيلى العنيف يمثل قمة النجاح ، ويحقق أهم أهداف حرب الاستنزاف ونتائجها .. وذلك باتمام إنشاء شبكة محكمة للدفاع الجوى عن الجبهة ، ولقد مضت قيادة قوات الدفاع الجوى ، بدعم كامل من كل الأجهزة المختصة بالقوات المسلحة والدولة ـ فى تنفيذ خطتها الطموح فى وجه التهديدات الاسرائيلية التى لم تتوقف . وبدأ « حائط الصواريخ » يتحرك فى مواجهة كل التحديات ورغم كل الخسائر ، من منطقة شرق القاهرة تجاه منطقة غرب القناة .. باستخدام الأسلوب المعروف فى تكتيكات الميدان .. وهو أسلوب « الوثبات » ويعتمد هذا الأسلوب على إتمام انشاء النطاق الأمامى الجديد من قواعد الصواريخ ، تحت ستر وحماية النطاق الخلفى الذى سبق تجهيزه ، وتحصينه . وعندما يتم تجهيز النطاق الجديد واحتلاله بالصواريخ يبدأ العمل فى

تجهيز النطاق التالى تحت ستر وحماية النطاق الذى تم تجهيزه ، وهكذا يستمر الزحف نحو الشرق .

وقد أمكن باستخدام هذا الأسلوب الوصول بحائط الصواريخ إلى مسافة ٣٠ كيلومترا من الضفة الغربية للقناة وقد اشتملت النطاقات الصاروخية الجديدة على مايقرب من ٣٠ قاعدة جديدة للصواريخ من طرازى سام ٢ ، سام ٣ .. كما ضمت هذه النطاقات المواقع التكميلية للمعدات الفنية والأسلحة الخاصة بالحماية المحلية للقواعد ضد الطيران المنخفض ، كالمدافع والرشاشات والقواذف الصاروخية المضادة للطائرات (سام ٧) .

وطوال هذه الفترة الصعبة المليئة بالتضحيات والتحديات ، لم تتوقف إسرائيل عن شن غاراتها الجوية العنيفة والمستمرة ضد قواعد الصواريخ الجديدة الجارى انشائها بالقرب من القناة ، حتى وصل معدل الحمولات التى تلقيها الطائرات الاسرائيلية من القنابل الشديدة الانفجار فى بعض الأيام إلى ١٠٠٠ طن فى اليوم ، ورغم ذلك استمر الصراع الشرس ضد طائرات الفانتوم الإسرائيلية ، والتى بدأت تتساقط فوق الجبهة ، بينما استمرت عمليات بناء القواعد المصرية من أجل استكمال زحف حائط الصواريخ بدماء وأرواح آلاف الشهداء والجرحى الذين سقطوا من العمال والجنود والضباط المصريين .

إن إرادة الصمود المصرية قد تمكنت فى النهاية من قهر كل الصعاب والتغلب على كل التحديات وتجاوز كل الأخطار ، وتنفيذ القسم الأكبر من المخطط الموضوع بوصول واستقرار حائط الصواريخ غرب قناة السويس قبل نهاية شهر يوليو ١٩٧٠ .

★★★

لقد أردت بسرد هذه الأحداث العامرة بالكفاح .. أن أضع تحت نظر القارىء .. حقيقة الأبعاد الدامية لهذا الصراع الذى احتدم عبر ضفتى القناة بين جيش مصر وجيش إسرائيل ، لأكثر من عام ونصف عام ، والذى لم يقتصر على جبهة القتال بل تجاوزها فى بعض مراحله إلى عمق مصر ووادى النيل ، وأن أوضح فى نفس الوقت كيف تطور الصدام العسكرى أثناء هذه الحرب تصاعديا سواء فى حجم القوات المشتركة فى العمليات أو نوعية الأسلحة أو كثافة القتال ومدى انتشاره ، حتى بلغ ذروته خلال شهرى مايو ويونيه ١٩٧٠ .

كل ذلك يؤكد فى التحليل الأخير أن الصراع قد أنتهى فى صالح مصر . وأن الاستراتيجية المصرية قد حققت نجاحا كبيرا ، استحق التضحيات التى قدمها شعب مصر ، ومن أبرز معالم هذا النجاح ذلك الاحباط المادى والمعنوى العميق الذى فرض على شعب إسرائيل ، وجعله يعيش فى ظل

إحساس متصاعد بأن صراعه مع مصر واستمرار وجود جيشه على الضفة الشرقية للقناة ، سوف يكلفه ثمنا باهظا .

هكذا .. تحت وطأة هذه الضغوط وتلاحقها أصبح وقف إطلاق النار ، هو الحل الضرورى لمواجهة هذا الموقف المتدهور ، وهذا التآكل المستمر فى القدرات العسكرية ، والذى بدأت تحسه القيادة العسكرية الاسرائيلية وتعترف به فيصرح موشى ديان لأول مرة منذ نشوب القتال : بأن « الحكومة الاسرائيلية مستعدة لوقف إطلاق النار دون شروط » .

أما الصورة داخل إسرائيل فلعل أصدق تعبير عنها ، ماذكرته مجلة « التايمز » الأمريكية فى مقال نشرته بمناسبة مرور ثلاث سنوات على حرب يونيه ١٩٦٧ (فى يونيه ١٩٧٠) تحت عنوان « **الكآبة تتزايد فى إسرائيل** » وقالت المجلة : « **.... فى الذكرى الثالثة لحرب ١٩٦٧ ، إتسمت حالة الاسرائيليين بالكآبة والضياع .. وبدأوا يتساءلون عما إذا كانوا قد كسبوا حربا بالفعل ، أم أنها مجرد الجولة الأولى منها** » .

التطورات السياسية فى المرحلة الأخيرة :

تعددت وتنوعت ردود الفعل السياسية التى أعقبت مبادرة مصر العسكرية ، الخاصة بإعادة تنظيم دفاعها الجوى والاستعانة المؤقتة بالقوات السوفييتية لمواجهة تلك المرحلة الحرجة والدقيقة التى فرضتها الحرب الجوية الاسرائيلية ضد مصر .

وجاء الانعكاس السياسى الرئيسى سريعا من إسرائيل .. فى شكل الاستغلال الفورى لطبيعة الدعم السوفييتى لمصر استغلالا سياسيا ودعائيا واسع النطاق وبأقصى ما استطاعت الدبلوماسية والدعاية الاسرائيلية أن توفرة . وكان عامل الوقت وضغط الموقف العسكرى ونوعية المعدات الجديدة التى استخدمت فى دعم الدفاع الجوى المصرى هى العوامل الحقيقية التى تطلبت إرسال أطقم سوفييتية إلى مصر حتى يمكن تشغيل هذه المعدات فور وصولها لحماية عمق مصر من الهجمات الجوية الاسرائيلية المتصاعدة .

غير أن هذا الوضع قد أتاح لاسرائيل فرصة هائلة ركزت عليها فى حديثها مع الدول الغربية وخاصة الولايات المتحدة ، وفى تأكيدها أن الدعم السوفييتى قد تحول إلى تدخل عسكرى سوفييتى فى المنطقة يهدد المصالح الغربية بها تهديدا مباشرا .. واتخذت من هذا الموقف وسيلة فعالة لممارسة الضغط السياسى القوى على هذه الدولة من أجل الحصول على كل ماتريده منها .

وقد نظمت إسرائيل حملتها ضد مصر بشكل دقيق حتى يمكن تحقيق أقصى استفادة من الموقف .. فقد لوحظ أن أدوار العمل ـ فى إطار هذه الحملة ـ قد وزعت على عدد من الوزراء كل فى مجاله . فبينما كان موشى ديان يركز أحاديثه

على الأبعاد العسكرية والاستراتيجية التى يتصورها ، نجد أبا إيبان قد حصر اهتمامه وتصريحاته فى الأبعاد السياسية العالمية « لهذا التدخل السوفييتى » والتحريض الدولى . واختص إيجال آلون بمخاطبة الرأى العام العربى وتحريضه ، مؤكدا مدى حرص إسرائيل على استقلال الدول العربية .. متحدثا عن « الشباب المصرى الذى ضحى بنفسه فى سبيل تحرير أرضه من الوجود البريطانى » ! ! .

كانت هذه الحملة الاسرائيلية المنظمة تسعى لتحقيق مجموعة من الأهداف السياسية الهامة ، لعل أهمها كان : دفع الولايات المتحدة إلى مزيد من التورط فى الأزمة ، واتخاذ إجراء سياسى حاسم فى هذا الشأن . وفى مارس ١٩٧٠ كتبت صحيفة « معاريف » الاسرائيلية قائلة : « إن واشنطن قد تحتج بأنه ليس هناك ضرورة لتجسيم الخطر العسكرى الناشىء عن إدخال الصواريخ إلى المنطقة .. ولكن لايمكنها أن تتجاهل المغزى السياسى الخطير للاشتراك السوفييتى النشط والانتشار العسكرى داخل المنطقة ، وتعميق التوغل السوفييتى فى الشرق الأوسط » .

من ناحية أخرى ، ركزت الدعاية الاسرائيلية على محاولة إثارة الرأى العام الغربى المناهض للشيوعية ضد مصر والاتحاد السوفييتى ، وتحويل مشكلة الشرق الأوسط إلى صراع عالمى بين الشرق والغرب ، أو كما قالت جولدا مائير : « إن إسرائيل ليس فى استطاعتها الحيلولة دون وقوع مواجهة بين الشرق والغرب » . ومن أهداف الحملة الاسرائيلية تحريض الشعوب العربية عامة وشعب مصر خاصة ، ضد الوجود السوفييتى باعتباره أمرا ضارا باستقلال مصر وسيادتها الذى ضحى شباب مصر بنفسه من أجلهما ، ومن أهم النتائج السياسية التى أرادت إسرائيل تحقيقها فى هذه المرحلة ، والتى مهدت لها بكل هذه الحملات السياسية والدعائية المتعددة الجوانب .. هو الهدف الذى فشلت فى تحقيقه من خلال شن غاراتها الجوية ضد عمق مصر .. وهو وقف حرب الاستنزاف . وقد عبر ديان عن هذا الهدف بقوله : « ... يجب أن تكون نقطة الاتفاق مع الولايات المتحدة .. أن يكون الهدف العاجل هو وقف فعال لإطلاق النار » .

★ ★ ★

والغريب فى الأمر هنا ذلك التعارض الواضح الذى نشب فى هذه المرحلة بين إسرائيل والصهيونية العالمية ، والذى تحول إلى صراع علنى .. ولم يأت هذا الصراع من فراغ .. وهو لايعنى بالقطع خلاف حول مبادىء الصهيونية أو تطلعاتها .. ولكنه خلاف حول الأسلوب .. فعندما نشب القتال فى يونيه ١٩٦٧ لعبت الصهيونية العالمية دورا حيويا فى التأثير على الرأى العام العالمى ، على نحو جعل صورة إسرائيل أمام العالم ، تبدو وكأنها تخوض صراعا عادلا يعبر عن رغبتها فى البقاء والدفاع عن وجودها . وفى أعقاب النصر الذى حققته إسرائيل فى يونيه ١٩٦٧ .. شاهد العالم مظهرا واضحا من مظاهر فاعلية الاتحاد

الاسرائيلى الصهيونى فى تعبئة الرأى العام العالمى وتشكيله وحثه على المزيد من التأييد لإسرائيل .

ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلا إذ بدأ يصيبه كثير من التفكك نتيجة لاهتزاز صورة إسرائيل أمام العالم حيث برز تعنتها ، بينما بدت حقوق العرب مشروعة وواضحة ، الأمر الذى أدى إلى ظهور بعض الاتجاهات الأكثر واقعية بين زعماء الصهيونية والتى رأت فى موقف إسرائيل خطرا يهدد الصهيونية العالمية .

فمع بدء غارات العمق ضد مصر فى أوائل عام ١٩٧٠ ، برزت انتقادات اليهودية العالمية لموقف الحكومة الإسرائيلية ، خلال الحملة التى قادها الزعيم الصهيونى « ناحوم جولدمان » رئيس المؤتمر اليهودى العالمى السابق ، والرجل الذى شارك بقسط وفير فى تقديم كافة أنواع الدعم الصهيونى واليهودى لإسرائيل .

وتكشفت أبعاد هذه الخلافات فى أوائل أبريل ١٩٧٠ عندما اشتد تأزم الموقف فى المنطقة ، وفى ٧ أبريل ١٩٧٠ كتبت صحيفة « لموند » الفرنسية تقول : « لقد بدأ الرأى العام الإسرائيلى يمل حربا لا نهاية لها ، ويتساءل عن سياسة لم تثمر شيئا منذ عشرين عاما » ، أما جولدمان فبدأ ينشر آرائه فى عدة مقالات فى الصحف العالمية ومنها « لموند » الفرنسية ، و« اوبزرفر » البريطانية ، و« فورين أفيرز » الأمريكية .. ومن خلال هذه المقالات يمكن استخلاص أوجه الخلاف الذى نشب بين الحكومة الإسرائيلية .. وبعض زعماء الصهيونية واليهودية العالمية .. فقد إتهم جولدمان حكومة إسرائيل بأنها غير واقعية وأنها متزمتة وعنيدة فى موقفها تجاه العرب ، ودعى إلى التفاهم مع العرب والاعتراف بحقهم فى فلسطين . وكان جولدمان يحاول بالآراء التى أطلقها خلق ضمانات واقعية لبقاء إسرائيل تحت ظروف وملابسات الموقف وقتئذ وتجنيبها الأخطار الناجمة عن تعنتها وعنادها .

★★★

أما عن موقف الولايات المتحدة ودورها فى هذا الصراع ، فقد سبق أن أوضحنا أنها كانت قد سمحت لاسرائيل بشن غارات العمق ضد مصر .. وكانت تأمل من وراء ذلك إحداث تغيير جذرى فى قدرة الصمود العربى الشامل من خلال التأثير على أقوى مراكز هذا الصمود .. ونقصد بها مصر ، وتحويله إلى حالة من الانهيار واليأس .. وبالتالى شل المقدرة العربية على العمل والحركة لاسترداد الحق العربى . غير أن طبيعة ردود الفعل المصرية والعالمية التى أحدثتها غارات العمق ضد مصر ، كانت على غير ماتوقعت الاستراتيجية الأمريكية والاسرائيلية ، فقد أتت هذه الغارات بنتائج عكسية ، حيث أظهر الشعب المصرى قدرة عالية على امتصاص آثارها دون أن تنال من معنوياته ، بل أن هذه المعنويات قد ارتفعت وزاد الإصرار على طرد المعتدين كما زاد تماسك الجبهة الداخلية .

من ناحية أخرى ، كان للغارات الإسرائيلية على بعض الأهداف المدنية كمصنع أبوزعبل المدنى ومدرسة الأطفال فى بحر البقر ، وما أحدثته من خسائر كبيرة بين المدنيين ، وبينهم عدد كبير من الأطفال .. ردود فعل عميقة وعالمية أبرزت الأخطار التى يمكن أن تنجم عن تصعيد الموقف العسكرى ، وتدهوره فى الشرق الأوسط ، وفى نفس الوقت فإن الاتحاد السوفييتى ، إلى جانب موقفه الحاسم من الدعم العسكرى المباشر لمصر ، اتخذ موقفا سياسيا واضحا ومحددا .. فتوجه رئيس وزرائه إليكسى كوسيجين إلى الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا فى فبراير ١٩٧٠ يحمل رسائل إلى قادتها ، حذر فيها من خطورة الموقف فى الشرق الأوسط ، وأوضح أسباب تدخله ، ودعى إلى ضرورة الضغط على إسرائيل لوقف هجماتها الجوية ، وإلا سيكون على الاتحاد السوفييتى أن يمد العرب بالأسلحة اللازمة للدفاع عن أنفسهم وطرد المعتدين .

وكان أن أصدرت الولايات المتحدة بيانها بشأن وقف البت فى صفقة الطائرات المطلوبة لإسرائيل فى مارس ١٩٧٠ .. وكان هذا الإعلان بمثابة مناورة سياسية لمواجهة العوامل التى طرأت على الموقف خلال هذه الفترة .. وتفادى أى مضاعفات جديدة إذا وافقت الولايات المتحدة على الصفقة الضخمة الخاصة بالطائرات . ولعل أبرز المضاعفات التى حاولت الولايات المتحدة تفاديها ، إحتمال تزايد الدعم السوفييتى إلى الدول العربية . وبذلك يمكن القول أن الولايات المتحدة قد اضطرت إلى تعديل شكل سياستها فقط دون المساس بالجوهر القائم على احتفاظ إسرائيل بمستوى عسكرى متفوق على العرب فى كل الأوقات .

ومع إزدياد ضغوط الموقف العسكرى والسياسى وتزايدها نتيجة لعوامل مختلفة فرضت على الموقف العسكرى والسياسى فى ساحة الصراع الذى كان « دائرا » فى الشرق الأوسط ، وكان أول هذه العوامل ، الموقف الصعب الذى كانت تواجهه إسرائيل والمأزق العسكرى الذى فشلت إسرائيل ولمدة حوالى خمسة عشر شهرا فى الخروج منه وهو المأزق الذى نجحت مصر فى فرضه على إسرائيل من خلال حرب الاستنزاف ، ثم مع إصرار مصر على مواجهة العدوان والوقوف فى وجهه والتصدى بكل الوسائل المتاحة ، الذى حاولت إسرائيل أن تفرضه عليها بالتصعيد المستمر فى أعمالها العسكرية ضد مصر .. وماترتب على ذلك من زيادة ضخمة فى الدعم السوفييتى لمصر سواء من حيث طبيعته أو حجمه أو نوعيته .

مع كل هذه العوامل تبلور الموقف فى المنطقة أمام مخططى الولايات المتحدة وصانعى القرار بها فى الحقيقتين التاليتين :

١ ـ أن التفوق العسكرى الإسرائيلى والجوى أساسا ، قد بدأ يتعرض للتآكل والزوال مما سيؤدى إلى فقد إسرائيل لأداتها الوحيدة للردع الفعال ولممارسة الضغوط العسكرية ضد مصر .

٢ ـ إن الدعم السوفييتى لمصر هو بمثابة توسيع نطاق الوجود السوفييتى العسكرى فى الشرق الأوسط .. الأمر الذى قد يؤدى إلى تزايد احتمالات المواجهة

المباشرة بين القوتين العظميين ومايحف بها من مخاطر جسيمة .

وبناء على هاتين الحقيقتين اقتنعت حكومة الولايات المتحدة بأنه أصبح ضروريا على أن تعمل فورا على وقف تداعيات الموقف المترتبة عليهما .. وأن تضع ثقلها السياسى كاملا من أجل صالح إسرائيل وذلك بتحقيق وقف إطلاق النار . وقد تطلب ذلك أن تعيد الولايات المتحدة حساباتها وتراجع أسلوب معالجتها لأزمة الشرق الأوسط .. مع استمرار حرصها على التمسك بدعم إسرائيل ورفض اختلال ميزان القوى فى المنطقة وفقا لتفسيرها المتحيز .. بحيث تبقى إسرائيل محتفظة بتفوقها العسكرى فى كل الأوقات .

وبناء على هذه التقديرات قررت الولايات المتحدة التقدم بمبادرة لوقف إطلاق النار وذلك فى ١٩ يونيه ١٩٧٠ ، وقد ارتكزت المبادرة أساسا على نقطتين :

- **وقف إطلاق النار المؤقت في جبهة قناة السويس لمدة ٩٠ يوما .**
- **العودة إلى قرار مجلس الأمن الصادر في نوفمبر ١٩٦٧ باحياء مهمة السفير جونار يارينج ممثل السكرتير العام للأمم المتحدة .**

وفى نفس الوقت أعلنت الولايات المتحدة عن تمسكها بالمحافظة على ميزان القوى فى الشرق الأوسط لصالح إسرائيل . وبذلك تعتبر المبادرة الأمريكية التى عرفت باسم « مبادرة روجرز » هى « عمل وقائى » ضرورى من أجل وقف تدهور الموقف العسكرى ومحاولة إعادة زمام سيطرتها على مسيرة الأحداث مع استمرار جوهر سياستها المعروفة والمعلنة فى تأييد إسرائيل دون تبديل .

إسرائيل تستسلم للحل السياسى :

فى ظل هذه الظروف المعقدة الصعبة حاولت إسرائيل أن تجد لنفسها مخرجا حاسما يحفظ ماء الوجه ويمكنها من فرض شروطها .. فبحثت كل الاحتمالات المفتوحة أمامها للحل العسكرى .. وكانت هذه الاحتمالات تتركز فى ثلاثة حلول :

الأول : أن تستخدم القوات الجوية الاسرائيلية على أوسع نطاق ، ليس لمهاجمة قواعد الصواريخ والأهداف العسكرية فى الجبهة فحسب ، ولكن كذلك لمهاجمة الأهداف الحيوية فى مصر .. أى أن توجه ضربة أو مجموعة ضربات جوية شاملة فى مواجهة نظام جيد للدفاع المصرى . وهو حل سبق أن استبعدته القيادة الاسرائيلية وهى تواجه ظروفا أقل تعقيدا من الظروف التى أصبحت تواجهها فى هذه المرحلة .

الثانى : شن هجوم برى خاطف يصاحبه هجوم جوى كثيف على بعض قطاعات الجبهة التى تعتبر أقل خطرا من وجهة النظر الدفاعية المصرية ، كعملية لردع القوة العسكرية المصرية ، وقد سبق كذلك استعراض مثل هذا الحل فى يونيه ١٩٦٩ ، قبل اتخاذ قرار دفع القوات الجوية الإسرائيلية للمعركة ، ولكن استبعدته

القيادة الإسرائيلية لأسباب كثيرة سبق التعرض لها .

الثالث : توجيه ضربة مفاجئة فى شكل اقتحام من الجو ، باستخدام قوات منقولة جوا بطائرات هليوكوبتر ، بعد تمهيد عنيف بنيران المدفعية والطيران .. بهدف تدمير القواعد العسكرية الأكثر تهديدا لجبهة القتال ، مثل قواعد الصواريخ والقواعد الجوية العسكرية الموجودة غرب القناة . ومثل هذا النوع من العمليات يعتبر مخاطرة شديدة التعقيد ويحتاج إلى تحضيرات مطولة وصعبة ودقيقة ، فضلا عن كونها محفوفة بمخاطر كثيرة يصعب حسابها ، بالاضافة إلى أن نتائجها غير مضمونة النجاح .

كانت هذه هى الحلول العسكرية المطروحة أمام إسرائيل ، سواء فى شكل عمليات محدودة أو عمليات شاملة ، وجميعها تنطوى على مخاطرات كثيرة وتوقعات مؤكدة لوقوع خسائر ضخمة فى صفوف القوات الاسرائيلية ، فضلا عن الأخطار السياسية التى يصعب تحديد مداها .. والتى قد تتطور إلى حد وقوع صدام بين القوى الكبرى فى منطقة الشرق الأوسط .

ولذلك يمكن القول أن نجاح القوات المصرية فى إدخال قواعد الصواريخ المضادة للطائرات إلى جبهة القناة ، وتحت ظروف غاية فى الصعوبة عاشتها هذه الجبهة ، وفى مواجهة جهود مكثفة من جانب الطيران الإسرائيلى لمنع تنفيذ ذلك .. وماترتب عليه من نتائج حاسمة أثرت على الموقف الاستراتيجى وعلى ميزان القوى العسكرية بين مصر وإسرائيل ، كان لذلك كله أثره الأول والمباشر فى دفع الولايات المتحدة إلى الإسراع لمواجهة الموقف الاسرائيلى المتردى ، فأقدمت على مبادرتها السياسية وقدمت مشروعها لوقف إطلاق النار .. والذى تقدمت به لجانبى الصراع مصر وإسرائيل فى ١٩ يونيه ١٩٧٠ .

★ ★ ★

وليس ثمة شك فى أن العامل العسكرى ، كان هو العنصر الضاغط الذى أجبر إسرائيل على قبول وقف إطلاق النار بناء على مبادرة أمريكية ، وليس بناء على الشروط التى سبق أن وضعتها وأعلنتها مرارا ولكنها لم تفلح فى فرضها على مصر .

وفى ٣٠ أغسطس ١٩٧٠ أكد أبا ايبان فى حديث له ، أن إسرائيل قد سعت مجبرة لتحقيق وقف شامل لإطلاق النار وقبول المبادرة الأمريكية فور طرحها ، قال إيبان : « إنه لولا وقف إطلاق النار لواجهت إسرائيل تصاعدا فى الحرب مع مصر ، وبالتالى زيادة القتلى والجرحى ، وتآكل التفوق الجوى الاسرائيلى .. إن رفض وقف إطلاق النار كان سيضع إسرائيل فى موقف أخطر وأشد صعوبة مما هو الآن » .

أما مصر فقد قبلت هى الأخرى وقف إطلاق النار لأنها كانت فى حاجة إلى فترة هدوء تستكمل فيها المرحلة الأخيرة من بناء شبكة الدفاع الجوى الجديدة ..

وتمكنت مصر بعد تركيز هائل للامكانات والجهود وبالروح العالية لرجالها وتضحياتهم ، من استكمال نظام دفاعها الجوى عن جبهة قناة السويس وإقامة شبكة قواعد الصواريخ قبل ٨ أغسطس ١٩٧٠ وهو الموعد المحدد لوقف إطلاق النار . وقد تم ذلك بطريقة محكمة وسريعة وخلال فترة زمنية قياسية ، كانت مفاجأة تامة للقيادة الإسرائيلية » .

واستغلت القيادة المصرية فرصة وقف إطلاق النار على أثر قبول إسرائيل ومصر لمبادرة روجرز ، للوصول بحائط الصواريخ إلى وضعه النهائى فى الليلة الأخيرة قبل تنفيذ شروط المبادرة فى اليوم التالى ، فنقلت النسق الأول لقواعد الصواريخ المشكل من ١٤ كتيبة إلى الأماكن المحددة لها غرب قناة السويس قبل الساعة الواحدة من صباح يوم ٨ أغسطس ١٩٧٠ ، وبعد صراع محموم مع الزمن ، تمكن رجال الدفاع الجوى من تحقيق هذا الانجاز العظيم واستكمال حائط الصواريخ بالشكل النهائى .

★★★

حاولت إسرائيل إثارة أزمة سياسية باعتبار أن ماحدث فى الجبهة كان بمثابة رجحان كفة الميزان العسكرى فى منطقة القناة لصالح مصر .. وأنه خرق للاتفاق حيث تم التنفيذ فى الوقت بين التوصل إلى الاتفاق والموعد المحدد للتنفيذ .. ولكن لم تنجح محاولات إسرائيل أو أن تغير من الموقف شىء . وسارعت الولايات المتحدة لتهدئة إسرائيل بتأكيد أنها لن تسمح بأن يصبح ميزان القوى العسكرية غير متوازن . وتنفيذا لذلك قامت الولايات المتحدة بتزويد إسرائيل بأنواع جديدة من الأسلحة مثل صواريخ جو/أرض المضادة للطائرات من طراز « شرايك » ، وكذا أجهزة للتشويش والاعاقة الالكترونية الحديثة للتداخل مع شبكة الدفاع الجوى .

وعموما فمهما قيل عن جهاز الدفاع الجوى المصرى ، وأثره على ميزان القوى ، وهو الأثر الذى حدث فعلا بحساب السلبيات والايجابيات .. فإنه على كل الأحوال كان عملا دفاعيا فى أساسه ، من حق مصر بل من واجبها أن تقيمه ، لكى تدافع عن سمائها وأراضيها التى تعرضت لعدوان جوى إسرائيلى متصل وعنيف .. كان واجب قيادة مصر أن تستخدم كل الوسائل لكى تضع حدا لهذا العدوان .

ولو فرضنا جدلا أن النتيجة الوحيدة لحرب الاستنزاف ، كانت هى نجاح مصر فى انشاء هذا الجهاز المتكامل للدفاع الجوى ، لكفانا هذا كسبا عظيما ونصرا حقيقيا حققته مصر فى هذه المرحلة الحرجة من مراحل إعادة بناء قواتها المسلحة ومن مراحل صراعها المصيرى مع إسرائيل .

الفصل الثانى عشر

حصاد حرب الاستنزاف

التقييم السياسى :

كانت حرب الاستنزاف ـ من وجهة نظر القيادة المصرية ـ خطوة حيوية وضرورية ، فرضتها معطيات الموقف العسكرى والوضع السياسى ، الذى ترتب على هزيمة يونيه ١٩٦٧ ، فقد كان على مصر ألا تستسلم للأمر الواقع وأن تحتفظ بجبهة عسكرية مشتعلة ، لكى تبقى القضية حية وحتى لايتجمد الموقف السياسى عند هذا الحد ، وحتى لاتعتقد إسرائيل أن ماحدث وما حصلت عليه من إنتصارات سهلة لايمكن أبدا السكوت عليه أو قبوله وأنه أمر مرفوض تماما من مصر والعرب ، وأن عليهم أن يعبروا عن هذا الرفض بشتى الوسائل المتاحة وعلى رأسها العمل العسكرى باعتباره الأسلوب الوحيد الذى يمكن أن يخلق كل يوم حقائق متغيرة فى جبهة القتال .

من ناحية أخرى فقد كان ضروريا لمصر أن تثبت لإسرائيل بما لايدع مجالا للشك أن ثمن احتلال الأرض المصرية ، ثمن باهظ يصعب على إسرائيل أن تستمر فى تحمله أو مواجهة تحدياته على المدى الطويل ، وأخيرا كان على مصر أن تعمل بكل الوسائل على تحريك الأوضاع السياسية وإحياء الجهود الرامية إلى تحقيق تسوية عادلة أو على الأقل تفتح الطريق نحو هذه التسوية .

وقد أدركت القيادة المصرية كل هذه الحقائق منذ توقف القتال فى يونيه ١٩٦٧ ، ولكن كان من الصعب فى ظل الظروف التى أعقبت الحرب أن تتحول مصر إلى أعمال القتال النشطة بعد أن تؤمن دفاعها فى جبهة القناة وتعيد تنظيم قواتها بحيث تكون قادرة على تنفيذ المهام الدفاعية وعلى الأقل ـ بكفاءة عالية ـ وعندما أحست مصر بقدرتها على تحريك الأوضاع الساكنة فى جبهة القتال ، بدأت فورا تنفيذ مخطط الدفاع النشط ، واستغرق هذا الإعداد فترة خمسة عشر شهرا قبل أن تعمل على تنشيط الجبهة فى سبتمبر ١٩٦٨ ، ورغم الظروف الصعبة التى كانت تمر بها القوات المسلحة فلم تخلُ هذه المرحلة من بعض العمليات العسكرية التى

شكّلت علامات بارزة على طريق التحدى الصعب .. ومن هذه الأعمال معركة رأس العش التى جرت بعد ثلاثة أسابيع فقط من وقف إطلاق النار ، وبعد اسبوعين من هذه المعركة الناجحة التى أوقفت الزحف الإسرائيلى شرق القناة تجاه مدينة بورفؤاد ، شنت القوات الجوية المصرية مجموعة من الهجمات الجوية الخاطفة ضد القوات الإسرائيلية على الضفة الشرقية للقناة .

وفى أكتوبر ١٩٦٧ نجحت قواتنا البحرية فى إغراق المدمرة الإسرائيلية « إيلات » أمام بورسعيد وأوقفت بذلك تحديا سافرا كانت تلجأ إليه إسرائيل بإرسال سفنها الحربية إلى داخل المياه الاقليمية المحيطة ببورسعيد .

كانت هذه هى السمات البارزة فى مرحلة النقاهة ورفع أنقاض الحرب .. وفى مارس ١٩٦٩ بدأت مصر أخطر مراحل الفترة الواقعة بين حربى ١٩٦٧ ، ١٩٧٣ .. وهى مرحلة حرب الاستنزاف والتى استمرت حوالى عام ونصف عام ، إلى أن توقفت فى ٧ أغسطس ١٩٧٠ بقبول الطرفين للمبادرة الأمريكية التى عرفت « بمبادرة روجرز » .

كان الهدف العسكرى لحرب الاستنزاف هو فرض الإزعاج الشديد على القوات الإسرائيلية الموجودة شرق القناة ومنعها من إقامة دفاعات محصنة على الضفة الشرقية ، وإنزال أكبر قدر من الخسائر فى الأفراد والأسلحة والمعدات ، على أن تنفذ هذه الأهداف العسكرية ضمن إطار سياسى يعمل على استخدام كل القوى المتاحة سياسيا ودبلوماسيا فى فرض الضغوط الكافية لتحريك القضية السياسية .

★ ★ ★

أما البعد السياسى للموقف فلم يتحقق سوى بعد مرور خمسة عشر شهرا على بداية حرب الاستنزاف وبعد تطورات عسكرية عديدة وواسعة النطاق .. وذلك عندما وجدت الولايات المتحدة نفسها مضطرة تحت ضغط ظروف الموقف العسكرى الإسرائيلى وظروف الموقف السياسى والاستراتيجى فى ضوء علاقات القوى الكبرى المتصارعة فى المنطقة .. إلى التقدم بمبادرة لوقف إطلاق النار .. دون أى شروط .. ولأول مرة تسرع إسرائيل فى قبول وقف إطلاق النار ، بعد أن ظلت ترفض كل عروض السلام ، وطلبات وقف إطلاق النار السابق عرضها من خلال جهود دبلوماسية كثيفة ومتنوعة استمرت تتعثر منذ نوفمبر ١٩٦٧ عند صدور قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ .. وحتى أغسطس ١٩٧٠ عندما قبلت إسرائيل وقف إطلاق النار ، وطوال هذه الفترة التى اقتربت من ثلاث السنوات لم تتوقف عن وضع العراقيل فى طريق تنفيذ قرار المجلس ، متذرعة بحجج مختلفة حول الغموض الذى يشوب بعض فقرات القرار . ونتيجة لهذا التعنت الإسرائيلى المستمر فشلت كل جهود السفير جونار يارينج ممثل السكرتير العام للأمم المتحدة ، من أجل وضع القرار موضع التنفيذ .. كما رفضت إسرائيل كل النداءات والقرارات الأخرى التى

أصدرتها الجمعية العامة للأمم المتحدة بشأن تنشيط مهمة يارينج وتنفيذ قرار مجلس الأمن ٢٤٢ .

وفى أبريل ١٩٦٩ توقفت المباحثات الرباعية بين القوى الكبرى وكذلك المباحثات الثنائية التى جرت بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى ووافقت عليها مصر وبذلت الجهود لانجاحها بينما رفضتها إسرائيل ، وهكذا ظلت حرب الاستنزاف مشتعلة فترة طويلة .. يتسع نطاقها وتتصاعد أحداثها قبل أن تصل إلى نقطة التحول ، حين نجحت مصر فى تحقيق الأثر السياسى لهذه الحرب بما فرضته من تغيرات استراتيجية وسياسية هامة فى منطقة الشرق الأوسط ، وقد بدأت هذه التغيرات تبرز وتتبلور بعد فترة تراوحت بين ١٠ ، ١٥ شهرا من بداية حرب الاستنزاف أى خلال النصف الأول من عام ١٩٧٠ .

فمع تصاعد التطورات العسكرية لحرب الاستنزاف ، إضطرت مصر للالتجاء بشكل حاسم إلى الاتحاد السوفييتى فى يناير ١٩٧٠ ، والذى وافق على تقديم الدعم العسكرى الذى طلبته مصر بما فى ذلك وجودا عسكريا سوفييتيا فى مصر يحدث لأول مرة .. وقد اعتبر هذا التطور الحاسم تطورا سياسيا فى المقام الأول جاء نتيجة لقرارات سياسية اتخذتها مصر وكذا الاتحاد السوفييتى .

فى ظل هذا التطور السياسى العسكرى الهام .. ومع اشتداد وطأة الحرب على إسرائيل وارتفاع خسائرها فى الأفراد والمعدات والطائرات ، جاء التطور السياسى التالى كنتيجة منطقية لتداعى الأحداث السياسية والعسكرية .. فى شكل تحرك دبلوماسى أمريكى مكثف هدفه الأساسى هو وقف احتمالات تزايد الوجود العسكرى السوفييتى فى مصر ، وذلك بمعالجة الأسباب التى أدت إليه ، من خلال فرض وقف إطلاق النار بين مصر وإسرائيل ، وحتى لايؤدى تفاقم الموقف إلى قلب موازين القوى العالمية فى منطقة الشرق الأوسط ، ليس على مستوى الصراع الاقليمى فحسب ، بل على مستوى الصراع العالمى بين القوى الكبرى كذلك .

وطرحت المبادرة الأمريكية فى يونيه ١٩٧٠ بهدف وقف حرب الاستنزاف والتزام مصر وإسرائيل بوقف إطلاق النار لفترة محدودة ، يتم خلالها الدخول مرة أخرى فى مفاوضات سلام جديدة عن طريق السفير يارينج من أجل تنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الصادر فى نوفمبر عام ١٩٦٧ ، ولاشك فى أن النجاح العسكرى لحرب الاستنزاف ضد إسرائيل ـ رغم ماتحملته مصر من خسائر ـ وما تركته هذه الحرب من آثار معنوية عميقة بين أفراد الشعب الإسرائيلى ، فضلا عن نزيف الخسائر المستمر فى أرواح وأسلحة ومعدات الجيش الإسرائيلى ، كل ذلك شكل دافعا قويا لتقديم مبادرة روجرز بطلب من إسرائيل ، وقبولها لهذه المبادرة التى قبلتها مصر وأوقفت النيران فعلا اعتبارا من يوم ٨ أغسطس ١٩٧٠ .

★★★

أما عن الاتحاد السوفييتى ، فليس ثمة شك فى أنه قد فعل الكثير ـ فى مرحلة مابعد يونيه ١٩٦٧ ـ من أجل إمداد مصر بالأسلحة والمعدات والطائرات فى ظل الظروف الحرجة التى واجهتها مصر فى ذلك الوقت .. وما انتهت إليه هذه الجهود بانشاء نظام كامل للدفاع الجوى عن سماء مصر .. ساهمت فيه قوات سوفييتية فى مرحلة من مراحله .

ورغم هذه الجهود فهناك سمة بارزة إتسمت بها سياسة السوفييت تجاه تسليح مصر ، فقد كان حريصا طوال هذه السنوات وبعدها على وضع قيود محددة تخضع لها نوعيات الأسلحة والمعدات والطائرات التى يزود بها مصر .. وطبقا لهذه القيود لم يقدم الاتحاد السوفييتى لمصر كل ماطلبته من أسلحة ، ولكنه قدم لها القدر والنوع الذى يراه كحد أدنى لازما لها لكى تؤمن قدرتها فى الدفاع عن نفسها فحسب ، ولقد أدركت القيادة المصرية أن الاتحاد السوفييتى ليس على استعداد لفرض حل عسكرى على إسرائيل تجبرها فيه مصر على الانسحاب بالقوة من الأراضى التى احتلتها منذ عام ١٩٦٧ ، أو حتى تحت التهديد باستخدام القوة .

كانت تلك هى السمة الأساسية فى سياسة الاتحاد السوفييتى تجاه أزمة الشرق الأوسط .. وهى سياسة مستمدة من استراتيجيته العالمية ، ولذلك فقد راعى دائما أن تحتفظ مصر بقدرتها على الصمود والدفاع وألا تتعرض لهزات عسكرية من نوع ماحدث فى عام ١٩٦٧ .. وقد أخضع ذلك لإطار محدد ، بحيث لاتتجاوز قدرتها حدا يسمح لها بالتفوق الهجومى على إسرائيل ، حتى لايشجعها ذلك على القيام بأى عمل عسكرى واسع النطاق عبر قناة السويس .. حتى ولو كان هذا العمل عملا مشروعا هدفه إسترداد الأرض المغتصبة التى احتلتها إسرائيل بقوة السلاح .

* * *

ونتيجة لهذه السياسة السوفييتية التى استمرت طوال عهد الرئيس جمال عبدالناصر ، وإزدادت وضوحا وتشددا فى عهد الرئيس أنور السادات ، واجهت مصر مصاعب عديدة وتعقيدات ضخمة فى الحصول على ماتريده من الاتحاد السوفييتى لمواجهة التزاماتها وواجبها القومى الذى يفرض عليها العمل على استرداد أرضها بكل الوسائل .

وكثيرا ما أتبع الاتحاد السوفييتى أساليب التسويف والتباطؤ الشديد فضلا عن الرفض ، فى تسليم مصر ماتطلبه من أنواع الطائرات الحربية الحديثة .. خاصة القاذفات المقاتلة بعيدة المدى القادرة على تهديد الأراضى الإسرائيلية .. وهى مقدرة عسكرية حيوية كانت تمتلكها إسرائيل بما لديها من طائرات أمريكية حديثة من طراز فانتوم وسكاى هوك بينما حرمت مصر تماما من هذه الميزة الاستراتيجية الحيوية نتيجة لسياسة الاتحاد السوفييتى .. بل أن الاتحاد السوفييتى قد أصر على ألا يمنح مصر سوى قدر محدود من

صواريخ الدفاع الجوى سام ٦ الذاتية الحركة (محملة على جسم دبابة) ورغم كونها سلاحا دفاعيا فإنها تمثل عصب الدفاع الجوى عن القوات البرية المهاجمة عند تحركها فى عمق أراضى العدو ، خاصة القوات المدرعة التى تتحرك بعيدا عن شبكة الدفاع الجوى الثابتة الموجودة فى منطقة قناة السويس .

كان ذلك هو الموقف الذى أصر عليه الاتحاد السوفييتى تجاه مصر ، بينما كانت أحدث وأخطر الأسلحة والطائرات والمعدات الالكترونية الأمريكية تتدفق على إسرائيل ، الأمر الذى أتاح لها فرصة التفوق على الجيوش العربية وأدى إلى تكريس احتلالها للأراضى العربية منذ يونيه ١٩٦٧ .. لقد كان هذا الموقف السوفييتى واضحا للقيادة المصرية أثناء آخر زيارة قام بها الرئيس عبدالناصر للاتحاد السوفييتى فى يونيه ١٩٧٠ .. حيث اقتنع عبدالناصر أن الاتحاد السوفييتى ليس لديه الرغبة أو الاستعداد لفرض حل عسكرى على إسرائيل المعتدية ، يرغمها على الانسحاب من الأراضى العربية المحتلة ، وكان معنى ذلك أن يستمر هذا الوضع ـ من الناحية العملية ـ طالما استمر السلاح الأمريكى يتدفق على إسرائيل ، ويحقق لها التفوق الكبير على الجيوش العربية ، بينما يفتقر العرب إلى الدعم المناسب للقدرات الهجومية .. وعدم اكتفائها بدعم قدرتها الدفاعية فحسب .. دون التزود بما يلزمها لإعداد قواتها إعدادا حقيقيا لحرب هجومية من أجل تحرير الأرض المحتلة .

كان هذا هو الوضع السياسى العسكرى الذى دعا مصر إلى قبول مبادرة روجرز ـ رغم الرفض السوفييتى لها ـ فى محاولة لتحييد دور الولايات المتحدة فى الصراع الدائر بين العرب وإسرائيل ، أو على الأقل الحد من دورها فى تسليح إسرائيل ووقف سباق التسلح فى الشرق الأوسط تمهيدا للتوصل إلى تسوية سلمية عادلة تنهى الصراع القائم .

★★★

إننا إذا استعرضنا النتائج السياسية التى انتهت إليها حرب الاستنزاف ، فسوف نجد أن أهمها شأنا وأبعدها أثرا هو قبول كل من مصر وإسرائيل للمبادرة الأمريكية الخاصة بوقف إطلاق النار .

بالنسبة لمصر كان لقبول المبادرة آثاره البعيدة على علاقات مصر الخارجية فى ثلاثة اتجاهات ترتبط ارتباطا وثيقا فى ذلك الوقت .. وهى سياسة مصر الخارجية تجاه كل من الاتحاد السوفييتى .. والولايات المتحدة .. والدول العربية .

فالاتحاد السوفييتى لم يكن راضيا عن المبادرة الأمريكية بطبيعة الحال ، وقد عبر زعماؤه وعلى رأسهم ليونيد بريجنيف عن اعتراضهم الشديد عليها ، وحذروا مصر من قبولها .. خشية أن يؤدى ذلك إلى تزايد النفوذ الأمريكى فى الشرق الأوسط على حساب النفوذ السوفييتى بعد أن بلغ هذا النفوذ ذروته فى هذه الفترة .. وقد انعكس هذا الموقف على سياسة الاتحاد السوفييتى تجاه مصر ،

وأصبحت طلبات مصر من الأسلحة معرضة منذ ذلك الوقت لمزيد من التسويف والمماطلة وعدم الاستجابة .

أما على الجانب العربى فقد أحدث قبول مصر لمبادرة روجرز تصدعا خطيرا فى العلاقات المصرية العربية ، حيث انبرت معظم الأنظمة العربية - سواء بسبب حماس أعمى متجرد من البصيرة أو لأسباب ذاتية أخرى - تهاجم مصر هجوما عنيفا على قبولها للمبادرة الأمريكية ، وأعلنت معظم النظم العربية رفضها للمبادرة الأمريكية عدا ثلاث دول هى ليبيا والسودان والأردن . وتفاوتت نسب التطرف بين الدول العربية الرافضة .. وكانت سوريا والعراق والجزائر واليمن الجنوبية ومنظمة التحرير الفلسطينية أكثرها تطرفا ، فاعتبروا قبول المبادرة تخليا من مصر عن دورها القومى ! .

ويلاحظ أن هذه الدول العربية على علاقة وثيقة مع الاتحاد السوفييتى ، ولم تحاول أن تقدر موقف مصر تقديرا واقعيا مخلصا .. يعتمد على الملابسات الحقيقية للموقف العسكرى على جبهة القناة ، وكذا الموقف الاستراتيجى المترتب على الاختلاف البين فى وسائل الدعم العسكرى الذى تتلقاه مصر من الاتحاد السوفييتى وذلك الذى تتلقاه إسرائيل من الولايات المتحدة . كما أنها لم تقدّر مدى حاجة مصر لفترة ضرورية من الهدوء ، حتى يمكنها استكمال بناء قواتها المسلحة وإعدادها وتدريبها على المهام الهجومية تمهيدا لشن الهجوم الشامل بهدف استرداد الأرض المحتلة .

وكما كان شن حرب الاستنزاف ضرورة قومية إرتأتها قيادة مصر دون أن يطالبها أحد بذلك .. فإن توقفها فى مرحلة معينة كان ضروريا وبنفس الدرجة .. فبدون هذا التوقف كان من الصعب أن تتفرغ القيادات العسكرية والتشكيلات والوحدات المصرية لمرحلة الإعداد لحرب أكتوبر ، وتوفير الوقت لاستيعاب دروس حرب الاستنزاف وتعميم خبراتها المكتسبة وتكريس الجهد لمواجهة أعباء الإعداد والتدريب والتخطيط وتطوير أساليب الأداء القتالى بما يتفق مع الخبرات المكتسبة ، وبما يحقق أفضل مردود مادى ومعنوى يمكن أن يعطيه المقاتل المصرى وأقصى المهارات اللازمة لاستغلال كل الطاقات المتاحة لدى الفرد والسلاح .

ولذلك فإن هؤلاء الذين انتقدوا بشدة موقف مصر ، عندما قبلت مبادرة روجرز ، كانوا على خطأ واضح .. عندما طالبوا مصر أن تستمر وحدها فى القتال رغم أن ذلك لم يكن يحقق أى مصلحة قومية .

من ناحية أخرى ، فإن سياسة الاتحاد السوفييتى المقيدة تجاه تسليح مصر ، كان أمرا خطيرا يحتاج إلى وقفة سياسية مع الصديق .. خاصة فى مواجهة استراتيجية إسرائيلية توسعية تكشفت أبعادها خلال صراع طويل .. إن مثل هذه الأوضاع المختلة .. كانت بحاجة إلى مراجعات جذرية على مستوى القيادة المصرية .

التقييم العسكرى :

ليس ثمة شك فى أن حرب الاستنزاف بكل متاعبها وآلامها ، كانت بمثابة مرحلة المخاض التى واكبت المولد الجديد للقوات المسلحة المصرية .. تلك المرحلة التى خلقت هذا المستوى الرفيع من الأداء المتقن والبطولى الذى ظهر به المقاتل المصرى فى أكتوبر ١٩٧٣ .. عندما بدأت حرب التحرير . لقد كانت حرب الاستنزاف هى البوتقة التى صهرت المقاتل المصرى وصقلت خبراته وعالجت جروحه النفسية والمعنوية العميقة التى تركتها فيه هزيمة حرب يونيه ١٩٦٧ . وهى رغم ضراوتها ورغم كل الأضرار المادية التى حاقت بمصر فى المجالين العسكرى والاقتصادى فإن نتائجها الايجابية كانت عظيمة الفائدة بعيدة الأثر فى التمهيد للنجاح الذى تحقق فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ .. خاصة فيما يتعلق بالجوانب التالية :

أولا : الجانب المعنوى :

بعثت حرب الاستنزاف الثقة فى نفس الجندى المصرى وفى سلاحه وفى قياداته ، وفى قدرته على مواجهة عدوه وقتاله وقتله وأسره .. وكانت هذه المواجهة المباشرة بين المقاتل المصرى وعدوه ـ والتى حدثت لأول مرة فى حرب الاستنزاف ـ أمرا ضروريا بل وحتميا لكى يتعرف المقاتل المصرى على حقيقة عدوه وأسلوب قتاله .. ولكى يتأكد بنفسه من زيف الأساطير التى أطلقتها إسرائيل حول مقاتلها الذى لايقهر .. بعد أن واجهه وقهره .. بمثل هذه المواجهات اليومية التى استمرت شهورا طويلة ، أمكن صقل المقاتل المصرى وتطوير قدراته القتالية ، وتنمية الروح الهجومية لديه ودعم معنوياته .. كل هذه الأمور انعكست ايجابيا على أدائه القتالى عندما اشتعل القتال فى أكتوبر ١٩٧٣ ، وواجهت إسرائيل نوعية مختلفة من المقاتلين .. حتى أن القيادة الإسرائيلية صدمت بالمستوى الرفيع للأداء القتالى للجندى المصرى واعتبرته المفاجأة الكبرى لهذه الحرب .. وأعلنت أن الجيش الإسرائيلى قد واجه لأول مرة مقاتلا مصريا شرسا وعنيدا ، يستخدم سلاحه بكفاءة وثقة ويقابل الموت بشجاعة نادرة .

ثانيا : جانب الخبرة القتالية :

لاشك فى أن طبيعة الحياة التى واجهها الجندى المصرى فى جبهة القتال طوال سنوات الاستنزاف ، قد صقلت قدراته ونمت خبراته ، كما أن استمرار القتال والتراشق بالنيران وتبادل القصف المدفعى وعبور القناة ونصب الكمائن ومهاجمة المواقع الدفاعية .. ومواجهة الغارات الجوية المكثفة ، كل ذلك كان بمثابة تطعيم الجندى المصرى تطعيما واقعيا وعمليا للمعركة المقبلة ، وزاد من قدراته على تحمل مشاق القتال وأهوال الحرب ، فضلا عما اكتسبه من خبرات عالية فى فنون القتال نتيجة للممارسة العملية للأعمال العسكرية الايجابية .

ومن أبرز الخبرات التى اكتسبها الجندى المصرى ، قدرته على اقتحام القناة تحت ظروف صعبة ومفاجأة العدو ، وتدمير تحصيناته والتعامل مع كمائنه ، كل ذلك أدى إلى إرتفاع مستوى الأداء الميدانى للمقاتل المصرى من خلال مواجهته للعدو على الضفة الشرقية للقناة والاصطدام اليومى بعناصره .

★ ★ ★

من ناحية أخرى اكتسبت الوحدات المقاتلة المصرية خبرة العمل تحت نيران العدو البرية وغاراته الجوية الكثيفة ، رغم ثقل هذه الغارات والآثار المعنوية التى يمكن أن تترتب عليها ، هذا فضلا عن الخبرة فى مجال الدفاع وغيرها من الخبرات الميدانية الحيوية التى شكلت المهارات الأساسية للمقاتل الكفء .

ولاشك فى أن التشكيلات والوحدات المصرية التى كانت مرابطة فى جبهة قناة السويس طوال حرب الاستنزاف قد استفادت فوائد كبيرة من تصاعد حدّة العمليات الحربية والأعمال القتالية .. إذ تحول العمل الحقيقى إلى شبه تدريب يومى للقيادات والوحدات والأفراد .. خاصة عند القيام بعمليات الإغارة الفدائية عبر قناة السويس وعلى الشاطىء المقابل نهارا وليلا .. وقد وصل مستوى هذه الإغارات إلى قوة كتيبة مشاة أو صاعقة مدعمة بعناصر من المهندسين وعناصر أخرى .

ثالثا : جانب التسليح :

مامن شك فى أن حرب الاستنزاف قد أتاحت لمصر فرصة تحقيق الكثير فى مجال تطوير تسليح القوات المسلحة .. ففى ضوء التطورات العسكرية للحرب ، والتوسع فى استخدام نوعيات مختلفة من الأسلحة والمعدات .. بدأت مصر تتلقى أثناء الحرب أسلحة ومعدات سوفييتية متطورة لمواجهة ماكانت تتلقاه إسرائيل من أحدث أنواع الأسلحة والمعدات من الولايات المتحدة .

غير أن الإمدادات السوفييتية لمصر ، خاصة فى مجال الأسلحة الهجومية ، ظلت خاضعة لقيود حددها الاتحاد السوفييتى تتعلق بنوعية السلاح أو كميته .. وكثيرا مارفض الاتحاد السوفييتى تزويد مصر بأنواع معينة من الأسلحة الهجومية ، أو كان يزودها من أنواع أخرى ـ مع الحاح من جانب مصر ـ بكميات محدودة جدا لاتؤثر على موازين القوى العسكرية فى المنطقة بشكل أساسى ، ولا تضيف كثيرا إلى قدرات مصر الهجومية .

حتى فى مجال الدفاع الجوى .. رفض الاتحاد السوفييتى أن يمد مصر بما تريده من صواريخ الدفاع الجوى ذاتية الحركة من طراز سام ٦ سوى بكميات

محدودة ، كذلك كان الاتحاد السوفييتى يحتفظ فى مصر بسرب من طائرات الاستطلاع الحديثة من طراز ميج ٢٥ بالاضافة لسرب استطلاع اليكترونى ، وقد رفض السوفييت تسليم هذه الطائرات إلى القوات المسلحة المصرية عندما غادرت قواتهم مصر عام ١٩٧٢ .

من ناحية أخرى فإن استمرار حرب الاستنزاف وفشل إسرائيل فى وقفها ، مع إشتداد وطأتها عليها قد أجبرتها على استخدام معظم مافى جعبتها من أسلحة ومعدات حديثة .. بل ومافى الترسانة العسكرية الأمريكية ذاتها ، خاصة فى مجال القوات الجوية والحرب الالكترونية .. وقد أتاح هذا الأمر الفرصة لمصر أن تواجه نسبيا هذه الأسلحة المتطورة ، وأن تحصل من الاتحاد السوفييتى على بعض الأسلحة المناسبة لها .. مثل الطائرات ميج ٢١ المعدلة وذلك لمواجهة طائرات الفانتوم الأمريكية .. وكذا تزويدها بصواريخ الدفاع الجوى سام ٣ وبعض المعدات والأجهزة الحديثة الخاصة بالحرب الالكترونية ، وأعمال الاعاقة والتشويش على الأجهزة اللاسلكية وأجهزة الرادار المعادية .

وفى مجال التسليح فلاشك فى أن أهم ماحققته مصر نتيجة لحرب الاستنزاف .. هو نجاحها فى إقامة نظام متكامل للدفاع الجوى يحمى سماء مصر .. من خلال شبكة ضخمة من الصواريخ المضادة للطائرات .. الأمر الذى أدى إلى فقد القوات الجوية الإسرائيلية لتفوقها الجوى فوق جبهة القناة ، بعد أن تقلص هذا التفوق فى مرحلة سابقة عندما اضطرت إسرائيل إلى وقف غارات العمق .. الأمر الذى وضعها فى موقف دفاعى على الضفة الشرقية للقناة .. سواء ضد قصف المدفعية المصرية أو ضد الغارات الجوية التى كانت تشنها الطائرات المصرية من حين إلى آخر أو عبور القوات المصرية للقناة وتدمير الخطوط الدفاعية الإسرائيلية .

رابعا : الجانب الاستراتيجى :

لعبت حرب الاستنزاف دورا هاما فى تغيير الموازين الاستراتيجية العالمية التى كانت تحكم الصراع الدولى فى المنطقة ، وكذا الموازين الاقليمية التى كانت تحكم الصراع العربى الإسرائيلى .. فقد أدت تطورات حرب الاستنزاف المضادة التى حاولت إسرائيل فرضها على مصر بشن حربها الجوية الكثيفة ضد الأهداف العسكرية والمدنية المصرية .. إلى إلتجاء مصر للاتحاد السوفييتى ، لوضع حد لهذا العدوان الجوى المستمر والمتصاعد .. ومن المعروف أن الاتحاد السوفييتى قد وافق فى يناير ١٩٧٠ على إنشاء شبكة كاملة من الصواريخ المضادة للطائرات للدفاع الجوى عن مصر سواء فى عمق وادى النيل أو على جبهة القتال .

ولمواجهة ضيق الوقت وضغط الموقف فى هذه الفترة الحرجة ، وافق الاتحاد السوفييتى كذلك على إرسال وحدات كاملة من قوات الدفاع الجوى والقوات الجوية السوفييتية للعمل ـ بصفة مؤقتة ـ على حماية الأهداف الحيوية داخل عمق مصر

خاصة فى مناطق القاهرة والاسكندرية وأسوان ، إلى أن يتم تدريب الوحدات المصرية اللازمة للقيام بهذه المهام ، وليس هناك شك فى أن مثل هذا الوجود العسكرى السوفييتى المفاجىء داخل مصر ، رغم أنه وجود دفاعى مؤقت بعيد عن جبهة القتال عند قناة السويس ، إلا أنه قد سبب إزعاجا شديدا وقلقا عميقا للولايات المتحدة الأمريكية ، خشية أن يتحول هذا الوجود إلى وجود دائم ، أو أن يتسع نطاقه وينتشر داخل أو خارج مصر ، ولذلك فقد اعتبرته الولايات المتحدة ـ بمقاييس الصراع العالمى بين القوى الكبرى ـ تطورا هاما ، أحدث خللا استراتيجيا فى توازن القوى بمنطقة الشرق الأوسط ، وأصبح العمل على إزالة هذا الخلل الاستراتيجى ومحاصرة الوجود العسكرى السوفييتى الجديد .. هدفا حيويا فى الاستراتيجية العالمية للولايات المتحدة الخاصة بمنطقة الشرق الأوسط منذ أوائل عام ١٩٧٠ ، تعمل على تحقيقه بكل الوسائل المتاحة .

أما على المستوى الاقليمى ، فلا شك فى أن التطورات التى أدخلت على تسليح القوات المسلحة المصرية خاصة فى مجال الدفاع الجوى ، قد أدت إلى شل قوة الردع الاسرائيلية الأساسية وهى القوات الجوية ، وبالتالى إلى إحداث تغيير حاد فى موازين القوى العسكرية المحلية ، قلب الخطط الاسرائيلية رأسا على عقب . وقد تأكدت هذه الحقيقة فوق جبهة القتال عندما توالى سقوط الطائرات الاسرائيلية بفعل الصواريخ المصرية وبأعداد كبيرة لأول مرة خاصة خلال شهرى يونيه ويوليو ١٩٧٠ .

إن هذا التطور الخطير قد انعكس بالسلب على قدرات القوات الجوية الإسرائيلية ، وأكد فشل الاستراتيجية الإسرائيلية المرسومة والمدعمة بالإمدادات الأمريكية المتواصلة .. وأجبر إسرائيل على إعادة النظر فى استراتيجيتها وإدخال تعديلات جذرية عديدة عليها خلال فترة حرب الاستنزاف تكررت أربع مرات ، منها ثلاثة تعديلات جرت خلال الأشهر الست الأخيرة قبل وقف إطلاق النار .

من ناحية أخرى فإن نجاح مصر فى إقامة شبكة قواعد الصواريخ المضادة للطائرات ونشرها بحيث غطت عمق الأراضى المصرية ، وجبهة القتال فى قناة السويس .. كان دليلا قاطعا أن الجهد الإسرائيلى المكثف ، المتواصل والعنيف الموجه ضد أراضى مصر سواء فى وادى النيل أو فى منطقتى قناة السويس وخليج السويس ، قد فشل فى تحقيق المهمة الاستراتيجية العاجلة للاستنزاف المضاد ، وهى منع إقامة قواعد الصواريخ فى منطقة قناة السويس ، وكذا فشلت المهمة الأساسية الخاصة بإجبار مصر على وقف حرب الاستنزاف ذاتها .

كذلك فإن التصدى المعنوى الذى مارسه شعب مصر فى مواجهة التحديات المادية والضغوط النفسية وتحمل الخسائر الكبيرة فى أرواح العسكريين والمدنيين .. كان فى حد ذاته ، عاملا من العوامل الاستراتيجية الحاسمة والمؤثرة على الصراع المحتدم ، بل كان فى التحليل الأخير هو الفيصل الذى جعل النجاح ـ فى النهاية ـ فى جانب مصر .

ولعل من أهم الدروس ذات الوزن الاستراتيجى الكبير ، والتى برزت أثناء حرب الاستنزاف ، هو التأكيد على الأهمية الكبيرة لدراسة العدو المقابل ، والكشف عن استراتيجيته وأساليب التخطيط ، وسبر غور النظريات الأساسية للأمن القومى الإسرائيلى وجذورها العقائدية وأصولها الصهيونية .. ومدى تأثير ذلك كله على أبعادها ومكوناتها وأركانها .. وتعتبر تلك النتيجة من أهم النتائج الاستراتيجية لحرب الاستنزاف ، فقد اهتمت القيادة المصرية ، ربما لأول مرة منذ قيام إسرائيل ، إهتماما كاملا بدراسة عدوها دراسة عميقة متأنية متشعبة ، شملت كل جوانب الحياة فى المجتمع الإسرائيلى .. كذلك دراسة فكر قادة إسرائيل وزعمائها السياسيين واتجاهاتهم الصهيونية فى مجال السياسة والأمن ، وقد أمكن خلال فترة حرب الاستنزاف التعرف على الأبعاد الحقيقية للمخططات الإسرائيلية والنوايا والأساليب المتوقعة وردود الفعل المنتظرة ، ففى هذه المرحلة الهامة اتضحت المفاهيم الإسرائيلية لمصطلحات عديدة مثل « الردع » و« الحدود الآمنة » و« الذراع الطويلة » و« الضربة الوقائية المسبقة » ، وغيرها من المفاهيم التى كان لدراستها التفصيلية واستيعابها الأثر الكبير فى فكر المخططين العسكريين المصريين .

وقد أتاحت لهم هذه الدراسات ، فرصة طيبة للبحث عن الوسائل المناسبة لمواجهة استراتيجية إسرائيل ، والتخطيط الدقيق من أجل هدم أركان نظرية الأمن الإسرائيلية وتحديد الوسائل والحلول لإهدار قيمتها وتحطيم الأسس التى قامت عليها .

وقد اتخذ المخطط العسكرى المصرى هذه الدراسات كأساس هام بنيت عليه خطة عمليات حرب أكتوبر ١٩٧٣ .. إن الدراسة التى تمت لنظرية الأمن الإسرائيلى ، وتفنيدها وتحليل نقط القوة ونقط الضعف فيها ، كانت هى حجر الزاوية لخطة عمليات حرب أكتوبر .

إن التخطيط السليم ، يجب أن يقوم أولا على دراسات تفصيلية دقيقة لفكر الطرف المعادى واستراتيجيته وأساليبه .. والعمل على إحباط هذه العناصر أو إضعاف قوتها .

وفى الحقيقة كخلاصة للقول ، فإن توقف القتال فى ٨ أغسطس ١٩٧٠ ، لم يكن يعنى توقف عجلة الحرب .. ولكنه فى واقع الأمر كان بداية لمرحلة ضرورية جديدة دخلتها مصر منذ هذا التاريخ .. مرحلة مليئة بالحيوية والنشاط والعمل .. رغم مابدا على السطح من هدوء ، خدع القيادة الإسرائيلية ، وكل أجهزة المخابرات الغربية والإسرائيلية ، وجعلتها تعتقد وتعلن أن مصر وقواتها المسلحة قد تحولت إلى « جثة هامدة » .. بينما فى الواقع كانت زاخرة بالنشاط الكثيف والعمل الصامت الدءوب .. تستعد لمعركة التحرير الكبرى ..

« تم الجزء الأول بحمد الله »

فهـــرس

صفحة

تقديم ٥

الفصل الأول : الجذور والمقدمات ٩

الفصل الثاني : عدوان ١٩٥٦ وأثره على حرب ١٩٦٧ .... ٣٠

الفصل الثالث : أحداث ما بين الحربين (١٩٥٦ ـ ١٩٦٧) ٤٧

الفصل الرابع : الطريق الى الحرب ٧١

الفصل الخامس : الموقف على جانبى الجبهة ٩٢

الفصل السادس : الحرب ١١٤

الفصل السابع : مابعد الهزيمة ١٣٧

الفصل الثامن : استراتيجية الصراع الطويل الأمد ١٦١

الفصل التاسع : الاستنزاف والاستنزاف المضاد ١٨١

الفصل العاشر : نقطة التحول ٢٠٣

الفصل الحادى عشر : الصراع يشتد واسرائيل تتراجع ٢١٧

الفصل الثانى عشر : حصاد حرب الاستنزاف ٢٣١

رقم الايداع ٥٢٤٧ ـ ١٩٨٨
الترقيم الدولى × ـ ٣٧٧ ـ ١١٨ ـ ٩٧٧ ISBN

الطباعة : مؤسسة دار الهلال ـ القاهرة

● طه محمد المجدوب ●

■ تخرج فى الكلية الحربية عام ١٩٤٨ وخدم بسلاح المدرعات . شارك فى حروب ٤٨ ، ٥٦ ، ٦٧ ، ١٩٧٣ . وكان رئيسا للتخطيط فى هيئة العمليات بالقيادة العامة قبل وأثناء حرب اكتوبر ٧٣ (٧٢ - ١٩٧٤)

■ خريج كلية أركان الحرب دفعة ١٩٥٦ ، وحاصل على الزمالة من كلية الحرب بالأكاديمية العسكرية العليا عام ١٩٧٢ . ورُقى لرتبة اللواء عام ١٩٧٤

■ شارك فى جميع المباحثات العسكرية (٧٣ - ١٩٧٩) . رأس وفد مصر العسكرى فى مباحثات جنيف لفض الاشتباك الأول ١٩٧٤/٧٣ وفض الاشتباك الثانى ١٩٧٥ ثم فى مباحثات معاهدة السلام بواشنطن (٧٨ - ١٩٧٩)

■ عين سفيرا بوزارة الخارجية عام ١٩٧٩ وتولى الاشراف على تنفيذ معاهدة السلام (٧٩ - ١٩٨٠) ثم عمل سفيرا لمصر فى وارسو (٨٠ - ١٩٨٤) ومساعدا لوزير الخارجية (٨٤ - ١٩٨٦) .

■ قام بتأسيس الوحدة العسكرية عند إنشاء مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام عام ١٩٦٩ . وله مؤلف من مجلدين عن « العسكرية الصهيونية »

■ شارك فى كتابة تاريخ مصر العسكرى : حرب العدوان الثلاثى ١٩٥٦ ، حرب يونية ١٩٦٧ ، حرب اكتوبر ١٩٧٣ (كتاب حرب رمضان) .

٤ جنيهات

To: www.al-mostafa.com